المبادئ العشرة

تأليف

برهان الدين القاضي

المبادئ العشرة

تأليف
برهان الدين القاضي

النسخة الذهبيّة

(الإصدار الثالث)

(إصدار مخصّص للتصويبات الطباعيّة)

٢١ / ٩ / ١٤٤٣هـ = ٣ / ٥ / ٢٠٢١م

المكتبة الإسلاميّة

دار السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

* ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾(١).

* ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

* ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٣).

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾(٤).

* ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾(٥).

---

(١) الأنعام: ١٩.

(٢) يونس: ٤١.

(٣) الشعراء: ٢١٦.

(٤) هود: ٣٥.

(٥) هود: ٥٤.

* ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(١).

* ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾(٢).

* ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾(٣).

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾(٤).

* ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٥).

---

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) التوبة: ١١٤.

(٣) الزخرف: ٢٦.

(٤) الأحزاب: ٦٩.

(٥) المائدة: ١١٦-١١٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الناظر - في أحوال الناس - يجد التخالُف بينهم فاشيًا، ويجد التوافُق بينهم نادرًا، فيشيع بينهم التباغُض، والتشاتُم، والتلاعُن، والتدابُر، والتعادي، والتضارُب، والتقاتُل؛ ويندر بينهم التعاطُف، والتلاطُف، والتراحُم، والتعاوُن، والتآخي، والتعايُش، والتسالُم.

وللتخالف سبب رئيس، هو مخالفة الحقّ، ولهذه المخالفة صورتان:

١- أن يكون المتخالفان كلاهما مخالفين للحقّ، كرجلين يتضاربان على مال غيرهما؛ ليسرقاه، فهما مخالفان للحقّ، ومتخالفان.

٢- أن يكون أحد المتخالفين مخالفًا للحقّ، ويكون الآخر موافقًا للحقّ، كرجلين يتضاربان على مالٍ، أحدهما صاحب المال، والثاني لصّ يُريد سرقته، فصاحب المال موافق للحقّ، واللصّ المعتدي مخالف للحقّ.

فمخالفة الحقّ هي السبب الأكبر، في كلّ صور التخالف، ولو أنّ كلّ الناس عملوا بمقتضى الحقّ - في كلّ خطوة من خطواتهم - لما تخالفوا أبدًا.

ولكنّ مخالفة أكثر الناس للحقّ - في كثير من أحوالهم وأحيانهم - أمر واقع، لا يُمكن إنكاره. وإنّما تكون المخالفة؛ لثلاثة أسباب رئيسة، هي:

١- الجهل: هو الخلل في صفة العلم، والناس ليسوا سواء في العلم، فمنهم العالم، ومنهم المتعلّم، ومنهم الجاهل.

والعلم والجهل أمران نِسبيّان، فقد تعلم ما يجهله غيرك، وقد تجهل

ما يعلمه غيرك، وقد تعلم اليوم ما كنت تجهله أمس، وقد تجهل اليوم ما كنت تعلمه أمس.

والنسيان والسهو والغفلة أمور لا يكاد يخلو منها إنسان، وهي أبرز صور الجهل العارض؛ فإن خلا منها أحدنا يومًا، أُصيب بها، أو ببعضها، في يوم آخر، وإن خلا منها ساعة، أُصيب بها، أو ببعضها، في ساعة أخرى، وإن خلا منها إنسان، أُصيب بها غيره.

والجهل على درجات، كما أنّ العلم على درجات، والناس متفاوتون في درجات العلم، ودرجات الجهل، ولكنّهم مشتركون عمومًا في الاتّصاف ببعض الجهل، وببعض العلم.

والجهل سبب رئيس، من أسباب مخالفة الحقّ؛ فإنّ من يجهل الحقّ، سيخالفه، غالبًا، كرجل أخذ مال غيره، وهو يحسبه ماله؛ وكامرأة أخذت طفل غيرها، وهي تحسبه طفلها؛ وكقاضٍ يجهل براءة البريء، فيحكم عليه بالإدانة، أو يجهل إجرام المجرم، فيحكم عليه بالبراءة.

ولك أن تتصوّر ما يُمكن أن يفعله جهل المجنون، وجهل الأحمق، وجهل الطفل، وجهل السكران، وجهل النعسان، وجهل الناسي، وجهل الساهي، وجهل الغافل، وجهل غير المتعلّم، وجهل العالم والمتعلّم، حين يجهلان بعض ما يعلمه غيرهما من الحقّ.

٢- الهوى: هو الخلل في صفة الرغبة، والناس ليسوا سواء في الرغبة، فمنهم من يرغب في فعل الخير، ومنهم من يرغب في فعل الشرّ، ومنهم من يميل إلى الحقّ، ومنهم من يميل إلى الباطل، ومنهم المذبذب بينهما.

والرغبة الحسنة، والرغبة السيّئة أمران نِسبيّان، فقد ترغب اليوم في فعل الخير، وترغب غدًا في فعل الشرّ. وقد يميل قلبك اليوم نحو الحقّ، ويميل غدًا نحو

الباطل؛ وقد تكون - في غالب أحوالك وأحيانك - راغبًا في الحقّ، والخير، والمعروف؛ وقد تكون - في الغالب - راغبًا في الشرّ، والباطل، والمنكر.

والهوى سبب رئيس، من أسباب مخالفة الحقّ؛ فإنّ من يميل قلبه عن العمل بالحقّ، إلى العمل بالباطل، سيخالف الحقّ، في عمله، غالبًا.

وللهوى عدّة درجات، أبرزها:

أ- الهوى العارض: وهو هوى لا يكاد يخلو منه إنسان، ولكنّ صاحبه لا يلبث أن يعود برغبته إلى الحقّ.

ب- الهوى الغالب: وهو هوى تغلّب على صاحبه، فخضع له في معظم أحواله وأحيانه، ولكنّه - في أحيان قليلة - يعود برغبته إلى الحقّ، فيندم على اتّباعه هواه، ثمّ لا يلبث أن يعود برغبته إلى الباطل.

ج- الهوى الدائم: وهو هوى استفحل، واستحكم، فاستحوذ على صاحبه، حتّى صدّه عن الموعظة والنصيحة، وهذه حال من أدمن على الشرّ والباطل، فاستحبّهما على الخير والحقّ، فأعرض عن كلّ ناصح.

د- الهوى الطاغي: وهو هوى الطغاة والبغاة، الذين لا يكتفون بما هم عليه من اتّباع الهوى، بل يسعون إلى إفساد من سواهم من الناس، وصدّهم عن نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، ويعادون أهل الحقّ والخير، ويحاربونهم؛ للقضاء عليهم؛ ليكون لهم السلطان في الأرض.

٣- الضعف: هو الخلل في صفة القدرة، والناس ليسوا سواء في القدرة، فمنهم القويّ، ومنهم الضعيف، ومنهم المريض، ومنهم العاجز.

والقدرة والضعف أمران نِسبيّان، فقد تقدر على ما يضعف عنه غيرك، وقد تضعف عمّا يقدر عليه غيرك، وقد تقدر اليوم على ما كنت تضعف عنه

أمس، وقد تضعف اليوم عمّا كنت تقدر عليه أمس.

والمرض والتعب والجوع والعطش أمور لا يكاد يخلو منها إنسان، وهي أبرز صور الضعف العارض؛ فإن خلا منها أحدنا يومًا، أُصيب بها، أو ببعضها، في يوم آخر، وإن خلا منها ساعة، أُصيب بها، أو ببعضها، في ساعة أخرى، وإن خلا منها إنسان، أُصيب بها غيره.

والضعف على درجات، كما أنّ القدرة على درجات، والناس متفاوتون في درجات القدرة، ودرجات الضعف، ولكنّهم مشتركون - عمومًا - في الاتّصاف ببعض القدرة، وببعض الضعف.

والضعف سبب رئيس، من أسباب مخالفة الحقّ؛ فإنّ من يضعف عن العمل بالحقّ، سيخالفه، غالبًا.

وللضعف عدّة صور، أبرزها:

أ- **الضعف البدنيّ**، كضعف الطفل، والهرِم، والمريض، والتعبان.

ب- **الضعف الماليّ**، كضعف الفقير، والمسكين، والمدين.

ج- **الضعف الآليّ**، كضعف الأعزل، في مواجهة المسلَّح.

د- **الضعف العدديّ**، كضعف الواحد، في مواجهة الجمع.

هـ- **الضعف القسريّ**، كضعف السجين، والأسير، والكسير، والجريح.

و- **الضعف النوعيّ**، كضعف المرأة، في مواجهة الرجل.

ز- **الضعف الاجتماعيّ**، كضعف العبد، واللقيط، والطريد.

ح- **الضعف النفسيّ (الخوف)**: وينشأ بسبب صورة، أو أكثر، من صور الضعف المذكورة آنفًا، كخوف الرجل الأعزل، من مواجهة الرجال المسلَّحين، فربّما حمله خوفه على مطاوعتهم، في الباطل، وإن كان كارهًا.

فإذا كانت مُخالفة الحقّ هي السبب الأكبر، في التخالُف بين الناس؛ فإنّ من الواجب - لحصول التوافق بينهم - اجتماع ثلاثة أسباب رئيسة، هي:

(العلم الصحيح، والقدرة الكافية، والرغبة الحسنة).

ولتحقيق العلم الصحيح يجب أوّلًا معرفة المعيار الذي يُمكن به تحديد الحقّ؛ فإنّ المتخالفين - في المناهج - يزعم كلّ واحد منهم أنّه صاحب الحقّ، دون من سواه، ويرمي مخالفيه باتّباع الباطل.

ولتحديد الحقّ عمومًا منهجان:

١- منهج دينيّ: يرى أصحابه أنّ تحديد الحقّ إنّما يكون بالاعتماد على الأحكام الدينيّة؛ لأنّ مصدر الأحكام الدينيّة - عندهم - معصوم من أسباب مخالفة الحقّ الثلاثة: الجهل، والضعف، والهوى.

٢- منهج عقليّ: يرى أصحابه أنّ تحديد الحقّ إنّما يكون بالاعتماد على الأحكام العقليّة؛ لأنّ عقل الإنسان - عندهم - يستطيع تحديد الحقّ، بعيدًا عن ادّعاءات أهل الأديان، واختلافاتهم.

ومن هنا وجدنا أنّ المتخالفين - في كلّ زمان، وفي كلّ مكان - يتخالفون في الظاهر، في تحديد الحقّ، سواء أكان بعضهم يعلم الحقّ، فيتّبعه، أو يعلم الحقّ، ولكنّه يخالفه؛ أم كان يجهل الحقّ، فيخالفه.

والإسلام - عند المسلمين - هو المعيار الوحيد؛ لتحديد الحقّ. وقد جاء؛ لإخراج الناس من ظلمات الشرّ والباطل، إلى نور الخير والحقّ.

وكان من آثار ظهور رسالة خاتم النبيّين أن ظهرت مطاعن في هذا الدين، منذ اليوم الأوّل للدعوة العلنيّة، وما زالت المطاعن قائمة، إلى يومنا هذا،

يقودها بعض الدينيّين، وبعض اللادينيّين، نيابة عمّن سواهم.

ولذلك كانت الحاجة كبيرة، إلى إثبات (براءة الإسلام)، من مطاعن الطاعنين؛ لهدم الحواجز، التي يصدّون بها الناس، عن ذلك المعيار الدقيق.

إنّ (براءة الإسلام) - من الأخطاء، والأهواء، والأوهام، والظنون، والريوب، والنقوص، والعيوب، والتناقض، والتعارض، والاختلاف، والاختلاق، والأكاذيب، والأباطيل، والخرافات، والأساطير، والشبهات، والمطاعن - (حقيقة كبيرة)، يهجرها كثير من الناس، فلا يعملون بمقتضاها، فيطعنون في (الإسلام)، بعقولهم، وقلوبهم، وأفواههم، وألسنتهم، وأقلامهم، وكُتُبهم، وصُحُفهم، ومجلّاتهم، ورسائلهم، ومقالاتهم، وخطبهم، ورواياتهم، وقصصهم، وأقاصيصهم، وأشعارهم، وأمثالهم، وأفلامهم، ومقاطعهم، ومسلسلاتهم، ومسرحيّاتهم، وأغانيّهم، ورسومهم، وألعابهم، وأخبارهم، وبرامجهم، وقنواتهم، وإذاعاتهم، ومواقعهم، وصفحاتهم، ومنتدياتهم، ونواديهم، ومحافلهم، ومؤتمراتهم.

وإنّما يطعن الطاعن في الإسلام، إذا أُصيب بمرض من الأمراض، التي تمنع صاحبها، من قبول الحقّ، وهي:

١- مرض الجهل: قد يجهل الإنسان براءة الإسلام من المطاعن، فيحمله جهله على الطعن في الإسلام.

٢- مرض الهوى: قد يعلم الإنسان براءة الإسلام، ولكنّه يتّبع هواه؛ لأنّ هواه يخالف أحكام الإسلام، فيحمله هواه على الطعن في الإسلام.

٣- مرض الخوف: قد يعلم الإنسان براءة الإسلام، ولكنّه ضعيف، يخاف بطش سادته، من أعداء الإسلام، فيحمله خوفه، على الطعن في الإسلام؛

ليسلم هو، ويسلم أهله، من بطشهم، وأذاهم.

قال ابن القيّم: «والأسباب المانعة من قبول الحقّ كثيرة جدًّا. فمنها: الجهل به، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس، فإنّ من جهل شيئًا عاداه، وعادى أهله. فإن انضاف إلى هذا السبب بُغض من أمرَه بالحقّ، ومعاداته له، وحسده، كان المانع من القبول أقوى. فإن انضاف إلى ذلك إلفه، وعادته، ومرباه على ما كان عليه آباؤه، ومن يُحبّه ويعظّمه، قوي المانع. فإن انضاف إلى ذلك توهُّمه أنّ الحقّ الذي دُعي إليه يحول بينه وبين جاهه، وعزّه، وشهواته، وأغراضه، قوي المانع من القبول جدًّا. فإن انضاف إلى ذلك خوفه من أصحابه، وعشيرته، وقومه، على نفسه، وماله، وجاهه، كما وقع لهرقل، ملك النصارى بالشام، على عهد رسول الله ﷺ، ازداد المانع من قبول الحقّ قوّة، فإنّ هرقل عرف الحقّ، وهَمَّ بالدخول في الإسلام، فلم يطاوعه قومه، وخافهم على نفسه، فاختار الكفر على الإسلام، بعد ما تبيّن له الهدى... ومن أعظم هذه الأسباب: الحسد؛ فإنّه داء كامن في النفس، ويرى الحاسدُ المحسودَ قد فُضِّل عليه، وأوتي ما لم يؤتَ نظيره، فلا يدعه الحسد أن ينقاد له، ويكون من أتباعه. وهل منع إبليس من السجود لآدم، إلّا الحسد؟! فإنّه لمّا رآه قد فُضِّل عليه، ورُفِع فوقه، غَصَّ بِريقه، واختار الكفر على الإيمان، بعد أن كان بين الملائكة. وهذا الداء هو الذي منع اليهود، من الإيمان بعيسى ابن مريم، وقد علموا - علمًا لا شكّ فيه - أنّه رسول الله، جاء بالبيّنات والهدى؛ فحملهم الحسد على أن اختاروا الكفر على الإيمان، وأطبقوا عليه، وهم أمّة فيهم الأحبار والعلماء والزهّاد والقضاة والملوك والأمراء. هذا؛ وقد جاء المسيح بحكم التوراة، ولم يأتِ بشريعة تخالفها، ولم يقاتلهم، وإنّما أتى بتحليل بعض ما حُرِّم عليهم؛ تخفيفًا ورحمة وإحسانًا، وجاء مكمِّلًا لشريعة التوراة، ومع هذا، فاختاروا

كلّهم الكفر على الإيمان. فكيف يكون حالهم مع نبيّ، جاء بشريعة مستقلّة ناسخة لجميع الشرائع، مبكِّتًا لهم بقبائحهم، ومناديًا على فضائحهم، ومخرِجًا لهم من ديارهم، وقد قاتلوه وحاربوه، وهو في ذلك كلّه يُنصَر عليهم، ويظفر بهم، ويعلو هو وأصحابه، وهم معه دائمًا في سفال. فكيف لا يملك الحسد والبغي قلوبهم؟! وأين يقع حالهم معه من حالهم مع المسيح، وقد أطبقوا على الكفر به، من بعد ما تبيّن لهم الهدى! وهذا السبب - وحده - كافٍ في ردّ الحقّ؛ فكيف إذا انضاف إليه زوال الرياسات والمآكل كما تقدّم؟!»[1].

فذكر مرض الجهل، ومرض الخوف، صراحة، ولم يذكر مرض الهوى، باسمه الصريح، بل ذكر أبرز صوره، وهي: بُغض من أمرَه بالحقّ، ومعاداته له، وحسده، وإلفه، وعادته، ومرباه على ما كان عليه آباؤه، ومن يُحبّه، ويعظّمه، وتوهُّمه أنّ الحقّ الذي دُعي إليه، يحول بينه، وبين جاهه، وعزّه، وشهواته، وأغراضه، وهذه أبرز صور الهوى.

وقال ابن القيّم أيضًا: «كلّ من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبّها؛ فلا بدّ أن يقول على الله غير الحقّ؛ في فتواه وحكمه، في خبره وإلزامه؛ لأنّ أحكام الربّ سبحانه كثيرًا ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيّما أهل الرئاسة والذين يتّبعون الشهوات؛ فإنّهم لا تتمّ لهم أغراضهم إلّا بمخالفة الحقّ، ودفعه كثيرًا؛ فإذا كان العالم والحاكم محبًّا للرئاسة، متّبعًا للشهوات لم يتمّ له ذلك إلّا بدفع ما يضادّه من الحقّ، ولا سيّما إذا قامت له شبهة، فتتّفق الشبهة والشهوة، ويثور الهوى، فيخفى الصواب، وينطمس وجه الحقّ! وإن كان الحقّ ظاهرًا لا خفاء به، ولا شبهة فيه، أقدم على مخالفته، وقال: لي مخرج بالتوبة.

---

(١) هداية الحيارى: ٣٩-٤١.

وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾[1]، وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2]؛ فأخبر سبحانه أنّهم أخذوا العرض الأدنى، مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا: سيُغفَر لنا! وإن عرض لهم عرض آخر، أخذوه؛ فهم مُصرّون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحقّ، فيقولون: هذا حكمه وشرعه ودينه! وهم يعلمون أنّ دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أنّ ذلك دينه وشرعه وحكمه! فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه»[3].

وقد يكون الطاعن - في أوّل أمره - مصابًا بمرض الجهل، فيحمله جهله على الطعن في الإسلام، ثمّ يُشفى من مرض الجهل، ولكنّه يبقى على طعنه في الإسلام؛ لأحد سببين:

١- أن يُصاب بمرض الهوى، فيحمله هواه على الطعن في الإسلام؛ لأنّ هواه يخالف أحكام الإسلام.

٢- أن يُصاب بمرض الخوف، فيحمله خوفه على الطعن في الإسلام؛ لأنّه يخاف بطش أعداء الإسلام.

والطاعن بسبب هواه قد يُشفى من مرض الهوى، لكنّه يبقى على طعنه،

---

(١) مريم: ٥٩.

(٢) الأعراف: ١٦٩.

(٣) الفوائد: ١٤٥-١٤٦.

إذا أُصيب بمرض الخوف، فيحمله خوفه، على الطعن في الإسلام.

والطاعن بسبب خوفه قد يُشفى من مرض الخوف، لكنّه يبقى على طعنه، إذا أُصيب بمرض الهوى، فيحمله هواه على الطعن في الإسلام.

ومرض الجهل قد يُصاب به من كان يعلم براءة الإسلام؛ فإنّ العلم درجات، فقد يطّلع الإنسان على شبهات، لا يجد لها جوابًا شافيًا، فيُصاب بمرض الجهل، وهو جهل نِسبيّ، لا يكاد ينجو منه إنسان، حتّى العلماء يُمكن أن يجهلوا بعض ما يعلمه غيرهم من الناس.

ولكلّ مرض من هذه الأمراض الثلاثة دواء مناسب، فمرض الجهل دواؤه التعليم، ومرض الهوى دواؤه التهذيب، ومرض الخوف دواؤه التشجيع.

وللقضاء التامّ، على الباطل، وأهله، لا بدّ من هذه الأدوية الثلاثة، معًا؛ فلا يكفي دواء التعليم، إن لم يصاحبه دواء التهذيب، ودواء التشجيع؛ ولا يكفي دواء التهذيب، إن لم يصاحبه دواء التعليم، ودواء التشجيع؛ ولا يكفي دواء التشجيع، إن لم يصاحبه دواء التعليم، ودواء التهذيب.

ولذلك تتسلّح الدعوة إلى الإسلام، بثلاثة أسلحة، هي: سلاح العلم، وسلاح التقوى، وسلاح القوّة؛ لأنّ فاقد الشيء لا يُعطيه. فسلاح العلم يُعطي المصاب بالجهل دواء التعليم، وسلاح التقوى يُعطي المصاب بالهوى دواء التهذيب، وسلاح القوّة يُعطي المصاب بالخوف دواء التشجيع.

قال سيّد قطب: «هذا المنهج الإلهيّ - الذي يمثّله الإسلام، كما جاء به محمّد ﷺ - لا يتحقّق في الأرض، في دنيا الناس، بمجرّد تنزّله، من عند الله. ولا يتحقّق بمجرّد إبلاغه للناس، وبيانه. ولا يتحقّق بالقهر الإلهيّ، على نحو ما يُمضي الله ناموسه، في دورة الفلك، وسير الكواكب، وترتُّب النتائج على أسبابها الطبيعيّة.. إنّما يتحقّق بأن تحمله مجموعة، من البشر،

تؤمن به إيمانًا كاملًا، وتستقيم عليه - بقدر طاقتها - وتجعله وظيفة حياتها، وغاية آمالها، وتجهد لتحقيقه، في قلوب الآخرين، وفي حياتهم العمليّة، كذلك، وتجاهد لهذه الغاية، بحيث لا تستبقي جهدًا، ولا طاقة.. تجاهد الضعف البشريّ، والهوى البشريّ، والجهل البشريّ، في أنفسها، وأنفس الآخرين. وتجاهد الذين يدفعهم الضعف، والهوى، والجهل؛ للوقوف في وجه هذا المنهج»(١).

ودواء التعليم، وإن لم يكن كافيًا، لكنّ له أثرًا كبيرًا في التخلّص من هذه الأمراض الثلاثة، أو التقليل من ضررها؛ لأنّ الكثير من الطاعنين، إنّما يطعنون في الإسلام؛ بسبب مرض الجهل. ودواء التعليم هو الدواء الشافي من مرض الجهل.

فإذا شُفي المصابون بمرض الجهل، من جهلهم، كثُرَ أتباع الحقّ، وقلَّ أتباع الباطل؛ وكثرة أتباع الحقّ، وقلّة أتباع الباطل: سببان كبيران، من أسباب تشجيع الخائفين، فحين يرى الخائفون كثرة أتباع الحقّ، وقلّة أتباع الباطل، سيتشجّعون، فيتّبعون الحقّ، ويوالون أهله، ويتجنّبون الباطل، ويعادون أهله.

فإذا شُفي المصابون بمرض الجهل، من جهلهم، وشُفي المصابون بمرض الخوف، من خوفهم، كثُرَ أتباعُ الحقّ كثرةً، يغلبون بها أهل الأهواء؛ فكانت تلك الكثرة سببًا في شفاء بعض أهل الأهواء، من أهوائهم، من الذين لم تستحوذ عليهم أهواؤهم.

أمّا أولئك الذين استحوذت عليهم أهواؤهم، فلن ينفع - في شفائهم - أيُّ تهذيب.

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٥٢٨.

ودواء العلم، إنّما هو عند العلماء الصادقين الناصحين المتقنين، دون من سواهم، من مدّعي العلم، من عملاء الشيطان، وجنود أعداء الإسلام.

ولذلك كان هذا الكتاب موجَّهًا إلى أربعة أصناف من الناس، هي:

١- (**الطاعن**): الذي يجهل (براءة الإسلام)، فيحمله جهله، على الطعن، في (الإسلام).

٢- (**الباحث**): الذي يبحث، عن الأدلّة الكافية؛ لإثبات (براءة الإسلام).

٣- (**الغافل**): الذي يغفل، عن مطاعن الطاعنين في (الإسلام)، فيُخشى عليه التأثُّر بها، إن اطّلع عليها يومًا.

٤- (**العالم**): الذي يعلم (براءة الإسلام)، ويحاول الدفاع عن الإسلام، ولكنّه لا يتّبع المنهج الصحيح، في الدفاع عنه.

إنّ بعض الطاعنين يدعون إلى (محاكمة الإسلام)، والإسلام دين، وليس إنسانًا؛ فلا يُمكن محاكمته، كما يحاكِم الناس بعضهم بعضًا.

فالعبارة مجازيّة، يُراد منها إجراء محاكمة علميّة، يسعى الطاعنون فيها، إلى إبطال هذا الدين؛ فكأنّهم يدعون إلى محاكمة محمّد ﷺ؛ لأنّهم يتّهمونه باختلاق الإسلام، وانتحال بعض حقائقه.

والمتّهَم إذا توفّي - قبل تحريك الدعوى - فإنّ الدعوى تُعَدّ باطلة[1]؛ ولذلك لو كان محمّد ﷺ حيًّا، في عصرنا هذا، لدعا الطاعنون إلى محاكمته، محاكمة جنائيّة، كما يحاكمون مجرم حرب!!!

ولمّا كان السبب الوحيد لمطاعنهم، في محمّد ﷺ هو الإسلام، دون ما سواه؛ فإنّ الغاية الوحيدة لهم - من المحاكمة - هي إبطال هذا الدين؛ وليس

---

(١) انظر: مبادئ المحاكمات الجزائيّة: ٧٨.

لهم أدنى اهتمام، بالطعن في محمّد ﷺ، لولا أنّه جاء بهذا الدين، ولولا أنّ هذا الدين ما زال حيًّا، قويًّا، مؤثّرًا في الناس؛ قد دخل في عقر ديارهم، فانتشر فيها، وما زال المقبلون عليه يزدادون يومًا، بعد يوم، ومنهم رجال، كانوا في أوّل أمرهم، من ألدّ أعدائه، الطاعنين فيه.

والمسلمون الصادقون لا يخشون محاكمة الإسلام، محاكمة علميّة، ولكنّهم يشترطون شرطًا واحدًا؛ لقبول نتائج هذه المحاكمة، وهو: أن تكون المُحاكمة العلميّة مبنيّة، على مبادئ المحاكمة العادلة العليا، المُتّفَق عليها.

وفي هذا الكتاب تفصيل دقيق، لعشرة من تلك المبادئ العادلة العليا؛ لإثبات حقيقة كبيرة، يهجرها كثير من الناس؛ جهلًا، أو بغيًا، أو خوفًا، وهي (براءة الإسلام) من الأباطيل:

١- التي أنتجها بعض (أعداء الإسلام)، ممّن يصرّحون بمعاداة (الإسلام)، ولا سيّما من أتباع المناهج الثلاثة: (اللادينيّ، واليهوديّ، والمسيحيّ).

٢- التي أنتجها بعض (أبناء الإسلام)، ممّن يصرّحون بموالاة (الإسلام)، قديمًا وحديثًا، ولا سيّما من أتباع المناهج الروائيّة: (القائمة على الروايات).

فالإسلام بريء كلّ البراءة، من أباطيل الأبناء، قبل أباطيل الأعداء؛ لأنّ أباطيل الأبناء أخطر من أباطيل الأعداء؛ فالأبناء يُمكن أن يكونوا من جملة الأعداء، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾(١).

فالأبناء في هذه الحال: هم (أعداء الداخل)، وهم - بلا ريب - أخطر من (أعداء الخارج)؛ لأنّك في منجاة من (عدوّ الخارج)، إن غلّقت

(١) التغابن: ١٤.

أبواب حصنك، فلا يستطيع أن يدخل عليك الحصن؛ بخلاف (عدوّ الداخل)، الذي يُمكن أن يفتح أبواب حصنك، لأعداء الخارج؛ جهلًا، أو بغيًا، أو خوفًا.

وهذا هو الحاصل، قديمًا وحديثًا؛ فكثيرة هي الثغرات، التي فتحها بعض (أبناء الإسلام)، وحاول بعض (أعداء الإسلام) أن يتّخذوها مداخل؛ ليقتحموا حصن (الإسلام)؛ ولذلك وجب الكشف بالأدلّة القطعيّة عن (براءة الإسلام)، من أخطاء المنسوبين إليه، حين يُخطئون، في التأليفات، والتطبيقات.

فالدفاع عن (الإسلام) أَولى من الدفاع عن الآراء، والأشخاص؛ لأنّ (الإسلام) هو الدين المرضيّ، عند الله تعالى، فهو معصوم من الباطل؛ بخلاف (الآراء)، فبعضها حقّ يوافق (الإسلام)، وبعضها باطل يخالف (الإسلام)؛ وبخلاف (الأشخاص)، فإنّهم بشر، يُصيبون، ويُخطئون.

ولذلك لن يرضى - بكثير من مباحث هذا الكتاب - كلّ من كانت عنايته بالآراء والأشخاص أكبر من عنايته بالحقائق الإسلاميّة، وكلّ من يرى أنّ مذهبه هو وحده الذي يطابق (الإسلام)، دون ما سواه من المذاهب، وأنّ مذهبه معصوم من الأخطاء والأهواء والأباطيل.

وهؤلاء المتعصّبون هم أبرز الذين فتحوا أكبر الثغرات التأليفيّة والتطبيقيّة، فحاول بعض أعداء الإسلام أن يتّخذوها مداخل؛ لاقتحام حصن (الإسلام).

ولذلك وجب التنبيه على أنّ (تبرئة الإسلام) من (أباطيل الأعداء) لن تكون لها قيمة حقيقيّة، إلّا بعد (تبرئة الإسلام) من (أباطيل الأبناء).

والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

المبدأ الأوّل
حقّ الدفاع

حقّ الدفاع مضمون لأيّ متّهَم، حتّى أعتى المجرمين في العالم - الذين تكون جرائمهم واضحة، كلّ الوضوح - يحقّ لهم عند المحاكمة الدفاع عن أنفسهم، أو توكيل من يدافع عنهم[١].

ويحقّ للمحامي المدافع عن المتّهَم: الطعن في أهليّة القاضي، وتفنيد أدلّة الادّعاء، وتقديم أدلّة البراءة، وغيرها من الحقوق[٢]؛ لضمان حقّ المتّهَم، في إثبات براءته، من التُّهَم الموجَّهة إليه.

والمدافعون عن الإسلام لا يُحصيهم إلّا الله تعالى، ولهم طرائق مُنوَّعة، وأدلّة كثيرة، ومسائل عديدة، يحاولون فيها إثبات (براءة الإسلام)، من تلك المطاعن، وإبطال الشبهات التي يُثيرها (أعداء الإسلام).

وقد رغبتُ - في هذا الكتاب - أن أكون واحدًا من أولئك المدافعين، ولكن بطريقة، غير الطرائق المعروفة.

إنّها طريقة تُعنى بالأصول الحاسمة، التي تحسم مسألة المحاكمة، بالاعتماد على المبادئ العادلة، التي لا يخالفنا فيها أولئك الطاعنون في الإسلام، بل إنّ كثيرًا منهم لا ينفكّ يتشدّق بتلك المبادئ، فما أحراه أن يحتكم إليها، وهو يدعو إلى محاكمة الإسلام!!!

وتقوم هذه الطريقة على أصول كبيرة، أبرزها:

---

(١) انظر: دليل المحاكمة العادلة: ١٤٧-١٥٤، والقانون الجنائيّ الدستوريّ: ٤٧٦-٤٩٠.

(٢) انظر: دليل المحاكمة العادلة: ١١٥، ١١٩، ١٦٠.

١– إيجاب القطع في الأدلّة.

٢– استبعاد التجريم الخاصّ.

٣– التذكير بشخصيّة الجريمة.

٤– البدء بالأصول قبل الفروع.

٥– التحريش بين الطاعنين.

٦– تحكيم المقام في تسويغ الأحكام.

٧– مهاجمة مناهج الطاعنين.

إنّ هذه الطريقة كفيلة – إذا رُوعيَتْ – بتحقيق عدّة أمور، أبرزها:

١– استبعاد الشبهات القائمة على أدلّة غير قطعيّة.

والاستقراء الدقيق، لواقع الشبهات – التي يُثيرها أعداء الإسلام – يشهد أنّ معظم تلك الشبهات هي من هذا الصنف، الذي لا يستطيع مُثيروها أن يُقدِّموا أيّ دليل قطعيّ عليها.

٢– استبعاد الشبهات القائمة على النظرة الشخصيّة.

فإنّ تحكيم النظرة الشخصيّة – في تقويم المخالفين – كفيل بالطعن في كلّ مخالف، وبذلك لا تبقى أدنى قيمة للحقائق الاتّفاقيّة، التي يجب الاحتكام إليها، دون التحكُّمات الشخصيّة النِّسبيّة الاختلافيّة.

٣– استبعاد الشبهات القائمة على أسلوب تعدية التخطئة.

فلا يصحّ الطعن في دين من الأديان، بذريعة أنّ بعض المنسوبين إليه يرتكبون الأخطاء؛ فيجب حصر التخطئة، فيمن يستحقّها، وهو من ارتكبها، ولا سيّما إذا كان الدين – الذي يُنسَب إليه المُخطِئ – ينهى صراحةً، عن تلك الأخطاء.

٤- قطع الطريق على الطاعنين المشاغبين، الذين يتّخذون من الأمور الفرعيّة مجالًا، لبناء شبهاتهم، ولا سيّما في (الفرعيّات الاختلافيّة)، فيُوهِمون المخدوعين أنّ إثارة تلك الشبهات: كفيلة بإبطال الحقائق الإسلاميّة.

والواقع يشهد أنّ الإسلام قائم على الأصول الكبرى، التي لا يستطيع الطاعنون كلّهم أن ينقضوا أصلًا واحدًا منها، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

٥- التحريش بين الطاعنين؛ لينشغل بعضهم ببعض، ويكفّوا عن إثارة شبهاتهم؛ فإنّ الطاعنين في (الإسلام) لا يجمعهم إلّا الطعن فيه.

فلو عمد المدافعون عن الإسلام، إلى التحريش بين الطاعنين؛ لوجدوا أنّ هؤلاء الطاعنين سيتفرّقون، عن ذلك الغرض الخبيث، وسيتقاذفون التُّهَم والشبهات والمطاعن، فيطعن بعضهم في بعض؛ فيصرف الله ﷻ عن الإسلام، وعن المسلمين شرَّهم، وشرَّ شبهاتهم الخبيثة.

٦- إبطال الشبهات القائمة على استبعاد المقام؛ ببيان القيمة الكبرى لتحكيم المقام، في تسويغ الأحكام؛ فإنّ الطاعنين قد قطعوا الأحكام عن مقاماتها، فأوهموا المخدوعين، من الناس: أنّ بعض الأحكام الإسلاميّة العمليّة الكبرى مخالِفة للحقّ والعقل والفطرة، فوصفوها بالقسوة والظلم والوحشيّة.

٧- الكشف عن فضائح الطاعنين، وفظائعهم، وشناعاتهم، وحقيقة مناهجهم السقيمة، وآثارها العقيمة، في الاعتقادات، والأعمال، والأخلاق؛ ليتبيّن أنّ مناهج الطاعنين هي التي تستحقّ الذمّ والطعن والانتقاص.

ومن شأن مهاجمة مناهج الطاعنين: أن تُسقِط شبهاتهم السقيمة، الموجَّهة إلى الإسلام، وأن تكشف للمخدوعين بتلك المناهج، عن الصور الحقيقيّة القبيحة، التي يُخفيها الطاعنون.

المبدأ الثاني
أهليّة القاضي

القاضي ركن من أركان المحاكمة، فلا يُمكن أن تنعقد محاكمة، من غير قاضٍ؛ ولكي تكون المحاكمة عادلة، يجب أن يتّصف القاضي بثلاث صفات، لا يُمكن أن يتحقّق العدل، إذا فقد واحدة منها، هي: الحياد[١]، والمعرفة[٢]، والشجاعة[٣].

١- صفة الحياد: فلا يُقبَل القاضي، الذي له هوى، إلى أحد الطرفين المتخاصمين، سواء أكان هواه، مع أولياء الإسلام، أم كان هواه، مع أعداء الإسلام.

ولذلك لا يُمكن أن يكون القاضي منتميًا إلى الإسلام؛ لأنّ انتماءه سيدفعه إلى الدفاع عن الإسلام، والحكم ببراءته، وردّ التُّهَم الموجَّهة إليه.

وكذلك لا يُمكن أن يكون القاضي منتميًا إلى أيّ دين، يعادي أتباعه الإسلام، ويطعنون فيه، فلا يُمكن أن يكون منتميًا إلى اليهوديّة، ولا المسيحيّة، ولا إلى أيّ دين آخر؛ لأنّ انتماءه إلى أيّ دين مخالف للإسلام يعني إعلانه عن موافقته لذلك الدين.

وقد أبطل (الإسلامُ) الأديانَ المُخالفةَ كُلَّها، وحكم عليها بالضلال؛ ولذلك لا يستطيع المنتمي إلى أيّ دين، مخالف للإسلام: أن يكون حياديًّا،

---

(١) انظر: دليل المحاكمة العادلة: ١٠٨، ١١٤-١١٥، والقانون الجنائيّ الدستوريّ: ٣٦٩.

(٢) انظر: دليل المحاكمة العادلة: ١١٣.

(٣) انظر: دليل المحاكمة العادلة: ١١١.

في (محاكمة الإسلام)، والحكم عليه؛ لأنّه سيكون مُتَّبِعًا لهواه، بلا ريب.

قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢).

وكذلك أولئك الذين لا دين لهم، الذين تجمعهم عبارة: (اللادينيّون)، فإنّهم من أكثر أعداء الإسلام طعنًا فيه، بل إنّ مطاعنهم - في معظمها - تكاد تكون مقصورة، على الطعن في الإسلام، دون ما سواه من سائر الأديان.

فلا يُمكن أن يكون القاضي المطلوب لمحاكمة الإسلام واحدًا منهم؛ لأنّ اتّصافه بالحياد أشبه باتّصاف النار بالبرودة.

فالحاصل أنّ وجود قاضٍ يتّصف بالحياد أمر ممكن، ولكنّ ذلك ليس في محاكمة الإسلام؛ لأنّه إمّا أن يكون منتميًا إلى الإسلام، فيميل إلى الدفاع عنه، وإمّا أن يكون منتميًا إلى غير الإسلام، فيكون من جملة المنتمين إلى المناهج، التي يطعن أتباعها في الإسلام، كاليهوديّة، والمسيحيّة، واللادينيّة.

فالقاضي لا يُمكن أن يكون منتميًا إلى الإسلام، ثمّ يُطلَب منه أن يحاكم الإسلام؛ لأنّ انتماءه إليه دليل على دفاعه عنه، ولذلك لن يكون حياديًّا، مهما حاول؛ وحتّى لو استطاع، فإنّ الطاعنين في الإسلام لن يسلّموا بحياده، ولا سيّما بعد أن يُعلن براءة الإسلام من المطاعن.

---

(١) البقرة: ١٢٠.

(٢) آل عمران: ٨٥.

صحيح أنّ الله ﷻ أمر الذين آمنوا، بالعدل، ولو على أنفسهم، ولو كانت ثمرة العدل تجرّ منفعة إلى أعدائهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

ولكنّ هناك فرقًا كبيرًا بين الإسلام، وبين المنسوبين إليه، فالمنسوب إلى الإسلام، إذا كان صادقًا عادلًا ورعًا تقيًّا، فإنّه يُمكن أن يحكم لأعدائه بالعدل، ولو جرّ الأذى إلى نفسه.

ولكنّه قطعًا لا يُمكن أن يحكم على دينه، بغير البراءة؛ ولذلك لا يُمكن أن يكون قاضيًا في محاكمة الإسلام.

وكذلك هو الشأن في المخالفين، الذين لن يسلّم المدافعون عن الإسلام، بحيادهم في محاكمة الإسلام.

فإذا افترضنا أنّ أحدهم زعم أنّه سيكون حياديًّا، فإنّ حياده سيكون - في نظر المدافعين - أشبه بحياد الخصم مع المتّهَم؛ لأنّ حكمه سيكون إدانة الإسلام قطعًا؛ لأنّه ينتمي إلى ما يخالف الإسلام.

فتبرئته للإسلام تعني طعنه في الدين الذي ينتمي إليه، أو المنهج الذي ينتسب إليه؛ لأنّ الإسلام قد حكم على كلّ ما يخالفه بالبطلان.

ولو افترضنا افتراضًا أنّ قاضيًا - ينتمي إلى ما يخالف الإسلام، كأن يكون منسوبًا إلى اليهوديّة، أو المسيحيّة، أو اللادينيّة - أعلن بعد المحاكمة براءة الإسلام من المطاعن، فماذا سيقول عنه الطاعنون في الإسلام؟

منهم من سيقول: إنّه كان قد أسلم من قبل، وكتم إسلامه؛ ولذلك لم

---

(١) المائدة: ٨.

يكن حياديًّا، في محاكمة الإسلام؛ لأنّ انتماءه إليه - ولو في السرّ - يُوجب عليه تبرئة الدين الذي ينتمي إليه، في الحقيقة.

ومنهم من سيقول: إنّه مرتشٍ، أغرقه المدافعون عن الإسلام، بالأموال، فكان حكمه على وفق أهوائهم.

ومنهم من سيقول: إنّه خائف، هدّده المدافعون عن الإسلام بقتله، وبقتل أهله، إن هو حكم بإدانة الإسلام.

وكذلك هو الأمر، لو افترضنا أنّ قاضيًا - ينتمي إلى الإسلام - أعلن بعد المحاكمة إدانة الإسلام، فماذا سيقول عنه المدافعون عن الإسلام؟

منهم من سيقول: إنّه كان قد ارتدّ، من قبل، وكتم ارتداده؛ ولذلك لم يكن حياديًّا في محاكمة الإسلام؛ لأنّ انتماءه الجديد إلى ما يخالف الإسلام - ولو في السرّ - يُوجب عليه إدانة الدين الذي يخالف ما ينتمي إليه.

ومنهم من سيقول: إنّه مرتشٍ، أغرقه الطاعنون في الإسلام، بالأموال، فكان حكمه على وفق أهوائهم.

ومنهم من سيقول: إنّه خائف، هدّده الطاعنون في الإسلام بقتله، وبقتل أهله، إن هو حكم بتبرئة الإسلام.

٢- صفة المعرفة: تقتضي محاكمة الإسلام أن يكون للقاضي معرفة صحيحة بالإسلام، ومعرفة صحيحة بسائر الأديان، والمناهج، المخالفة لهذا الدين، ومعرفة صحيحة باللغة العربيّة، وبالعلوم الدينيّة، المنسوبة إلى الإسلام، وأبرزها: علوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلم الكلام، وعلم الأصول، وعلم الفقه، ومعرفة بالتاريخ القديم، والتاريخ الحديث.

وهي معرفة يُمكن أن نقطع بأنّ أمثلتها محصورة في بعض العلماء المنتمين إلى الإسلام، دون ما سواه من الأديان، والمناهج المخالفة.

أمّا الطاعنون في الإسلام، فإنّ اجتماع هذه المعارف عندهم أمر لا يُمكن التسليم به، ولو لبعضهم، ولا سيّما أنّ المطلوب أن تكون المعرفة صحيحة؛ لأنّ المعارف المزوَّرة المكتوبة، بأيدي أعداء الإسلام، لن تقدّم للقاضي - الذي يبحث عن المعرفة - إلّا صورًا مشوَّهة، مملوءة بالتحريف، والتزييف، والتضليل.

فإنّها، إن سلمت من آثار الهوى - وهو افتراض مستحيل قطعًا - فلن تسلم من آثار الجهل، فإنّ الجهل بالعربيّة مُفضٍ إلى الجهل بسائر المعارف المكتوبة بالعربيّة، ولا سيّما الجهل بالقرآن، وبعلومه، وتفسيره.

٣- صفة الشجاعة: إذا افترضنا أنّ قاضيًا - من القضاة - اتّصف بالحياد، وبالمعرفة معًا، في محاكمة الإسلام - وهو افتراض مستحيل قطعًا - فهل يُمكن أن نفترض وجود قاضٍ، يتّصف - مع هاتين الصفتين - بصفة الشجاعة؛ فلا يخاف بطش المدافعين عن الإسلام، إن هو حكم بإدانة الإسلام، ولا يخاف بطش الطاعنين في الإسلام، إن هو حكم بتبرئة الإسلام؟!!!

ومن هنا نقطع بيقين - لا يشوبه أدنى شكّ - أنّ محاكمة الإسلام، إن وقعت، فإنّها ستقع على إحدى صورتين:

الأولى- أن تكون محاكمة ظالِمة؛ لأنّ القاضي لن يكون حياديًّا قطعًا، ولن تكون معرفته صحيحة، ولن تكون له الشجاعة الكافية للحكم بالعدل.

الثانية- أن تكون محاكمة افتراضيّة، نفترض فيها وجود قاضٍ عادل، يتّصف بالصفات الثلاث: الحياد والمعرفة والشجاعة، على أن تكون المبادئ الأخرى للمحاكمة العادلة: هي التي توجّه المحاكمة نحو العدل.

لذلك سنفترض وجود قاضٍ عادل، يتّصف بهذه الصفات، فيكون سليمًا من آثار الهوى والجهل والخوف، وهو افتراض لا مصداق له في الواقع.

ولكنّنا سنقبل هذا الافتراض؛ لمناقشة سائر المبادئ، وإلّا، فإنّ انتفاء القاضي العادل يعني انتفاء المحاكمة العادلة، وبذلك تبطل محاكمة الإسلام، أصلًا.

أمّا أن يتقمّص الطاعنُ شخصيّةَ القاضي، في محاكمة الإسلام، فهو أشبه بتقمُّص مراهِق عاقّ - في حلم من أحلام اليقظة - شخصيّةَ القاضي؛ ليحاكم والديه؛ بسبب حرمانه من التدخين والسُّكر والعربدة.

قال الشاعر:

والخصمُ لا يُرتجى النجاةُ له   يومًا إذا كان خصمه القاضي

وما انفكّ (أعداء الإسلام)، من الطاعنين فيه - قديمًا، وحديثًا - يتقمّصون (شخصيّةَ القاضي)، ويحكمون بإدانة الإسلام، مستندين إلى أهوائهم السقيمة، وأحقادهم العقيمة، وأفكارهم الأثيمة، فلا يستمعون إلى دفاع المدافعين؛ وإن تظاهر بعضهم بالاستماع؛ فإنّ قلوبهم قد امتلأت بالحقد، على الإسلام، إلى درجة تمنع أصحابها، من الانتفاع، بآثار الاستماع.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾(٢).

---

(١) الأنعام: ٢٥.

(٢) محمّد: ١٦.

المبدأ الثالث
افتراض البراءة

هذا مبدأ من أعظم مبادئ المحاكمة العادلة؛ فالمتّهَم - كائنًا من كان، ومهما كانت التُّهَم الموجَّهة إليه - هو بريء، حتّى تثبت إدانته.

والمعنى أنّ المتّهَم يعامَل معاملة البريء، حتّى إذا كان في الواقع مجرمًا، إلى أن تثبت إدانته[1]. وإثبات الإدانة لا يكون بالادّعاء، بل بالأدلّة.

فالادّعاء لا يكفي لإدانة المتّهَم، والمحاكمة لا تعني الإدانة، وإنّما الادّعاء هو الخطوة الأولى، ثمّ تأتي الخطوة الثانية، وهي المحاكمة، ثمّ تأتي الخطوة الثالثة، وهي الحكم؛ والحكم قد يكون بالإدانة، وقد يكون بالتبرئة.

ولذلك يقتضي العدل أن يعامَل المتّهَم معاملة البريء، حتّى حين يكون القاضي موقنًا، إيقانًا خاصًّا، بإدانته[2]، إلّا إذا قامت الأدلّة الكافية على إدانته، فلا يجوز أن يعامَل حينئذ معاملة البريء، بل يعامَل معاملة المدان.

فلو دخل رجلٌ غريبٌ قريةً، وفي يوم دخوله قُتِل أحدُ رجالها، فادّعى أهلُ القرية كلُّهم أجمعون أنّ الغريب هو قاتل القتيل؛ لَما كان لادّعائهم أدنى قيمة، في نظر القاضي العادل؛ إلّا إذا كانوا شهودًا عدولًا، شهدوا جريمة القتل، أو كانت لهم أدلّة كافية، تُثبِت أنّ الغريب هو قاتل القتيل.

وما لم يأتِ المُدّعون بالأدلّة الكافية على ادِّعائهم؛ فإنّ الرجل الغريب المتّهَم بالقتل يُعامَل معاملة البريء؛ إلى أن تثبت إدانتُه، يقينًا؛ فلا يُحبَس،

---

(١) انظر: دليل المحاكمة العادلة: ١٢٥، والقانون الجنائيّ الدستوريّ: ٢٧١-٢٧٣.

(٢) انظر: مبادئ المحاكمات الجزائيّة: ١٦٤.

ولا يُضرَب، ولا يُسَبّ، ولا يُمنَع من رعاية مصالحه، والسعي ابتغاء الرزق.

ولا يجوز أن يبني القاضي يقينًا نفسيًّا خاصًّا، بالاعتماد على كثرة المدّعين، ولا يجوز أن يتسرّع في حُكمه، بناءً على هذا اليقين النفسيّ الخاصّ؛ وإنّما العبرة بالأدلّة؛ فإن انتفت أدلّة الإدانة، انتفت الإدانة بانتفائها، فعُومِل المتّهَم بالأصل، وهو (افتراض البراءة).

والأصل لا يحتاج إلى دليل؛ ولكن إن وُجِدت الأدلّة الكافية الدالّة على (تغيُّر الأصل)، أُخِذ بها، وأُدين المُتّهَم، وإلّا، فلا إدانة.

ومن هنا نقول:

إنّ محاكمة الإسلام لا تعني إدانة الإسلام؛ والمحاكمة، إن كانت عادلة يلتزم فيها القاضي العادل، الذي افترضنا وجوده، بمبادئ المحاكمة العادلة فإنّ الإسلام بريء، حتّى تقوم الأدلّة الكافية، على إدانته.

وما لم يأتِ الطاعنون، بالأدلّة الكافية، التي تُثبت صحّة مطاعنهم؛ فإنّ تلك المطاعن، مهما كثُرت، ومهما كثُر أصحابها، ومهما كثُر المردِّدون لها، ليست إلّا ادّعاءات، لا قيمة لها، في نظر القاضي العادل.

المبدأ الرابع
قطعيّة الأدلّة

وأوّل مبدإ عظيم نحتكم إليه - بعد الطعن، في (أهليّة القاضي)، وبعد التذكير بمبدإ (افتراض البراءة) - هو مبدأ (قطعيّة الأدلّة).

وهو مبدأ متمِّم للمبدإ السابق، فالمتّهَم بريء، حتّى تثبت إدانته، وعبء الإثبات يقع على المدّعي، فعليه أن يأتي بالأدلّة الكافية؛ لإثبات إدانة المتّهَم[١].

ولكي تكون الأدلّة كافية - للإدانة - يجب أن تكون قطعيّة؛ فلا يُقبَل أيّ دليل غير قطعيّ، سواء أكان دليلًا ظنّيًّا، أو دون ذلك.

فالإدانة لا تكون بالظنون والشكوك والأوهام، بل تكون بالأدلّة القطعيّة اليقينيّة، التي لا يختلف فيها اثنان من العقلاء[٢].

فكما أنّ الإدانة أمر جسيم، فكذلك يجب أن تكون الأدلّة الداعية إلى الإدانة؛ وإلّا، فإنّ إدانة أيّ فرد، أو أيّ جماعة، أو أيّ دين، أو أيّ منهج: ستكون أمرًا ميسورًا، في كلّ زمان، وفي كلّ مكان، وفي حقّ أيّ متّهَم.

فلن يسلم من الإدانة أيُّ إنسان، قديمًا وحديثًا، ولن يسلم من الإدانة أيُّ دين، قديمًا وحديثًا، ولن يسلم من الإدانة أيُّ منهج، قديمًا وحديثًا؛ ولذلك كان الاعتماد في (المحاكمة العادلة)، على (الأدلّة القطعيّة)، فقط، دون ما سواها.

---

(١) انظر: دليل المحاكمة العادلة: ١٢٥، ومبادئ المحاكمات الجزائيّة: ١٦٦، والقانون الجنائيّ الدستوريّ: ٢٩٢.

(٢) انظر: دليل المحاكمة العادلة: ١٢٧، ومبادئ المحاكمات الجزائيّة: ١٦٧، والقانون الجنائيّ الدستوريّ: ٢٩٦، ٣١٠-٣١٣، ٣٦٩.

فإذا لم يتمكّن المدّعي، من تقديمها، فإنّ المتّهَم يعامَل معاملة البريء، ولن تنفع المدّعيَ أيُّ أدلّة غير قطعيّة يقدّمها، حتّى إذا كان في نفسه يعتقد أنّ المتّهَم مدان؛ فلو أُدين الناس، باعتقادات خصومهم، لَما نجا من الإدانة أحد.

وبالنظر الدقيق، في أدلّة الطاعنين، يجد الناظرون المُنصِفون: أنّ هذه الأدلّة بعيدة، كلّ البعد، عن الاتّصاف بصفة (القطعيّة).

ولكنّ الطاعنين في (الإسلام) يخادعون سائر الناس، ولا سيّما العامّة منهم؛ فيُوهِمونهم أنّهم يعتمدون على أدلّة قطعيّة، لا يشوبها أدنى شكّ.

ولذلك كان واجبًا على المدافعين عن (الإسلام) أن يزنوا كلّ دليل من أدلّة الطاعنين، بميزان (القطعيّة)؛ ويكشفوا للعامّة، عن سقامة تلك الأدلّة، وضعفها، في ذلك الميزان الدقيق؛ وبذلك تبطل دعاوى الطاعنين، من أساسها.

والأدلّة القطعيّة على عدّة صور، أبرزها:

١- **(القطعيّات الشرعيّة)**، وتشمل (النصوص القرآنيّة)، المفسَّرة تفسيرًا قطعيًّا، و(السنّة النبويّة المتواترة)، الثابتة ثبوتًا قطعيًّا، والمفسَّرة تفسيرًا قطعيًّا.

٢- **(القطعيّات العقليّة)**، التي اتّفقت عليها العقول، في كلّ زمان ومكان.

٣- **(القطعيّات الحسّيّة)**، التي اتّفقت عليها الحواسّ، في كلّ زمان ومكان.

٤- **(القطعيّات التاريخيّة)**، المنقولة بطريق التواتر، في كلّ طبقة من الطبقات.

٥- **(القطعيّات العلميّة)**، الثابتة بالأدلّة العلميّة التجريبيّة القطعيّة.

٦- **(القطعيّات اللغويّة)**، وهي أصول اللغة العربيّة، الثابتة ثبوتًا قطعيًّا.

أمّا ما يُنسَب إلى الشرع، والعقل، والحسّ، والتاريخ، والعلم، واللغة، من أمور اختلافيّة نِسبيّة، غير قطعيّة، بالقطع المطلَق؛ فلا يصحّ أن يَعُدَّها الطاعنون أدلّة كافية، على مطاعنهم في الإسلام.

ولك أن تُدرِك قيمة الاحتكام إلى الأدلّة القطعيّة، حين تجد المحتكمين إليها متَّفقين، كلّ الاتّفاق؛ وتجد المُعرِضين عنها مختلفين، ولا سيّما حين يحتكم المُعرِضون إلى أدلّة نِسبيّة، بعيدة كلّ البعد، عن القطع المطلَق.

ومَثَلُ المحتكمين إلى (الأدلّة النِّسبيّة)، كمَثَلِ ثلاثة قُضاة، اجتمعوا للحكم، في (قضيّة قتل واحدة)، وكان المدّعون ثلاثة رجال.

فادّعى (أبو القتيل) أنّ (أخا القتيل) هو (القاتل)، وادّعى (أخو القتيل) أنّ (ابن القتيل) هو (القاتل)، وادّعى (ابن القتيل) أنّ (أبا القتيل) هو (القاتل).

وجاء كلٌّ واحد – من هؤلاء المُدّعين، المُتّهَمين، الثلاثة – بأدلّة نِسبيّة اختلافيّة، غير قطعيّة؛ لتأكيد صدق ادّعائه.

واحتكم القاضي الأوّلُ إلى أدلّة المُدّعي الأوّل، واحتكم القاضي الثاني إلى أدلّة المُدّعي الثاني، واحتكم القاضي الثالثُ إلى أدلّة المُدّعي الثالث؛ ولذلك كانت أحكام القضاة الثلاثة مختلفة؛ لأنّ أصحابها قد احتكموا إلى أدلّة اختلافيّة نِسبيّة، غير قطعيّة، بالقطع المطلَق.

فإذا جاء مُدّعٍ رابعٌ، بأدلّة قطعيّة، بالقطع المطلَق، تكشف عن حقيقة القاتل؛ فإنّ الاحتكام إلى تلك الأدلّة القطعيّة: من أوجب الواجبات، وهو احتكام كفيل بحصول الاتّفاق التامّ، بين القضاة الثلاثة، في تعيين المُجرِم، والحكم عليه بالإدانة.

المبدأ الخامس

التجريم التوافقيّ

يجب أن يكون التجريم توافقيًّا، بمعنى أن يتوافق الناس كلّهم، على وصف الفعل بالجريمة، وهو من المبادئ، التي يقتضيها مبدأ (المشروعيّة)، أو (الشرعيّة الجنائيّة)، فلا جريمة، ولا عقوبة، إلّا بنصّ[1]، والنصّ يجب أن يكون مُلزِمًا، بمعنى أن يكون صادرًا من جهة توافقيّة؛ ليكون مُلزِمًا.

فذبح البقرة مثلًا - لأكل لحمها - لا يُعَدّ جريمة، عند عامّة الناس، لكنّه قد يُعدّ جريمة عند الهندوس[2]؛ فهل يحقّ للهندوسيّ أن يُدين غيره؛ لأنّه ذبح بقرة، وأكل من لحمها؟!!!

قطعًا، لا يحقّ له أن يُلزِم غيره، بما ألزم به نفسه؛ فإذا تسالَم الهندوسُ، وتوافقوا، على تحريم هذا الفعل، فإنّهم أحرار، في إدانة بعضهم بعضًا بذلك، ولكن ليس لهم أدنى حقّ، في محاكمة غيرهم، فضلًا عن إدانتهم.

ولذلك ليس من حقّ أحد، في محاكمة الإسلام: أن يجرّم بعض أحكام الإسلام، بالاعتماد على نظرته الخاصّة، بل يجب أن يكون التجريم توافقيًّا.

فمثلًا: قتل الإنسان البريء جريمة، توافق - على وصفها - الناس كلّهم؛ ولكنّ احتشام المرأة ليس كذلك.

فالذي يطعن في الإسلام - ويتّهمه بأنّه يظلم المرأة، بفرض الاحتشام

---

(١) انظر: دليل المحاكمة العادلة: ١٣٨-١٤٠، والتشريع الجنائيّ الإسلاميّ: ١١٢/١، ١٥٦-١٦٣، والقانون الجنائيّ الدستوريّ: ٣١-٣٦.

(٢) انظر: الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٧٢٦/٢.

عليها، ويصف هذا الحكم بالجريمة، كما يفعل بعض الطاعنين - ليس منصفًا؛ لأنّ احتشام المرأة - عند كثير من الناس، قديمًا وحديثًا، من أهل الأديان، ومن غيرهم - فضيلة، وليس رذيلة.

وآثار الاحتشام شاهدة على أنّه فضيلة، وآثار التبرّج شاهدة على أنّه رذيلة؛ والعجب من الطاعنين: كيف جعلوا الفضيلة جريمة، والرذيلة حقًّا من حقوق الإنسان؟!!!

قال سيّد قطب: «هذه هي صور التبرّج في الجاهليّة التي عالجها القرآن الكريم؛ ليطهّر المجتمع الإسلاميّ، من آثارها، ويُبعد عنه عوامل الفتنة، ودواعي الغواية، ويرفع آدابه وتصوّراته ومشاعره وذوقه كذلك! ونقول: ذوقه.. فالذوق الإنسانيّ الذي يُعجَب بمفاتن الجسد العاري ذوق بدائيّ غليظ، وهو - من غير شكّ - أحطّ من الذوق الذي يُعجَب بجمال الحشمة الهادئ، وما يشي به من جمال الروح، وجمال العفّة، وجمال المشاعر. وهذا المقياس لا يُخطئ في معرفة ارتفاع المستوي الإنسانيّ وتقدّمه. فالحشمة جميلة جمالًا حقيقيًّا رفيعًا؛ ولكنّ هذا الجمال الراقي لا يُدركه أصحاب الذوق الجاهليّ الغليظ، الذي لا يرى إلّا جمال اللحم العاري، ولا يسمع إلّا هتاف اللحم الجاهر»(١).

ولو أنّ كلّ إنسان جرّم أفعال الآخرين، أو جرّم أحكام بعض الأديان، معتمدًا على نظرته الخاصّة، لَما نجا من التجريم أحد من الناس، ولَما نجا من التجريم حكم من الأحكام الدينيّة.

فسلاح (التجريم الخاصّ) الذي يوجِّهه الطاعنون إلى (الإسلام): يُمكن أن يوجِّهه المدافعُ عن (الإسلام)، إلى (الطاعنين) أنفسهم، وإلى (مطاعنهم)

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/٢٨٦١.

أنفسها؛ بالاعتماد على (التجريم الإسلاميّ الخاصّ)، للطاعنين، ولمطاعنهم.

ومن هنا كان واجبًا استبعاد الشبهات القائمة، على (التجريم الخاصّ)؛ لأنّها لا يمكن أن تكون محلَّ اتّفاق، بين الناس كلّهم؛ لاختلاف الناس كثيرًا، في صور التجريم.

فماذا يقول أصحاب التجريم الخاصّ، في هندوسيّ ويهوديّ، جرَّمَ كلُّ واحد منهما الآخَر، تجريمًا خاصًّا. فجرَّم الهندوسيُّ اليهوديَّ؛ لأنّه أكل من لحم البقر. وجرَّم اليهوديُّ الهندوسيَّ؛ لأنّه أكل من لحم الخنزير؟

وماذا يقول أصحاب التجريم الخاصّ، في يهوديّ ومسيحيّ، جرَّمَ كلُّ واحد منهما الآخَر، تجريمًا خاصًّا. فجرَّم اليهوديُّ المسيحيَّ؛ لأنّه قال بلاهوت المسيح. وجرَّم المسيحيُّ اليهوديَّ؛ لأنّه اتّهم المسيح بالكذب؟

إنّ فرار الطاعنين، من (التجريم الخاصّ)، الموجَّه إلى مبادئهم: يُلزِمهم الكفَّ، عن الطعن في (الإسلام)، بالاعتماد على (التجريم الخاصّ)، المُوجَّه إلى بعض (حقائق الإسلام).

فإن أصرّوا على (التجريم الخاصّ)، في مقام الهجوم، على (الإسلام)، واستنكروا (التجريم الخاصّ)، في مقام الدفاع، عن مبادئهم؛ فإنّهم بذلك يكشفون، عن السبب الحقيقيّ، الكامن وراء مطاعنهم، وهو (اتّباع الهوى).

فيكون مَثَلُهُم في ذلك، كمَثَلِ من يستنكرُ التطفيفَ، إذا كان هو المُشتريَ، ويرضى بالتطفيف، كلَّ الرضى، إذا كان هو البائعَ.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[1].

---

(١) المطفِّفين: ١-٣.

المبدأ السادس
شخصيّة الجريمة

يعتمد هذا المبدأ على المبدإ السابق، فإذا ثبت وصف فعل من الأفعال بأنّه جريمة، وصفًا توافقيًّا، مثل قتل الإنسان البريء؛ فإنّ هذه الجريمة إنّما تتعلّق بفاعلها، دون من سواه، من أهله وأقاربه وجيرانه ومعارفه وأصحابه، ما داموا لم يشاركوا المجرم في ارتكابها.

ويُسمّى هذ المبدأ أيضًا: (شخصيّة المسؤوليّة)؛ لأنّ الشخص الذي ارتكب الجريمة هو الوحيد المسؤول عنها[١].

ويقوم على هذا المبدإ مبدأٌ آخر متمِّم، هو مبدأ (شخصيّة العقوبة)؛ لأنّ العقوبة هي جزاء المسؤوليّة[٢]؛ فالمجرم هو الشخص الوحيد الذي يستحقّ العقوبة، دون من سواه.

فليس من الإنصاف: محاكمة إنسان، بجريمة ارتكبها أبوه؛ ولا إدانة إنسان، بجريمة ارتكبها صديقه؛ ولا معاقبة إنسان، بجريمة ارتكبها قريبه؛ فإنّ العدل يقتضي تخصيص المحاكمة والإدانة والعقوبة، بمن يستحقّها، وهو المجرم الذي ارتكب الجريمة، دون من سواه، من الأهل والأقارب والأصدقاء.

ولذلك يجب، في (محاكمة الإسلام): التفريق بين ثلاث صور، منسوبة إلى الإسلام، هي: الصورة التنزيليّة، والصورة التأليفيّة، والصورة التطبيقيّة.

---

(١) انظر: التشريع الجنائيّ الإسلاميّ: ١/٣٩٤-٣٩٧، ومبادئ المحاكمات الجزائيّة: ٧٨، والقانون الجنائيّ الدستوريّ: ١٩٧.

(٢) انظر: القانون الجنائيّ الدستوريّ: ٢٣٩.

الصورة التنزيليّة

وهي منسوبة إلى التنزيل، وهو لفظ يشير إلى الوحي الإلهيّ المنزَّل، على النبيّ المرسَل، محمّد ﷺ، ويشمل: القرآن الكريم، والسنّة النبويّة.

فأمّا القرآن الكريم، فإنّه الأصل الأوّل للهداية الإلهيّة. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1].

وقد اشتمل القرآن على بيان الأحكام الشرعيّة العَقَديّة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[2].

واشتمل على بيان الأحكام الشرعيّة العمليّة، كما في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[3].

واشتمل على بيان الأحكام الشرعيّة الخُلُقيّة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[4].

---

(١) الإسراء: ٩.

(٢) النساء: ١٣٦.

(٣) البقرة: ٢٣٨.

(٤) الحجرات: ١٢.

واشتمل على بيان بعض أنباء الغيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ. ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾(١).

واشتمل على أمثال مضروبة، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

واشتمل على بيان بعض آيات الخالق ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ. وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٣).

واشتمل على بيان بعض آلاء الخالق ﷻ، وهي نِعَمُه، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ

---

(١) آل عمران: ٤٢-٤٤.

(٢) الحشر: ٢١.

(٣) الروم: ٢٠-٢٤.

بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(١).

واشتمل على الترغيب في فعل الخيرات، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ. هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ. لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ. سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾(٢).

واشتمل على الترهيب من فعل المنكَرات، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ. خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ. إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ. وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ. وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ. لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾(٣).

وأمّا السنّة النبويّة، فإنّها الأصل الثاني للهداية الإلهيّة؛ لأنّ الله ﷻ قد فرض على المؤمنين طاعة الرسول ﷺ، فيكون مصدر كلّ ما أمر به الرسول ﷺ، وما نهى عنه، وما أحلَّه، وما حرَّمه: هو الوحي الإلهيّ المنزَّل، فلم يكن بلاغ الرسول ﷺ، بتلاوة القرآن فقط، بل كان بلاغًا مبينًا.

والبلاغ المبين يكون بالتعليم، والتبيين، والتفصيل، والتزكية، والهداية؛

---

(١) إبراهيم: ٣٢-٣٤.

(٢) يس: ٥٥-٥٨.

(٣) الحاقّة: ٢٥-٣٧.

لإخراج الناس، من ظلمات الجاهليّة، وضلالاتها، إلى نور الإسلام، وهدايته.

قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٥).

ومن الدلائل القاطعة، على (حُجّيّة السُّنّة النبويّة): أنّنا لا نجد – في

---

(١) النساء: ٨٠.

(٢) النساء: ١١٥.

(٣) آل عمران: ١٦٤.

(٤) النحل: ٤٤.

(٥) الأعراف: ١٥٧.

القرآن الكريم - بعضَ الأحكام التفصيليّة، كأعداد الركعات، في الصلوات، وهيآت الصلوات. فمجيئها مفصَّلةً - في السنّة النبويّة - دليل قاطع على أنّ مصدرها هو الوحي الإلهيّ المنزَّل.

قال ابن حزم الأندلسيّ: «ونسأل قائل هذا القول الفاسد: في أيّ قرآن، وجد أنّ الظهر أربع ركعات، وأنّ المغرب ثلاث ركعات، وأنّ الركوع على صفة كذا، والسجود على صفة كذا، وصفة القراءة فيها، والسلام، وبيان ما يُجتنَب في الصوم، وبيان كيفيّة زكاة الذهب، والفضّة، والغنم، والإبل، والبقر، ومقدار الأعداد المأخوذ منها الزكاة، ومقدار الزكاة المأخوذة، وبيان أعمال الحجّ، من وقت الوقوف بعرفة، وصفة الصلاة بها، وبمُزدلِفة، ورمي الجِمار، وصفة الإحرام، وما يُجتنَب فيه، وقطع السارق، وصفة الرضاع المُحرِّم، وما يُحرَّم من المآكل، وصفتا الذبائح، والضحايا، وأحكام الحدود، وصفة وقوع الطلاق، وأحكام البيوع، وبيان الربا، والأقضية، والتداعي، والأيمان، والأحباس، والعُمْرى، والصدقات، وسائر أنواع الفقه. وإنّما في القرآن جُمَلٌ، لو تُرِكْنا وإيّاها، لم ندرِ: كيف نعمل فيها. وإنّما المرجوع إليه - في كلّ ذلك - النقل عن النبيّ ﷺ. وكذلك الإجماع، إنّما هو على مسائل يسيرة، قد جمعناها كلّها في كتاب واحد، وهو الموسوم بكتاب "المراتب"، فمن أراد الوقوف عليها، فليطلبها هنالك؛ فلا بدّ من الرجوع إلى الحديث، ضرورةً. ولو أنّ امرأً قال: "لا نأخذ إلّا ما وجدنا في القرآن"، لكان كافرًا، بإجماع الأمّة؛ ولكان لا يلزمه إلّا ركعة، ما بين دلوك الشمس، إلى غسق الليل، وأخرى عند الفجر؛ لأنّ ذلك هو أقلّ ما يقع عليه اسم (صلاة)، ولا حدَّ للأكثر في ذلك...»[1].

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام: ٢/٧٩-٨٠.

وقال الشوكانيّ: «الحاصل أنّ ثبوت حجّيّة السنّة المطهَّرة، واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينيّة، لا يخالف في ذلك إلّا من لا حظّ له في دين الإسلام»[1].

ومن الدلائل القاطعة على ذلك: أنّ النداء إلى الصلاة - وهو الأذان - قد ثبت بالسنّة النبويّة، لا بالقرآن الكريم.

فليس في القرآن الكريم ذِكرٌ للنداء إلى الصلاة، إلّا في آيتين، وليس في هاتين الآيتين تشريع للنداء، وإنّما يُستنبَط منهما أنّ النداء حكم شرعيّ، واقع ثابت، قبل نزولهما؛ فالقرآن الكريم دلّ على شرعيّة النداء، لكنّ تشريع النداء ثابت بالسنّة النبويّة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

قال أبو عبد الله القرطبيّ: «قلتُ: وفريضة تاسعة عشرة، وهي قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾، ليس للأذان ذِكرٌ في القرآن، إلّا في هذه السورة؛ أمّا ما جاء في سورة الجمعة، فمخصوص بالجمعة، وهو - في هذه السورة - عامّ لجميع الصلوات»[4].

---

(١) إرشاد الفحول: ١/١٨٩.

(٢) المائدة: ٥٨.

(٣) الجمعة: ٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٧/٢٤٤.

والقرآن الكريم شاهد على أنّ ثمّة وحيًا آخر - غير (الوحي القرآنيّ) - كان النبيّ ﷺ يتلقّاه من الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾[1].

فقوله: ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ يدلّان بوضوح، على أنّ النبيّ ﷺ قد علم بإفشاء السرّ، من طريق الوحي.

وليس ثمّة آية في القرآن، كلّه، تضمّنت ما أظهره الله ﷻ، على النبيّ ﷺ، من هذا الأمر، فكان هذا دليلًا قاطعًا، على وجود (وحي إلهيّ)، آخر - غير (الوحي القرآنيّ)[2] - كان النبيّ ﷺ يتلقّاه، من الله ﷻ؛ ومنه - بلا ريب - (الوحي النبويّ)، أعني: (السنّة النبويّة).

فلا يصحّ ادّعاءُ من يدّعي انحصارَ الوحي الإلهيّ المنزّل على محمّد ﷺ، في القرآن الكريم فقط؛ فكما أوحى الله ﷻ إلى أنبيائه، من قبلُ، فقد أوحى إلى خاتم النبيّين ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ

---

(١) التحريم: ٣.

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير: ٣٥٣/٢٨.

(٣) النساء: ١٦٣.

اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾(٣).

ولذلك، فالمسلمون هم (أهل القرآن والسنّة)، وليسوا (أهل القرآن)، دون (السنّة)، ولا (أهل السنّة)، دون (القرآن).

قال أبو حيّان الأندلسيّ: «وأُطلق أهل الكتاب، على المدح تارة، وعلى الذمّ أخرى؛ وأهل القرآن والسنّة لا ينطلق إلّا على المدح»(٤).

وقال ابن عثيمين: «فيجب على طالب العلم أن يلتزم بالقرآن والسنّة الصحيحة، وهما له - أي: طالب العلم - كالجناحين للطائر، إذا انكسرا، لم يَطِرْ؛ لذلك لا تراعي السنّة، وتغفل عن القرآن، أو تراعي القرآن(٥)، وتغفل عن السنّة، فكثير من طلبة العلم يعتني بالسنّة وشروحها ورجالها، ومصطلحاتها

---

(١) الأعراف: ١٦٠.

(٢) يونس: ٨٧.

(٣) هود: ٣٦-٣٧.

(٤) تفسير البحر المحيط: ١٦/٣.

(٥) في المطبوع: (تراعي) في الموضعين، والصواب: (تراعِ).

اعتناء كاملًا، لكن لو سألته عن آية من كتاب الله، لرأيته جاهلًا بها، وهذا غلط كبير، فلا بدّ أن يكون الكتاب والسنّة جناحين لك، يا طالب العلم»(١).

وقوله: (السنّة الصحيحة)؛ للاحتراز من الروايات السقيمة، المنسوبة إلى (السنّة النبويّة)؛ فإنّها من أكبر الصوارف التي صرفت كثيرًا من المنتسبين إلى (الإسلام) – من المؤلّفين، والمتعلّمين، والعامّة – عن (هداية القرآن).

ولذلك تجد كثيرًا – من المؤلّفين – يخضعون للروايات السقيمة، خضوعًا عجيبًا، كخضوع المسحور لساحره!!!

فإذا أراد أحدهم أن يفسّر آية، لجأ إلى بعض (الروايات السقيمة)؛ وإذا أراد التأليف في (العقائد)، اغترف من بعض (الروايات السقيمة)؛ وإذا أراد أن يُفتي من يستفتيه، توجّه إلى بعض (الروايات السقيمة)؛ حتّى أعرض كثير منهم عن (هداية القرآن)، كلّ الإعراض.

قال سيّد قطب: «إنّ هذا القرآن هو مُعلِّم هذه الأمّة، ومُرشِدها، ورائدها، وحادي طريقها، على طول الطريق. وهو يكشف لها عن حال أعدائها، معها، وعن جِبِلّتهم، وعن تاريخهم، مع هدى الله، كلّه. ولو ظلّت هذه الأمّة تستشير قرآنها، وتسمع توجيهاته، وتُقيم قواعده، وتشريعاته، في حياتها، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها، في يوم من الأيّام.. ولكنّها حين نقضت ميثاقها مع ربّها، وحين اتّخذت القرآن مهجورًا – وإن كانت ما تزال تتّخذ منه ترانيم مُطرِبة، وتعاويذ، ورُقى، وأدعية! – أصابها ما أصابها»(٢).

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمّد بن صالح العثيمين: ٢٦/٦٧-٦٨.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/٨٥٩.

الصورة التأليفيّة

وهي منسوبة إلى التأليف، وهو لفظ يشير إلى المؤلّفات المتعلّقة بالإسلام، وبالمنسوبين إليه، من الأفراد، والجماعات؛ وهي أربع صور فرعيّة: الصورة التأليفيّة الاتّفاقيّة، والصورة التأليفيّة الاختلافيّة، والصورة التأليفيّة التضليليّة، والصورة التأليفيّة التعطيليّة.

١- الصورة التأليفيّة الاتّفاقيّة: هي صورة تأليفيّة قديمة، اتّفق فيها المؤلّفون القدامى كلّهم، فلم يختلفوا فيها، أدنى اختلاف، مع أنّهم قد اختلفوا في آلاف المسائل؛ حتّى لقد خطّأ بعضهم بعضًا، وطعن بعضهم في بعض؛ ومع ذلك، فقد اتّفقوا في مسائل كثيرة، ولم يختلفوا فيها أدنى اختلاف.

ومن أمثلتها: اتّفاق المؤلّفين القدامى، كلّهم، المنسوبين إلى المذاهب الفقهيّة المختلفة، كلّها، الفرديّة، والجماعيّة، على أعداد ركعات الصلوات الخمس، فلم يختلفوا في أعدادها، أدنى اختلاف.

قال ابن حزم الأندلسيّ: «اتّفقوا على أنّ الصلوات الخمس فرائض. واتّفقوا على أنّ صلاة الصبح للخائف والآمن ركعتان في السفر والحضر. وعلى أنّ صلاة المغرب للخائف والآمن في السفر والحضر ثلاث ركعات. واتّفقوا على أنّ صلاة الظهر والعصر والعشاء الآخرة، للمقيم الآمن أربع ركعات»[١].

٢- الصورة التأليفيّة الاختلافيّة: هي صورة تأليفيّة قديمة، اختلف فيها المؤلّفون القدامى، فلم يتّفقوا فيها، كما اتّفقوا في الصورة السابقة، فاختلفوا في آلاف المسائل، وخطّأ بعضهم بعضًا فيها.

---

(١) مراتب الإجماع: ٤٧.

ومن أمثلتها، في التأليف الفقهيّ: الاختلاف، في حكم الرِّجلين، عند الوضوء، بين الغسل، والمسح.

قال الماورديّ: «غسل الرجلين في الوضوء مُجمَع عليه بنصّ الكتاب والسنّة. وفرضهما عند كافّة الفقهاء الغسل، دون المسح. وذهبت الشيعة إلى أنّ الفرض فيهما المسح، دون الغسل، وجمع ابن جرير الطبريّ بين الأمرين، فأوجب غسلهما ومسحهما»(١).

وقال ابن حزم الأندلسيّ: «وأمّا قولنا في الرِّجلين، فإنّ القرآن نزل بالمسح، قال الله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾(٢). وسواء قُرئ بخفض اللام، أو بفتحها، هي على كلّ حال: عطف على الرؤوس: إمّا على اللفظ، وإمّا على الموضع، لا يجوز غير ذلك؛ لأنّه لا يجوز أن يُحال بين المعطوف والمعطوف عليه، بقضيّة مُبتدَأة. وهكذا جاء عن ابن عبّاس: نزل القرآن بالمسح، يعني: في الرِّجلين، في الوضوء، وقد قال بالمسح على الرجلين جماعة من السلف، منهم: عليّ بن أبي طالب، وابن عبّاس، والحسن، وعكرمة، والشعبيّ، وجماعة غيرهم، وهو قول الطبريّ، ورُويت في ذلك آثار...»(٣).

٣- **الصورة التأليفيّة التضليليّة:** هي صورة تأليفيّة حديثة، اختلقها بعض المستشرقين، ومن وافقهم من المستغربين؛ لتضليل الناس عن الإسلام.

لقد ركّب أولئك المختلقون صورة قبيحة، من أخطاء بعض المؤلّفين، ومن أخطاء بعض المطبّقين، بالاعتماد على الروايات السقيمة، والتفسيرات السقيمة،

---

(١) الحاوي الكبير: ١/١٢٣.

(٢) المائدة: ٦.

(٣) المحلّى بالآثار: ١/٣٠١.

والآراء السقيمة، والتطبيقات السقيمة، وزادوا عليها تفسيرات سقيمة جديدة، وآراء سقيمة جديدة، ثمّ نسبوا تلك الصورة القبيحة، إلى الإسلام؛ لتقبيح صورته، في أنظار الناس، من المنسوبين إليه، وغيرهم.

ومن أبرز وسائلهم؛ للتضليل: الطعن في رسول الله ﷺ، بوجوه كثيرة، منها: ادّعاء أنّه كان أسطورة خرافيّة، وليس شخصيّة حقيقيّة؛ ومنها: ادّعاء أنّه كان مجهول النسب، وأنّ موته كان في نوبة سُكر، وأنّ الخنازير أكلت من جسمه؛ ومنها: اتّهامه بالجنون، والصرع، والتهوُّر، والسحر، والشهوانيّة، والوحشيّة، والانتهازيّة، والسوداويّة، والكذب، والخداع، والغدر، والمحاباة، والفظاظة، والكبر، والجبن، والنفاق، والنَّهَم[1].

قال سيّد قطب: «وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير؛ ونحن - في بلاهة منقطعة النظير - نروح نستفتي المستشرقين - من اليهود والنصارى والشيوعيّين الكفّار - في أمر ديننا، ونتلقّى عنهم تاريخنا، ونأمنهم على القول في تراثنا، ونسمع لما يدسّونه من شكوك في دراساتهم لقرآننا، وحديث نبيّنا، وسيرة أوائلنا؛ ونُرسل إليهم بعثات من طلّابنا يتلقّون عنهم علوم الإسلام، ويتخرّجون في جامعاتهم، ثمّ يعودون إلينا مدخولي العقل والضمير. إنّ هذا القرآن قرآننا. قرآن الأمّة المسلمة. وهو كتابها الخالد الذي يخاطبها فيه ربّها، بما تعمله وما تحذره. وأهل الكتاب هم أهل الكتاب، والكفّار هم الكفّار. والدين هو الدين»[2].

وقال سيّد قطب أيضًا: «وهذا الذي ندّد الله به سبحانه - من أعمال

---

(١) انظر: موسوعة بيان الإسلام، القسم الثاني، الرسول.

(٢) في ظلال القرآن: ١/١٣٦.

أهل الكتاب، حينذاك - هو الأمر الذي درجوا عليه من وقتها، حتّى اللحظة الحاضرة.. فهذا طريقهم على مدار التاريخ.. اليهود بدأوا منذ اللحظة الأولى، ثمّ تابعهم الصليبيّون! وفي خلال القرون المتطاولة دسّوا - مع الأسف - في التراث الإسلاميّ ما لا سبيل إلى كشفه إلّا بجهد القرون! ولبسوا الحقّ بالباطل، في هذا التراث كلّه - اللهمّ، إلّا هذا الكتاب المحفوظ، الذي تكفّل الله بحفظه، أبد الآبدين - والحمد لله على فضله العظيم. دسّوا ولبسوا في التاريخ الإسلاميّ وأحداثه ورجاله، ودسّوا ولبسوا في الحديث النبويّ، حتّى قيّض الله له رجاله الذين حقّقوه وحرّروه، إلّا ما ندّ عن الجهد الإنسانيّ المحدود، ودسّوا ولبسوا في التفسير القرآنيّ، حتّى تركوه تيهًا، لا يكاد الباحث يفيء فيه إلى معالم الطريق. ودسّوا ولبسوا في الرجال أيضًا. فالمئات والألوف كانوا دسيسة على التراث الإسلاميّ، وما يزالون في صورة المستشرقين، وتلاميذ المستشرقين، الذين يشغلون مناصب القيادة الفكريّة اليوم، في البلاد التي يقول أهلها: إنّهم مسلمون. والعشرات من الشخصيّات المدسوسة على الأمّة المسلمة، في صورة أبطال مصنوعين على عين الصهيونيّة والصليبيّة، ليؤدّوا لأعداء الإسلام - من الخدمات - ما لا يملك هؤلاء الأعداء أن يؤدّوه ظاهرين! وما يزال هذا الكيد قائمًا ومطّردًا. وما تزال مثابة الأمان والنجاة منه هي اللياذ بهذا الكتاب المحفوظ، والعودة إليه؛ لاستشارته في المعركة الناشبة طوال هذه القرون»[1].

٤- الصورة التأليفيّة التعطيليّة: هي صورة تأليفيّة حديثة، يجتمع أصحابها على أمر واحد، هو تعطيل بعض (الحقائق الإسلاميّة)، وله جانبان بارزان:

أ- تعطيل بعض (الأحكام الشرعيّة)، كتعطيل بعض أحكام الصلاة، وتعطيل

(١) في ظلال القرآن: ١/٤١٤-٤١٥.

بعض التحريمات، وتعطيل بعض العقوبات. فأباح بعضهم الرِّبا، والبِغاء، وشرب الخمر، والتبرُّج، والتعرّي. وعطّلوا بعض (العقوبات الشرعيّة)، ولا سيّما عقوبة (جلد الزاني)، وعقوبة (قطع يد السارق). وغيَّرَ بعضهم في (أعداد الصلوات)، وفي أوقاتها، وفي أعداد ركعاتها، وفي كيفيّاتها(١).

ب- تعطيل بعض التفسيرات الصحيحة للنصوص القرآنيّة، واختلاق تفسيرات جديدة بديلة، ولا سيّما في الجوانب الغيبيّة، من القصص القرآنيّة(٢).

و(أهل التعطيل) - في الحقيقة - أشتات متفرّقون، يجتمعون، في أمر واحد، هو (التعطيل)، ويختلفون في مصاديق ذلك التعطيل.

فإباحة البِغاء مثلًا ليست ممّا أجمعوا عليه، تصريحًا؛ فمنهم من صرّح بإباحته، ومنهم من لم يصرّح بإباحته؛ ولكنّه صرَّح بإباحة مُحرَّمات أخرى، كالتبرُّج والتعرّي.

ومن أبرز المنسوبين، الذين يتّبعون منهج (التعطيل): أولئك المنحرفون، الذين يُسمَّون: (القرآنيّين)؛ والقرآن الكريم - في الحقيقة - بريء منهم، ومن آرائهم، ومن تفسيراتهم، ومن منهجهم، كلّ البراءة!!!

فإنّ هؤلاء المنحرفين أنكروا حجّيّة السنّة النبويّة، وزعموا أنّهم يكتفون بالقرآن الكريم؛ ثمّ عمدوا إلى إنتاج تأويلات تحريفيّة، للآيات القرآنيّة؛ لتعطيل كثير من الأحكام الشرعيّة.

والفرق كبير بين إنكار (حجّيّة السنّة النبويّة)، وبين إنكار نسبة بعض

---

(١) انظر: العصرانيّون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب: ٨٦-٩٠، ٢٥٧-٢٧١.

(٢) انظر: القرآنيّون العرب وموقفهم من التفسير دراسة نقديّة: ٢٢١-٢٢٤، ٥٩٣-٥٩٥، ٦٣٧-٦٤١، ٦٧٧-٧١١.

الأحاديث إلى السنّة النبويّة، مع الإقرار بحجّيّة السنّة النبويّة، الثابتة ثبوتًا قطعيًّا.

فكثيرون هم العلماء الذين ردّوا آلاف الأحاديث الموضوعة، المنسوبة إلى السنّة النبويّة؛ ولم يكن ردُّهم لها يعني ردًّا للسنّة النبويّة، بل هم – في الحقيقة – يخدمون السنّة النبويّة – بهذا الردّ – خدمة واجبة عليهم؛ للفصل التامّ بين الوحي النبويّ، والوحي الشيطانيّ، الذي يُوحي به الشياطين، إلى أوليائهم، من دجاجلة الروايات الموضوعة.

وكذلك، حين يختلف العلماء أنفسهم، في ردّ بعض الأحاديث؛ فليس ردُّ من ردَّها منهم: يعني ردًّا للسنّة النبويّة، وإنكارًا لحُجّيّتها؛ وإنّما هم – بردِّهم لتلك الأحاديث – مجتهدون، قد يُصيبون، وقد يُخطئون.

والفرق كبير بين (القرآنيّين الحقيقيّين)، الذين يتّبعون القرآن الكريم، اتّباعًا صحيحًا، ويفسّرونه بالتفسير العربيّ القطعيّ السليم، وبين من يدّعون الانتساب إلى (القرآن)، ثمّ يعمدون إلى تحريفه؛ اتّباعًا لأهوائهم!!!

الموازنة بين الصورة التنزيليّة والصور التأليفيّة

بالموازنة بين الصورة التنزيليّة، والصور التأليفيّة الأربع: يتبيّن أنّ الصورة التأليفيّة - عمومًا - على قسمين، هما:

١- الصورة التأليفيّة الموافقة للصورة التنزيليّة: ومصدرها الوحيد الفريد هو الفهم السليم للوحي الإلهيّ المنزَّل، أي: الفهم السليم للوحي القرآنيّ، والفهم السليم للوحي النبويّ.

٢- الصورة التأليفيّة المخالفة للصورة التنزيليّة: ولها عدّة مصادر سقيمة، أبرزها: القراءات السقيمة، والأحاديث السقيمة، والتفسيرات السقيمة، والشروح السقيمة، والروايات السقيمة، والأخبار السقيمة، والآراء السقيمة.

فأمّا الصورة التأليفيّة الاتّفاقيّة، فإنّها موافقة للصورة التنزيليّة قطعًا؛ لأنّ المتّفقين فيها قد اختلفوا في آلاف المسائل غيرها، ومنها مسائل يسيرة؛ فلم يكن المؤلّفون القدامى يسكتون عن الردّ، على مخالفيهم، فكان بعضهم حريصًا على نصرة الحقّ، وردّ الباطل؛ وكان بعضهم يتربّص بمخالفيه، ينتظر منهم الزلّة والخطأ؛ ليردّ عليهم.

ومن يطّلع على المسائل المختلف فيها، ودرجات الاختلاف، وصور التخطئة والتفسيق والتكفير والطعن في المخالفين، فسيظنّ أنّ المسائل التي اتّفق عليها المؤلّفون القدامى: معدومة، أو نادرة.

وهذا دليل على أنّ اتّفاق هؤلاء المختلفين ما كان ليكون، لولا وجود الأدلّة الشرعيّة القطعيّة، التي لا يُمكن أن يرتابوا فيها، أدنى ارتياب؛ فلم يكن اتّفاقهم من قبيل التواطؤ على الباطل؛ وإلّا، فما الذي يدعو إلى أن يتّفق المؤلّفون كلّهم، المنتسبون إلى فرق متخالفة متنازعة؟!!!

فإذا اتّفق المؤلّفون، كلّهم، من المذاهب الفقهيّة المختلفة، كلّها، الفرديّة، والجماعيّة، في مسألة فقهيّة، بلا أدنى اختلاف، كان اتّفاقهم هذا دليلًا على موافقة الصورة التأليفيّة الاتّفاقيّة، للصورة التنزيليّة.

وإذا اتّفق المؤلّفون، كلّهم، من المذاهب العَقَديّة المختلفة، كلّها، في مسألة عَقَديّة، بلا أدنى اختلاف، كان اتّفاقهم هذا دليلًا على موافقة الصورة التأليفيّة الاتّفاقيّة، للصورة التنزيليّة.

ومع ذلك يجب - كلّ الوجوب - التفريق الدقيق بين الصورة التنزيليّة، والصورة التأليفيّة الاتّفاقيّة؛ فإنّ الصورة التنزيليّة هي الصورة الأصيلة.

وما مَثَلُ الصورة التأليفيّة الاتّفاقيّة، إلّا كمَثَلِ المِرآة الصافية النقيّة، التي تعكس الصورة الحَسَنة.

والحُسن في المرآة ليس أصيلًا، إنّما هو حُسن الوجه، المعكوسة صورته، ويكفي المِرآة الصافية فخرًا أنّها استطاعت أن تعكس ذلك الحُسن، وأن تسلم من الشوائب، التي تشوّه الصورة المعكوسة!

وأمّا الصورتان: التأليفيّة التضليليّة، والتأليفيّة التعطيليّة، فإنّهما مخالفتان للصورة التنزيليّة، مخالفة قطعيّة، بلا أدنى شكّ؛ فإنّ الغرض منهما تضليل الناس عن الإسلام، وتعطيل حقائقه، والثانية أشدّ خطرًا من الأولى.

والفرق بينهما كالفرق بين كيد الكافر، وكيد المنافق، فكيد المنافق أشدّ خطرًا من كيد الكافر؛ لأنّ المنافق منسوب إلى الإسلام، وحقيقته خافية على الكثيرين، بخلاف الكافر، فإنّه عدوّ، صريح العداوة.

قال ابن باز: «كالمنافقين؛ فإنّهم لمّا أظهروا الإسلام، وادّعوا الإيمان، وصلّوا مع الناس، وحجّوا مع الناس، وجاهدوا مع الناس، إلى غير ذلك - ولكنّهم في الباطن ليسوا مع المسلمين، بل هم في جانب، والمسلمون في جانب؛

لأنّهم مكذِّبون لله ورسوله، منكِرون لما جاءت به الرسل في الباطن، متظاهرون بالإسلام؛ لحظوظهم العاجلة، ولمقاصد معروفة - أكذبهم الله في ذلك، وصاروا كُفّارًا ضُلّالًا، بل صاروا أكفر وأشرّ ممّن أعلن كفره، ولهذا صاروا في الدرك الأسفل من النار، وما ذاك إلّا لأنّ خطرهم أعظم؛ لأنّ المسلم يظنّ أنّهم إخوته، وأنّهم على دينه، وربّما أفشى إليهم بعض الأسرار، فضرّوا المسلمين وخانوهم، فصار كفرهم أشدّ، وضررهم أعظم»[1].

ومَثَلُ هذين الصنفين من أعداء الإسلام، كمَثَلِ رجلين خبيثين، عمدا إلى فتاة عفيفة. أمّا الخبيث الأوّل، فقد هجم عليها؛ ليغتصبها نفسها. وأمّا الخبيث الثاني، فقد دافع عنها، أوّل الأمر، وطرد المهاجم، فلمّا اطمأنّت إليه، راودها عن نفسها؛ ليزني بها.

فغاية الخبيثين واحدة، ولكنّهما اختلفا في الوسائل، ووسيلة الثاني أخطر من وسيلة الأوّل، بلا ريب.

وأمّا الصورة التأليفيّة الاختلافيّة، فهي قسمان:

أ- صورة تأليفيّة اختلافيّة موافقة للصورة التنزيليّة.

ب- صورة تأليفيّة اختلافيّة مخالفة للصورة التنزيليّة.

ولا يُمكن (القطع المُطلَق)، بموافقة أيّ صورة، من الصور التأليفيّة الاختلافيّة، للصورة التنزيليّة؛ ومن يقطع بذلك، فإنّه إنّما يقطع بطريقة (القطع النِّسبيّ)، لا بطريقة (القطع المُطلَق).

والمعتبَر في القطع: هو القطع المُطلَق، دون القطع النِّسبيّ؛ لأنّ الاعتماد على القطع النِّسبيّ: يُفضي إلى القطع بالمتعارِضات، وهو باطل، بلا ريب.

---

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوّعة: ٣/١٩-٢٠.

وبيان ذلك أنّ المؤلّفين المختلفين قد يقطع كلّ واحد منهم، بموافقة صورته التأليفيّة للصورة التنزيليّة، والكثير من مسائلهم - التي اختلفوا فيها - مسائل متعارضة، فيكون قبولنا لحكم القطع النِّسبيّ مؤدّيًا إلى أن نحكم على الآراء المتعارضة بالصحّة، وهو حكم باطل، بلا خلاف.

فكيف نحكم مثلًا، على القول بإباحة الشيء، وعلى القول بتحريم الشيء نفسه، بحكم واحد، وهو موافقة الصورة التنزيليّة، موافقة قطعيّة؟!!!

فليس لأحد من المختلفين ادّعاء حصول القطع المُطلَق، بموافقة أيّ صورة، من هاتين الصورتين، أو مخالفتها، للصورة التنزيليّة، ولكنّه يُمكن أن يقطع بذلك، بطريقة القطع النِّسبيّ.

بمعنى أنّه يقطع معتمِدًا على أدلّة، ارتضاها هو، ولكن خالفه فيها غيره، كأن يعتمد المؤلّف في قطعه النِّسبيّ، على حديث، يرى أنّه كافٍ للقطع بالموافقة، أو القطع بالمخالفة؛ ويرى من يخالفه من المؤلّفين أنّ ما اعتمد عليه القاطع: لا يُمكن الاعتماد عليه، في القطع.

قال ابن تيميّة: «كون المسألة قطعيّة، أو ظنّيّة: هو من الأمور الإضافيّة، وقد تكون المسألة عند رجل قطعيّة؛ لظهور الدليل القاطع له، كمن سمع النصّ، من الرسول ﷺ، وتيقّن مراده منه؛ وعند رجل لا تكون ظنّيّة، فضلًا عن أن تكون قطعيّة؛ لعدم بلوغ النص إيّاه، أو لعدم ثبوته عنده، أو لعدم تمكُّنه من العلم بدلالته»(١).

وقال ابن تيميّة أيضًا: «وذلك أنّ المقدّمة المذكورة في القياس - الذي هو مثل - لها وصف ذاتيّ، ووصف إضافيّ. فالوصف الذاتيّ لها أن تكون مطابقة،

(١) مجموعة الفتاوى: ١٩٦/٢٣.

فتكون صدقًا، أو لا تكون مطابقة، فتكون كذبًا. وجميع المقدّمات المذكورة في أمثال القرآن هي صدق، والحمد لله ربّ العالمين. وأمّا الوصف الإضافيّ، فكونها معلومة عند زيد، أو مظنونة، أو مسلَّمة، أو غير مسلَّمة، فهذا أمر لا ينضبط. فرُبَّ مقدّمة هي يقينيّة عند شخص، قد علمها، وهي مجهولة، فضلًا عن أن تكون مظنونة، عند من لم يعلمها؛ فكون المقدّمة يقينيّة، أو غير يقينيّة، أو مشهورة، أو غير مشهورة، أو مسلَّمة، أو غير مسلَّمة: أمور نِسبيّة، وإضافيّة لها، تعرض بحسب شعور الإنسان بها. ولهذا تنقلب المظنونة - بل المجهولة في حقّه - يقينيّة معلومة، والممنوعة مسلَّمة؛ بل والمسلَّمة ممنوعة»[١].

وقد تكون أدلّة من يقطع بالقطع النِّسبيّ سليمة، في الواقع؛ فتكون آراؤه - التي قطع بها - سليمة، موافقة للصورة التنزيليّة.

وقد تكون أدلّة من يقطع بالقطع النِّسبيّ سقيمة، في الواقع؛ فتكون آراؤه - التي قطع بها - سقيمة، مخالفة للصورة التنزيليّة.

ومن هنا كان لإلزام المخالف طريق وحيد فريد، هو الاعتماد على أدلّة القطع المُطلَق؛ فإنّ أدلّة القطع النِّسبيّ السليمة ترجع - في الحقيقة - إلى أدلّة القطع المُطلَق، ولكنّ بيان رجوعها إليها يحتاج إلى جهد العالِم المجتهد الألمعيّ، الذي يستطيع الكشف عن هذه العلاقة الخفيّة المفيدة.

ومن هنا لا يصحّ - في محاكمة الإسلام - اعتماد الطاعنين، على ما لم تثبت موافقته، للصورة التنزيليّة، ثبوتًا قطعيًّا؛ ولذلك تبطل كلّ تهمة موجَّهة إلى (الإسلام)، يكون مصدُرها الوحيد الفريد صورةً من الصور: التأليفيّة الاختلافيّة، والتأليفيّة التضليليّة، والتأليفيّة التعطيليّة.

---

(١) مجموعة الفتاوى: ٢/٣٤-٣٥.

فبالاعتماد على مبدإ (قطعيّة الأدلّة)، ومبدإ (شخصيّة الجريمة) تسقط - من الاعتبار - أيّ تهمة موجَّهة إلى الإسلام، وهي مخالفة للصورة التنزيليّة، وأيّ تهمة موجَّهة إلى الإسلام، وهي مستندة إلى صورة غير قطعيّة.

فمثلًا، قد يدّعي بعض الطاعنين أنّ الإسلام يُبيح بعض صور الزنى، أو بعض الصور القريبة من الزنى؛ والطاعن إنّما يقصد ما يُسمّى: الزواج المؤقَّت، أو الزواج المنقطع، أو زواج المتعة، ويُسمّى: متعة النساء، أو متعة النكاح؛ لتمييزه من متعة الطلاق، ومن متعة الحجّ. وهو مشهور باسم (المتعة)، اختصارًا.

والجواب: إنّ جمهور المؤلّفين المنسوبين إلى الإسلام قد اتّفقوا على القول بتحريم هذه المتعة. أمّا إباحتها، فهي محصورة - عمومًا - في مؤلّفات بعض المؤلّفين المنسوبين إلى الإسلام.

فالمسألة ليست من مسائل الصور التأليفيّة الاتّفاقيّة؛ ولذلك لا يُمكن أن يقطع المُبيح، ولا الطاعن، بأنّها موافقة للصورة التنزيليّة، فتكون هذه التهمة مستندةً إلى صورة تأليفيّة اختلافيّة، غير قطعيّة.

والعجب من الطاعن: كيف يغضّ النظر، عن اتّفاق جمهور المؤلّفين، على القول بتحريم هذه المتعة، فلا ينسب تحريمها إلى الإسلام، ويعمد إلى رأي بعض المؤلّفين، ممّن خالفوا قول الجمهور، في هذه المسألة؛ ليُوهِم الناس أنّ إباحة المتعة حكم إسلاميّ، وليس رأيًا فقهيًّا، لبعض المؤلّفين؟!!!

والطاعن قد غفل، أو تغافل، عن الردود الكثيرة، التي وجّهها جمهور المؤلّفين، إلى القائلين بإباحتها، كما غفل، أو تغافل، عن الأدلّة الكثيرة، التي ساقها الجمهور؛ لإثبات تحريمها!!!

فنظرة الجمهور - إلى المتعة - ليست بخلاف نظرة الطاعن؛ فإنّهم يطعنون في القول بإباحتها، كما يطعن هو؛ ولكنّ الفرق بينهما أنّ الجمهور إنّما

يوجّهون مطاعنهم إلى رأي فقهيّ، والطاعن يوجّه مطاعنه إلى الشريعة الإسلاميّة؛ لأنّه يُوهم الناس أنّ إباحة المتعة حكم شرعيّ إسلاميّ.

والفرق كبير بين الرأي الفقهيّ، والحكم الشرعيّ؛ فالرأي الفقهيّ من إنتاج المؤلّف الفقهيّ، وهو بشرٌ: يُصيب إذا وافق الصورة التنزيليّة في تأليفه الفقهيّ، ويُخطئ إذا خالف الصورة التنزيليّة في تأليفه الفقهيّ.

أمّا الحكم الشرعيّ؛ فهو الحكم المنزَّل، على النبيّ ﷺ، وهو حكم معصوم من الخطإ، بخلاف الرأي الفقهيّ؛ فإنّه قد يكون من جملة الأخطاء، حين يعتمد المؤلّف على المصادر السقيمة، المخالفة للمصدر الوحيد الصحيح: الفهم السليم للوحي الإلهيّ المنزَّل.

وبالاعتماد على مبدإ (قطعيّة الأدلّة)، ومبدإ (شخصيّة الجريمة) تسقط - من الاعتبار - تهمة (إباحة المتعة)، الموجَّهة إلى الإسلام؛ لأنّها تهمة مستندة إلى صورة غير قطعيّة؛ فهي صورة من الصور التأليفيّة الاختلافيّة.

ولأنّ (إباحة المتعة)، إذا عُدّت جريمة، فالجريمة شخصيّة، تتعلّق بأصحابها، وهم من أفتوا بإباحتها، من المنسوبين إلى (الإسلام)، دون من سواهم، من جمهور المؤلّفين، الذين قالوا بتحريمها؛ فكيف تُنسَب بعد ذلك كلّه، إلى (الشريعة الإسلاميّة)؟!!!

الفروق بين الحقائق الإسلاميّة والمباحث التأليفيّة

يجب التنبيه على وجود فروق كثيرة، وكبيرة، بين الحقائق الإسلاميّة، والمباحث التأليفيّة، المنسوبة إلى (الإسلام).

فالحقائق الإسلاميّة: صحيحة كلّ الصحّة، سليمة كلّ السلامة، بريئة كلّ البراءة، من الأخطاء، والأوهام، والأباطيل.

بخلاف (المباحث التأليفيّة)، التي تتعلّق ببيان (الحقائق الإسلاميّة)؛ فإنّها من تأليف المؤلّفين، وهم بشرٌ، يُصيبون، ويُخطئون.

ومن هنا وجبت مراعاة الفروق المهمّة الدقيقة، بين (الحقائق الإسلاميّة)، و(المباحث التأليفيّة). وأبرز تلك الفروق:

أوّلًا– الفروق بين القرآن الكريم، والمباحث التأليفيّة المتعلّقة به، وتشمل:

١– الفروق بين القرآن الكريم، وقراءات القرّاء.

٢– الفروق بين القرآن الكريم، وتفسيرات المفسّرين.

٣– الفروق بين القرآن الكريم، وروايات أسباب النزول.

٤– الفروق بين القرآن الكريم، وأقوال الناسخ والمنسوخ.

٥– الفروق بين القرآن الكريم، وروايات المكّيّ والمدنيّ.

٦– الفروق بين القرآن الكريم، وآراء بعض المؤلّفين في الإعجاز.

ثانيًا– الفروق بين السنّة النبويّة، والمباحث التأليفيّة المتعلّقة بها، وتشمل:

١– الفروق بين السنّة النبويّة، والأحاديث.

٢– الفروق بين السنّة النبويّة، وشروح الحديث.

٣– الفروق بين السنّة النبويّة، ومباحث علوم الحديث.

ثالثًا– الفروق بين الشريعة الإسلاميّة، والمباحث التأليفيّة المتعلّقة بها، وتشمل:

١– الفروق بين الأحكام الشرعيّة العَقَديّة، والآراء العَقَديّة.

٢– الفروق بين الأحكام الشرعيّة العمليّة، والآراء الأصوليّة.

٣– الفروق بين الأحكام الشرعيّة العمليّة، والآراء الفقهيّة.

٤– الفروق بين الأحكام الشرعيّة الخُلُقيّة، والآراء الخُلُقيّة.

رابعًا– الفروق بين الواقع الإسلاميّ، والأخبار التاريخيّة.

خامسًا– الفروق بين النصّ الأصيل، وترجمة النصّ.

قال محمّد رشيد رضا: «والآية حُجّة على الحَشْويّة المُقلِّدين، من هذه الأمّة، الذين يخلطون الحقّ المنزَّل، بآراء الناس، ويجعلون كلّ ذلك دينًا سماويًّا، وشرعًا إلهيًّا»(١).

وقال محمّد الغزاليّ: «بيد أنّ دراسة التكاليف الفرعيّة أخذت من المسلمين جهودًا غريبة، استنفدت أوقاتًا ضخمة، وهي لا تستحقّ هذا العناء كلّه. والأدهى من ذلك أنّ هذه الدراسة سارت في طريق معوجّة، فكلّ يوم يمرّ يُبعِدها عن الحقّ خطوة. وذلك أنّ المفروضَ كان عَرْضَ النصّ، الذي يُراد أخذُ الجماهير به، ثمّ تُذكَر وجهات النظر، في فهمه. لكنّ الذي حدث هو انفصال الأفهام المختلفة، عن أدلّتها الأُولى، من الكتاب والسنّة، ثمّ تسجيلها على حدة. فدُوِّنت أقوال العلماء، وشروحهم، على أنّها الدين نفسه، وتنقّلت بين الأجيال المتأخِّرة، مقطوعةً عن أصلها، من الكتاب والسنّة؛ وعذرها الذي تسير به بين الناس: أنّها لم تخرج عن واحد منهما، وأنّ العلماء الذين كتبوا هذه الشروح يسّروا على العامّة تناوُل أحكام الله، دون عناء، وأنّهم – بالنسبة إلى

---

(١) تفسير القرآن الحكيم: ٣/٣٣٣.

صاحب الرسالة ﷺ - كما قيل:

وكلّهم من رسول الله مُلتمِسٌ   رَشْفًا من البحر، أو غَرْفًا من الدِّيَم

ومع تقديرنا للنيّات، والجهود، التي بذلها أبو حنيفة، ومالك، والشافعيّ، وابن حنبل، وغيرهم من فقهاء الأمصار، في عصور الإسلام الزاهرة، فنحن نعتقد أنّهم لو بُعِثوا اليوم أحياء، ورأوا ما صنع الأخلاف بتراثهم الفقهيّ، لكانوا أوّل الثائرين عليه. إنّني أعرف أنّ قول رجل من المسلمين: "أنا حنفيّ"، معناه أنّه اتّبع فهم أبي حنيفة لقول رسول الله ﷺ. ومع ذلك، فإنّني أرفض أن يبقى تدريس الفروع الفقهيّة، على النحو المذهبيّ الذي ينتشر في أكثر بلاد الإسلام، وأرفض أيّ إشارة تُقسِّم المسلمين جماعات، قد سجنَتْ كلُّ واحدة منها نفسَها، وراء رجل من كبار الفقهاء، أو صغارهم. وأرى أن يُدرَّس الدين نفسه، أي: الكتاب الكريم، والسنّة المُطهَّرة، ثمّ تُساق جميع الأفهام التي عنَّت للعلماء المتقدِّمين، أو تعنُّ للعلماء المتأخِّرين، بعد هذه النصوص الشرعيّة. مع تبيين أيّ هذه الأفهام لا يتعيّن اتّباع واحد منها على مسلم. إنّ هجر الأصول علَّق الأمّة بآراء الرجال الكبار. ثمّ تعلّقت بعد ذلك بآراء الفقهاء الصغار. ثمّ جاءت أيّام أصبحت فيه السنن مُستغرَبة، والنصوص مُبهَمة، ومنابع الإسلام مهجورة. ثمّ وقعت الأضحوكة الكبرى؛ إذ أصبح أتباع المذاهب الفقهيّة يتعصّبون لأئمّتهم تعصُّبًا أعمى. ويحتبسون في عبارات كتب مذهبيّة، لا قيمة لها. وعندما التحقنا بالأزهر، أُريد لبعضنا أن يكون حنفيًّا، والآخر أن يكون مالكيًّا.. إلخ. كأنّ هذه النِّسبة العلميّة بعض شعائر الإسلام! وإلى عهد قريب، كانت الجماعة تتعدّد، في المسجد الواحد، على المذاهب الأربعة؟ ثمّ انحدرت الخلافات المذهبيّة، من سنين طويلة، إلى هاوية أعمق؛ إذ تحوّلت إلى عصبيّات طائفيّة، متحاقدة. يصحبها قدر كبير، من جمود الذهن، وبلادة العاطفة، وسوء

العشرة. ولا عجب! فهل يُنتظَر من الذهول، عن قول الله، ورسوله، إلّا هذا التقطُّع؟ وهل يُنتظَر من العكوف، على آراء الرجال، إلّا هذا الانقطاع؟ ومرّة أخرى نسأل: لِمَ هذا القتال في غير عدوّ؟ ولِمَ هذا النشاط في غير ميدان؟ ولِمَ هذا الإدمان، والتقعُّر، في المباحث الفرعيّة، للفقه الإسلاميّ، خصوصًا العبادات؟ لو أنّ نصف هذا الجهد بُذِل في دراسة الأصول، أو في أخذ العامّة، بآداب الإسلام، وفضائله، لكانت حال المسلمين اليوم أنضر، وأزهر!»[(١)].

وقال محمّد قطب: «وحقائق الإسلام ثابتة، لا تتغيّر، منذ أُنزِلت على رسول الله ﷺ، إلى قيام الساعة. المرجع فيها هو كتاب الله المنزَّل، وسنّة رسوله ﷺ؛ ولكنّ علماء الأمّة - في كلّ جيل - يتناولونها بالشرح والتفسير، من خلال الواقع، الذي يعيشه كلّ جيل، وما جدَّ فيه من نوازل، وما حدث فيه من انحراف، في الفهم، أو السلوك؛ لكي تظلّ في حسّ الأجيال كلّها، على وضوحها، واستقامتها، لا يعتريها غبش، ولا انحراف. وإنّ جيلنا الذي نعيش فيه لهو من أحوج الأجيال، إلى التعرُّف على حقائق دينه، بسبب الغربة، التي ألمّت بالإسلام، في قلوب أهله...»[(٢)].

---

(١) كيف نفهم الإسلام: ١٣٧-١٣٨.

(٢) ركائز الإيمان: ٥-٦.

ليست كلّ القراءات صحيحة، ولا سيّما القراءات الشاذّة؛ وليست كلّ مباحث علم القراءات صحيحة قطعيّة، ولا سيّما المباحث الخلافيّة.

قال الفخر الرازيّ: «المسألة الثانية عشرة: اتّفقوا على أنّه لا يجوز في الصلاة قراءة القرآن بالوجوه الشاذّة، مثل قولهم: "الحمد لله"، بكسر الدال من "الحمد"، أو بضمّ اللام من "لله"؛ لأنّ الدليل ينفي جواز القراءة بها مطلقًا؛ لأنّها لو كانت من القرآن، لوجب بلوغها في الشهرة إلى حدّ التواتر، ولمّا لم يكن كذلك، علمنا أنّها ليست من القرآن، إلّا أنّا عدلنا عن هذا الدليل، في جواز القراءة، خارج الصلاة، فوجب أن تبقى قراءتها - في الصلاة - على أصل المنع»[1].

وقال الفخر الرازيّ أيضًا: «المسألة الثالثة عشرة: اتّفق الأكثرون على أنّ القراءات المشهورة منقولة بالنقل المتواتر، وفيه إشكال: وذلك لأنّا نقول: هذه القراءات المشهورة، إمّا أن تكون منقولة بالنقل المتواتر، أو لا تكون؛ فإن كان الأوّل، فحينئذ قد ثبت بالنقل المتواتر أنّ الله تعالى قد خيّر المكلّفين بين هذه القراءات، وسوّى بينها في الجواز، وإذا كان كذلك، كان ترجيح بعضها على البعض واقعًا على خلاف الحكم الثابت بالتواتر، فوجب أن يكون الذاهبون إلى ترجيح البعض على البعض مستوجبين للتفسيق، إن لم يلزمهم التكفير؛ لكنّا نرى أنّ كلّ واحد من هؤلاء القرّاء يختصّ بنوع معيّن من القراءة، ويحمل الناس عليها، ويمنعهم من غيرها، فوجب أن يلزم في حقّهم ما ذكرناه. وأمّا إن قلنا: إنّ

(١) التفسير الكبير: ١/ ٧٠.

هذه القراءات ما ثبتت بالتواتر، بل بطريق الآحاد، فحينئذ يخرج القرآن عن كونه مفيدًا للجزم والقطع واليقين، وذلك باطل بالإجماع. ولقائل أن يُجيب عنه، فيقول: بعضها متواتر، ولا خلاف بين الأمّة فيه، وتجويز القراءة بكلّ واحد منها، وبعضها من باب الآحاد، وكون بعض القراءات من باب الآحاد، لا يقتضي خروج القرآن بكلّيّته عن كونه قطعيًّا»(١).

وقال الفخر الرازيّ أيضًا: «والجواب الصحيح أنّ القراءة الشاذّة مردودة؛ لأنّ كلّ ما كان قرآنًا وجب أن يثبت بالتواتر، فحيث لم يثبت بالتواتر، قطعنا أنّه ليس بقرآن»(٢).

وقال الفخر الرازيّ أيضًا: «القراءة الشاذّة لا تُبطل القراءة المتواترة، فنحن نتمسّك بالقراءة المتواترة، في إثبات مذهبنا. وأيضًا القراءة الشاذّة ليست بحجّة عندنا؛ لأنّا نقطع أنّها ليست قرآنًا، إذ لو كانت قرآنًا، لكانت متواترة...»(٣).

وقال الفخر الرازيّ أيضًا: «فهذه هي القراءات الشاذّة المذكورة في هذه الآية. واعلم أنّ المحقّقين قالوا: هذه القراءات لا يجوز تصحيحها؛ لأنّها منقولة بطريق الآحاد، والقرآن يجب أن يكون منقولًا بالتواتر؛ إذ لو جوّزنا إثبات زيادة في القرآن بطريق الآحاد، لما أمكننا القطع بأنّ هذا الذي هو عندنا كلّ القرآن؛ لأنّه لمّا جاز في هذه القراءات، أنّها - مع كونها من القرآن - ما نُقِلت بالتواتر، جاز في غيرها ذلك؛ فثبت أنّ تجويز كون هذه القراءات - من القرآن - يُطرِّق جواز الزيادة، والنقصان، والتغيير، إلى القرآن، وذلك يُخرِج

---

(١) التفسير الكبير: ١/٧٠-٧١.

(٢) التفسير الكبير: ٦/٩١.

(٣) التفسير الكبير: ١١/٢٣٣.

القرآن، عن كونه حُجّة؛ ولمّا كان ذلك باطلًا، فكذلك ما أدّى إليه»[1].

وقال أبو شامة: «واعلم أنّ القراءات الصحيحة المعتبَرة المجمَع عليها: قد انتهت، إلى السبعة القُرّاء، المُقدَّم ذِكرُهم، واشتهر نقلها عنهم؛ لتصدّيهم لذلك، وإجماع الناس عليهم، فاشتهروا بها، كما اشتهر - في كلّ علم، من الحديث، والفقه، والعربيّة - أئمّة، اقتُدي بهم، وعُوّل فيها عليهم. ونحن - فإن قلنا[2]: إنّ القراءات الصحيحة إليهم نُسبت، وعنهم نُقلت - فلسنا ممّن يقول: إنّ جميع ما رُوي عنهم يكون بهذه الصفة، بل قد رُوي عنهم ما يُطلَق عليه أنّه ضعيف، وشاذّ، بخروجه، عن الضابط المذكور، باختلال بعض الأركان الثلاثة، ولهذا ترى كتب المصنّفين - في القراءات السبع - مختلفة في ذلك، ففي بعضها ذِكرُ ما سقط، في غيرها، والصحيح بالاعتبار - الذي ذكرناه - موجود في جميعها، إن شاء الله تعالى. فلا ينبغي أن يُغتَرَّ بكلّ قراءة، تُعزى إلى واحد، من هؤلاء الأئمّة السبعة، ويُطلَق عليها لفظ الصحّة، وإن هكذا أنزلت[3]، إلّا إذا دخلت، في ذلك الضابط، وحينئذٍ، لا ينفرد بنقلها مصنّف، عن غيره، ولا يختصّ ذلك بنقلها عنهم، بل إن نُقِلت عن غيرهم، من القُرّاء، فذلك لا يُخرِجها، عن الصحّة. فإنّ الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف، لا عمّن تُنسَب إليه. فإنّ القراءات المنسوبة، إلى كلّ قارئ - من السبعة، وغيرهم - منقسمة، إلى المُجمَع عليه، والشاذّ، غير أنّ هؤلاء السبعة - لشهرتهم، وكثرة الصحيح، المجتمَع عليه، في قراءتهم -

---

(١) التفسير الكبير: ٢٢/٧٥.

(٢) في المطبوع: (فإن قلنا)، والصواب: (وإن قلنا).

(٣) في المطبوع: (وإن هكذا أنزلت)، والصواب: (وأنّها هكذا أُنزِلت).

تركن النفس، إلى ما نُقل عنهم، فوق ما يُنقَل عن غيرهم...»[1].

وقال أبو شامة أيضًا: «وقد شاع على ألسنة جماعة من المقرئين المتأخّرين وغيرهم من المقلّدين أنّ القراءات السبع كلّها متواترة، أي: كلّ فرد، فرد، ممّا رُوي عن هؤلاء الأئمّة السبعة، قالوا: والقطع - بأنّها منزَّلة، من عند الله - واجب. ونحن بهذا نقول، ولكن فيما اجتمعت على نقله عنهم الطرق، واتّفقت عليه الفرق، من غير نكير له، مع أنّه شاع واشتهر واستفاض، فلا أقلّ من اشتراط ذلك، إذا لم يتّفق التواتر في بعضها. فإنّ القراءات السبع المراد بها ما رُوي عن الأئمّة السبعة القرّاء المشهورين، وذلك المرويّ عنهم منقسم إلى ما أُجمع عليه عنهم، لم يختلف فيه الطرق، وإلى ما اختُلف فيه، بمعنى أنّه نُفيت نسبته إليهم في بعض الطرق. فالمصنّفون لكتب القراءات يختلفون في ذلك، اختلافًا كثيرًا، ومن تصفّح كتبهم في ذلك، ووقف على كلامهم فيه، عرف صحّة ما ذكرناه. وأمّا من يهوّل في عبارته قائلًا: إنّ القراءات السبع متواترة، لأنّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فخطؤه ظاهر؛ لأنّ الأحرف السبعة المراد بها غير القراءات السبع، على ما سبق تقريره في الأبواب المتقدّمة. ولو سُئل هذا القائل عن القراءات السبع التي ذكرها، لم يعرفها، ولم يهتدِ إلى حصرها، وإنّما هي شيء طرق سمعه، فقاله غير مفكّر في صحّته، وغايته - إن كان من أهل هذا العلم - أن يُجيب بما في الكتاب الذي حفظه. والكتب في ذلك كما ذكرنا مختلفة، ولا سيّما كتب المغاربة والمشارقة، فبين كتب الفريقين تباين في مواضع كثيرة، فكم في كتابه من قراءة قد أُنكرت، وكم فات كتابه من قراءة صحيحة فيه ما سُطرت، على أنّه لو عرف شروط التواتر، لم يجسر على إطلاق هذه

---

(١) المرشد الوجيز: ١٣٤-١٣٥.

العبارة في كلّ حرف من حروف القراءة. فالحاصل: إنّا لسنا ممّن يلتزم التواتر في جميع الألفاظ المختلَف فيها بين القرّاء، بل القراءات كلّها منقسمة إلى متواتر وغير متواتر، وذلك بيّن لمن أنصف وعرف وتصفّح القراءات وطرقها. وغاية ما يُبديه مدّعي تواتر المشهور منها - كإدغام أبي عمرو، ونقل الحركة لورش، وصلة ميم الجمع، وهاء الكناية لابن كثير - أنّه متواتر عن ذلك الإمام، الذي نُسبت تلك القراءة إليه، بعد أن يُجهد نفسه في استواء الطرفين والواسطة، إلّا أنّه بقي عليه التواتر من ذلك الإمام إلى النبيّ ﷺ، في كلّ فرد، فرد، من ذلك، وهنالك تُسكَب العبرات، فإنّها من ثمّ لم تُنقَل إلّا آحادًا، إلّا اليسير منها. وقد حقّقنا هذا الفصل، أيضًا، في "كتاب البسملة الكبير"، ونقلنا فيه، من كلام الحُذّاق - من الأئمّة المُتقِنين - ما تلاشى عنده شُبَه المشنِّعين، وبالله التوفيق»(١).

وقال الزركشيّ: «واعلم أنّ القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزَّل على محمّد ﷺ، للبيان والإعجاز؛ والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبة الحروف أو كيفيّتها؛ من تخفيف وتثقيل وغيرهما. ثمّ ههنا أمور: أحدها أنّ القراءات السبع متواترة عند الجمهور، وقيل: بل مشهورة، ولا عبرة بإنكار المبرّد قراءة حمزة: "والأرحامِ" و"مصرخيِّ"، ولا بإنكار مغاربة النحاة كابن عصفور قراءة ابن عامر: "قتلُ أولادَهم شركائهم". والتحقيق: أنّها متواترة، عن الأئمّة السبعة؛ أمّا تواترها عن النبيّ ﷺ، ففيه نظر؛ فإنّ إسناد الأئمّة السبعة بهذه القراءات السبعة موجود في كتب القراءات، وهي نقل الواحد عن الواحد، لم تكمل شروط التواتر، في استواء الطرفين والواسطة،

---

(١) المرشد الوجيز: ١٣٥-١٣٦.

وهذا شيء موجود في كتبهم، وقد أشار الشيخ شهاب الدين أبو شامة في كتابه "المرشد الوجيز" إلى شيء من ذلك»[1].

وقال الزركشيّ أيضًا: «قلت: وما أفتى به الشيخان نقله النوويّ في شرح المهذّب عن أصحاب الشافعيّ، فقال: قال أصحابنا وغيرهم: لا تجوز القراءة في الصلاة ولا غيرها بالقراءة الشاذّة؛ لأنّها ليست قرآنًا، لأنّ القرآن لا يثبت إلّا بالتواتر، والقراءة الشاذّة ليست متواترة؛ ومن قال غيره، فغالِطٌ أو جاهِلٌ، فلو خالف وقرأ بالشاذّ، أُنكر عليه قراءتها في الصلاة وغيرها، وقد اتّفق فقهاء بغداد على استتابة من قرأ بالشواذّ. ونقل ابن عبد البرّ إجماع المسلمين على أنّه لا تجوز القراءة بالشواذّ، ولا يُصلّى خلف من يقرأ بها»[2].

وقال الزركشيّ أيضًا: «الثالث: أنّ القراءات توقيفيّة، وليست اختياريّة، خلافًا لجماعة منهم الزمخشريّ، حيث ظنّوا أنّها اختياريّة، تدور مع اختيار الفصحاء، واجتهاد البلغاء. وردّ على حمزة قراءة: "والأرحامِ" بالخفض؛ ومثل ما حُكي عن أبي زيد والأصمعيّ ويعقوب الحضرميّ أن خطّأوا حمزة في قراءته: "وما أنتم بمصرخيِّ" بكسر الياء المشدّدة، وكذا أنكروا على أبي عمرو إدغامه الراء عند اللام في: "يغفلَّكم". وقال الزجّاج: إنّه خطأ فاحش؛ ولا تُدغَم الراء في اللام إذا قلتَ: "مُرْ لِي" بكذا؛ لأنّ الراء حرف مكرّر، ولا يُدغَم الزائد في الناقص للإخلال به؛ فأمّا اللام فيجوز إدغامه في الراء، ولو أُدغمت اللام في الراء، لزم التكرير من الراء. وهذا إجماع النحويّين. انتهى. وهذا تحامُلٌ...»[3].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/٣١٨-٣١٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١/٣٣٣.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ١/٣٢١-٣٢٢.

وقال الزركشيّ أيضًا: «وعن الإمام أحمد بن حنبل أنّه كره قراءة حمزة؛ لِما فيها من طول المدّ وغيره، فقال: لا تعجبني، ولو كانت متواترة، لَما كرهها»[1].

وقال ابن الجزريّ: «ومتى اختلّ ركن من هذه الأركان الثلاثة، أُطلِق عليها ضعيفة، أو شاذّة، أو باطلة، سواء كانت عن السبعة، أم عمّن هو أكبر منهم؛ هذا هو الصحيح عند أئمّة التحقيق، من السلف والخلف...»[2].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/٣٢٠.

(٢) النشر في القراءات العشر: ١/٩.

ليست كلّ تفسيرات المفسّرين صحيحة، ولا سيّما تفسيرات الغلاة؛ وليست كلّ مباحث علم التفسير صحيحة قطعيّة، ولا سيّما المباحث الخلافيّة.

قال ابن تيميّة: «والمقصود هنا التنبيه على مثار الاختلاف في التفسير، وأنّ من أعظم أسبابه البدع الباطلة، التي دعت أهلها إلى أن حرّفوا الكلم عن مواضعه، وفسّروا كلام الله ورسوله ﷺ، بغير ما أُريد به، وتأوّلوه على غير تأويله، فمن أصول العلم بذلك أن يعلم الإنسان القول الذي خالفوه، وأنّه الحقّ، وأن يعرف أنّ تفسير السلف يخالف تفسيرهم، وأن يعرف أنّ تفسيرهم محدَث مبتدَع، ثمّ أن يعرف بالطرق المفصّلة فساد تفسيرهم، بما نصبه الله من الأدلّة على بيان الحقّ»(١).

وقال ابن تيميّة أيضًا: «ولا بدّ في تفسير القرآن والحديث من أن يُعرَف ما يدلّ على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يُفهَم كلامه، فمعرفة العربيّة التي خوطبنا بها ممّا يُعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني؛ فإنّ عامّة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنّهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدّعون أنّه دالّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك، ويجعلون هذه الدلالة حقيقة، وهذه مجازًا»(٢).

وقال ابن تيميّة أيضًا: «إحداهما: قوم اعتقدوا معاني، ثمّ أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها. والثانية: قوم فسّروا القرآن بمجرّد ما يسوغ أن يُريده بكلامه

---

(١) مجموعة الفتاوى: ١٣/١٩٤.

(٢) مجموعة الفتاوى: ٧/٧٨.

من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر، إلى المتكلّم بالقرآن، والمنزَّل عليه، والمخاطَب به. فالأوّلون راعوا المعنى، الذي رأوه، من غير نظر، إلى ما تستحقّه ألفاظ القرآن، من الدلالة والبيان. والآخرون راعوا مجرّد اللفظ، وما يجوز عندهم أن يُريد به العربيّ، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلّم به، ولسياق الكلام. ثمّ هؤلاء كثيرًا ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة، كما يغلط في ذلك الذين قبلهم، كما أنّ الأوّلين كثيرًا ما يغلطون في صحّة المعنى الذي فسّروا به القرآن، كما يغلط في ذلك الآخرون، وإن كان نظر الأوّلين إلى المعنى أسبق، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق. والأوّلون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن ما دلّ عليه، وأُريد به، وتارة يحملونه على ما لم يدلّ عليه، ولم يُرَد به، وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلًا، فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول، وقد يكون حقًّا، فيكون خطؤهم في الدليل، لا في المدلول»(١).

وقال ابن تيميّة أيضًا: «وكثير منهم إنّما ينظر من تفسير القرآن والحديث فيما يقوله موافقوه على المذهب، فيتأوّل تأويلاتهم، فالنصوص التي توافقهم يحتجّون بها، والتي تخالفهم يتأوّلونها، وكثير منهم لم يكن عمدتهم في نفس الأمر اتّباع نصّ أصلًا»(٢).

وقال ابن تيميّة أيضًا: «فما قاله الناس من الأقوال المختلفة في تفسير القرآن وتأويله ليس لأحد أن يصدّق بقول، دون قول، بلا علم، ولا يكذّب بشيء منها، إلّا أن يُحيط بعلمه، وهذا لا يُمكن إلّا إذا عرف الحقّ الذي أُريد

(١) مجموعة الفتاوى: ١٣/١٩٠-١٩١.

(٢) مجموعة الفتاوى: ١٧/٢٤٠.

بالآية، فيعلم أنّ ما سواه باطل، فيكذّب بالباطل، الذي أحاط بعلمه، وأمّا إذا لم يعرف معناها، ولم يُحط بشيء منها علمًا، فلا يجوز له التكذيب بشيء منها، مع أنّ الأقوال المتناقضة بعضها باطل قطعًا، ويكون حينئذ المكذّب بالقرآن كالمكذّب بالأقوال المتناقضة، والمكذّب بالحقّ كالمكذّب بالباطل، وفساد اللازم يدلّ على فساد الملزوم»[1].

وقال ابن تيميّة أيضًا: «وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة، مثل الحديث الذي يرويه الثعلبيّ والواحديّ والزمخشريّ، في فضائل سور القرآن، سورة، سورة؛ فإنّه موضوع باتّفاق أهل العلم. والثعلبيّ هو في نفسه كان فيه خير ودين، وكان حاطب ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير، من صحيح، وضعيف، وموضوع؛ والواحديّ صاحبه كان أبصر منه، بالعربيّة؛ لكن هو أبعد عن السلامة، واتّباع السلف، والبغويّ تفسيره مختصر من الثعلبيّ، لكنّه صان تفسيره، عن الأحاديث الموضوعة، والآراء المبتدَعة. والموضوعات في كتب التفسير كثيرة...»[2].

وقال أبو حيّان الأندلسيّ: «وكثيرًا ما يشحن المفسّرون تفاسيرهم من ذلك الإعراب، بعلل النحو، ودلائل أصول الفقه، ودلائل أصول الدين، وكلّ هذا مقرَّر في تآليف هذه العلوم، وإنّما يؤخَذ ذلك مسلَّمًا في علم التفسير، دون استدلال عليه، وكذلك أيضًا ذكروا ما لا يصحّ من أسباب نزول، وأحاديث في الفضائل، وحكايات لا تناسب، وتواريخ إسرائيليّة، ولا ينبغي ذكر هذا في علم التفسير. ومن أحاط بمعرفة مدلول الكلمة وأحكامها قبل التركيب، وعلم كيفيّة

---

(١) مجموعة الفتاوى: ١٧/ ٢١٨.

(٢) مجموعة الفتاوى: ١٣/ ١٩٠.

تركيبها في تلك اللغة، وارتقى إلى تمييز حسن تركيبها وقبحه، فلن يحتاج في فهم ما تركّب من تلك الألفاظ إلى مفهّم ولا معلّم، وإنّما تفاوت الناس في إدراك هذا الذي ذكرناه، فلذلك اختلفت أفهامهم، وتباينت أقوالهم. وقد جرّينا الكلام يومًا مع بعض من عاصرنا، فكان يزعم أنّ علم التفسير مضطرّ إلى النقل في فهم معاني تراكيبه، بالإسناد إلى مجاهد وطاوس وعكرمة وأضرابهم، وأنّ فهم الآيات متوقّف على ذلك، والعجب له أنّه يرى أقوال هؤلاء كثيرة الاختلاف، متباينة الأوصاف، متعارضة ينقض بعضها بعضًا. ونظير ما ذكره هذا المعاصر أنّه لو تعلّم أحدنا مثلًا لغة التُّرك، إفرادًا وتركيبًا، حتّى صار يتكلّم بتلك اللغة، ويتصرّف فيها نثرًا ونظمًا، ويعرض ما تعلّمه على كلامهم، فيجده مطابقًا للغتهم، قد شارك فيها فصحاءهم، ثمّ جاءه كتاب بلسان التُّرك، فيُحجِم عن تدبُّره، وعن فهم ما تضمّنه من المعاني، حتّى يسأل عن ذلك سنقرًا التركيّ، أو سنجرًا، ترى مثل هذا يُعدّ من العقلاء؟ وكان هذا المعاصر يزعم أنّ كلّ آية نقل فيها التفسيرَ خلفٌ، عن سلف، بالسند، إلى أن وصل ذلك، إلى الصحابة...»[1].

وقال الزركشيّ: «لطالب التفسير مآخذ كثيرة، أمّهاتها أربعة: الأوّل: النقل عن رسول الله ﷺ، وهذا هو الطراز الأوّل؛ لكن يجب الحذر من الضعيف فيه، والموضوع؛ فإنّه كثير. وإنّ سواد الأوراق سواد في القلب. قال الميمونيّ: سمعتُ أحمد بن حنبل، يقول: ثلاث كتب، ليس لها أصول: المغازي، والملاحم، والتفسير. قال المُحقِّقون، من أصحابه: ومراده أنّ الغالب أنّها

(١) تفسير البحر المحيط: ١/١٠٤.

ليس لها أسانيد، صحاح، متّصلة، وإلّا، فقد صحّ من ذلك كثير...»[1].

وقال السيوطيّ مُعقِّبًا على كلام الزركشيّ: «قلتُ: الذي صحّ من ذلك قليل جدًّا، بل أصل المرفوع منه، في غاية القلّة، وسأسردها كلّها، آخر الكتاب»[2].

وقال محمّد رشيد رضا: «وغرضنا من هذا كلّه أنّ أكثر ما رُوي في التفسير المأثور، أو كثيره: حجاب على القرآن، وشاغل لتاليه، عن مقاصده العالية المزكّية للأنفس، المنوِّرة للعقول، فالمفضِّلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن، بكثرة الروايات، التي لا قيمة لها سندًا، ولا موضوعًا، كما أنّ المفضِّلين لسائر التفاسير لهم صوارف أخرى عنه، كما تقدّم»[3].

وقال محمّد الغزاليّ: «وأكاد أقول: إنّ التفسير الأثريّ أخضع الآيات للأحاديث. وهذا قد يكون طبيعيًّا، في الأسانيد الصحيحة؛ لأنّ الرسول ﷺ هو المُبيِّن عن ربّه؛ لكنّ المشكلة: أنّ بعض الأحاديث - التي جاءت في التفسير بالمأثور - تكون ضعيفة السند...»[4].

وقال صلاح الخالديّ: «إنّ كتاب الثعلبيّ: "عرائس المجالس في قصص الأنبياء" مرفوض عند العلماء، ولا يصلح أن يكون مرجعًا في كتب التفسير، وقصص الأنبياء، ومعظم الحكايات، والأخبار، والروايات، التي فيه: موضوعة، ومردودة، وهي خرافات، وأساطير، مأخوذة عن الإسرائيليّات، المردودة الباطلة.

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/١٥٦.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ٦/٢٢٨٥.

(٣) تفسير القرآن الحكيم: ١/١٠.

(٤) كيف نتعامل مع القرآن: ١٩٨.

وما أخذَه الفادي[1] منه: باطلٌ، ومردود؛ لأنّه ضمن الخرافات، والأساطير، التي ملأَتْ كتابَه! ولا يتحمَّل القرآنُ ما في "عرائس المجالس"، من أخطاء، وخرافات، وأباطيل!»[2].

وقال صلاح الخالديّ أيضًا: «فالواجب علينا أن نبقى مع القرآن في حديثه عن القصّة، ونسكت عمّا سكت عنه، ولا نبيّن بعض المبهَمات التي أبهمها القرآن عمدًا! ولكنّ كثيرًا من المفسّرين لم يفعلوا ذلك، وذهبوا إلى الأخبار والروايات التي لم تثبت، والإسرائيليّات التي تفصّل الكلام، وفسّروا بها كلام الله، وبيّنوا بها المبهَمات التي أبهمها القرآن»[3].

---

(١) هو اسم مستعار لِمن ألّف كتاب (هل القرآن معصوم). وقد ردّ صلاح الخالديّ، على هذا الكتاب، بتأليفه كتابه: (القرآن ونقض مطاعن الرهبان).

(٢) القرآن ونقض مطاعن الرهبان: ١/٥٥-٥٦.

(٣) القرآن ونقض مطاعن الرهبان: ١/١٥٨.

ليست تلك الروايات بثابتة، ثبوتًا قطعيًّا، كثبوت القرآن الكريم، والكثير من تلك الروايات - عند بعض المؤلّفين - روايات مكذوبة موضوعة مفتراة، لا قيمة لها. وتصحيح بعض المؤلّفين لبعض روايات أسباب النزول: ليس أكثر من اجتهاد، قد يُفيد الظنّ عند من يركن إليه، وليس تصحيحًا اتّفاقيًّا قطعيًّا.

قال الواحديّ: «ولا يحلّ القول في أسباب نزول الكتاب، إلّا بالرواية والسماع، ممّن شاهد التنزيل، ووقف على الأسباب، وبحث عن العلم وجدّ في الطلاب. وقد ورد الشرع بالوعيد للجاهل ذي العثار، في هذا العلم بالنار»(١).

ثمّ قال: «وأمّا اليوم فكلّ أحد يخترع للآية سببًا، ويختلق إفكًا وكذبًا، ملقيًا زمامه إلى الجهالة، غير مفكّر في الوعيد للجاهل بسبب الآية»(٢).

وقال محمّد رشيد رضا: «ومن عجيب شأن رواة أسباب النزول أنّهم يمزّقون الطائفة الملتئمة من الكلام الإلهيّ، ويجعلون القرآن عضين متفرّقة، بما يفكّكون الآيات، ويفصلون بعضها من بعض، وبما يفصلون بين الجمل الموثَقة في الآية الواحدة، فيجعلون لكلّ جملة سببًا مستقلًّا، كما يجعلون لكلّ آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سببًا مستقلًّا. انظر هذه الآيات تجد إعجازها في بلاغة الأسلوب، أن مهّدت للأمر بتحويل القبلة، ما يُشعر به في ضمن حكاية شبهة المعترضين، التي ستقع منهم، وبتوهين هذه الشبهة بإسنادها إلى السفهاء من الناس، وإيرادها مجملة، وبوصلها بالدليل على فسادها، وبذكر

---

(١) أسباب نزول القرآن: ٩٦.

(٢) أسباب نزول القرآن: ٩٨.

هداية الصراط المستقيم، الذي لا التواء فيه، ولا اعوجاج، ولا تفريط عند سالكيه، ولا إفراط، وبذكر مكانة هذه الأمّة بدينها، واعتدالها في جميع أمرها، وببيان الحكمة، في جعل القبلة الأولى قبلة، ثمّ التحويل عنها، وبالتلطّف في الإخبار، عمّا سيكون، من ارتداد بعض من يدّعون الإيمان، عن دينهم؛ افتتانًا بالتحويل، وجهلًا بالأمر، إذ أورد الخبر، في سياق بيان الحكمة؛ حتّى لا يعظم وقعه، على النبيّ، والمؤمنين، وببيان أنّ المسألة كبيرة، على غير المنعَم عليهم، بالهداية الإلهيّة، التي سبق ذكرها، وهي الإيمان الكامل، بمعرفة دلائل المسائل، وحكم الأحكام، ثمّ بتبشير المؤمنين المهتدين، الثابتين على اتّباع الرسول ﷺ، بإثابة الله إيّاهم، برأفته ورحمته، وفضله وإحسانه. وبعد هذا كلّه أمره بالتحوّل أمرًا صريحًا، كما سيأتي في تفسير بقيّة الآيات. أفيصحّ في مثل هذا السياق - الموثَق بعض جمله وآياته ببعض - أن نفكّ وُثُقَه، ويُجعَل نُتَفًا، نُتَفًا، ويُقال: إنّ كلّ جملة منه نزلت لحادثة حدثت، أو كلمة قيلت، وإن أدّى ذلك إلى قلب الوضع، وجعل الأوّل آخرًا، والآخر أوّلًا، وجعل آيات التمهيد متأخّرة في النزول عن آيات المقصد؟ أتسمح لنا اللغة والدين، بأن نجعل القرآن عضين؛ لأجل روايات رُويت، وإن قيل: إنّ إسناد بعضها قويّ، بحسب ما عُرف من تاريخ الراوين؟!»(١).

وقال ابن عاشور: «أُولع كثير من المفسّرين، بتطلّب أسباب نزول آي القرآن، وهي حوادث، يُروى أنّ آيات - من القرآن - نزلت لأجلها؛ لبيان حكمها، أو لحكايتها، أو إنكارها، أو نحو ذلك، وأغربوا في ذلك، وأكثروا، حتّى كاد بعضهم، أن يُوهم الناس أنّ كلّ آية - من القرآن - نزلت على

---

(١) تفسير القرآن الحكيم: ٢/١١.

سبب، وحتّى رفعوا الثقة، بما ذكروا. بيد أنّا نجد – في بعض آي القرآن – إشارة إلى الأسباب، التي دعت إلى نزولها، ونجد – لبعض الآي – أسبابًا، ثبتت بالنقل، دون احتمال أن يكون ذلك رأي الناقل، فكان أمر أسباب نزول القرآن دائرًا بين القصد، والإسراف، وكان في غضّ النظر عنه – وإرسال حبله على غاربه – خطر عظيم، في فهم القرآن. فذلك الذي دعاني، إلى خوض هذا الغرض، في مقدّمات التفسير؛ لظهور شدّة الحاجة، إلى تمحيصه، في أثناء التفسير، وللاستغناء عن إعادة الكلام عليه، عند عروض تلك المسائل، غير مدّخر ما أراه – في ذلك – رأيًا، يجمع شتاتها. وأنا عاذر المتقدّمين، الذين ألّفوا، في أسباب النزول – فاستكثروا منها – بأنّ كلّ من يتصدّى لتأليف كتاب، في موضوع، غير مشبَع، تمتلكه محبّة التوسُّع فيه، فلا ينفكّ يستزيد، من ملتقطاته؛ ليُذكي قَبَسه، ويُمِدّ نَفَسه، فيرضى بما يجد، رضى الصبّ بالوعد، ويقول: "زدني من حديثك، يا سعد". غير هيّاب لعاذل، ولا متطلّب معذرة عاذر، وكذلك شأن الولع، إذا امتلك القلب؛ ولكنّي لا أعذر أساطين المفسّرين، الذين تلقّفوا الروايات الضعيفة، فأثبتوها، في كتبهم، ولم ينبّهوا على مراتبها، قوّة وضعفًا، حتّى أوهموا كثيرًا من الناس أنّ القرآن لا تنزل آياته، إلّا لأجل حوادث تدعو إليها، وبئس هذا الوهم؛ فإنّ القرآن جاء هاديًا إلى ما به صلاح الأمّة، في أصناف الصلاح، فلا يتوقّف نزوله على حدوث الحوادث، الداعية إلى تشريع الأحكام. نعم إنّ العلماء توجّسوا منها، فقالوا: "إنّ سبب النزول لا يخصّص"، إلّا طائفة شاذّة، ادّعت التخصيص بها، ولو أنّ أسباب النزول كانت كلّها متعلّقة بآيات عامّة، لَما دخل من ذلك ضرّ على عمومها؛ إذ قد أراحنا أئمّة الأصول، حين قالوا: "العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب"، ولكنّ أسبابًا كثيرة، رام رواتها

تعيين مراد، من تخصيص عامّ، أو تقييد مطلق، أو إلجاء إلى محمل، فتلك هي التي قد تقف عرضة، أمام معاني التفسير، قبل التنبيه على ضعفها، أو تأويلها»[١].

وقال صبحيّ الصالح: «ولو استعرضنا نظائر هذه الأخطاء التاريخيّة، التي حُملت حملًا، على أسباب النزول، وأنطقت القرآنَ بما لم ينطق، لطال بنا الاستعراض، وامتدّ بنا التجوال، وإنّما ننتهزها فرصة؛ لنضع أيدينا على السرّ الكامن، وراء هذه الأخطاء، فهو - في نظرنا - ظَنُّ أكثر العلماء أن لا بدّ لكلّ آية من سبب نزول، حتّى في وقائع الأمم الماضية، التي دُفنت معها أسبابها ونتائجها، وطُويت في رموسها مقدّماتها وعواقبها؛ فإن كان لزامًا التماس سبب نزول لها، فليكن متعلّقًا بالأحياء، على عهد الرسول الكريم، سواء أكانوا من المؤمنين، أم من المشركين، أم من أهل الكتاب»[٢].

وقال صبحيّ الصالح أيضًا: «وإذا غضضنا النظر عن بعض هذا الخلط، غير المقصود، الناشئ من مبالغة المفسّرين، بإدراج الوقائع الماضية، في أسباب النزول، واجهنا عقبات أخرى، في صيغ الروايات، المتعلّقة بهذه الأسباب، فليست عبارة الراوي الصحيحة نصًّا، في بيان سبب النزول، في جميع الأحوال، بل فيها النصّ الواضح، وفيها ما يحتمل السبب، وسواه...»[٣].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١/٤٦.

(٢) مباحث في علوم القرآن: ١٣٩.

(٣) مباحث في علوم القرآن: ١٤١-١٤٢.

ليست تلك الأقوال بثابتة ثبوتًا قطعيًّا، كثبوت القرآن الكريم؛ بل إنّ أكثر تلك الأقوال عند بعض المؤلّفين: متعارضة، أو ضعيفة، فلا قيمة لها.

وتصحيح بعض المؤلّفين لبعض الأقوال - في النسخ - قد يكون من قبيل الاجتهاد، فهو ليس تصحيحًا اتّفاقيًّا قطعيًّا، فإنّ اختلاف المؤلّفين القدامى - في مسألة النسخ، ومواضعه، ورواياته - واضح كلّ الوضوح.

قال ابن الجوزيّ: «قيل: الخطاب لليهود، فالتقدير: من ساءلكم عن بيان محمّد ﷺ، فاصدقوه، وقيل: أي: كلّموهم بما تحبّون أن يُقال لكم، فعلى هذا: الآية محكمة. وقيل: المراد بذلك مساهلة المشركين في دعائهم إلى الإسلام، فالآية عند هؤلاء منسوخة بآية السيف. وفيه بُعدٌ؛ لأنّ لفظ (الناس) عامّ، فتخصيصه بالكفّار يحتاج إلى دليل»(١).

وقال ابن الجوزيّ أيضًا: «زعم قوم أنّها منسوخة بآية السيف، وليس بصحيح؛ لأنّه لم يأمر بالعفو، مطلقًا، بل إلى غاية، ومثل هذا لا يدخل في المنسوخ»(٢).

وقال ابن الجوزيّ أيضًا: «قال بعضهم: هذا يقتضي نوع مساهلة الكفّار، ثمّ نُسخ بآية السيف. وهو بعيد؛ لأنّ من شرطها التنافي، ولا تنافي، وأيضًا فإنّه خبر»(٣).

---

(١) المصفّى بأكفّ أهل الرسوخ: ١٥.

(٢) المصفّى بأكفّ أهل الرسوخ: ١٥-١٦.

(٣) المصفّى بأكفّ أهل الرسوخ: ١٦.

وقال ابن الجوزيّ أيضًا: «قيل: المراد بالآية اتّقاء المشركين أن يُوقعوا فتنة، أو ما يُوجب القتل، فالفُرقة، ثمّ نُسخ ذلك بآية السيف. وليس هذا بشيء، وإنّما المراد جواز تقواهم، إذا أكرهوا المؤمنين على الكفر بالقول، الذي لا يُعتقد، وهذا الحكم باقٍ غير منسوخ»(١).

وقال الفخر الرازيّ: «المسألة الثانية: قال بعضهم: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وهذا بعيد؛ لأنّ قوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(٢) مذكور لأجل التهديد، وذلك لا ينافي حصول المقاتلة، فلم يكن ورود الآية الدالّة على وجوب المقاتلة رافعًا لشيء من مدلولات هذه الآية، فلم يحصل النسخ فيه»(٣).

وقال الفخر الرازيّ أيضًا: «قال مقاتل والكلبيّ: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وهذا بعيد؛ لأنّ شرط الناسخ أن يكون رافعًا لحكم المنسوخ، ومدلول هذه الآية اختصاص كلّ واحد بأفعاله، وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب، وذلك لا يقتضي حرمة القتال، فآية القتال ما رفعت شيئًا من مدلولات هذه الآية، فكان القول بالنسخ باطلًا»(٤).

وقال ابن تيميّة: «ولو كان من أخبار الآحاد، لم يجُز أن يُجعَل مجرّد خبر غير معلوم الصحّة ناسخًا للقرآن. وبالجملة، فلم يثبت أنّ شيئًا من القرآن نُسخ بسنّة، بلا قرآن»(٥).

---

(١) المصفّى بأكفّ أهل الرسوخ: ٢٢.

(٢) الأنعام: ٩١.

(٣) التفسير الكبير: ١٣/٨٤.

(٤) التفسير الكبير: ١٧/١٠٤.

(٥) مجموعة الفتاوى: ٢٠/٢١٨.

وقال ابن تيميّة أيضًا: «وبعض المفسّرين يقول: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وهذا يتوجّه إن كان في الآية النهي عن القتال، فيكون هذا النهي منسوخًا، ليس جميع أنواع الصبر منسوخة؛ كيف، والآية لم تتعرّض لذلك هنا، لا بنفي، ولا إثبات؟! بل الصبر واجب لحكم الله، ما زال واجبًا، وإذا أُمر بالجهاد، فعليه أيضًا أن يصبر لحكم الله، فإنّه يُبتلى من قتالهم بما هو أعظم من كلامهم، كما ابتُلي به يوم أحد والخندق، وعليه حينئذ أن يصبر ويفعل ما أُمر به من الجهاد»(١).

وقال ابن تيميّة أيضًا: «وهذا ضعيف جدًّا؛ لأنّ النسخ لا يُصار إليه، إلّا بيقين؛ وأمّا بالظنّ، فلا يثبت النسخ»(٢).

وقال ابن القيّم: «وقد غلط في السورة خلائق، وظنّوا أنّها منسوخة بآية السيف؛ لاعتقادهم أنّ هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم، وظنّ آخرون أنّها مخصوصة بمن يُقَرّون، على دينهم، وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة، ولا تخصيص، بل هي محكمة، عمومها نصّ محفوظ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإنّ أحكام التوحيد - التي اتّفقت عليه دعوة الرسل - يستحيل دخول النسخ فيه»(٣).

وقال الشاطبيّ: «ووجه آخر، وهو أنّ الأحكام إذا ثبتت على المكلَّف؛ فادّعاء النسخ فيها لا يكون، إلّا بأمر محقَّق؛ لأنّ ثبوتها على المكلَّف أوّلًا محقَّق؛ فرفعها بعد العلم بثبوتها لا يكون، إلّا بمعلوم محقَّق، ولذلك أجمع المحقِّقون

---

(١) مجموعة الفتاوى: ١٩٥/٨.

(٢) مجموعة الفتاوى: ٣٢٦/٢١.

(٣) بدائع الفوائد: ٢٤٧/١-٢٤٨.

على أنّ خبر الواحد لا ينسخ القرآن، ولا الخبر المتواتر؛ لأنّه رفعٌ للمقطوع به بالمظنون؛ فاقتضى هذا أنّ ما كان من الأحكام المكّيّة يدعي[1] نسخه، لا ينبغي قبول تلك الدعوى فيه، إلّا مع قاطع بالنسخ، بحيث لا يُمكن الجمع بين الدليلين، ولا دعوى الإحكام فيهما... وهكذا يقال في سائر الأحكام مكّيّة كانت، أو مدنيّة»[2].

وقال الزركشيّ: «وبهذا التحقيق تبيّن ضعف ما لهج به كثير، من المفسّرين - في الآيات الآمرة بالتخفيف - أنّها منسوخة بآية السيف، وليست كذلك، بل هي من المُنْسَإ، بمعنى أنّ كلّ أمر ورد يجب امتثاله، في وقت ما، لعلّة تُوجب ذلك الحكم، ثمّ ينتقل بانتقال تلك العلّة، إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنّما النسخ الإزالة، حتّى لا يجوز امتثاله أبدًا»[3].

وقال الزركشيّ أيضًا: «لأنّ القرآن ناسخ مهيمن على كلّ الكتب، وليس يأتي بعده ناسخ له، وما فيه من ناسخ ومنسوخ، فمعلوم، وهو قليل، بيّن الله ناسخه عند منسوخه، كنسخ الصدقة عند مناجاة الرسول، والعدّة والفرار، في الجهاد ونحوه، وأمّا غير ذلك، فمن تحقّق علمًا بالنسخ، علم أنّ غالب ذلك، من المُنْسَإ، ومنه ما يرجع لبيان الحكم المجمل، كالسبيل في حقّ الآتية بالفاحشة، فبيّنته السنّة، وكلّ ما في القرآن، ممّا يُدّعى نسخه بالسنّة - عند من يراه - فهو بيان لحكم القرآن، وقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ

(١) كذا في المطبوع، والصواب: (يُدَّعى).

(٢) الموافقات: ٣/٣٣٩-٣٤٠.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٢/٤٢.

لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾[1]، وأمّا بالقرآن، على ما ظنّه كثير من المفسّرين، فليس بنسخ؛ وإنّما هو نسأ[2]، وتأخير، أو مُجمَل أُخِّر بيانه، لوقت الحاجة، أو خطاب قد حال بينه، وبين أوّله خطاب غيره، أو مخصوص من عموم، أو حكم عامّ لخاصّ، أو لمداخلة معنى، في معنى. وأنواع الخطاب كثيرة، فظنّوا ذلك نسخًا، وليس به، وأنّه الكتاب المهيمن على غيره، وهو في نفسه متعاضد، وقد تولّى الله حفظه»[3].

وقال صبحيّ الصالح: «لكنّ إساءة الأدب حقًّا - مع الله - تجسّدت، في تساهُل أصحاب النسخ، في الإكثار، من القول بالناسخ والمنسوخ، رغم علمهم اليقينيّ، بأنّ ما يواجهونه، بالبحث، والتأويل: هو إلى الإنساء أقرب، وبه ألصق. فقد سلكوا في المنسوخ ما أُمر به؛ لسبب، ثمّ زال سببه، كالأمر حين الضعف، والقلّة، بالصبر، وبالمغفرة، للذين يرجون لقاء الله[4]، ثمّ نسخه بآية السيف، وليس هذا من النسخ، في شيء؛ وإنّما هو ضرب من النَّسْء، وتأخير البيان، إلى وقت الحاجة»[5].

وقال محمّد الغزاليّ: «والزعم بأنّ (١٢٠) آية - من آيات الدعوة - نُسخت، بآية السيف: هو حماقة غريبة، دلّت على أنّ الجماهير المسلمة - في أيّام التخلّف العقليّ، أو العلميّ، في حضارتنا - جهلوا القرآن، ونسوا بهذا

(١) النحل: ٤٤.

(٢) كذا في المطبوع، والصواب: (نَسْء)، بهمزة على السطر، بلا ألف؛ لسكون ما قبلها.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٢/٤٣-٤٤.

(٤) كذا في المطبوع، والصواب: (لا يرجون). قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. [الجاثية: ١٤].

(٥) مباحث في علوم القرآن: ٢٦٩.

الجهل كيف يدعون إلى الله، وكيف يحرّكون الدعوة، وكيف يضعون نماذج حسنة، للعرض الحسن.. ولعلّ هذا من أسباب فشل الدعوة الإسلاميّة، ووقوف هذه الدعوة - في أيّام كثيرة - عن أداء رسالتها، ظُنَّ أنّ السيف هو الذي يؤدّي واجب التبليغ! وهذا باطل، باتّفاق العقلاء. فقصّة النسخ - أو الحكم بتحنيط بعض الآيات، فهي موجودة، ولكن لا تعمل - هذا باطل، وليس في القرآن أبدًا آية، يُمكن أن يُقال: إنّها عُطِّلت، عن العمل، وحُكم عليها بالموت.. هذا باطل.. كلّ آية يُمكن أن تعمل، لكنّ الحكيم هو الذي يعرف الظروف، التي يُمكن أن تعمل فيها الآية، وبذلك تُوزَّع آيات القرآن، على أحوال البشر، بالحكمة، والموعظة الحسنة»[1].

وقال مصطفى الزلميّ: «بعد مراجعة مئات المراجع المعتمدة، من تفاسير القرآن، والحديث الشريف، وشروحه، وكتب أصول الفقه، والمؤلّفات القديمة والحديثة، بشأن النسخ في القرآن: لم أجد دليلًا قطعيًّا - من آية قرآنيّة، أو سنّة نبويّة متواترة، أو إجماع الصحابة، أو أقوال كُتّاب الوحي، البالغ عددهم أكثر من أربعين صحابيًّا - يدلّ على نسخ آية معيّنة بآية أخرى، أو بسنّة متواترة. فكلّ ما كُتب - وقيل - ليس إلّا دليلًا ظنّيًّا مختلَفًا فيه، مستنتَجًا من أخبار الآحاد، أو الاجتهادات الشخصيّة، أو الدلالات الظنّيّة للنصوص. فقد أجمع علماء الإسلام - قديمًا وحديثًا - على أنّ ما ثبت باليقين لا يزول إلّا باليقين. وهناك أسباب أخرى كثيرة، يأتي بيانها، وتفصيلها، ودعمها، بأدلّة نقليّة، وعقليّة، بإذن العليّ العظيم...»[2].

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن: ٨٤.

(٢) التبيان لرفع غموض النسخ في القرآن: ١٥-١٦.

وقال مصطفى الزلميّ أيضًا: «وعدد الآيات المنسوخة، في الحكم، دون التلاوة، وهي تُقرَأ في المصاحف: (٢٤٧) آية، عند ابن الجوزيّ، و(٢١٣) آية، عند ابن سلامة، و(١٣٤) آية، عند أبي جعفر النحّاس، و(٦٦) آية، عند عبد القاهر البغداديّ. وحصرها السيوطيّ، في (٢٠) آية، وردّ عليه العالم الأصوليّ، "الشيخ محمّد الخضريّ"، وأثبت عدم نسخ آية واحدة، منها، وحصرها مصطفى زيد، في خمس آيات، وأثبت الأستاذ "موسى جواد عفانة" عدم صحّة نسخ تلك الآيات الخمس. وقد أثبتنا - بالأدلّة العقليّة، والنقليّة، في كتابنا: "التبيان لرفع غموض النسخ في القرآن" - عدم وجود آية قرآنيّة، واحدة، منسوخة، في القرآن الكريم»[1].

(١) أصول الفقه في نسيجه الجديد: ٤٢٩-٤٣٠.

ليست تلك الروايات بثابتة، ثبوتًا قطعيًّا، كثبوت القرآن الكريم؛ وليست كلّ آراء المؤلّفين في هذه المسألة صحيحة قطعيّة، بل هي اجتهادات، قد يُصيب أصحابها، وقد يُخطئون، وإن كانت في عمومها صحيحة.

قال أبو بكر الباقلانيّ: «وإذا كان ذلك كذلك، وكنّا لا نعتقد مع هذه الجملة أنّ الرسول قد نصَّ لصحابته على ما نزل عليه من القرآن أوّلًا، وما نزل منه آخرًا، وعلى جميع مكّيّه، وسائر مدنيّه، ولا كان منه قولٌ في ذلك، ظاهرًا جليًّا، لا يحتمل التأويل، ولا ألزم الأمّةَ حفظَه، والتديُّنَ به، ولا جعله أيضًا من نوافل دينهم، كما أنّه ألزمهم نظْمَ سور القرآن، وترتيبَ كلماته وحروفه، على وجه مخصوص، وحدّ مرسوم، أخذ عليهم لزومه، ومنعهم من تغييره، والعدول عنه: لم يجب أن يظهر وينتشر نقلُ ذلك عنه، وكيف يجب نقل ما لم يكن، وما لا أصل له، والإخبار به، فضلًا عن وجوب ظهوره، وانتشاره! وإذا كان ذلك كذلك، فقد بان سقوطُ ما سألتم عنه، وزوال ما توهّمتموه. فإن قالوا: ما الدليل على أنّه لم يكن من الرسول نصٌّ على ذِكر أوّل ما أُنزِل عليه من القرآن، وعلى آخره، وعلى مكّيّه ومدنيّه، وأنّه لم يُلزِم الأمّة عِلْمَ ذلك، ويَدْعُهم إلى معرفته، حسب نصّه، على ترتيب آيات السور، وكلماتها، وإلزامهم العلم بها، ولزوم المنهج الذي شرعه، ونصَّ عليه في تلاوتها؟ قيل لهم: الدليل على ذلك أنّه لو كان كما تدّعون، وكان نصّه على الأمرين قد وقع سواءً، وفرضُه لهما على الأمّة قد حصل حصولًا متماثلًا معتدلًا، لوجب في مستقرّ العادة نقلُ ذلك، وظهورُه، وحِفظُ الأمّة له، وعلمُهم به، وتأثيمُ من خالف المنصوص عليه، في ذلك، وتخطئةُ مَن عدلَ عن الواجب، عن معرفة ما فُرِض العلمُ به، ويجري

أمرُهم في ذلك وتخطئته على حسب ما جرى أمرُهم عليه، من حفظٍ للقرآن نفسه، ومعرفة نظمه، وترتيب آياته وكلماته، وعلى وجه ما أوجب حفظَهم لترتيب صلواتهم، وما يجب أن يكون متقدِّمًا منها ومتأخِّرًا، وما يُفعَل منها في النهار دون الليل، وفي الليل دون النهار، وغير ذلك من فرائض دينهم الواجبة عليهم، والتي وقع النصُّ لهم عليها وقوعًا شائعًا ذائعًا. ولَمّا لم يكن ذلك كذلك، ولم يَدّعِ أحدٌ من أهل العلم أنّ رسول الله ﷺ كان قد نصَّ على ذِكر أوّل ما أُنزل عليه من القرآن وآخره، نصًّا جليًّا، ظاهرًا فَرْضُ عِلمه، ولم يكن بين سلف الأمّة وخلفها اختلاف في أنّ العلم بذلك ليس من فرائض الدين، وأنّه ممّا يسعُ الإبطاء عن علمه، والسؤال عنه، ولا يأثم التارك للنظر فيه، إذا قرأ القرآن على وجهه، ولم يغيّره عن نظمه، ولم يزد فيه، ولم يُنقِص منه: عُلِم بهذه الجملة أنّه لا نصّ من الرسول، قاطع على أوّل ما أُنزل عليه، من ذلك، وآخره، وعلى تفصيل مكّيّه، ومدنيّه، وإذا ثبت ذلك، بطل ما حاولتموه. وممّا يدلُّ أيضًا على صحّة ما قلناه أنّ المختلفين في ذلك - من الصحابة - لا يرون اختلافهم فيه عن رسول الله ﷺ، بل إنّما يُخبرون بذلك عن أنفسهم، وما أدّاهم إليه اجتهادُهم، واستدلالُهم، بظاهر الأمر؛ وإن روى بعضُهم في ذلك، عن النبيّ ﷺ شيئًا، لم يروه نصًّا قاطعًا، وإنّما يُحكى عنه قولًا محتملًا، وقصّةً للتأويل والظنون، عليها سبيلٌ وطريقٌ، وليس يجب اتّفاقهم على ما هذه سبيله، ولا أن يكون نقلُهم لِما سمعوه منه، في هذا الباب من الكلام المحتمِل ظاهرًا منتشرًا، إذا كان لم يقع من الرسول وقوعًا معلَنًا، بحضرة من تقوم به الحجّة، ولا هو ممّا أراد وقصد - وقتَ قوله ذلك للواحد والاثنين - أن يُذاع عنه، وينتشر من قِبَله، حتّى يكرّره ويردّده، ويقصد إذاعتَه وإقامةَ الحجّة بإظهاره، وإذا كان ذلك كذلك، لم يجب شيء ممّا قلتموه. وقد اختلف الصحابة، ومَن بعدَهم، في أوّل

ما أُنزل من القرآن، وآخره. ورُويَتْ في ذلك روايات، كلّها محتملة للتأويل»[1].

وقال الزركشيّ: «وهذا القول، إن أُخذ على إطلاقه، ففيه نظرٌ، فإنّ سورة البقرة مدنيّة، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[2]، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾[3]. وسورة النساء مدنيّة، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾[4]، وفيها: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾[5]. وسورة الحجّ مكّيّة، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾[6]. فإن أراد المفسّرون أنّ الغالب ذلك، فهو صحيح؛ ولذا قال مكّيٌّ[7]: هذا إنّما هو في الأكثر، وليس بعامّ، وفي كثير من السور المكّيّة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. انتهى»[8].

---

(١) الانتصار للقرآن: ١/٢٣٧-٢٣٩، وانظر: البرهان في علوم القرآن: ١/١٩١-١٩٢.

(٢) البقرة: ٢١.

(٣) البقرة: ١٦٨.

(٤) النساء: ١.

(٥) النساء: ١٣٣.

(٦) الحجّ: ٧٧.

(٧) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية: ١/١٨٢.

(٨) البرهان في علوم القرآن: ١/١٩٠-١٩١.

لا يختلف اثنان من المسلمين، في وجود أصل الإعجاز؛ ولكنّ آراء المؤلّفين في الإعجاز ليست كلّها محلّ اتّفاق؛ فليست بثابتة ثبوتًا قطعيًّا، كثبوت القرآن الكريم؛ لأنّها عبارة عن اجتهادات، قد يُصيب أصحابها، وقد يُخطئون، ولا سيّما عند التكلُّف والتمحُّل، والاتّكاء على الظنون.

قال ابن عثيمين: «فالإعجاز العلميّ في الحقيقة لا نُنكره، لا نُنكر أنّ في القرآن أشياء ظهر بيانها في الأزمنة المتأخّرة؛ لكن غالى بعض الناس في الإعجاز العلميّ، حتّى رأينا من جعل القرآن كأنّه كتاب رياضة، وهذا خطأ. فنقول: إنّ المغالاة في إثبات الإعجاز العلميّ لا تنبغي؛ لأنّ هذه قد تكون مبنيّة على نظريّات، والنظريّات تختلف، فإذا جعلنا القرآن دالًّا على هذه النظريّة، ثمّ تبيّن بعدُ أنّ هذه النظريّة خطأ، معنى ذلك أنّ دلالة القرآن صارت خاطئة، وهذه مسألة خطيرة جدًّا»(١).

وقال محمّد قطب: «هذا، وفي القرآن إشارات كونيّة، وعلميّة كثيرة، منها ما كشف عنه العلم، ومنها ما لم يكشف عنه، حتّى اليوم، وهي تُثبِت بدليل قاطع أنّ هذا القرآن، من عند الله العليم الحكيم، وأنّه ما كان يتأتّى لبشر أن ينطق به، من عند نفسه؛ ولكنّا لا نحتاج أن نجري، وراء الكشوف العلميّة، لاهثينَ، كما يصنع بعضُ الكُتّاب المحدَثين؛ لإثبات الإعجاز العلميّ للقرآن، فكُلّما كشف العلم كشفًا جديدًا، قالوا: لقد تحدّث القرآن عنه، من قبل! لا نحتاج أن نصنع ذلك؛ لأنّ هذه الكشوف ذاتها ما زالت، في مرحلة

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمّد بن صالح العثيمين: ٢٦/٢٨.

الإثبات، وكثير منها لم يُصبِح بعدُ حقيقةً علميّةً نهائيّةً. فلا يجوز أن نربط تفسيرنا للإشارات الكونيّة، في القرآن، بهذه النظريّات المتقلِّبة، التي قد يثبت خطؤها، في الغد؛ ولأنّ دلائل الإعجاز في القرآن، من الكثرة والثبوت والقطع، بحيث لا نحتاج إلى الركض وراء هذه النظريّات، كأنّنا ما زلنا في حاجة إلى مزيد من الإثبات! ويكفينا جدًّا ما أثبته العلم على أنّه حقائق نهائيّة، بل إشارة واحدة تكفي لإثبات الإعجاز»[١].

(١) ركائز الإيمان: ٣٧٥.

الفروق بين السنّة النبويّة، والأحاديث

ليست كلّ الأحاديث المرويّة - المنسوبة إلى النبيّ ﷺ - صحيحة، ولا سيّما (الأحاديث الموضوعة). وليس تصحيح بعض المؤلّفين، لبعض الأحاديث المنسوبة إلى النبيّ ﷺ: من قبيل التصحيح الاتّفاقيّ القطعيّ.

فثمّة أحاديث كثيرة، اختلفوا في تصحيحها، وثمّة أحاديث صحّحها بعضهم برواية، وصحّحها آخرون برواية مغايرة، بزيادة أو بنقيصة، أو بتبديل.

وليس تصحيح الحديث دليلًا على أنّه مقطوع به، في نفس الأمر.

قال ابن الصلاح: «اعلم - علّمك الله وإيّاي - أنّ الحديث عند أهله ينقسم إلى صحيح، وحسن، وضعيف. أمّا الحديث الصحيح: فهو الحديث المسند الذي يتّصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه، ولا يكون شاذًّا، ولا معلّلًا. وفي هذه الأوصاف احتراز عن المرسَل، والمنقطع، والمعضَل، والشاذّ، وما فيه علّة قادحة، وما في راويه نوع جرح. وهذه أنواع يأتي ذكرها، إن شاء الله تبارك وتعالى. فهذا هو الحديث الذي يُحكَم له بالصحّة، بلا خلاف بين أهل الحديث. وقد يختلفون في صحّة بعض الأحاديث؛ لاختلافهم في وجود هذه الأوصاف فيه، أو لاختلافهم في اشتراط بعض هذه الأوصاف، كما في المرسَل. ومتى قالوا: هذا حديث صحيح، فمعناه: أنّه اتّصل سنده مع سائر الأوصاف المذكورة، وليس من شرطه أن يكون مقطوعًا به في نفس الأمر، إذ منه ما ينفرد بروايته عدل واحد، وليس من الأخبار التي أجمعت الأمّة على تلقّيها بالقبول»(١).

---

(١) معرفة أنواع علوم الحديث: ٧٩-٨٠.

وقد انتشرت الأحاديث الضعيفة والموضوعة في كلّ نادٍ، وفي كلّ وادٍ، وغفل عن بطلانها - أو تغافل - الكثيرون، فكانت هذه الغفلة، وذاك التغافل سببين من أسباب الانحراف عن الحقّ، والإعراض عن هداية القرآن الكريم.

قال ابن الجوزيّ: «وقد كان جماهير أئمّة السلف يعرفون صحيح المنقول من سقيمه، ومعلوله من سليمه، ثمّ يستخرجون حكمه، ويستنبطون علمه، ثمّ طالت طريق البحث على من بعدهم، فقلّدوهم فيما نقلوا، وأخذوا عنهم ما هذّبوا، فكان الأمر متحاملًا، إلى أن آلت الحال إلى خلف، لا يفرّقون بين صحيح وسقيم، ولا يعرفون نسرًا من ظليم، ولا يأخذون الشيء من معدنه، فالفقيه منهم يقلّد التعليق في خبر ما غبر خبره، والمتعبّد ينصب لأجل حديث لا يدري من سطّره، والقاصّ يروي للعوامّ الأحاديث المنكرة، ويذكر لهم ما لو شمّ ريح العلم ما ذكره، فخرج العوامّ من عنده يتدارسون الباطل، فإذا أنكر عليهم عالم، قالوا: قد سمعنا هذا بـ(أخبرنا)، و(حدّثنا)، فكم قد أفسد القصّاص من الخلق بالأحاديث الموضوعة، كم من لون قد اصفرّ بالجوع، وكم هائم على وجهه بالسياحة، وكم مانع نفسه ما قد أُبيح، وكم تارك رواية العلم زعمًا منه مخالفة النفس، في هواها، في ذلك، وكم مُوتِم أولاده بالتزهُّد، وهو حيّ، وكم مُعرِض عن زوجته، لا يوفّيها حقّها، فهي لا أيّم، ولا ذات بعل»[1].

وقال ابن الصلاح: «اعلم أنّ الحديث الموضوع شرّ الأحاديث الضعيفة، ولا تحلّ روايته لأحد، عَلِمَ حالَه، في أيّ معنى كان، إلّا مقرونًا ببيان وضعه»[2].

وقال ابن الصلاح أيضًا: «فقد تعذّر - في هذه الأعصار - الاستقلال

---

(١) الموضوعات: ١/٨.

(٢) معرفة أنواع علوم الحديث: ٢٠١.

بإدراك الصحيح، بمجرّد اعتبار الأسانيد؛ لأنّه ما من إسناد، من ذلك، إلّا وتجد في رجاله من اعتمد، في روايته، على ما في كتابه، عريًّا عمّا يُشترط في الصحيح، من الحفظ، والضبط، والإتقان. فآل الأمر إذن - في معرفة الصحيح والحسن - إلى الاعتماد على ما نصَّ عليه أئمّة الحديث، في تصانيفهم المعتمدة المشهورة، التي يؤمَن فيها - لشهرتها - من التغيير والتحريف»(١).

وقال ابن تيميّة: «ولهذا تنازع الحافظ أبو العلاء الهمدانيّ، والشيخ أبو الفرج ابن الجوزيّ: هل في المُسنَد حديث موضوع؟ فأنكر الحافظ أبو العلاء أن يكون في المُسنَد حديث موضوع، وأثبت ذلك أبو الفرج، وبيَّن أنّ فيه أحاديثَ، قد عُلِمَ أنّها باطلة؛ ولا منافاة بين القولين؛ فإنّ الموضوع في اصطلاح أبي الفرج: هو الذي قام دليل على أنّه باطل، وإن كان المحدِّث به لم يتعمّد الكذب، بل غلط فيه؛ ولهذا روى في كتابه، في الموضوعات: أحاديث كثيرة، من هذا النوع، وقد نازعه طائفة من العلماء في كثير ممّا ذكره، وقالوا: إنّه ليس ممّا يقوم دليل على أنّه باطل، بل بيّنوا ثبوت بعض ذلك، لكنّ الغالب على ما ذكره في الموضوعات أنّه باطل، باتّفاق العلماء»(٢).

وقال الذهبيّ: «قلت: لهذا أكثر الأئمّة، على التشديد، في أحاديث الأحكام، والترخيص قليلًا - لا كلّ الترخُّص - في الفضائل والرقائق، فيقبلون في ذلك ما ضعف إسناده، لا ما اتُّهِم رواته، فإنّ الأحاديث الموضوعة - والأحاديث الشديدة الوهن - لا يلتفتون إليها، بل يروونها؛ للتحذير منها، والهتك لحالها، فمن دلَّسها، أو غطّى تبيانها، فهو جانٍ على السُّنَّة، خائن

---

(١) معرفة أنواع علوم الحديث: ٨٣.

(٢) مجموعة الفتاوى: ١/١٧٨.

لله، ورسوله. فإن كان يجهل ذلك، فقد يُعذَر بالجهل، ولكن، سلوا أهل الذكر، إن كنتم لا تعلمون»[1].

وقال الذهبيّ أيضًا: «وما أبو نُعَيم بمتّهَم، بل هو صدوق، عالِم بهذا الفنّ، ما أعلم له ذنبًا - والله يعفو عنه - أعظم من روايته للأحاديث الموضوعة، في تواليفه، ثمّ يسكت عن توهيتها»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٨/٥٢٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٧/٤٦١.

ليست كلّ الشروح الخاصّة بالأحاديث: صحيحة، ولا سيّما شروح الغلاة؛ فإنّهم قصدوا إلى شرح الأحاديث الصحيحة، وغير الصحيحة، بطريقة تحريفيّة؛ لتكون على وفق أهوائهم.

والاختلاف في الشروح حاصل كثيرًا، حتّى عند غير الغلاة؛ لأنّ الشرح ليس أكثر من اجتهاد الشارح، لفهم الحديث، وبيان المراد منه.

والفرق كبير، بين كلام النبيّ ﷺ، الذي ثبت صدوره منه، ثبوتًا قطعيًّا، وبين كلام الشارح، حتّى إذا كان عالِمًا من العلماء الصالحين.

قال ابن تيميّة: «وكذلك وقع من الذين صنّفوا في شرح الحديث وتفسيره من المتأخّرين، من جنس ما وقع فيما صنّفوه من شرح القرآن وتفسيره»[١].

وقال ابن تيميّة أيضًا: «وكثير منهم إنّما ينظر من تفسير القرآن والحديث فيما يقوله موافقوه على المذهب، فيتأوّل تأويلاتهم، فالنصوص التي توافقهم يحتجّون بها، والتي تخالفهم يتأوّلونها، وكثير منهم لم يكن عمدتهم في نفس الأمر اتّباع نصّ أصلًا»[٢].

---

(١) مجموعة الفتاوى: ١٣/١٩٤.

(٢) مجموعة الفتاوى: ١٧/٢٤٠.

ليست كلّ مباحث (علوم الحديث): صحيحة ثابتة قطعيّة، ولا سيّما تلك (المباحث الخلافيّة)، التي امتلأت بها المؤلّفات الحديثيّة.

فقد اختلف المؤلّفون، في مباحث كثيرة، من (علوم الحديث)، أبرزها: صحّة الحديث المُعَلَّق[١]، وصحّة الحديث المُعَنْعَن[٢]، وصحّة الحديث المُؤَنَّن[٣]، وصحّة الحديث المرسَل[٤].

واختلفوا في الجرح والتعديل، واختلفوا في تقديم أحدهما على الآخر، عند اجتماعهما، في راوٍ واحد[٥]. واختلفوا في قبول رواية المُدلِّس[٦]، وفي قبول رواية مجهول الحال[٧]، وفي قبول رواية المُبتدِع[٨]. واختلفوا في بعض طرق التحمُّل، كالوِجادة، والمُناولة[٩].

ولا ريب في أنّ لهذه الاختلافات أثرًا كبيرًا، في اختلاف المؤلّفين، في تصحيح الأحاديث، وفي تضعيفها.

---

(١) انظر: نزهة النظر: ٩٩-١٠٠.

(٢) انظر: نزهة النظر: ١٥٨-١٥٩، وقواعد التحديث: ١٧٩.

(٣) انظر: قواعد التحديث: ١٨٠، وشرح المنظومة البيقونيّة: ٧٢.

(٤) انظر: نزهة النظر: ١٠١-١٠٢.

(٥) انظر: قواعد التحديث: ١٨٠، وشرح المنظومة البيقونيّة: ٧٢.

(٦) انظر: نزهة النظر: ١٠٤-١٠٥.

(٧) انظر: نزهة النظر: ١٢٦.

(٨) انظر: نزهة النظر: ١٢٧-١٢٨.

(٩) نزهة النظر: ١٥٩-١٦١.

ليست كلّ الآراء العَقَديّة صحيحة، ولا سيّما آراء الغلاة.

قال ابن تيميّة: «فكثير من أتباع المتكلّمة والمتفلسفة - بل وبعض المتفقّهة والمتصوّفة، بل وبعض أتباع الملوك والقضاة - يقبل قول متبوعه فيما يُخبر به، من الاعتقادات الخبريّة، ومن تصحيح بعض المقالات، وإفساد بعضها، ومدح بعضها، وبعض القائلين، وذمّ بعض، بلا سلطان من الله»[1].

وقال ابن تيميّة أيضًا: «والله قد أمر بالنظر، والاعتبار، والتفكُّر، والتدبُّر، في غير آية، ولا يُعرَف عن أحد، من سلف الأمّة، ولا أئمّة السنّة، وعلمائها: أنّه أنكر ذلك، بل كلّهم متّفقون على الأمر، بما جاءت به الشريعة، من النظر، والتفكُّر، والاعتبار، والتدبُّر، وغير ذلك، ولكن وقع اشتراك في لفظ "النظر"، و"الاستدلال"، ولفظ "الكلام"؛ فإنّهم أنكروا ما ابتدعه المتكلِّمون، من باطل نظرهم، وكلامهم، واستدلالهم؛ فاعتقدوا أنّ إنكار هذا مُستلزِم لإنكار جنس النظر، والاستدلال. وهذا كما أنّ طائفة من أهل الكلام يُسمّي ما وضعه: "أصول الدين" وهذا اسم عظيم، والمُسمّى به فيه من فساد الدين ما الله به عليم. فإذا أنكر أهل الحقّ والسنّة ذلك، قال المُبطِل: قد أنكروا أصول الدين. وهم لم يُنكروا ما يستحقّ أن يُسمّى أصول الدين، وإنّما أنكروا ما سمّاه هذا: "أصول الدين"، وهي أسماء سمّوها هم وآباؤهم بأسماء، ما أنزل الله بها من سلطان، فالدين ما شرعه الله ورسوله، وقد بيَّنَ أصوله وفروعه، ومن المحال أن يكون الرسول قد بيَّنَ فروع الدين، دون أصوله. كما قد بيّنا هذا، في غير هذا

(١) مجموعة الفتاوى: ١/٧٦.

الموضع؛ فهكذا لفظ "النظر"، و"الاعتبار"، و"الاستدلال". وعامّة هذه الضلالات، إنّما تطرق مَن لم يعتصم بالكتاب والسنّة»[1].

وقال سيّد قطب: «وما كان الجدل الكلاميّ، الذي ثار بين علماء المسلمين، حول هذه التعبيرات القرآنيّة، إلّا آفة من آفات الفلسفة الإغريقيّة، والمباحث اللاهوتيّة، عند اليهود والنصارى، عند مخالطتها للعقليّة العربيّة الصافية، وللعقليّة الإسلاميّة الناصعة.. وما كان لنا - نحن اليوم - أن نقع، في هذه الآفة، فنُفسِد جمال العقيدة، وجمال القرآن، بقضايا علم الكلام!!»[2].

(١) مجموعة الفتاوى: ٤/٣٨.

(٢) في ظلال القرآن: ١/٥٣.

الفروق بين الأحكام الشرعيّة العمليّة، والآراء الأصوليّة

ليست كلّ الآراء الأصوليّة صحيحة قطعيّة، ولا سيّما آراء الغلاة.

قال ابن تيميّة: «وقلَّ طائفة من المتأخّرين، إلّا وقع - في كلامها - نوع غلط؛ لكثرة ما وقع من شبه أهل البدع؛ ولهذا يُوجَد في كثير من المصنّفات - في أصول الفقه، وأصول الدين، والفقه، والزهد، والتفسير، والحديث - من يذكر في الأصل العظيم عدّة أقوال، ويحكي من مقالات الناس ألوانًا، والقول الذي بعث الله به رسوله لا يذكره؛ لعدم علمه به؛ لا لكراهته لما عليه الرسول»(١).

وقال ابن تيميّة أيضًا: «ومثل هذا الغلط وقع فيه كثير من الخائضين في أصول الفقه، حيث أنكروا تفاضُل العقل، أو الإيجاب، أو التحريم. وإنكار التفاضُل في ذلك قول القاضي أبي بكر، وابن عقيل، وأمثالهما، لكنّ الجمهور على خلاف ذلك، وهو قول أبي الحسن التميميّ، وأبي محمّد البربهاريّ، والقاضي أبي يعلى، وأبي الخطّاب، وغيرهم»(٢).

وقال ابن تيميّة أيضًا: «وإنّما المقصود هنا التنبيه، على الجُمَل، فإنّ كثيرًا من الناس يقرأ كتبًا مصنَّفة، في أصول الدين، وأصول الفقه، بل في تفسير القرآن والحديث، ولا يجد فيها القول الموافق للكتاب والسنّة، الذي عليه سلف الأمّة وأئمّتها، وهو الموافق لصحيح المنقول، وصريح المعقول، بل يجد أقوالًا، كلّ منها فيه نوع من الفساد، والتناقُض، فيحار: ما الذي يؤمن

---

(١) مجموعة الفتاوى: ٢٨٨/٥.

(٢) مجموعة الفتاوى: ٣١٤/٧-٣١٥.

به، في هذا الباب؟ وما الذي جاء به الرسول؟ وما هو الحقّ، والصدق؟ إذ لم يجد في تلك الأقوال ما يحصّل به ذلك. وإنّما الهدى، فيما جاء به الرسول»[1].

وقال الشوكانيّ: «فإنّ علم "أصول الفقه" لَمّا كان هو العلم الذي يأوي إليه الأعلام، والملجأ الذي يُلجَأ إليه عند تحرير المسائل، وتقرير الدلائل، في غالب الأحكام، وكانت مسائله المقرَّرة، وقواعده المحرَّرة، تؤخَذ مسلَّمة عند كثير من الناظرين، كما تراه في مباحث الباحثين، وتصانيف المصنِّفين؛ فإنّ أحدهم إذا استشهد لِما قاله بكلمة من كلام أهل الأصول، أذعن له المنازعون، وإن كانوا من الفحول؛ لاعتقادهم أنّ مسائل هذا الفنّ قواعد مؤسَّسة على الحقّ، الحقيق بالقبول، مربوطة بأدلّة علميّة، من المعقول والمنقول، تقصُر عن القدح في شيء منها أيدي الفحول، وإن تبالغَتْ في الطول. وبهذه الوسيلة صار كثير من أهل العلم واقعًا في الرأي، رافعًا له أعظمَ راية، وهو يظنّ أنّه لم يعمل بغير علم الرواية. حملني ذلك - بعد سؤال جماعة، من أهل العلم لي - على هذا التصنيف، في هذا العلم الشريف، قاصدًا به إيضاح راجحه، من مرجوحه، وبيان صحيحه من سقيمه، موضِّحًا لِما يصلح منه للردّ إليه، وما لا يصلح للتعويل عليه، ليكون العالِمُ على بصيرة، في علمه، يتّضح له بها الصواب، ولا يبقى بينه وبين درك الحقّ الحقيق بالقبول حجاب»[2].

وقال القرضاويّ: «والذي يطالع علم أصول الفقه يتبيَّن له أنّ رأي القاضي ومن وافقه هو الراجح، وذلك لِما يرى من الخلاف المنتشر في كثير من مسائل الأصول، فهناك من الأدلّة ما هو مختلَف فيه بين مُثبِت بإطلاق، ونافٍ

---

(١) مجموعة الفتاوى: ٥٩/١٧.

(٢) إرشاد الفحول: ٥٣/١-٥٤.

بإطلاق، وقائل بالتفصيل. مثل اختلافهم في المصالح المرسَلة، والاستحسان، وشرع مَن قبلنا، وقول الصحابيّ، والاستصحاب، وغيرها. ممّا هو معلوم، لكلّ دارس للأصول. والقياس وهو من الأدلّة الأربعة الأساسيّة، لدى المذاهب المتبوعة، فيه نزاع وكلام طويل الذيول، من الظاهريّة، وغيرهم. حتّى الإجماع لا يخلو من كلام حول إمكانه ووقوعه، والعلم به، وحجّيّته. هذا إلى أنّ القواعد والقوانين - التي وضعها أئمّة هذا العلم، لضبط الفهم، والاستنباط، من المصدرين الأساسيّين القطعيّين: "الكتاب والسنّة" - لم تسلم من الخلاف، وتعارُض وجهات النظر، كما يتّضح ذلك، في مسائل العامّ والخاصّ، والمطلَق والمقيَّد، والمنطوق والمفهوم، والناسخ والمنسوخ... وغيرها، فضلًا عمّا تختصّ به السنّة، من خلاف حول ثبوت الآحاد منها، وشروط الاحتجاج بها، سواء كانت شروطًا في السند، أم في المتن، وغير ذلك ممّا يتعلّق بقبول الحديث. واختلاف المذاهب في ذلك أمر معلوم مشهور، نلمس أثره بوضوح، في علم أصول الحديث، كما نلمسه، في علم أصول الفقه. وإذا كان مثل هذا الخلاف واقعًا، في أصول الفقه، فلا نستطيع أن نوافق الإمام الشاطبيّ، على اعتبار كلّ مسائل الأصول قطعيّة. فالقطعيّ لا يسع مثل هذا الاختلاف، ولا يحتمله...»[1].

---

(١) الاجتهاد في الشريعة الإسلاميّة: ٦٨-٦٩.

ليست كلّ الآراء الفقهيّة صحيحة قطعيّة، ولا سيّما آراء الغلاة.

فهذا ابن تيميّة يفرّق بين ثلاثة استعمالات - في عرف أهل زمانه - للفظ (الشرع)، هي: الشرع المنزّل، والشرع المؤوّل (المتأوّل)، والشرع المبدَّل.

فأمّا (الشرع المنزَّل)، فيعني به الشريعة الإسلاميّة المنزَّلة، من لدن الحكيم العليم الخبير، على الرسول الكريم، الصادق الأمين ﷺ. وهي شريعة معصومة من الأخطاء، والعمل بمقتضاها واجب على كلّ مكلَّف مستطيع.

وأمّا الشرع المؤوَّل، فيعني به اجتهادات العلماء، التي قد يُصيبون فيها، وقد يُخطئون. وليس لأحد أن يُلزم الناس باجتهاد أحد العلماء، بل العمل به جائز، لمن اعتقد أنّ حجّته هي القويّة، أو لمن ساغ له تقليده؛ والإنكار على المخالِف فيها غير جائز.

وأمّا الشرع المبدَّل، فيعني به تحريفات المبطلين، الذين جاءوا بنصوص وأقوال وتفسيرات وآراء، مخالفة للصورة التنزيليّة.

قال ابن تيميّة: «وأيضًا، فلفظ (الشرع) - في هذا الزمان - يُطلَق على ثلاثة معانٍ: شرع منزَّل، وشرع متأوَّل، وشرع مبدَّل. فالمنزَّل: الكتاب والسنّة، فهذا الذي يجب اتّباعه، على كلّ واحد، ومن اعتقد أنّه لا يجب اتّباعه، على بعض الناس، فهو كافر. والمتأوَّل موارد الاجتهاد، التي تنازع فيها العلماء، فاتّباع أحد المجتهدين جائز، لمن اعتقد أنّ حجّته هي القويّة، أو لمن ساغ له تقليده، ولا يجب - على عموم المسلمين - اتباع أحد بعينه، إلّا رسول الله ﷺ. فكثير من المتفقّهة إذا رأى بعض الناس من المشائخ الصالحين، يرى أنّه يكون الصواب مع ذلك، وغيره قد خالف الشرع، وإنّما خالف ما يظنّه هو الشرع، وقد يكون

ظنّه خطأ، فيُثاب على اجتهاده، وخطؤه مغفور له، وقد يكون الآخر مجتهدًا مخطئًا. وأمّا الشرع المبدَّل، فمثل الأحاديث الموضوعة، والتأويلات الفاسدة، والأقيسة الباطلة، والتقليد المحرَّم، فهذا يُحرَّم أيضًا. وهذا من مثار النزاع، فإنّ كثيرًا من المتفقّهة والمتكلّمة، قد يُوجب على كثير من المتصوّفة والمتفقّرة اتّباع مذهبه المعيّن، وتقليد متبوعه، والتزام حكم حاكمه، باطنًا وظاهرًا، ويرى خروجه عن ذلك خروجًا عن الشريعة المحمّديّة، وهذا جهل منه وظلم، بل دعوى ذلك على الإطلاق كفر ونفاق. كما أنّ كثيرًا من المتصوّفة والمتفقّرة يرى مثل ذلك في شيخه ومتبوعه، وهو في هذا نظير ذلك. وكلّ من هؤلاء قد يسوّغ الخروج، عمّا جاء به الكتاب والسنّة، لما يظنّه معارضًا لهما، إمّا لما يسمّيه هذا ذوقًا ووجدًا، ومكاشفات ومخاطبات، وإمّا لما يسمّيه هذا قياسًا ورأيًا وعقليّات وقواطع، وكلّ ذلك من شعب النفاق، بل يجب على كلّ أحد تصديق الرسول ﷺ، في جميع ما أخبر به، وطاعته في جميع ما أمر به، وليس لأحد أن يعارضه بضرب الأمثال، ولا بآراء الرجال، وكلّ ما عارضه، فهو خطأ وضلال»(١).

وقال ابن تيميّة أيضًا: «ولفظ (الشرع) يُقال - في عرف الناس - على ثلاثة معانٍ: الشرع المنزَّل: وهو ما جاء به الرسول ﷺ، وهذا يجب اتّباعه، ومن خالفه وجبت عقوبته. والثاني: الشرع المؤوَّل: وهو آراء العلماء المجتهدين فيها، كمذهب مالك، ونحوه. فهذا يسوغ اتّباعه، ولا يجب، ولا يُحرَّم، وليس لأحد أن يُلزِم عموم الناس به، ولا يمنع عموم الناس منه. والثالث: الشرع المبدَّل: وهو الكذب على الله، ورسوله، أو على الناس، بشهادات الزور، ونحوها، والظلم البيّن. فمن قال: إنّ هذا من شرع الله، فقد كفر، بلا نزاع. كمن قال:

---

(١) مجموعة الفتاوى: ١١/٢٣٥-٢٣٦.

إنّ الدم والميتة حلال، ولو قال: هذا مذهبي، ونحو ذلك...»[(١)].

وبيّنَ ابن تيميّة أنّ أقوال المجتهدين ليست بمنزلة الأحكام الشرعيّة؛ ولذلك كان العلماء ينهون عن تقليدهم، فقال: «وأحمد بن حنبل نهى عن تقليده، وتقليد غيره من العلماء في الفروع، وقال: لا تقلّد دينك الرجال، فإنّهم لن يسلموا أن يغلطوا. وقال: لا تقلّدني، ولا مالكًا، ولا الثوريّ، ولا الشافعيّ. وقد جرى في ذلك على سنن غيره من الأئمّة، فكلّهم نهوا عن تقليدهم، كما نهى الشافعيّ عن تقليده، وتقليد غيره من العلماء؛ فكيف يُقلَّد أحمد وغيره في أصول الدين؟ وأصحاب أحمد - مثل أبي داود السجستانيّ، وإبراهيم الحربيّ، وعثمان بن سعيد الدارميّ، وأبي زرعة، وأبي حاتم، والبخاريّ، ومسلم، وبقيّ بن مخلد، وأبي بكر الأثرم، وابنيه: صالح، وعبد الله، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارميّ، ومحمّد بن مسلم بن وارة، وغير هؤلاء، الذين هم من أكابر أهل العلم والفقه والدين - لا يقبلون كلام أحمد ولا غيره إلّا بحجّة يبيّنها لهم، وقد سمعوا العلم كما سمعه هو، وشاركوه في كثير من شيوخه، ومن لم يلحقوه أخذوا عن أصحابه الذين هم نظراؤه، وهذه الأمور يعرفها من يعرف أحوال الإسلام وعلمائه»[(٢)].

وقال ابن تيميّة أيضًا: «وهؤلاء الأئمّة الأربعة ﵃ قد نهوا الناس عن تقليدهم في كلّ ما يقولونه، وذلك هو الواجب عليهم؛ فقال أبو حنيفة: هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت، فمن جاء برأي خير منه قبلناه؛ ولهذا لـمّا اجتمع أفضل أصحابه - أبو يوسف - بمالك، فسأله عن مسألة الصاع، وصدقة

---

(١) مجموعة الفتاوى: ٣/١٦٨.

(٢) مجموعة الفتاوى: ٦/١٢٩-١٣٠.

الخضراوات، ومسألة الأجناس، فأخبره مالك بما تدلّ عليه السنّة في ذلك، فقال[1]: رجعت إلى قولك، يا أبا عبد الله، ولو رأى صاحبي ما رأيت، لرجع إلى قولك كما رجعت. ومالك كان يقول: إنّما أنا بشرٌ، أُصيب وأُخطئ، فاعرضوا قولي على الكتاب والسنّة، أو كلامًا هذا معناه. والشافعيّ كان يقول: إذا صحّ الحديث، فاضربوا بقولي الحائط، وإذا رأيت الحجّة موضوعة على الطريق، فهي قولي. وفي مختصر المزنيّ - لمّا ذكر أنّه اختصره من مذهب الشافعيّ، لِمن أراد معرفة مذهبه - قال: مع إعلامه نهيه عن تقليده، وتقليد غيره من العلماء. والإمام أحمد كان يقول: لا تقلّدوني، ولا تقلّدوا مالكًا، ولا الشافعيّ، ولا الثوريّ، وتعلّموا كما تعلّمنا. وكان يقول: من قلّة علم الرجل أن يقلّد دينه الرجال، وقال: لا تقلّد دينك الرجال، فإنّهم لن يسلموا من أن يغلطوا... لكن من الناس من قد يعجز عن معرفة الأدلّة التفصيليّة، في جميع أموره، فيسقط عنه ما يعجز عن معرفته، لا كلّ ما يعجز عنه من التفقّه، ويلزمه ما يقدر عليه...»[2].

وقال ابن تيميّة أيضًا: «وليس لأحد أن يحمل كلام الله، ورسوله، على وفق مذهبه؛ إن لم يتبيّن - من كلام الله ورسوله - ما يدلّ على مراد الله، ورسوله؛ وإلّا، فأقوال العلماء تابعة، لقول الله تعالى، ورسوله ﷺ؛ ليس قول الله ورسوله تابعًا لأقوالهم...»[3].

وقال ابن القيّم: «والفرق بين الحكم المنزَّل، الواجب الاتّباع، والحكم

---

(١) إذا كان قول أبي يوسف هو جواب (لمّا)، فيجب حذف الفاء من عبارة: (فقال).

(٢) مجموعة الفتاوى: ٢٠/١١٧-١١٨.

(٣) مجموعة الفتاوى: ٧/٢٦-٢٧.

المؤوَّل - الذي غايته أن يكون جائز الاتّباع - أنّ الحكم المنزَّل: الذي أنزله الله على رسوله، وحكم به بين عباده، وهو حكمه الذي لا حكم له سواه. وأمّا الحكم المؤوَّل، فهو أقوال المجتهدين المختلفة، التي لا يجب اتّباعها، ولا يُكفَّر، ولا يُفسَّق من خالفها، فإنّ أصحابها لم يقولوا: هذا حكم الله ورسوله، بل قالوا: اجتهدنا برأينا، فمن شاء قبله، ومن شاء لم يقبله؛ ولم يُلزِموا به الأمّة. بل قال أبو حنيفة: هذا رأيي، فمن جاءنا بخير منه قبلناه. ولو كان هو عين حكم الله، لما ساغ لأبي يوسف ومحمّد وغيرهما مخالفته فيه. وكذلك مالك، استشاره الرشيد أن يحمل الناس، على ما في الموطّإ، فمنعه من ذلك، وقال: قد تفرّق أصحاب رسول الله ﷺ، في البلاد، وصار عند كلّ قوم علمٌ، غير ما عند الآخرين. وهذا الشافعيّ ينهى أصحابه عن تقليده، ويُوصيهم بترك قوله، إذا جاء الحديث بخلافه. وهذا الإمام أحمد، يُنكِر على من كتب فتاويه، ودوّنها، ويقول: لا تقلّدني، ولا تقلّد فلانًا، ولا فلانًا، وخذ من حيث أخذوا. ولو علموا رضي الله عنهم أنّ أقوالهم وحي، يجب اتّباعه، لحرّموا على أصحابهم مخالفتهم، ولما ساغ لأصحابهم أن يُفتوا بخلافهم في شيء، ولما كان أحدهم يقول القول، ثمّ يُفتي بخلافه، فيُروى عنه في المسألة القولان والثلاثة، وأكثر من ذلك. فالرأي والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتّباعه. والحكم المنزَّل لا يحلّ لمسلم أن يخالفه، ولا يخرج عنه. وأمّا الحكم المبدَّل - وهو الحكم بغير ما أنزل الله - فلا يحلّ تنفيذه، ولا العمل به، ولا يسوغ اتّباعه، وصاحبه بين الكفر والفسوق والظلم»[1].

وقال ابن القيّم أيضًا: «لا يجوز للمُفتي أن يشهد، على الله، ورسوله، بأنّه أحلَّ كذا، أو حرَّمه، أو أوجبه، أو أحبَّه، أو كرهه؛ إلّا لِما يعلم أنّ الأمر فيه

---

(١) الروح: ٧٤٠-٧٤٢.

كذلك، ممّا نصَّ الله، ورسوله، على إباحته، أو تحريمه، أو إيجابه، أو كراهته، وأمّا ما وجده في كتابه، الذي تلقّاه، عمّن قلّده دينه، فليس له أن يَشهد على الله، ورسوله به، ويغرّ الناس بذلك، ولا علم له بحكم الله ورسوله...»[1].

---

(١) إعلام الموقّعين: ٦/٧٢.

الفروق بين الأحكام الشرعيّة الخُلُقيّة، والآراء الخُلُقيّة

ليست كلّ الآراء الخُلُقيّة صحيحة قطعيّة، ولا سيّما آراء الغلاة.

قال ابن الجوزيّ: «قد يسمع العامّيُّ ذمَّ الدنيا، في القرآن المجيد، والأحاديث، فيرى أنّ النجاة تركُها، ولا يدري ما الدنيا المذمومة، فيُلبِّس عليه إبليس، بأنّك لا تنجو في الآخرة، إلّا بترك الدنيا؛ فيخرج على وجهه، إلى الجبال، فيبعد عن الجُمُعة والجماعة والعلم، ويصير كالوحش، ويُخيَّل إليه أنّ هذا هو الزُّهد الحقيقيّ، كيف لا، وقد سمع عن فلان أنّه هام على وجهه، وعن فلان أنّه تعبَّد في جبل، وربّما كانت له عائلة، فضاعت، أو والدة، فبكت لفراقه، وربّما لم يعرف أركان الصلاة، كما ينبغي، وربّما كانت عليه مظالِم، لم يخرج منها. وإنّما يتمكّن إبليس من التلبيس، على هذا؛ لقلّة علمه، ومِن جهله رضاه عن نفسه بما يعلم، ولو أنّه وُفِّق لصُحبة فقيه، يفهم الحقائق، لعرَّفه أنّ الدنيا لا تُذَمُّ لذاتها، وكيف يُذَمُّ ما مَنَّ الله تعالى به، وما هو ضرورة في بقاء الآدميّ، وسبب في إعانته، على تحصيل العلم، والعبادة، من مطعم، ومشرب، وملبس، ومسجد، يُصلّي فيه. وإنّما المذموم أخذ الشيء، من غير حلّه، أو تناوله، على وجه السرف، لا على مقدار الحاجة، ويُصرِّف النفسَ فيه بمقتضى رعوناتها، لا بإذن الشرع...»(1).

وقال ابن الجوزيّ أيضًا: «ومن تلبيسه عليهم: أنّه يُوهِمهم أنّ الزُّهد تَرْكُ المباحات؛ فمنهم من لا يزيد على خُبز الشعير. ومنهم من لا يذوق الفاكهة. ومنهم من يُقلِّل المطعم، حتّى ييبس بدنه، ويعذّب نفسه، بلبس الصوف،

---

(١) تلبيس إبليس: ١٤٥.

ويمنعها الماء البارد. وما هذه طريقة الرسول ﷺ، ولا طريق أصحابه، وأتباعهم. وإنّما كانوا يجوعون، إذا لم يجدوا شيئًا؛ فإذا وجدوا، أكلوا...»[1].

وقال ابن تيميّة: «وهكذا هو الواقع في أهل ملّتنا، مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة في أصول دينها، وكثير من فروعه، من أهل الأصول والفروع؛ ومثلما نجده بين العلماء وبين العُبّاد؛ ممّن يغلب عليه الموسويّة، أو العيسويّة، حتّى يبقى فيهم شبه من الأمّتين، اللتين قالت كلّ واحدة: ليست الأخرى على شيء، كما نجد المتفقّه المتمسّك من الدين بالأعمال الظاهرة، والمتصوّف المتمسّك منه بأعمال باطنة، كلّ منهما ينفي طريقة الآخر، ويدّعي أنّه ليس من أهل الدين، أو يُعرض عنه إعراض من لا يعدّه من الدين؛ فتقع بينهما العداوة والبغضاء. وذلك: أنّ الله أمر بطهارة القلب، وأمر بطهارة البدن، وكلا الطهارتين من الدين الذي أمر الله به وأوجبه، قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾[2]، وقال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[3]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[4]، وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[5]، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[6]،

(١) تلبيس إبليس: ١٤٦.

(٢) المائدة: ٦.

(٣) التوبة: ١٠٨.

(٤) البقرة: ٢٢٢.

(٥) التوبة: ١٠٣.

(٦) المائدة: ٤١.

وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2]. فنجد كثيرًا من المتفقّهة والمتعبّدة، إنّما همّته طهارة البدن فقط، ويزيد فيها على المشروع؛ اهتمامًا وعملًا. ويترك من طهارة القلب ما أُمر به إيجابًا، أو استحبابًا، ولا يفهم من الطهارة إلّا ذلك. ونجد كثيرًا من المتصوّفة والمتفقّرة، إنّما همّته طهارة القلب فقط؛ حتّى يزيد فيها على المشروع، اهتمامًا وعملًا. ويترك من طهارة البدن ما أُمر به إيجابًا، أو استحبابًا. فالأوّلون يخرجون إلى الوسوسة المذمومة في كثرة صبّ الماء، وتنجيس ما ليس بنجس، واجتناب ما لا يُشرَع اجتنابه، مع اشتمال قلوبهم على أنواع من الحسد والكبر والغلّ لإخوانهم، وفي ذلك مشابهة بيّنة لليهود. والآخرون يخرجون إلى الغفلة المذمومة، فيبالغون في سلامة الباطن، حتّى يجعلوا الجهل بما تجب معرفته من الشرّ - الذي يجب اتّقاؤه - من سلامة الباطن، ولا يفرّقون بين سلامة الباطن من إرادة الشرّ المنهيّ عنه، وبين سلامة القلب من معرفة الشرّ، المعرفة المأمور بها، ثمّ مع هذا الجهل والغفلة، قد لا يجتنبون النجاسات، ويُقيمون الطهارة الواجبة، مضاهاة للنصارى. وتقع العداوة بين الطائفتين؛ بسبب ترك حظٍّ ممّا ذُكِّروا به، والبغي الذي هو مجاوزة الحدّ، إمّا تفريطًا، وتضييعًا للحقّ، وإمّا عدوانًا، وفعلًا للظلم...»[3].

---

(١) التوبة: ٢٨.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) مجموعة الفتاوى: ١/١٥-١٦.

ليست كلّ الأخبار التاريخيّة صحيحة قطعيّة، ولا سيّما أخبار الغلاة. فلا يكاد الكذب والوهم يفارقان معظم الأخبار التاريخيّة، كلّيًّا، أو جزئيًّا؛ بحيث يندر أن تجد خبرًا سالِمًا، من آثار الأهواء والأوهام.

قال الطبريّ، متحدِّثًا عن براءته من الأخبار التاريخيّة المستنكَرة: «وليعلم الناظر في كتابنا هذا أنّ اعتمادي في كلّ ما أحضرتُ ذكرَه فيه ممّا شرطتُ أنّي راسمُه فيه؛ إنّما هو على ما رويتُ من الأخبار التي أنا ذاكِرُها فيه، والآثار التي أنا مُسنِدُها إلى رواتها فيه، دون ما أُدرِك بحُجج العقول، واستُنبط بفِكَر النفوس، إلّا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين - وما هو كائن من أنباء الحادثين - غير واصل إلى من لم يشاهدهم، ولم يُدرِك زمانهم، إلّا بإخبار المخبِرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفِكَر النفوس. فما يكن في كتابي هذا، من خبر ذكرناه، عن بعض الماضين، ممّا يستنكره قارئُه، أو يستشنعه سامعُه، من أجل أنّه لم يعرف له وجهًا في الصحّة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنّه لم يؤتَ في ذلك من قِبلنا، وإنّما أُتي من قِبل بعض ناقليه إلينا؛ وأنّا إنّما أدّينا ذلك على نحو ما أُدّي إلينا»[١].

وقال ابن تيميّة: «ومن المعلوم أنّ الزبير بن بكّار - صاحب كتاب "الأنساب"، ومحمّد بن سعد، كاتب الواقديّ، وصاحب الطبقات، ونحوهما، من المعروفين بالعلم، والثقة، والاطّلاع - أعلم بهذا الباب، وأصدق فيما ينقلونه، من الجاهلين، والكذّابين، ومن بعض أهل التواريخ، الذين لا يوثَق

(١) تاريخ الرسل والملوك: ١/٧-٨.

بعلمهم، ولا صدقهم، بل قد يكون الرجل صادقًا، ولكن لا خبرة له بالأسانيد، حتّى يميّز بين المقبول والمردود، أو يكون سيّئ الحفظ، أو متّهَمًا بالكذب، أو بالتزيُّد في الرواية، كحال كثير من الإخباريّين، والمؤرّخين، لا سيّما إذا كان مثل أبي مِخْنَف لوط بن يحيى، وأمثاله. ومعلوم أنّ الواقديّ نفسه خير عند الناس من مثل هشام بن الكلبيّ، وأبيه محمّد بن السائب، وأمثالهما، وقد عُلم كلام الناس في الواقديّ، فإنّ ما يذكره هو وأمثاله إنّما يُعتضد به ويُستأنس به، وأمّا الاعتماد عليه بمجرّده في العلم، فهذا لا يصلح»(١).

وقال ابن تيميّة أيضًا: «كما أنّهم من أجهل الناس بمعرفة المنقولات، والأحاديث، والآثار، والتمييز بين صحيحها، وضعيفها، وإنّما عمدتهم في المنقولات على تواريخ منقطعة الإسناد، وكثير منها من وضع المعروفين بالكذب، بل وبالإلحاد، وعلماؤهم يعتمدون على نقل مثل أبي مِخْنَف لوط بن يحيى، وهشام بن محمّد بن السائب، وأمثالهما من المعروفين بالكذب، عند أهل العلم، مع أنّ أمثال هؤلاء هم من أجلّ من يعتمدون عليه في النقل؛ إذ كانوا يعتمدون على من هو في غاية الجهل والافتراء، ممّن لا يُذكَر في الكتب، ولا يعرفه أهل العلم بالرجال»(٢).

وقال ابن تيميّة أيضًا: «والجواب: أن يُقال - قبل الأجوبة المفصّلة، عمّا يُذكَر من المطاعن - إنّ ما يُنقَل عن الصحابة من المثالب، فهو نوعان: أحدهما ما هو كذب، إمّا كذب كلّه، وإمّا محرَّف قد دخله من الزيادة والنقصان ما يُخرجه إلى الذمّ والطعن. وأكثر المنقول من المطاعن الصريحة هو من هذا الباب،

---

(١) مجموعة الفتاوى: ٢٤٧/٢٧.

(٢) منهاج السنّة النبويّة: ٥٨/١-٥٩.

يرويها الكذّابون، المعروفون بالكذب، مثل أبي مِخْنَف لوط بن يحيى، ومثل هشام بن محمّد بن السائب الكلبيّ، وأمثالهما من الكذّابين...»[١].

وقال ابن تيميّة أيضًا: «وأمّا جمهور المصنِّفين في الأخبار والتواريخ والسِّيَر والفِتَن، من رجال الجرح والتعديل، منهم من هو في نفسه متّهَم، أو غير حافظ، كأبي مِخْنَف لوط بن يحيى، وهشام بن محمّد بن السائب الكلبيّ، وإسحاق بن بشر، وأمثالهم، من الكذّابين، بل الواقديّ خير من ملء الأرض مثل هؤلاء، وقد عُلِم ما قيل فيه، ومحمّد بن سعد كاتبه ثقة، لكن يُنظَر عمّن نقل، وكذلك أبو الحسن المدائنيّ، وأمثاله، وإن سلموا من الطعن فيهم، فليسوا من علماء الجرح والتعديل، حتّى يكون ما رووه، ولم يُنكِروه: مقبولًا»[٢].

وقال الذهبيّ: «سيف بن عمر، الضبّيّ، الأُسيديّ، ويُقال: التميميّ، البُرجميّ، ويُقال: السعديّ، الكوفيّ. مصنِّف الفُتوح، والردّة، وغير ذلك. هو كالواقديّ. يروي عن هشام بن عروة، وعبيد الله بن عمر، وجابر الجعفيّ، وخلق كثير، من المجهولين. كان أخباريًّا عارفًا. روى عنه: جبارة بن المغلّس، وأبو معمر القطيعيّ، والنضر بن حمّاد العتكيّ، وجماعة. قال عبّاس، عن يحيى: ضعيف. وروى مطيّن، عن يحيى: فَلْسٌ خير منه. وقال أبو داود: ليس بشيء. وقال أبو حاتم: متروك. وقال ابن حبّان: اتُّهِم بالزندقة. وقال ابن عديّ: عامّة حديثه مُنكَر»[٣].

---

(١) منهاج السنّة النبويّة: ٨١/٥.

(٢) تلخيص كتاب الاستغاثة: ٧٧/١.

(٣) ميزان الاعتدال: ٢٥٥/٢.

الفروق بين النصّ الأصيل، وترجمة النصّ

ليست كلّ الترجمات: صحيحة دقيقة ثابتة قطعيّة، ولا سيّما ترجمات (أعداء الإسلام)، للنصوص القرآنيّة.

قال محمّد رشيد رضا: «وقد تُرجم القرآن في هذه القرون الأخيرة بأشهر لغات الشعوب الكبيرة، من غربيّة وشرقيّة، فكانت ترجمته مثارًا للشبهات، وسببًا للمطاعن، أكثر ممّا كانت سببًا للاهتداء إلى الإسلام. فإن قيل: إنّ مثار الشبهات لم يكن من الترجمة، بل من الخطإ فيها، وذلك يُتلافى بالترجمة الصحيحة التي ندعو إليها، وإنّ سبب الطعن لم يكن إلّا سوء قصد من أعداء الإسلام، من دعاة النصرانيّة، أو الملاحدة، وهؤلاء يطعنون في القرآن العربيّ المنزّل أيضًا. قلت: إنّي على علمي بهذا، أقول: إنّ الترجمة أكبر عون على الأمرين، فإنّ الذي يطعن في القرآن المنزّل، إمّا أن يكون ضعيفًا في اللغة العربيّة، أو حاذقًا لها راسخًا فيها، فالأوّل شبيه بمن يحاول فهم القرآن من الترجمة، أكثر ما يؤتى من جهله باللغة، وأمّا الثاني فهو يتكلّف الطعن تكلّفًا، يكابر به وجدانه، ويغالب ذوقه وبيانه، فيجيء طعنه ضعيفًا سخيفًا، ويكون الردّ عليه سهل المسلك، واضح المنهج، وقلّما يكون الدفاع عن الترجمة كذلك، وإن كانت صحيحة، ولن تكون صحيحة، إلّا في بعض الجمل، أو الآيات القصيرة، دون السور والآيات الطويلة. بل بعض المفردات تتعذّر ترجمتها بمفردات من اللغات الأخرى، تؤدّي المراد منها، وإنّه ليُوجَد في كلّ لغة، من هذه المفردات، التي لا يُوجَد لها مرادف في لغة أخرى. وفي كلام بعض العارفين باللغة العربيّة، وغيرها من اللغات المشهورة ما يدلّ على أنّ العربيّة أغناهنّ بهذه المفردات، دَعْ ما لها من الخصائص، في فنون المجاز،

والكنايات... قد تكرّر في كلامنا الجزم بتعذّر ترجمة القرآن، والمسلم الصحيح الإسلام لا يحتاج إلى دليل على هذا؛ لأنّه يؤمن بأنّ القرآن معجز للبشر، بأسلوبه، ونظمه العربيّ المنزَّل، كما أنّه معجز بهدايته وإصلاحه للبشر، وقد تحدّى النبيّ ﷺ العرب بهذا الإعجاز، وتحدّى المسلمون به من بعدهم، فثبت عجز الجميع عن الإتيان بمثله، وصدق قوله ﷻ: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1]. والترجمة لا تكون صحيحة، إلّا إذا كانت مثل الأصل، فالآية نصّ قطعيّ على عجز الإنس والجنّ، عن الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم عونًا ومساعدًا لبعض، فكيف يُمكن أن يأتي بمثله فرد، أو جماعة؟!...»[2].

وقال محمّد الغزاليّ: «اتّفق علماؤنا على أنّ النظم العربيّ جزء من النصّ القرآنيّ، جزء من الوحي، ولا يُمكن أن يُسمّى وحيًا أبدًا، لو تُرجِم القرآن إلى لغة أخرى، مهما كانت الترجمة دقيقة، ومهما كان وفاؤها بالمعاني. يستحيل أن يُسمّى هذا المنظوم قرآنًا. يُسمّى: معاني القرآن، يُسمّى تفسير القرآن باللغة الإنجليزيّة، أو الفرنسيّة.. إلخ، لكنّ القرآن لا يكون إلّا عربيًّا. عالَميّة القرآن تأتي بطريق ترجمة المعاني والأهداف للناس. وما حاجة الناس إلى أن يُترجَم لهم القرآن كلّه، ناقصًا المعاني التي لا يُمكن أن تُلحَظ إلّا في الأصل العربيّ. بمعنى: أنّ العلماء قالوا: هناك معانٍ ثانويّة غير المعاني، التي تُعطيها الكلمة... فهذه المعاني الثانويّة لا يُمكن أن تُترجَم أبدًا، مع ترجمة القرآن الكريم، إلى لغات أخرى. الذين يشتغلون بالترجمة الآن، يقولون: مهما رقيت الترجمة، وتقدّمت،

(١) الإسراء: ٨٨.

(٢) تفسير القرآن الحكيم: ٩/٣٤٦-٣٤٧.

لا يُمكن أن تُغني عن الأصل، وتنقل المعاني كاملة؛ لأنّ جزءًا من الحقيقة يضيع، أثناء النقل من لغة إلى أخرى؛ لذلك نرى كثيرًا من الذين يحرصون على المعاني الدقيقة، والأهداف المطلوبة: لا مندوحة لهم، عن تعلُّم لغتها. والتعامل السليم مع النصّ القرآنيّ يقتضي فَهْمَ النصّ، وإدراك مقاصده ومراميه. شعر شكسبير، إذا تُرجِم إلى اللغة العربيّة، يفقد نصف قيمته الأدبيّة؟ لأنّ قيمته في أصله، وليست القيمة عندنا نحن.. وفي جميع اللغات للأصل قيمة خاصّة، والترجمات تخضع لتحريفات كثيرة. نعود إلى القول بأنّ القرآن نزل عربيًّا، بلغة العرب، ورسالة القرآن رسالة شاملة، وعالَميّة، فكيف يُمكن أن يكون الخطاب القرآنيّ عالَميًّا، وهو باللغة العربيّة، مع أنّ الأقوام الآخرين لا يعرفون العربيّة؟ أثار الزمخشريّ السؤال نفسه، وأجاب عنه، قال فيما أذكُرُ: إنّ التراجم تُغني في هذه الحالة، لكن في البلاغ لا بدّ أن ينزل بلغة من اللغات، وكونه ينزل بجميع لغات الأرض دفعة واحدة، فهذا يعني أنّه يحتاج إلى مئة نبيّ مثلًا؛ لكي ينزلوا، ويتكلّموا بلغات أقوامهم. لا بدّ أن ينزل القرآن بلغة وحيدة، وعن طريق هذه اللغة الوحيدة، واستيعابها للمعاني، وقيام أهلها بالفهم، يُصدَّر عن طريق الترجمة والبيان لجميع اللغات الأخرى، وبهذا يمكن أن أنقل للناس معاني القرآن.. القرآن فيه أمران: أهداف رئيسيّة، ومحاور، أو أحكام، يمكن نقلها بدون حرج.. أمّا ما يصنع هذه الأحكام، من الأسلوب القرآنيّ كلّه، يبقى في الأصل؛ فلا تحتاج الأمم الأخرى إليه. فأُترجم مثلًا: المواريث، الحدود، خلاصة للقصّة القرآنيّة. أُترجم خلاصات لأشياء كثيرة... فلا أُقدِّم للناس قرآنًا مترجَمًا، ولكن أُقدِّم لهم، وأُصدِّر أحكامًا وقِيَمًا، وبعض السلوكيّات المطلوبة فقط»[1].

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن: ١٩٠-١٩٢.

الدليل العمليّ على تلك الفروق

وأكبر دليل عمليّ – على تنبّه المؤلّفين القدامى على تلك الفروق – هو اختلافهم، في كثير من المباحث التأليفيّة. ومن أمثلة ذلك:

١- الاختلاف في بعض القراءات:

قال الطبريّ: «واختلف القَرَأة، في قراءة ذلك، فقرأته عامّة القَرَأة: ﴿وَضَعَتْ﴾[١]، خبرًا من الله ﷻ عن نفسه أنّه العالِم بما وضعت من غير قيلها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾[٢]. وقرأ ذلك بعض المتقدّمين: "والله أعلم بما وضعتُ"، على وجه الخبر بذلك عن أمّ مريم أنّها هي القائلة: والله أعلم بما ولدتُ، منّي. وأولى القراءتين بالصواب ما نقلته الحجّة مستفيضة فيها قراءته بينها، لا يتدافعون صحّتها، وذلك قراءة من قرأ: ﴿والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[٣]. ولا يُعترض بالشاذّ عنها عليها»[٤].

وقال الطبريّ أيضًا: «اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامّة قَرَأة الكوفة: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾[٥] بالياء جميعًا، ردًّا على صفة القوم الذين وصفهم – جلّ ثناؤه – بأنّهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. وقرأته عامّة قَرَأة المدينة والحجاز وبعض قَرَأة الكوفة بالتاء، في الحرفين جميعًا: "وما تفعلوا من خير فلن تكفروه". بمعنى: وما تفعلوا أنتم أيّها المؤمنون من خير،

---

(١) آل عمران: ٣٦.

(٢) آل عمران: ٣٦.

(٣) آل عمران: ٣٦.

(٤) جامع البيان: ٣٣٦/٥.

(٥) آل عمران: ١١٥.

فلن يكفركموه ربّكم. وكان بعض قَرَأة البصرة يرى القراءتين في ذلك جائزًا بالياء والتاء في الحرفين. والصواب من القراءة في ذلك عندنا: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾[1] بالياء في الحرفين كليهما، يعني بذلك الخبر عن الأمّة القائمة، التالية آيات الله. وإنّما اخترنا ذلك؛ لأنّ ما قبل هذه الآية من الآيات خبر عنهم، فإلحاق هذه الآية - إذ كان لا دلالة فيها تدلّ على الانصراف عن صفتهم - بمعاني الآيات قبلها: أولى من صرفها عن معاني ما قبلها»[2].

وقال الطبريّ أيضًا: «وأمّا قراءة من قرأ ذلك: "وعلى الذين يُطوَّقونه"، فقراءة لمصاحف أهل الإسلام خلاف، وغير جائز لأحد من أهل الإسلام الاعتراض بالرأي على ما نقله المسلمون، وراثة عن نبيّهم ﷺ، نقلًا ظاهرًا قاطعًا للعذر؛ لأنّ ما جاءت به الحجّة من الدين هو الحقّ الذي لا شكّ فيه أنّه من عند الله، ولا يُعترض على ما قد ثبت، وقامت به حجّة أنّه من عند الله، بالآراء والظنون والأقوال الشاذّة»[3].

وقال الطبريّ أيضًا: «وقد قرأ جماعة من المتقدّمين: "لا يفرِّق بين أحد من رسله"، بالياء... والقراءة التي لا نستجيز غيرها، في ذلك عندنا، بالنون: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[4]؛ لأنّها القراءة، التي قامت حجّتها، بالنقل المستفيض، الذي يمتنع معه التشاعُر، والتواطؤ، والسهو، والغلط، بمعنى ما وصفنا، من: "يقولون لا نفرّق بين أحد من رسله".

---

(١) آل عمران: ١١٥.

(٢) جامع البيان: ٥/٧٠٠-٧٠١.

(٣) جامع البيان: ٣/١٨٠.

(٤) البقرة: ٢٨٥.

ولا يُعترض، بشاذّ من القراءة، على ما جاءت به الحُجّة، نقلًا، ووراثة»[1].

وقال الطبريّ أيضًا: «وأمّا القراءة التي حُكيت عن الحسن، فقراءة – عن قراءة الحجّة من القَرَأة – شاذّة، وكفى بشذوذها عن قراءتهم دليلًا على بعدها من الصواب»[2].

وقال ابن عطيّة: «وقرأ جمهور الناس: ﴿تَتَّبِعُونَ﴾[3] على المخاطبة، وقرأ النخعيّ، وإبراهيم، وابن وثّاب: "إن يتّبعوا"، بالياء، حكاية عنهم. قال القاضي أبو محمّد ﷺ: وهذه قراءة شاذّة، يضعّفها قوله: ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ﴾[4]...»[5].

وقال أبو عبد الله القرطبيّ: «وقرأ أبو الجوزاء أوس بن عبد الله الربعيّ: "ولكم في القَصَص حياة". قال النحّاس: قراءة أبي الجوزاء شاذّة. قال غيره: يحتمل أن يكون مصدرًا كالقصاص. وقيل: أراد بالقصص القرآن، أي: لكم في كتاب الله – الذي شرع فيه القصاص – حياة، أي: نجاة»[6].

وقال أبو عبد الله القرطبيّ أيضًا: «قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾[7]، قرأ الجمهور: ﴿كَاتِبًا﴾ بمعنى: رجل يكتب. وقرأ ابن عبّاس وأُبيّ ومجاهد والضحّاك وعكرمة وأبو العالية: "ولم تجدوا كتابًا". قال أبو بكر الأنباريّ: فسّره مجاهد، فقال: معناه: فإن لم تجدوا مدادًا، يعني في الأسفار. ورُوي عن ابن

---

(١) جامع البيان: ٥/١٥٠-١٥١.

(٢) جامع البيان: ٩/٩٩.

(٣) الأنعام: ١٤٨.

(٤) الأنعام: ١٤٨.

(٥) المحرّر الوجيز: ٢/٣٦٠.

(٦) الجامع لأحكام القرآن: ٣/٩٠.

(٧) البقرة: ٢٨٣.

عبّاس: "كُتّابًا". قال النحّاس: هذه القراءة شاذّة، والعامّة على خلافها، وقلّما يخرج شيء عن قراءة العامّة، إلّا وفيه مطعن، ونسق الكلام على "كاتِب"؛ قال الله ﷻ قبل هذا: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[1]، و"كُتّاب" يقتضي جماعة»[2].

وقال أبو عبد الله القرطبيّ أيضًا: «وقرأ عروة بن الزبير: "ونادى نوح ابنها"، يُريد: ابن امرأته، وهي تفسير القراءة المتقدّمة عنه، وعن عليّ ﷺ، وهي حجّة للحسن ومجاهد؛ إلّا أنّها قراءة شاذّة، فلا نترك المتّفَق عليها لها»[3].

وقال أبو عبد الله القرطبيّ أيضًا: «وروى عصمة عن الأعمش: "وقُمْرًا"، بضمّ القاف، وإسكان الميم؛ وهذه قراءة شاذّة، ولو لم يكن فيها، إلّا أنّ أحمد بن حنبل - وهو إمام المسلمين، في وقته - قال: لا تكتبوا ما يحكيه عصمة، الذي يروي القراءات. وقد أُولع أبو حاتم السجستانيّ، بذكر ما يرويه عصمة هذا»[4].

٢- الاختلاف في بعض التفسيرات:

قال ابن الجوزيّ: «اختلف العلماء في المراد باستهزاء الله بهم على تسعة أقوال: أحدها أنّه يُفتَح لهم باب من الجنّة، وهم في النار، فيُسرعون إليه، فيُغلَق، ثمّ يُفتَح لهم باب آخر، فيُسرعون، فيُغلَق، فيضحك منهم المؤمنون، رُوي عن ابن عبّاس. والثاني أنّه إذا كان يوم القيامة، جمدت النار لهم، كما تجمد الإهالة،

---

(١) البقرة: ٢٨٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٤/٤٦٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١١/١٣٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٤٦١.

في القدر، فيمشون، فتنخسف بهم، رُوي عن الحسن البصريّ. والثالث أنّ الاستهزاء بهم، إذا ضُرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قِبله العذاب، فيبقون في الظلمة، فيُقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾(١)، قاله مقاتل. والرابع أنّ المراد به: يجازيهم على استهزائهم، فقوبل اللفظ بمثله لفظًا، وإن خالفه معنى، فهو كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾(٢)، وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾(٣)، وقال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يَجهلَنْ أحدٌ علينا ... فنَجهلَ فوقَ جهلِ الجاهِلينا

أراد: فنعاقبه بأغلظ من عقوبته. والخامس أنّ الاستهزاء من الله التخطئة لهم، والتجهيل، فمعناه: الله يخطّئ فعلهم، ويجهّلهم في الإقامة على كفرهم. والسادس أنّ استهزاءه: استدراجه إيّاهم. والسابع: أنّه إيقاع استهزائهم بهم، وردّ خداعهم ومكرهم عليهم. ذكر هذه الأقوال محمّد بن القاسم الأنباريّ. والثامن: أنّ الاستهزاء بهم أن يُقال لأحدهم في النار، وهو في غاية الذلّ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(٤)، ذكره شيخنا، في كتابه. والتاسع: أنّه لمّا أظهروا من أحكام إسلامهم - في الدنيا - خلاف ما أُبطن لهم، في الآخرة، كان كالاستهزاء بهم»(٥).

---

(١) الحديد: ١٣.

(٢) الشورى: ٤٠.

(٣) البقرة: ١٩٤.

(٤) الدخان: ٤٩.

(٥) زاد المسير: ١/٣٥-٣٦.

٣- الاختلاف في بعض الأحاديث:

حين يصحِّح بعض المؤلّفين حديثًا معيّنًا، ويضعِّفه آخرون؛ فإنّ اختلافهم هذا دليل عمليّ، على تنبّههم على الفرق بين السنّة النبويّة، والحديث المنسوب إلى النبيّ ﷺ، فلا يُتصوّر أنّ بعض قدامى المؤلّفين يرفض السنّة النبويّة، وإنّما هو بتضعيفه للحديث يُنكِر صحّة نسبة ذلك الحديث إلى السنّة النبويّة.

قال ابن تيميّة: «وأمّا تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث وأمثاله، فهذا ممّا أنكره عليه أئمّة العلم بالحديث، وقالوا: إنّ الحاكم يصحّح أحاديث، وهي موضوعة مكذوبة، عند أهل المعرفة بالحديث، كما صحّح حديث زريب بن برثملي، الذي فيه ذِكر وصيّ المسيح، وهو كذب باتّفاق أهل المعرفة، كما بيّن ذلك البيهقيّ، وابن الجوزيّ، وغيرهما، وكذا أحاديث كثيرة في مستدركه، يصحّحها، وهي - عند أئمّة أهل العلم بالحديث - موضوعة، ومنها ما يكون موقوفًا يرفعه. ولهذا كان أهل العلم بالحديث لا يعتمدون على مجرّد تصحيح الحاكم، وإن كان غالب ما يصحّحه، فهو صحيح، لكن هو في المصحّحين بمنزلة الثقة الذي يكثر غلطه، وإن كان الصواب أغلب عليه. وليس فيمن يصحّح الحديث أضعف من تصحيحه»[(١)].

٤- الاختلاف في بعض الآراء العَقَديّة:

قال ابن تيميّة: «وقد ذكر جماعة، من المنتسبين إلى السُّنّة: أنّ الأنبياء، وصالح البشر: أفضل من الملائكة. وذهبت المعتزلة إلى تفضيل الملائكة، على البشر، وأتباع الأشعريّ على قولين: منهم من يفضّل الأنبياء والأولياء، ومنهم من يقف، ولا يقطع فيهما بشيء. وحُكي عن بعض متأخّريهم أنّه مال

---

(١) مجموعة الفتاوى: ١/١٨٢-١٨٣.

إلى قول المعتزلة، وربّما حُكي ذلك، عن بعض من يدّعي السنّة، ويواليها»[1].

وقال ابن تيميّة أيضًا: «وقول من يقول: إنّ الروح بمفردها: لا تُنعَّم، ولا تُعذَّب، وإنّما الروح هي الحياة، وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام، من المعتزلة، وأصحاب أبي الحسن الأشعريّ، كالقاضي أبي بكر، وغيرهم؛ ويُنكرون أنّ الروح تبقى، بعد فراق البدن، وهذا قول باطل، خالفه الأستاذ أبو المعالي الجوينيّ، وغيره...»[2].

٥- الاختلاف في بعض الآراء الأصوليّة:

قال ابن تيميّة: «الطريق الخامس: القياس على النصّ والإجماع. وهو حجّة أيضًا، عند جماهير الفقهاء، لكنّ كثيرًا من أهل الرأي أسرف فيه، حتّى استعمله قبل البحث عن النصّ، وحتّى ردَّ به النصوص، وحتّى استعمل منه الفاسد؛ ومن أهل الكلام وأهل الحديث وأهل القياس من يُنكِره رأسًا، وهي مسألة كبيرة، والحقّ فيها متوسّط بين الإسراف والنقص»[3].

وقال الزركشيّ: «مسألة: في جواز تعليل الشيء - بجميع أوصافه - خلاف، حكاه ابن فورك، والقاضي عبد الوهّاب في الملخّص، مبنيّ على أنّ شرط العلّة التعدّي، فمن شرطه منعها هنا، ومن جوّزه اختلفوا على قولين: أحدهما لا يصحّ؛ لأنّ حقّ العلّة التأثير، ولا بدّ أن يكون المؤثّر بعض الأوصاف، دون بعض؛ فتعليله بجميعها لا يصحّ، فلو اتّفق أنّ جميعها مؤثّرة،

(١) مجموعة الفتاوى: ٤/٢١٨.

(٢) مجموعة الفتاوى: ٤/١٧٤.

(٣) مجموعة الفتاوى: ١١/١٨٧.

جاز. والثاني يصحّ؛ لأنّ أكثر ما فيه ألّا يتعدّى، وذلك لا يمنع صحّتها»[1].

٦- الاختلاف في بعض الآراء الفقهيّة:

قال ابن المنذر: «اختلف أهل العلم فيمن بدّل ماشية له قبل الحول، بماشية لآخر؛ فرارًا من الصدقة. فكان الشافعيّ، وأبو ثور، وأصحاب الرأي يقولون: لا زكاة على كلّ واحد منهما، فيما قبض من صاحبه، حتّى يحول على ما اشترى حول، من يوم اشتراه. وقال الثوريّ كذلك، غير أنّه لم يذكر الفرار من الصدقة. وكان مالك، والأوزاعيّ، وعبد الملك، وأحمد، وإسحاق، وأبو عُبَيد يرون في ذلك الزكاة، إذا كان فرارًا من الصدقة... واختلفوا في خمس من الإبل، حال عليها حولان. فقال مالك: فيها شاتان في حكاية أبي عُبَيد عنه، وبه قال أبو عُبَيد، وأحمد، والشافعيّ، فيما حكاه أهل العراق عنه، وقال بمصر: فيها قولان، أحدهما: كما قال هؤلاء، والآخر: أنّ عليه شاة»[2].

٧- الاختلاف في بعض الآراء الخُلُقيّة:

قال أبو حامد الغزاليّ: «اعلم أنّ الناس اختلفوا في ذلك، فقال قائلون: الصمت[3] أفضل من الشكر، وقال آخرون: الشكر أفضل، وقال آخرون: هما سيّان، وقال آخرون: يختلف ذلك باختلاف الأحوال؛ واستدلّ كلّ فريق بكلام شديد الاضطراب، بعيد عن التحصيل؛ فلا معنى للتطويل بالنقل، بل المبادرة إلى إظهار الحقّ أولى، فنقول...»[4].

---

(١) البحر المحيط في أصول الفقه: ١٧٠/٥.

(٢) الإشراف على مذاهب العلماء: ٢١/٣.

(٣) في المطبوع: (الصمت)، والصواب: (الصبر).

(٤) إحياء علوم الدين: ١٤٨١.

فهذه الأمثلة المختارة - وغيرها أكثر منها، بأضعاف مضاعفة - تدلّ دلالة واضحة، لا ريب فيها، على أنّ المؤلّفين القدامى كانوا متّفقين على وجود فروق كثيرة، وكبيرة، بين الحقائق الإسلاميّة، والمباحث التأليفيّة، ولكنّهم كانوا يختلفون، في التعيين والتحديد.

وليس يعنينا - من سرد هذه النصوص - تصويب بعضها، ولا تخطئة ما خالفها، ولا ترجيح بعضها على بعض؛ لأنّ الغرض - من سردها - ليس بيان وجه الصواب فيها، بل الاستدلال بها، على وجود الاختلاف، الذي يعني بوضوح: أنّ المختلفين كانوا متنبِّهين على الفروق، بين الحقائق الإسلاميّة، والمباحث التأليفيّة.

براءة الصورة التنزيليّة من أخطاء المؤلّفين

الصورة التنزيليّة بريئة، كلّ البراءة، من أخطاء القُرّاء، والرواة، والمحدّثين، والمفسّرين، والشرّاح، والمتكلّمين، والفقهاء، والأصوليّين، والأخلاقيّين، والمؤرّخين، واللغويّين، والمترجمين.

وليس من الحقّ اعتماد الطاعنين في (الإسلام)، على رأي، ذهب إليه بعض المختلفين، ولم يُجمِعوا عليه، فإنّ اختلافهم دليل على نفي بعضهم نسبة ذلك الرأي إلى (الإسلام).

فالمطاعن المستمدّة من الآراء الخلافيّة ليست بجديدة؛ فقد سبقهم - إلى الطعن فيها - بعض المؤلّفين الرافضين لها، ولكنّهم إنّما يوجّهونها إلى الآراء العلميّة، ويُبرِّئون (الإسلام) منها.

فكلّ قراءة، أو حديث، أو خبر، أو رواية، أو تفسير، أو شرح، أو رأي، مختلف فيه: لا يُمكن للطاعن، أصلًا، أن يتّخذه مادّة للطعن في (الإسلام)؛ لأنّه لا يملك دليلًا قطعيًّا واحدًا، على صحّة نسبته إلى (الإسلام).

ولذلك لا يعدو طعن الطاعن - في رأي من الآراء - أن يكون تكرارًا، للطعن الذي وجّهه بعض المؤلّفين، من قبل، إلى ذلك الرأي نفسه، فهو طعن في الرأي، وليس طعنًا في الدين.

وأخطاء المؤلّفين - التي اكتسبت صفة القبول عند مقلّديهم - لا يُمكن أن تُعدّ جزءًا من (الحقائق الإسلاميّة)؛ لأنّها في الحقيقة: أخطاء إنسانيّة؛ فالفرق كبير جدًّا بين (الواقع الإسلاميّ الحقيقيّ)، وبين (الاعتقاد الإنسانيّ الذهنيّ)، أو (الاستمساك الإنسانيّ المذهبيّ).

والباطل في الواقع يبقى باطلًا، حتّى لو آمن به الناسُ، كلُّهم أجمعون.

الصورة التطبيقيّة

وهي منسوبة إلى التطبيق، وهو لفظ يشير إلى تطبيقات المنسوبين إلى الإسلام، من الأفراد، والجماعات، في الاعتقادات، والأعمال، والأخلاق.

والمنسوبون إلى الإسلام ليسوا بمعصومين، فقد يُصيبون إذا كانت تطبيقاتهم موافقة للصورة التنزيليّة، وقد يُخطئون إذا كانت تطبيقاتهم مخالفة للصورة التنزيليّة.

ومن أجرم منهم، فجريمته تخصّه هو، ولا يُمكن أن تتعدّى إلى غيره، من الأهل والأقارب والجيران والأصدقاء والمعارف، فضلًا عن أن تُنسَب إلى الدين، الذي يُنسَب إليه المُجرِم.

فلا أحد يُنكِر أنّ بعض المنسوبين إلى الإسلام - قديمًا وحديثًا - مجرمون؛ فمنهم القاتل والزاني والسارق؛ ولكن ليس من العدل أن تُنسَب جرائم المجرمين إلى الدين، الذي يُنسَبون إليه، ولا سيّما حين نجد في أحكام الدين ما ينهى عن هذه الجرائم، صراحة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا. وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾[1].

إنّ (المنسوبين) إلى (الإسلام) اليوم أكثر من (مليار إنسان)، ولا يجمع هؤلاء (المنسوبين)، إلّا أمر واحد، هو تلك التسمية الاصطلاحيّة: (المسلم)، أو (المسلمون)؛ وهي تسمية مُوهِمة، كلّ الإيهام، انحرف بها الناس، عن

---

(١) الإسراء: ٣٢-٣٣.

الأصل الصحيح، الذي وُضعت؛ للدلالة عليه، أعني: (الأصل الشرعيّ).

وما زال أعداء الإسلام - من الطاعنين فيه - يتّخذون من هذه التسمية الاصطلاحيّة ذريعة للطعن في الإسلام؛ لأنّهم يزعمون أنّ المنسوبين إلى الإسلام هم التطبيق الواقعيّ للإسلام، فإذا أجرم بعض المنسوبين، فمصدر إجرامهم هو دينهم، الذي إليه يُنسَبون!!!

وواضح - كلّ الوضوح - بطلان هذه الذريعة؛ فإنّ العمل بمقتضاها يعني أنّ جرائم المنسوبين إلى اليهوديّة يجب أن تُنسَب إلى اليهوديّة، وجرائم المنسوبين إلى المسيحيّة يجب أن تُنسَب إلى المسيحيّة.

وبهذا لا ينجو دين من المطاعن؛ فكيف يطعن الطاعنون في الإسلام، بسلاح يوجّهونه إلى أديانهم، التي إليها يُنسَبون؟!!!

إنّ كلمة (المسلم) تُطلَق على عدّة أقسام من المنسوبين إلى (الإسلام)، أبرزها:

١- المنسوب إلى الإسلام، نسبة مثاليّة، وهذه حال الرسل والأنبياء، ومنهم: إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

٢- المنسوب إلى الإسلام، نسبة واقعيّة، وهذه حال الصالحين، من الذين يكثر صوابهم، ويقلّ خطؤهم؛ وإذا أخطأوا، سارعوا إلى التوبة، وأبرزهم: السابقون الأوّلون، من المهاجرين والأنصار، والذين اتّبعوهم بإحسان.

قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ

---

(١) آل عمران: ٦٧.

فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(١).

٣- المنسوب إلى الإسلام، نسبة ظاهريّة، وهذه حال المنافقين، الذين هم في الباطن أعداء للدين، فإسلامهم في الظاهر، وقلوبهم خاوية، لا إيمان فيها.

قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢).

قال أبو عبد الله القرطبيّ: «وبالجملة؛ فالآية خاصّة لبعض الأعراب؛ لأنّ منهم من يؤمن بالله، واليوم الآخر، كما وصف الله تعالى. ومعنى ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾(٣)، أي: استسلمنا؛ خوف القتل والسبي، وهذه صفة المنافقين؛ لأنّهم أسلموا في ظاهر إيمانهم، ولم تؤمن قلوبهم، وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب. وأمّا الإسلام، فقبول ما أتى به النبيّ ﷺ، في الظاهر، وذلك يحقن الدم»(٤).

وقال ابن عاشور: «فهؤلاء الأعراب، لمّا جاءوا مظهرين الإسلام - وكانت قلوبهم غير مطمئنّة لعقائد الإيمان؛ لأنّهم حديثو عهد به - كذّبهم الله في قولهم: آمنّا؛ ليعلموا أنّهم لم يخفَ باطنهم على الله، وأنّه لا يُعتدّ بالإسلام، إلّا إذا قارنه الإيمان، فلا يُغني أحدهما، بدون الآخر، فالإيمان بدون إسلام:

---

(١) الحجّ: ٧٨.

(٢) الحجرات: ١٤.

(٣) الحجرات: ١٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٤٢١/١٩.

عناد، والإسلام بدون إيمان: نفاق، ويجمعهما طاعة الله، ورسوله ﷺ»[1].

وقال الشنقيطيّ: «ولذلك وجهان معروفان عند العلماء أظهرهما عندي: أنّ الإيمان المنفيّ عنهم في هذه الآية هو مُسمّاه الشرعيّ الصحيح، والإسلام المُثبَت لهم فيها هو الإسلام اللغويّ، الذي هو الاستسلام والانقياد بالجوارح، دون القلب. وإنّما ساغ إطلاق الحقيقة اللغويّة هنا على الإسلام، مع أنّ الحقيقة الشرعيّة مقدّمة على اللغويّة، على الصحيح؛ لأنّ الشرع الكريم جاء باعتبار الظاهر، وأن توكَل السرائر إلى الله. فانقياد الجوارح في الظاهر بالعمل، واللسان بالإقرار يُكتفى به شرعًا، وإن كان القلب منطويًا على الكفر. ولهذا ساغ إرادة الحقيقة اللغويّة في قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[2]؛ لأنّ انقياد اللسان والجوارح في الظاهر إسلام لغويّ، مكتفى به شرعًا، عن التنقيب عن القلب. وكلّ انقياد واستسلام وإذعان يُسمّى: (إسلامًا)، لغةً...»[3].

ثمّ قال الشنقيطيّ: «وعلى هذا القول، فالأعراب المذكورون منافقون؛ لأنّهم مسلمون في الظاهر، وهم كفّار في الباطن...»[4].

٤- المنسوب إلى الإسلام، نسبة وراثيّة، وهذه حال أكثر الناس، ولا سيّما في العصر الحديث؛ فليس لهم من الإسلام في غالب أحوالهم، إلّا النسبة إليه، وهو بريء منهم، وهم برآء منه.

فتجد الواحد، من هؤلاء (المنسوبين الوراثيّين): يزني، ويشرب الخمر،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٢٦/٢٦٤.

(٢) الحجرات: ١٤.

(٣) أضواء البيان: ٧/٦٧٤-٦٧٥.

(٤) أضواء البيان: ٧/٦٧٥.

ويسرق، ويكذب، ويغشّ، ويأكل الربا، ويخون الأمانة، وربّما قتل؛ وقد ترك الصلاة والزكاة والصيام، وسائر العبادات، وربّما سبّ الله ﷻ، بأقذع الألفاظ، ولم يفكّر يومًا، في التوبة؛ ثمّ يسمّي نفسه: (مسلمًا)، ويسمّيه الناس: (مسلمًا)، ثمّ يأتي (الأعداء الطاعنون)؛ لينسبوا جرائمه، ورذائله، إلى (الإسلام)؟!!!

إنّ بعض المتفاخرين قد سرّهم عدد المنسوبين، إلى (الإسلام)، ونسوا، أو تناسوا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾(١).

ونسوا - أو تناسوا - المعنى الشرعيّ لكلمة (المسلم)... إنّه من أسلم وجهه لله ﷻ، وآمن، وعمل الصالحات.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤).

---

(١) الرعد: ١٧.

(٢) لقمان: ٢٢.

(٣) فصّلت: ٣٣.

(٤) البقرة: ١١٠-١١٢.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا. لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا. وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾(١).

قال عليّ الطنطاويّ: «مسلمون يشربون الخمر، وهم يعلمون أنّها محرّمة في دينهم! مسلمون لا يعرفون من الإسلام إلّا اسمه، ولا يمتّون إليه بصلة أوثق من صلة اللقب والأسرة والبلد! وماذا ينفع لقب إسلاميّ وأسرة إسلاميّة وبلد إسلاميّ رجلًا يتجاوز حدود الله، فيحرّم ما أحلّ، ويُحلّ ما حرّم، ويأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف؟! وأين هو الإسلام في رجل يستحيي أن يقوم إلى الصلاة إذا كان في القوم المهذّبين؛ خشية أن يقولوا: إنّه رجعيّ؟ وأين هو الإسلام في رجل يتقاعس عن الغضب لدينه، إذا شتمه ونال منه الجاهلون؛ خوفًا من أن يُرمى بالتعصّب؟ إنّ الإسلام سلسلة متماسكة الأجزاء، لا سبيل لكم إلّا إلى قبولها جملة، أو رفضها جملة، أمّا أنّكم تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢). وليس الإسلام كالنصرانيّة، وليس يكفي صاحبه ما يكفي صاحبها، من أن يحضر صلواتها، ويعترف لقُسُسها وبطارقها، ثمّ يعيش في الحياة كالسائمة، يُلقى حبلها على غاربها،

(١) النساء: ١٢٢-١٢٥.

(٢) البقرة: ٨٥.

فترعى ما ضرّها ونفعها، وأفادها وآذاها! بل الإسلام دين كامل يُنير لِمتّبعيه كلّ خطوة من خطى الحياة، ويدلّهم على كلّ غاية فيها لهم صلاح وهدى؛ فهو دين، وهو قانون، وهو كلّ شيء. فهما ثنتان أيّها القوم، ولا ثالثة لهما، إمّا أن تكونوا مسلمين في سرّكم وجهركم، وجدّكم وهزلكم، وبيوتكم ومجامعكم، وفي كلّ أمر من أموركم، ووقت من أوقاتكم؛ وإمّا أن تخرجوا من الإسلام، وتخلعوا رِبْقَته من أعناقكم، وتنفضوا منه أياديكم، ثمّ تقولوا للناس: إنّكم كافرون مرتدّون؛ وإذن تخسرون كلّ شيء، إذ تخسرون الإسلام، ولا يخسر الإسلام - وربِّ محمّد - إذ يخسركم شيئًا. وإنّ دينًا تعهّد الله بحفظه، لا يضيره أن يخرج منه أقوام، علم الله أنّهم لم يدخلوا فيه أبدًا»(١).

وقال عليّ الطنطاويّ أيضًا: «عرفنا هؤلاء الناهضين، فعرفنا شرًّا على الأمّة، لا شرّ وراءه! وأيّ شرّ وراء قوم، مسلمين بأسمائهم، وألقابهم، كافرين بأفعالهم، وأعمالهم؛ لا يُقيمون الصلاة، ولا يؤتون الزكاة، ولا يصومون رمضان، ولا يحجّون البيت، وإن استطاعوا إليه سبيلًا! يقولون: إنّهم مسلمون، وأنت ترى بيوتهم، ونساءهم، وأولادهم، وأقرباءهم، فترى تفرنُجًا، وسفورًا، وتراهم أبعد عن الإسلام، من الحقّ عن الباطل، والأرض عن السماء! مسلم امرأته سافرة، تُبدي للناس نحرها، وسحرها، وذراعيها، وساقيها! مسلم أولاده بادية عوراتهم، إفرنجيّة مدارسهم، يعرفون عن المسيح، أكثر ممّا يعرفون عن محمّد، عليه صلاة الله وسلامه! مسلم يدخل المسجد مرّة في العام، ولا يلبث يومًا، لا يدخل فيه مقهى، أو مسرحًا! مسلم تقول له: قم فصلِّ، فيقول لك: أهي بالصلاة؟ تقول له: صُمْ، فيقول لك: أهو بالصوم؟ تقول: اذكر الله، وصلِّ على محمّد، فيقول:

---

(١) البواكير: ٩١-٩٢.

أهي بالذكر، والصلاة على محمّد؟ فيا ابن اللخناء، يا أحمق! إذا لم يكن الدين بالصلاة، وإذا لم يكن بالصوم، وإذا لم يكن بالسنن، والأذكار، فهل يكون الدين، بحضور حفلات الرقص، والجلوس إلى موائد الخمر؟ لا، نحن لا نُريد أن نحمل الناس كلّهم، على الإسلام، ولكنّنا نُريد أن نبيّن للناس أنّ المسلم لا يستطيع أن يشرب الخمر، وهو مسلم، ولا يستطيع أن يسمح لنسائه بالسفور، وهو مسلم! نُريد أن نُعلِن براءة الإسلام، من هؤلاء المسلمين الجغرافيّين، الذين هم مسلمون، في تذاكر النفوس، وأسماء الآباء، وكافرون فيما وراء ذلك. نُريد أن نعود إلى الدين»(١).

وقال محمّد قطب: «كيف انحسر مفهوم الإسلام في نفوسنا إلى هذا الحدّ؟؟ كيف انحسر من مفهوم شامل للحياة البشريّة، في جميع اتّجاهاتها، بل مفهوم شامل - في الحقيقة - للكون والحياة والإنسان، لكي يُصبح مجرّد عبادات تؤدّى على نحو من الأنحاء، بل لا تؤدّى أحياناً إلّا بالنيّة.. بل لا تؤدّى أحياناً على الإطلاق، لا بالنيّة، ولا بغير النيّة.. ثمّ يظلّ يدور في أخلادنا - مع ذلك - أنّنا مسلمون، صادقو الإسلام؟ كيف انحسر من دستور شامل يحكم الحياة البشريّة كلّها، وينظّمها: يحكم اقتصاديّاتها، واجتماعيّاتها، ومادّيّاتها، وروحانيّاتها، وسياستها، وأفكارها، ومشاعرها، وسلوكها العمليّ، في واقع الحياة، لكي يُصبح مجرّد مشاعر هائمة، لا رصيد لها من الواقع.. مشاعر تدور في نفس صاحبها - إن دارت - وهو يعيش، في مجتمع غير مسلم، ولا يستنكر الحياة فيه، ولا يحاول تغييره. وتدور في نفسه - إن دارت - وهو ذاته لا يسلك سلوك المسلمين، في حياته الخاصّة، ولا العامّة. فتقاليده غير

---

(١) البواكير: ٩٥-٩٦.

إسلاميّة، وأفكاره غير إسلاميّة، وتصوّراته غير إسلاميّة، وسلوكه اليوميّ لا يمتّ بصلة إلى الإسلام، سواء في علاقة الفرد بالفرد، أو الفرد بالجماعة، أو الفرد بالدولة، أو علاقة الرئيس بالمرؤوس... كيف انحسر من حياة كاملة قائمة على مبادئ الإسلام وأفكاره ومُثُله وسلوكه الواقعيّ، تشمل الدنيا والآخرة والأرض والسماء والحاكم والمحكوم والرجل والمرأة والأسرة والمجتمع، لكي يُصبح جزئيّات مبعثرة، لا رابط بينها، ولا دلالة فيها، كالرقعة الشائهة، في نسيج غير متناسق الأجزاء؟ كيف نبتت تلك الأفكار العجيبة التي تقسّم الإسلام: مشاعر من ناحية، وسلوكًا عمليًّا، من ناحية أخرى، ثمّ تفصل بين هذه وتلك، وتتصوّر أنّ المشاعر وحدها يُمكن أن تكون إسلامًا، بمعزل عن السلوك؟! كيف دار في أخلاد المسلمين أنّهم يستطيعون أن يستوردوا اقتصاديّاتهم، من أيّ نظام على وجه الأرض، غير إسلاميّ، ويستوردوا أصول مجتمعهم وقواعده، من أيّة فكرة على وجه الأرض، غير إسلاميّة، ويستوردوا تقاليدهم، من أيّ مجتمع على وجه الأرض، غير مسلم، ثمّ يظلّوا مع ذلك مسلمين؟! كيف أمكن أن يتصوّر المسلم أنّه يستطيع أن يخالف تعاليم ربّه، في كلّ شيء، ويخون أماناته كلّها، فيغشّ ويكذب ويخون ويخدع، ويتجاوز المتاع المباح، إلى المتعة المحرّمة، ويقبل الذلّ والمهانة؛ حرصًا على هذا المتاع، ويُخلي نفسه من تبعة إقامة المجتمع المسلم، سواء بسلوكه الذاتيّ، أو بالدعوة إلى ذلك المجتمع، ويشارك بذلك كلّه، في إقامة مجتمع غير مسلم، قائم على الظلم والانحراف والمعصية.. ثمّ يتصوّر بعد ذلك أنّ بضع ركعات في النهار - مخلصة، أو غير مخلصة - يُمكن أن تُسقِط عنه تبعاته أمام الله، وتسلكه في عداد المسلمين؟! كيف أمكن أن تتصوّر المسلمة أنّها تستطيع أن تخالف تعاليم ربّها، وتخون أماناته: فتغشّ وتكذب وتحقد وتغتاب.. وتخرج عارية، تعرض فتنتها في الطريق، لكلّ عين نهمة، وجسد شهوان، وتُخلي

نفسها من تبعة إقامة المجتمع المسلم، سواء بالسلوك المستقيم، في ذات نفسها، أو بتربية أبنائها عليه، أو بالدعوة إلى ذلك المجتمع.. وتشارك بذلك كلّه في إقامة مجتمع غير مسلم، قائم على الظلم والانحراف والمعصية.. ثمّ يدور في خلدها بعد ذلك أنّ النيّة الطيّبة في داخل قلبها يُمكن أن تُسقِط عنها تبعاتها أمام الله، وتسلكها في عداد المسلمات؟! من أين أتت تلك الأفكار الغريبة التي تقول: ما للدين ونظام المجتمع؟ ما للدين والاقتصاد؟ ما للدين وعلاقات الفرد بالمجتمع وبالدولة؟ ما للدين والسلوك العمليّ في واقع الحياة؟ ما للدين والتقاليد؟ ما للدين والملبس، وخاصّة ملابس المرأة؟ ما للدين والفنّ؟ ما للدين والصحافة والإذاعة والسينما والتلفزيون؟ وباختصار.. ما للدين والحياة؟ ما للدين والواقع الذي يعيشه البشر على الأرض؟! لا شكّ أنّ هناك أسبابًا كثيرة لهذا الانحسار الذي يعانيه الإسلام، في نفوس المسلمين. فلم يكن كذلك المجتمع المسلم حين كان يمارس حقيقة الإسلام...»(١).

٥- المنسوب إلى الإسلام، نسبة مذهبيّة، وهذه حال كثير من الناس، قديمًا وحديثًا، ممّن يلتزمون في غالب أحوالهم بأحكام الإسلام، ويتوبون إذا أخطأوا.

وليس الخطأ في انتسابهم المذهبيّ، ولكنّهم يُخطئون حين يرون أنّ المذهب الذي ينتمون إليه هو الإسلام، دون ما سواه من المذاهب، فيدافعون عن آرائهم المذهبيّة، أكثر من دفاعهم عن أصول الإسلام.

وتجد كثيرًا منهم يُبغضون من يخالفونهم في المذهب، ويطعنون فيهم، وقد يكفّرون بعض مخالفيهم، وربّما تدابروا، وتقاتلوا، فكأنّهم نسوا، أو تناسوا الأمر بالاعتصام، والنهي عن التفرّق!!!

---

(١) هل نحن مسلمون: ٥-٨.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وللمنتسبين إلى (الإسلام) عمومًا أربعة مواقف مختلفة، في هذا المقام:

أ- الإسلام أوّلًا، وأخيرًا، ولا شيء غير الإسلام.

ب- الإسلام أوّلًا، والمذهب ثانيًا.

ج- المذهب أوّلًا، والإسلام ثانيًا.

د- المذهب أوّلًا، وأخيرًا، ولا شيء غير المذهب.

٦- المنسوب إلى الإسلام، نسبة عصريّة، وهذه حال بعض المعاصرين المتأثّرين بالغربيّين، وبالتنويريّين العصرانيّين (المعطّلين).

فتجد أحدهم يلتزم ببعض الأحكام، وربّما حافظ على الصلوات، في المساجد، وتشوّق إلى صيام رمضان، ونافس غيره للحصول على فرصة لأداء الحجّ، أو العمرة؛ ولكنّ هذا كلّه لا يمنعه من تعطيل بعض الأحكام، أو تناسيها، أو التساهل فيها!!!

فتخرج ابنته - وهو يرى - كاشفة عن شعرها ونحرها، وأعلى صدرها، وذراعيها، وقد تزيّنت بالأصباغ، وتعطّرت بالعطور، ولبست القميص الضيّق،

---

(١) آل عمران: ١٠٢- ١٠٥.

والبنطال الضيّق، وربّما كشفت عن ساقيها، أو عن ركبتيها، وربّما ظهر شيء من بطنها، أو ظهرها؟!!!

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[2].

---

(١) النور: ٣١.

(٢) الأحزاب: ٥٩.

المبدأ السابع
تراتُب التُّهَم

إذا اتُّهِم المتّهَم بأكثر من تهمة، فالواجب البدء بأخطرها، كأن يكون متّهَمًا بقتل رجل، وبجرحه، فالواجب البحث في ثبوت جريمة القتل أوّلًا، فإن ثبتت، وأُدين المتّهَم، فلا داعي إلى البحث في ثبوت جريمة الجرح؛ لأنّ عقوبة القتل مُغنية عن عقوبة الجرح، اعتمادًا على نظريّة الجَبّ[1].

أمّا إذا ثبتت براءته من جريمة القتل، فيجب بعدها البحث في ثبوت جريمة الجرح، فإن ثبتت إدانته بها، عوقب بالعقوبة المناسبة، وإن ثبتت براءته، فلا إدانة، ولا عقوبة.

وليس من الحكمة البدء بالجريمة الصغرى، قبل الجريمة الكبرى؛ لأنّه قد تثبت إدانته بجريمة الجرح، فيعاقَب بالعقوبة المناسبة، ثمّ تثبت إدانته بجريمة القتل، فيعاقَب بالقصاص، وفي ذلك جمع لعقوبتين، وهو إفراط في العقاب[2]؛ ما دامت عقوبة القتل مُغنية عن عقوبة الجرح.

وقد يطول البحث في إثبات جريمة الجرح، أو في نفيها، ويدخل القاضي والمدّعي والمحامي في تفصيلات، وتفصيلات، ولا ثمرة من ورائها، إلّا إنكار المتّهَم والمحامي، وإصرار المدّعي، وحيرة القاضي.

وفي (محاكمة الإسلام) يجب العناية بالأصول، قبل الفروع؛ فما الفائدة من محاولة إثبات صحّة (الأحكام الإسلاميّة)، وبيان الحكمة من كلّ حكم،

---

(١) انظر: التشريع الجنائيّ الإسلاميّ: ١/٧٥٤، والموسوعة الفقهيّة: ١١/٩٢-٩٥.

(٢) انظر: التشريع الجنائيّ الإسلاميّ: ١/٧٤٥.

والطاعن يُنكر أصلًا كبيرًا، من الأصول الكبرى، التي تقوم عليها الأحكام؟!!!

فالواجب على الطاعن أن يصرف النظر عن المطاعن الموجَّهة إلى الفروع، كأحكام ميراث الأنثى، ولباسها، وتعدّد الزوجات، والعقوبات، وأمثالها من الأحكام، وأن يقصر نظره على الأصول الكبرى، التي هي أركان دين الإسلام.

وأكبر هذه الأصول:

١- وجود الخالق.

٢- هداية الخالق.

٣- رسالة محمّد ﷺ.

٤- شرعيّة القرآن.

فالطاعنون - الذين يُنكرون وجود الخالق - لا جدوى من الإجابة عن شبهاتهم المتعلّقة بالفروع، لأنّهم يُنكرون الأصل الأوّل الذي تقوم عليه سائر الأصول، وكلّ الفروع؛ فما قيمة محاكمة الإسلام، في بعض أحكام الميراث، إن كان الأصل الأوّل الذي يقوم عليه دين الإسلام باطلًا؟!!!

ولذلك ندعو الطاعنين من أتباع المنهج الإلحاديّ، الذين يزعمون أنّهم يُنكرون الأصل الأوّل، والطاعنين من أتباع المنهج اللاأدريّ، الذين يزعمون أنّهم يتوقّفون في الأصل الأوّل، فلا يُنكرون إنكارًا قاطعًا، ولا يُثبتون إثباتًا قاطعًا، ندعوهم إلى أن تكون أُولى مطاعنهم، الموجَّهة إلى (الإسلام): هي عقيدة (وجود الخالق).

فإمّا أن يقدّموا لنا الأدلّة القطعيّة الدالّة على بطلان هذه العقيدة، وبذلك لا داعي للخوض في المطاعن الفرعيّة؛ لأنّهم استطاعوا تقويض الأصل الأوّل؛ فتسقط بتقويضه سائر الأصول، وكلّ الفروع.

وإمّا أن يعجزوا عن تقديم الأدلّة المطلوبة، ويعجزوا عن الردّ على الأدلّة القطعيّة، الدالّة على صحّة هذا الأصل؛ وبذلك نطالبهم ببيان موقفهم من الأصل الأوّل؛ فإن آمنوا به، انتقلنا إلى الأصل الثاني، وإن أصرّوا على ما هم عليه، انقطعت - بيننا وبينهم - سُبُل التناظُر، وانتفت الجدوى، من الخوض، في المطاعن الفرعيّة.

وندعو الطاعنين من أتباع المنهج الرُّبوبيّ، الذين يزعمون أنّهم لا يُنكرون الأصل الأوّل، ولكنّهم يزعمون أنّهم يُنكرون الأصل الثاني، وهو (هداية الخالق)، ندعوهم إلى أن تكون أُولى مطاعنهم، الموجَّهة إلى (الإسلام) هي عقيدة (هداية الخالق).

فإمّا أن يقدّموا لنا الأدلّة القطعيّة الدالّة على بطلان هذه العقيدة، وأنّ الخالق - كما يزعمون - قد ترك الناس، بعد خلقهم، يحكمون أنفسهم بأنفسهم، فلا حلال، ولا حرام، ولا ثواب، ولا عقاب؛ فإن استطاعوا تقديم الأدلّة، فلا داعي للخوض في المطاعن الفرعيّة؛ لأنّهم استطاعوا تقويض الأصل الثاني، وكلّ الفروع تسقط بسقوط هذا الأصل.

وإمّا أن يعجزوا عن تقديم الأدلّة المطلوبة، ويعجزوا عن الردّ على الأدلّة القطعيّة، الدالّة على صحّة هذا الأصل؛ وبذلك نطالبهم ببيان موقفهم من الأصل الثاني؛ فإن آمنوا به، انتقلنا إلى الأصل الثالث، وإن أصرّوا على الإنكار، انقطعت - بيننا وبينهم - سُبُل التناظُر، وانتفت الجدوى من الخوض في المطاعن الفرعيّة.

وندعو الطاعنين من أتباع الدين اليهوديّ، والطاعنين من أتباع الدين المسيحيّ، الذين لا يُنكرون الأصل الأوّل، ولا يُنكرون الأصل الثاني؛ ولكنّهم يُنكرون الأصل الثالث، وهو (رسالة محمّد ﷺ)؛ فيُنكرون الأصل الرابع، وهو

(شرعيّة القرآن)؛ ندعوهم إلى أن تكون أُولى مطاعنهم، الموجَّهة إلى (الإسلام) هي عقيدة (رسالة محمّد ﷺ)، ثمّ عقيدة (شرعيّة القرآن).

فإمّا أن يقدّموا لنا الأدلّة القطعيّة الدالّة على بطلان هاتين العقيدتين؛ فإن استطاعوا تقديم الأدلّة، فلا داعي للخوض في المطاعن الفرعيّة؛ لأنّهم استطاعوا تقويض الأصلين الثالث والرابع؛ وبتقويضهما لا يُمكن أن تبقى للفروع أيّ قيمة حقيقيّة.

وإمّا أن يعجزوا عن تقديم الأدلّة المطلوبة، ويعجزوا عن الردّ على الأدلّة القطعيّة، الدالّة على صحّة هذين الأصلين؛ وبذلك نطالبهم ببيان موقفهم من هذين الأصلين؛ فإن آمنوا بهما، انتفت المطاعن كلّها؛ لأنّهم - بإيمانهم بهذين الأصلين - قد آمنوا بدين (الإسلام)؛ وإن أصرّوا على الإنكار، انقطعت - بيننا وبينهم - سُبُل التناظُر، وانتفت الجدوى من الخوض في المطاعن الفرعيّة؛ فإنّ فروع الشريعة الإسلاميّة قائمة على أصولها.

وهكذا نجد أنّ مطاعن الطاعنين لا قيمة لها، في محاكمة الإسلام، ولا داعي للخوض فيها أصلًا، إذا عجز الطاعنون، عن تقديم الأدلّة القطعيّة، الدالّة على بطلان الأصول الأربعة؛ فإنّ عجزهم هذا يعني عجزهم عن تقديم الأدلّة القطعيّة، التي يجب أن يأتوا بها؛ ليُثبتوا صحّة ما أجمعوا عليه، وهو اتّهامهم لرسول الله ﷺ، بالكذب.

وبعجزهم هذا، يكون العمل بمبدإ (افتراض البراءة) واجبًا أكيدًا، فتكون كلّ المطاعن الموجَّهة إلى الإسلام غير ثابتة، فتنتهي بذلك محاكمة الإسلام، عند عجز المدّعين عن تقديم ما يؤيّد ادّعاءاتهم.

وليس من العدل: إمهال الطاعنين المُدّعين قرنًا آخر، من الزمان؛ ليأتوا

بأدلّتهم المطلوبة، التي عجزوا عن الإتيان بها، طَوال أربعة عشر قرنًا[١].

إنّ مَثَلَ الطاعن الذي يتشبّث بالفروع، ويتهرّب من الخوض في الأصول، كمَثَلِ امرأة، أبغضت زوجها، بعد أن علمت أنّه سيتزوّج امرأة أخرى؛ فافترت عليه، فاتّهمته بسرقة أموالها، فشكته إلى القاضي، فلمّا أنكر الزوج، طالبها القاضي بالأدلّة القطعيّة، فأخذت تبكي، وتقول: قبل سنة ضربني زوجي، وقبل شهر هجرني، ولم يكلّمني أيّامًا، وقبل أسبوع شتمني، وقبل يوم علمتُ أنّه سيتزوّج امرأة أخرى؛ ولذلك سرق أموالي؛ ليُنفق منها على زواجه الثاني.

فشغلَتْ هذه المرأةُ القاضيَ، بهذه الادّعاءات، وأخذت تذكر تفصيلات، وتفصيلات، لا علاقة لأيٍّ منها بإثبات تهمة السرقة؛ حتّى نسي القاضي أنّ التهمة الأصليّة هي السرقة.

فطالت المحاكمة أيّامًا، والكلام محصور في هذه الأمور؛ وكلّما طالبها المحامي، بتقديم الأدلّة القطعيّة، على القضيّة الكبرى (السرقة)، تهرّبت، وأصرّت على ما ذكرت، مدّعيةً أنّ ضربها، وهجرها، وشتمها، واستعداده للزواج عليها: يُمكن أن تكون أدلّة على ارتكابه جريمة السرقة!!!

فالحريّ بالقاضي - في هذا المقام - أن يطرد هذه المرأة المفترية، وأن يخلّي سبيل الزوج، ليرعى مصالحه؛ ويُغلِق هذه القضيّة، ليقطع ألسنة السوء.

فإن غفل القاضي عن ذلك، وجب على المحامي تذكير القاضي بأنّ (افتراض البراءة)، هو الأصل، في معاملة المتّهَمين، حتّى يأتي المدّعي بالأدلّة القطعيّة، الدالّة على صحّة الاتّهام؛ وبخلافه يكون الاستمرار في محاكمة المتّهَم صورة من صور الظلم.

---

(١) انظر: دليل المحاكمة العادلة: ١٤٤-١٤٦.

فليس من الحكمة الخوض في تفصيلات المسائل الفرعيّة؛ للدفاع عن الإسلام، ولا سيّما إذا كانت المطاعن في الأمور الاختلافيّة، التي لم يتّفق عليها كلّ المنتسبين إلى الإسلام.

فإنّ من شأن هذه التفريعات: إظهار المطاعن - في أنظار الحيارى والغافلين والمبتدئين - بمظهر الجيش ذي العدد، الذي لا يُحصى؛ ومن شأن ذلك إدخال الرهبة في قلوبهم، والضعف في نفوسهم، والتشتّت في عقولهم؛ فيشعرون بغلبة خصومهم، قبل أن يهاجموهم!!!

والخوض في التفريعات لن يقدّم للفريقين - الطاعن، والمدافع - أيّ ثمرة نافعة؛ لأنّ الطاعن سيُصرّ على مطاعنه، والمدافع سيُصرّ على دفاعه؛ ولذلك وجب البدء بالأصول؛ فإن سلّم بها الطاعن، فلا بأس بعد ذلك من باب المعرفة أن يتطرّقا إلى الفرعيّات الاتّفاقيّة، دون الفرعيّات الاختلافيّة.

إنّ حصن (الإسلام) قائم على الأصول الإسلاميّة القطعيّة الكبرى، وعليها تقوم الفروع الإسلاميّة القطعيّة الكبرى.

فمن أراد هدم حصن (الإسلام)؛ فليهدم تلك (القطعيّات الإسلاميّة)؛ فإنْ عجزَ عن هدمها؛ فلن تنفعه أبدًا تلك المحاولات البائسة، لهدم بعض (الآراء الاختلافيّة)؛ فإنّ هَدْمَها لن يؤثِّر، في متانة ذلك الحصن الحصين، الذي يقوم على (القطعيّات الكبرى)، لا على تلك (الآراء الاختلافيّة).

ومن ظَنَّ أنّه يستطيع هدم حصن (الإسلام)، بهدم بعض الآراء الاختلافيّة، فإنّه غالِطٌ، أو مُغالِطٌ؛ فما مَثَلُ (الآراء الاختلافيّة)، إلّا كمَثَلِ الصور المرسومة، على جدران الحصن، فمنها صور جميلة، ومنها صور قبيحة.

ولو أنّ العدوّ زعم أنّه قادر على هدم الحصن، بمحو تلك الصور فقط؛ لسَخِرَ منه أصدقاؤه، قبل أعدائه؛ لأنّ الصور المرسومة على جدران الحصن

ليست ركنًا، من أركانه؛ ولذلك لا ينهدم، إذا مُحيَت تلك الصور - حتّى الجميلة منها - بل يبقى قائمًا، ما دامت أصوله (أُسُسه)، وجدرانه، وسقوفه: قائمة.

وأصول الإسلام قائمة على (الوحي المُنزَّل)، لا على الآراء الاختلافيّة.

قال سيّد قطب: «إنّ الإسلام يضع الكتاب، الذي أنزله الله بالحقّ؛ ليحكم بين الناس، فيما اختلفوا فيه.. يضع هذا الكتاب قاعدة للحياة البشريّة. ثمّ تمضي الحياة. فإمّا اتّفقت مع هذه القاعدة، وظلّت قائمة عليها، فهذا هو الحقّ. وإمّا خرجت عنها، وقامت على قواعد أخرى، فهذا هو الباطل.. هذا هو الباطل، ولو ارتضاه الناس جميعًا. في فترة من فترات التاريخ. فالناس ليسوا هم الحكم في الحقّ والباطل. وليس الذي يقرِّره الناس هو الحقّ، وليس الذي يقرِّره الناس هو الدين. إنّ نظرة الإسلام تقوم ابتداءً، على أساس أنّ فعل الناس لشيء، وقولهم لشيء، وإقامة حياتهم على شيء.. لا تُحيل هذا الشيء حقًّا، إذا كان مخالفًا للكتاب، ولا تجعله أصلًا من أصول الدين، ولا تجعله التفسير الواقعيّ لهذا الدين، ولا تبرِّره لأنّ أجيالًا متعاقبة قامت عليه.. وهذه الحقيقة ذات أهمّيّة كبرى في عزل أصول الدين، عمّا يُدخِله عليها الناس! وفي التاريخ الإسلاميّ مثلًا وقع انحراف، وظلّ ينمو، وينمو.. فلا يُقال: إنّ هذا الانحراف متى وقع، وقامت عليه حياة الناس، فهو إذن الصورة الواقعيّة للإسلام! كلّا! إنّ الإسلام يظلّ بريئًا من هذا الواقع التاريخيّ. ويظلّ هذا الذي وقع خطأً وانحرافًا، لا يصلح حجّة، ولا سابقة. ومن واجب من يُريد استئناف حياة إسلاميّة أن يُلغيه ويُبطِله، وأن يعود إلى الكتاب، الذي أنزله الله بالحقّ؛ ليحكم بين الناس، فيما اختلفوا فيه»[1].

---

(١) في ظلال القرآن: ٢١٧/١.

المبدأ الثامن
تساقُط التُّهَم

يسعى هذا المبدأ إلى الكشف عن حقيقة تكاثُر التُّهَم الموجَّهة إلى المتّهَم، بنسبة كلّ تهمة إلى مدّعيها، ثمّ معرفة ما أجمع عليه المدّعون، وما اختلفوا فيه؛ لئلّا يظهر المدّعون المختلفون، بمظهر المدّعين المتّفقين، على اتّهام المتّهَم، بكلّ التُّهَم المذكورة في الدعوى، والحال أنّهم مختلفون في ذلك.

ويعتمد هذا المبدأ اعتمادًا كبيرًا على مبدإ (المساواة القانونيّة)(١)، فالقانون إذا كان مُلزِمًا للمتّهَم، فإنّه مُلزِم للمدّعي أيضًا؛ وليس من العدل أن يحاكَم المتّهَم بفعل يشاركه المدّعي فيه، ثمّ يُترَك المدّعي، بلا محاكمة؛ فإمّا أن يُعدّ هذا الفعل جريمة، فيحاكَم بسببه المتّهَم والمدّعي معًا، أو لا يُعدّ جريمة، فيُبرَّأ المتّهَم من التجريم، كما يُبرَّأ المدّعي.

فمثلًا إذا كان تعاطي المخدِّرات جريمة قانونيّة، فهل يصحّ أن يتقدّم أحد المتعاطين، إلى القاضي، يطالبه بمحاكمة رجل آخر، بتهمة التعاطي، ثمّ يُترَك المدّعي المتعاطي حرًّا، فلا يحاكَم ولا يُدان، مع أنّ تعاطيه واضح للعيان؟!!!

ومن هنا نقول: إنّ التُّهَم الموجَّهة إلى الإسلام قسمان:

١- تُهَم تتعلّق بما ليس جزءًا من الإسلام، وهي ثلاثة أقسام فرعيّة:

أ- تُهَم مصدرها أخطاء بعض المؤلّفين المنسوبين إلى الإسلام، وهذه أخطاء تأليفيّة، مخالفة للصورة الإسلاميّة الأصيلة (الصورة التنزيليّة)، فتكون تُهَمًا باطلة، بالاستناد إلى مبدأي (شخصيّة الجريمة)، و(قطعيّة الأدلّة).

---

(١) انظر: دليل المحاكمة العادلة: ١٠٣-١٠٧.

ب- تُهَم مصدرها أخطاء بعض المؤلّفين الطاعنين في الإسلام، وهذه أخطاء تأليفيّة، مخالفة للصورة الإسلاميّة الأصيلة (الصورة التنزيليّة)، فتكون تُهَمًا باطلة، بالاستناد إلى مبدأي (شخصيّة الجريمة)، و(قطعيّة الأدلّة).

ج- تُهَم مصدرها أخطاء بعض المطبّقين المنسوبين إلى الإسلام، وهذه أخطاء تطبيقيّة، مخالفة للصورة الإسلاميّة الأصيلة (الصورة التنزيليّة)، فتكون تُهَمًا باطلة، بالاستناد إلى مبدأي (شخصيّة الجريمة)، و(قطعيّة الأدلّة).

٢- تُهَم تتعلّق بما هو جزء من الإسلام، وهي قسمان فرعيّان:

أ- تُهَم موجَّهة إلى ما هو جزء من الأحكام الشرعيّة، كلباس الأنثى، وميراثها، وتعدُّد الزوجات، والعقوبات.

ب- تُهَم موجَّهة إلى ما هو جزء من القصص القرآنيّة، كقصّة أصحاب الكهف، وقصّة ذي القرنين.

وأبرز الطاعنين - الذين يوجّهون هذه التُّهَم - ثلاثة:

١- الطاعن اللادينيّ: هو الطاعن الذي لا ينتسب إلى أيّ دين؛ لأنّه يزعم أنّه يرى أنّ الدين فكرة من اختراع البشر، وهو ثلاثة أقسام بارزة:

أ- الطاعن الإلحاديّ: هو الطاعن الذي يزعم أنّه يُنكر وجود الخالق؛ ولذلك يزعم أنّ الدين فكرة بشريّة مختَرَعة.

ب- الطاعن اللاأدريّ: هو الطاعن الذي يزعم أنّه لا يستطيع أن يُنكر وجود الخالق، بالدليل القاطع، كما لا يستطيع أن يُثبت وجود الخالق، بالدليل القاطع، بل يتوقّف، في هذه المسألة؛ ولكنّه - مع هذا الزعم - يزعم أنّ الدين فكرة بشريّة مختَرَعة.

ج- الطاعن الرُّبوبيّ: هو الطاعن الذي يزعم أنّه يُثبت وجود الخالق؛ ولكنّه -

مع هذا الزعم - يزعم أنّ الدين فكرة بشريّة مخترَعة؛ لأنّه يزعم أنّه يُنكر هداية الخالق؛ فالخالق - في زعمه - تركَ الخلقَ، بعد أن خلقهم، يحكمون أنفسهم بأنفسهم، فلا حلال ولا حرام، ولا ثواب ولا عقاب.

٢- الطاعن اليهوديّ: هو الطاعن الذي يُنسَب إلى اليهوديّة.

٣- الطاعن المسيحيّ: هو الطاعن الذي يُنسَب إلى المسيحيّة.

لقد اجتمع هؤلاء الطاعنون، على الطعن في (الإسلام)؛ ولكنّهم لم يُجمِعوا على رأي واحد، في أكثر مطاعنهم؛ فمطاعنهم متعارضة متضاربة متساقطة متهافتة.

فلا قيمة لِتُهَم الطاعن الإلحاديّ، كما ذكرنا في مبدإ (تراتُب التُّهَم)، إلّا بعد أن يُثبت بالأدلّة القطعيّة بطلان عقيدة (وجود الخالق)، التي يزعم هو أنّه يُنكرها.

ولو حاول أن يطرح هذه العقيدة، على أنّها التهمة الأُولى، الموجَّهة إلى الإسلام، فإنّه سيواجَه - في الحقيقة - بمعارضة كلّ من سواه من الطاعنين.

فبدلًا من انشغال محامي الدفاع عن الإسلام، بمناقشة الطاعن الإلحاديّ، في مسألة (وجود الخالق)، يطلب محامي الدفاع - من شركاء الطاعن الإلحاديّ - مناقشته في هذه المسألة، وبيان آرائهم الصريحة فيها، وأدلّتهم القطعيّة الدالّة على ما يرون من رأي.

وسيجد الطاعن الإلحاديّ أنّ الطاعن اللاأدريّ يخالفه في إنكاره القاطع لمسألة (وجود الخالق)، ويسأله التوقُّف في المسألة، كما توقّف هو؛ وأنّ الطاعن الرُّبوبيّ يخالفهما معًا، ويردّ عليهما الإنكار القاطع، أو التوقُّف في المسألة، ويسوق الأدلّة القطعيّة الدالّة على (وجود الخالق).

وأشدّ منه مخالفة لهما: الطاعن اليهوديّ، والطاعن المسيحيّ، اللذان سيسوقان الأدلّة القطعيّة، على صحّة ما يرون أنّه الحقيقة الكبرى في الوجود، والعقيدة الأُولى في الدين.

ولذلك تكون التهمة المتعلّقة بعقيدة (وجود الخالق) - التي يوجّهها الطاعن الإلحاديّ إلى الإسلام - موجَّهة أيضًا، إلى المنهج الرُّبوبيّ، والدين اليهوديّ، والدين المسيحيّ.

وفي عقيدة (هداية الخالق)، التي تتضمّن الاعتقاد بوجود (الملائكة)، و(إرسال الرسل)، و(إنزال الكتب)، سيطلب محامي الدفاع عن (الإسلام) - من الطاعن اليهوديّ، والطاعن المسيحيّ - مناقشة الطاعنينَ اللادينيّينَ الثلاثة، في هذه المسألة، وبيان آرائهما الصريحة فيها، وأدلّتهما القطعيّة، الدالّة على ما يرون فيها.

وسيجد (الطاعنون اللادينيّون الثلاثة) أنّ الطاعن اليهوديّ، والطاعن المسيحيّ: يخالفانهم في إنكارهم لعقيدة (هداية الخالق)، ويسوقان الأدلّة القطعيّة الدالّة على صحّة عقيدة (وجود الملائكة)، وعقيدة (إرسال الرسل)، وعقيدة (إنزال الكتب).

ولذلك تكون التهمة المتعلِّقة بعقيدة (هداية الخالق)، وما تتضمّن من عقائد: (وجود الملائكة)، و(إرسال الرسل)، و(إنزال الكتب) - التي يوجّهها الطاعنون اللادينيّون الثلاثة إلى (الإسلام) - موجَّهة أيضًا، إلى الدين اليهوديّ، والدين المسيحيّ.

وكثير من (المطاعن)، التي يوجّهها (الطاعنون اللادينيّون الثلاثة)، إلى (حقائق الإسلام) - من (الأحكام الشرعيّة)، و(القصص القرآنيّة) - يجد المُطالِع في (الكتاب المُقدَّس)، ولا سيّما في (العهد القديم): ما يُطابِقها، أو

ما يُشابهها، أو ما يُناظِرها، أو ما يُقارِبها؛ فتكون مطاعن اللادينيّين الثلاثة: موجَّهة إلى اليهوديّة، والمسيحيّة، أيضًا، كما هي موجَّهة إلى (الإسلام).

بل إنّ الطاعن اللادينيّ - الذي يُنكِر الغيبيّات - لو نظر نظرة الناقد الطاعن، في قصص (العهد القديم)، لنسي مطاعنه، التي يوجِّهها إلى قصص القرآن الكريم، أو تناساها.

وإذا تركنا الطاعنينَ اللادينيّينَ الثلاثة، الذين لا يمتلكون الأدلّة القطعيّة؛ لإبطال هاتين العقيدتين الكُبْرَيَينِ: (وجود الخالق)، و(هداية الخالق)؛ وانتقلنا إلى عقيدة (رسالة محمّد ﷺ)، وعقيدة (شرعيّة القرآن)، وجدنا أنّ الطاعن اليهوديّ، والطاعن المسيحيّ: يطعنان في هاتين العقيدتين.

ولكنّ الطعن وحده لا يكفي، بل لا بدّ من الأدلّة القطعيّة على صحّة ما يدّعيه الطاعن، وإلّا فإنّ الطاعن اليهوديّ - الذي يُشاركه الطاعنُ المسيحيُّ، في هذا الطعن - يطعن صراحةً، في عدّة عقائد مسيحيّة؛ بل إنّه يطعن في المسيح عليه السلام، نفسه، ولا يراه رسولًا، كما يراه المسلمون، فيرميه بالكذب؛ ويطعن في أمّه مريم عليها السلام، وهي الصدِّيقة المُطهَّرة، ويرميها بالزنى!!!

أفيرضى الطاعن المسيحيّ، بمطاعن الطاعن اليهوديّ، أم أنّه سيطالبه بتقديم الأدلّة القطعيّة، على مطاعنه في المسيح، وفي مريم الصدِّيقة المُطهَّرة؟!!!

و(الكتاب المقدّس)، بعهديه (القديم)، و(الجديد): مصدر دينيّ، عند المنسوبين إلى (المسيحيّة)، عمومًا؛ ولكنّ (العهد الجديد) ليس جزءًا من (الكتاب المقدّس)، عند المنسوبين إلى (اليهوديّة).

وهذا يعني أنّ الطاعن اليهوديّ يطعن في شرعيّة (العهد الجديد)، كما يطعن في شرعيّة (القرآن الكريم).

فإذا رضي الطاعن المسيحيّ، بمطاعن الطاعن اليهوديّ، في شرعيّة

(القرآن الكريم)، من غير أدلّة قطعيّة، فعليه أن يرضى بمطاعن الطاعن اليهوديّ، في شرعيّة (العهد الجديد)، من غير أدلّة قطعيّة، أيضًا، فكما تدين تُدان!

إنّ طعن الطاعن اليهوديّ، والطاعن المسيحيّ - في هاتين العقيدتين الإسلاميّتين: (رسالة محمّد ﷺ)، و(شرعيّة القرآن) - هو الضامن الوحيد، لبقاء هذين الدينين المحرَّفين.

فلو أنّ أتباع اليهوديّة أقرّوا بعقيدة (رسالة محمّد ﷺ)، لانهارت اليهوديّة، في لحظات؛ لأنّ الإيمان بمحمّد ﷺ رسولًا: يعني تصديق ما جاء به القرآن، من الكشف عن فضائح أسلافهم، وقتلهم الأنبياء، وأكلهم الربا، وإفسادهم في الأرض، كما يعني وجوب طاعتهم للرسول ﷺ، وترك ما وجدوا عليه آباءهم.

ولو أنّ أتباع المسيحيّة أقرّوا بهذه العقيدة، لانهارت المسيحيّة، في لحظات؛ لأنّ الإيمان بمحمّد ﷺ رسولًا: يعني تصديق ما في القرآن، من الكشف عن أباطيلهم، كعقيدة الصلب، وتأليه المسيح، كما يعني وجوب طاعتهم للرسول ﷺ، وترك ما وجدوا عليه آباءهم.

وهكذا يظهر الطاعنون، في الإسلام، بمظهر المجتمِعين، على هدف واحد، هو الطعن في الإسلام، الذي أبطل - بالأدلّة القطعيّة - كلَّ ما هم عليه، ممّا يخالف الحقائق الإسلاميّة.

ولكنّهم - في الحقيقة - أَولى بأن يطعن بعضهم، في بعض؛ فتتساقط مطاعنُهم، وتتهافت، حين يجدون الإسلام منتصرًا عليهم، في كلّ زمان ومكان؛ لأنّه مؤيَّد بنصر الله سبحانه وتعالى.

إنّ الانتصار الحقيقيّ هو انتصار (الإسلام)، وهو (نور الله)، الذي حاول (أعداء الإسلام)، منذ قرون - وما زالوا يحاولون - أن يُطفئوه بأفواههم؛ ولكنّهم ينقلبون - في كلّ مرّة - خائبين خاسرين.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(١).

و(انتصار الإسلام) لا يستلزم انتصار المنسوبين إليه، ولا سيّما إذا كانت النسبة إليه ظاهريّة، أو وراثيّة، أو عصريّة، أو مذهبيّة، تصل بأصحابها إلى موالاة (أعداء الإسلام)؛ لقتال مخالفيهم، من المذاهب الأخرى؛ فأنّى لهم الانتصار؟!!!

قال محمّد رشيد رضا: «هذا سُنّيّ يقاتل شيعيًّا، وهذا شيعيّ يُنازل إباضيًّا، وهذا شافعيّ يُغري التتار بالحنفيّة، وهذا حنفيّ يقيس الشافعيّة على الذمّيّة، وهؤلاء مُقلِّدة الخَلَف، يُحادّون من اتَّبع طريقة السَّلَف»(٢).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾(٣).

قال سيّد قطب: «وكيف يَنصُرُ المؤمنون اللهَ، حتّى يقوموا بالشرط، وينالوا ما شَرَطَ لهم من النصر والتثبيت؟ إنّ لله في نفوسهم أن تتجرَّد له، وألّا تُشرِك به شيئًا، شِركًا ظاهرًا، أو خفيًّا، وألّا تستبقي فيها معه أحدًا، ولا شيئًا، وأن يكون اللهُ أحبَّ إليها من ذاتها، ومن كلّ ما تُحِبّ وتهوى، وأن تحكِّمه في رغباتها ونزواتها، وحركاتها وسكناتها، وسرّها وعلانيّتها، ونشاطها كلّه، وخلجاتها.. فهذا نصرُ الله، في ذوات النفوس. وإنّ لله شريعةً ومنهاجًا للحياة، تقوم على قواعد

(١) التوبة: ٣٢-٣٣.

(٢) تفسير القرآن الحكيم: ٢/٢٥٩.

(٣) محمّد: ٧-٨.

وموازين وقِيَم وتصوُّر خاصّ للوجود كلّه، وللحياة. ونصرُ الله يتحقّق بنصرة شريعته، ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلّها، بدون استثناء، فهذا نصرُ الله، في واقع الحياة. ونقف لحظةً، أمام قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1]. وقوله: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾، وفي كلتا الحالتين: حالة القتل، وحالة النصرة، يُشترَط أن يكون هذا لله، وفي سبيل الله. وهي لفتة بديهيّة، ولكنّ كثيراً من الغبش يُغطّي عليها، عندما تنحرف العقيدة، في بعض الأجيال. وعندما تُمتَهَن كلمات الشهادة، والشهداء، والجهاد، وتُرَخَّص، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم. إنّه لا جهاد، ولا شهادة، ولا جنّة، إلّا حين يكون الجهاد، في سبيل الله وحده، والموت في سبيله وحده، والنصرة له وحده، في ذات النفس، وفي منهج الحياة. لا جهاد ولا شهادة ولا جنّة، إلّا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا. وأن تُهيمِن شريعته، ومنهاجه، في ضمائر الناس، وأخلاقهم، وسلوكهم، وفي أوضاعهم، وتشريعهم، ونظامهم، على السواء. وليس هنالك من راية أخرى، أو هدف آخر، يجاهد في سبيله من يجاهد، ويُستشهَد دونه من يُستشهَد، فيحقّ له وعد الله بالجنّة، إلّا تلك الراية، وإلّا هذا الهدف. من كلّ ما يُروَّج في الأجيال المنحرفة التصوّر، من رايات وأسماء وغايات»[2].

(١) محمّد: ٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٣٢٨٨/٦.

المبدأ التاسع
التسويغ المقاميّ

بعض الأفعال تُعدّ جرائم، في مقام، دون مقام، فالقتل في مقام الاعتداء جريمة، لكنّه في مقام القصاص عقوبة، وليس جريمة، وكذلك في مقام الدفاع عن النفس، فإذا اضطُرّت امرأة إلى قتل من يحاول أن يقتلها، أو من يحاول أن يغتصبها نفسها، فقتلها له ليس جريمة، بل هو منع للجريمة.

فمبدأ التسويغ المقاميّ مبدأ مهمّ من مبادئ المحاكمة العادلة، فلا يجوز إدانة المكلَّف بتنفيذ العقوبة الصادرة، بعد المحاكمة، ولا يصحّ إدانة المضطرّ إلى قتل من حاول الاعتداء عليه؛ للدفاع عن نفسه، أو للدفاع عن أهله وعرضه[1].

وفي محاكمة الإسلام، لا بدّ - قبل الحكم على بعض الأحكام - من النظر في المقامات، التي تُنفَّذ فيها هذه الأحكام، ومن أمثلتها:

١- (**الجِهاد**): الأصل في الإسلام هو السلم والسلام وكفّ الأذى، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ ولكنّ هناك مقامات خاصّة، لا بدّ فيها من المواجهة والقتال؛ لأنّ أعداء الإسلام فيها قد تحوّلوا إلى وحوش ضارية، لا يعرفون معنى الرحمة والسلام.

فماذا تفعل مثلًا: لو دخل بيتك أسد ضارٍ، وقد حُصرت أنت وزوجك وأطفالك، في زاوية من زواياه، فلا تستطيعون هربًا؛ وكان قريبًا منك سلاح؟

أفتُراك تنتظر هجوم الأسد الضاري، عليكم؛ ليفترسكم، أم تُراك تخاطب الأسد الضاري؛ لتُقنِعه بترككم، أم تهدِّده بالسلاح، وتقول له: أنا قادر على

---

(١) انظر: التشريع الجنائيّ الإسلاميّ: ١/٤٧٧-٤٧٨.

قتلك، في لحظات، ولكنّني أختار طريق السلام، والمحبّة، والتفاهُم؟!!!

لا أظنّ إلّا أنّك ستسارع إلى قتل الأسد، من غير تفكير في أيّ شيء آخر؛ لأنّك تعرف حقّ المعرفة أنّ الأسد لن يفهم ما تقوله، ولو فهم، لما التفت لحظة إلى قولك، ولباغتك، وهجم عليك وعلى زوجك وأطفالك.

وهكذا هو الشأن في (أعداء الإسلام)، الذين اتّبعوا أهواءهم، واستكبروا في الأرض، وأفسدوا فيها، وطغوا، وأهلكوا الحرث والنسل، ومنعوا الدعاة من الدعوة إلى سبيل الله، واضطهدوا من أسلموا من الناس، وعذّبوهم، وأذاقوهم الويلات، وقتلوا كثيرًا منهم، وصدّوا من لم يُسلموا، وهدّدوهم، وأرهبوهم، واتّهموا الرسول ﷺ، وأتباعه، بكلّ ما ينفّر الناس، عن (الإسلام)؛ فكانوا كالوحوش الضارية التي لا تعرف الرحمة.

ثلاث عشرة سنة، قضاها المسلمون الأوائل يدعون إلى سبيل الله بالكلمة الطيّبة والموعظة الحسنة، ويصبرون على أذى الأعداء، وهم يرجون لأعدائهم الهداية، ولكنّ الأعداء يزدادون طغيانًا وكفرًا، واستكبارًا وإجرامًا.

فكان الجهاد وسيلة، اضطُرّوا إليها؛ ليحفظوا بها من بقي منهم، ويردعوا عدوّهم، ويشجّعوا من كتم رغبته في الإسلام؛ خوفًا من بطش الأعداء. ولو أنّ أعداء الإسلام خلّوا بين الدعاة والناس، ولم يمنعوهم من الدعوة، لما رفع المسلمون سيفًا على أحد؛ لأنّ الدعوة الآمنة تؤتي ثمارها على أحسن وجه.

فالإسلام لم ينتشر بالسيف، بل انتشر بالكلمة، وكان السيف وسيلة اضطراريّة؛ لحفظ الكلمة، حين يقف أعداء الدعوة، ضدّ الدعوة، فيُرهِبون الدعاة، ويقتلونهم، ويمنعونهم، ويصدّون الناس، عن الدعوة، ويقتلون من تأثّروا بها، ويهدّدونهم.

وسيف الإسلام لم يكن هو الذي حمل الناس على الدخول في الإسلام،

بل الذي حمل الصادقين منهم هو الكلمة. أمّا الذين دخلوا في الإسلام؛ خوف السيف، فهؤلاء ليسوا بصادقين في إسلامهم، إلّا بعد أن يدخل الإيمان في قلوبهم، والإيمان لا يدخل بقوّة السيف، بل بقوّة الكلمة.

فالجهاد بالسيف؛ إنّما هو لحماية الدعوة، وحفظ الكلمة، وسلامة الدعاة، من أذى أعداء الدين، ولحماية المقبلين على هذا الدين، الداخلين فيه، وتشجيع من يرغب في الدخول، بردّ كيد الأعداء؛ ليخلو الدعاة بالناس، فيدعوهم بالكلمة المؤثّرة، والموعظة الحسنة.

فلو لم يكن أعداء الإسلام وحوشًا ضارية، تفتك بالناس، وبالدعاة، وتُرهِبهم، ولا تعرف معنى التفاهم والتسالم والتعايش؛ لما كان ثمّة داعٍ إلى حمل السيف؛ ولكنّ أعداء الإسلام - في كلّ مكان وزمان - لا يجدون ما يصدّ الناس، عن الإسلام، إلّا القسوة، والطغيان؛ لأنّهم لا يملكون من الوسائل السلميّة -كالكلمة المؤثّرة والموعظة الحسنة - ما يصدّون به الناس عن الحقّ.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾[1].

قال سيّد قطب: «لقد جاءت هذه العقيدة في صورتها الأخيرة التي جاء بها الإسلام؛ لتكون قاعدة للحياة البشريّة في الأرض من بعدها، ولتكون منهجًا عامًّا للبشريّة جميعها؛ ولتقوم الأمّة المسلمة بقيادة البشريّة في طريق الله وفق هذا المنهج، المنبثق من التصوّر الكامل الشامل لغاية الوجود كلّه، ولغاية الوجود الإنسانيّ، كما أوضحهما القرآن الكريم، المنزَّل من عند الله. قيادتها إلى هذا

(١) النساء: ٧٥.

الخير الذي لا خير غيره، في مناهج الجاهليّة جميعًا، ورفعها إلى هذا المستوى، الذي لا تبلغه إلّا في ظلّ هذا المنهج، وتمتيعها بهذه النعمة التي لا تعدلها نعمة، والتي تفقد البشريّة كلّ نجاح، وكلّ فلاح، حين تُحرَم منها، ولا يعتدي عليها معتدٍ بأكثر من حرمانها من هذا الخير، والحيلولة بينها وبين ما أراده لها خالقها من الرفعة والنظافة والسعادة والكمال. ومن ثمّ كان من حقّ البشريّة أن تبلغ إليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهيّ الشامل، وألّا تقف عقبة أو سلطة في وجه التبليغ بأيّ حال من الأحوال. ثمّ كان من حقّ البشريّة كذلك أن يُترَك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحرارًا، في اعتناق هذا الدين؛ لا تصدّهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة. فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان، لم يكن له أن يصدّ الدعوة عن المضيّ في طريقها. وكان عليه أن يُعطي من العهود ما يكفل لها الحرّيّة والاطمئنان؛ وما يضمن للجماعة المسلمة المضيّ في طريق التبليغ، بلا عدوان.. فإذا اعتنقها من هداهم الله إليها كان من حقّهم ألّا يُفتَنوا عنها بأيّ وسيلة من وسائل الفتنة، لا بالأذى ولا بالإغراء. ولا بإقامة أوضاع من شأنها صدّ الناس عن الهدى، وتعويقهم عن الاستجابة. وكان من واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوّة من يتعرّض لهم بالأذى والفتنة؛ ضمانًا لحرّيّة العقيدة، وكفالة لأمن الذين هداهم الله، وإقرارًا لمنهج الله في الحياة، وحماية للبشريّة من الحرمان من ذلك الخير العامّ. وينشأ عن تلك الحقوق الثلاثة واجب آخر على الجماعة المسلمة؛ وهو أن تحطّم كلّ قوّة تعترض طريق الدعوة، وإبلاغها للناس في حرّيّة، أو تهدّد حرّيّة اعتناق العقيدة، وتفتن الناس عنها، وأن تظلّ تجاهد، حتّى تُصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنة، لقوّة في الأرض، ويكون الدين لله.. لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان؛ ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يُريد الدخول؛ ولا يخاف قوّة

في الأرض تصدّه عن دين الله أن يبلغه، وأن يستجيب له، وأن يبقى عليه. وبحيث لا يكون في الأرض وضع أو نظام يحجب نور الله وهداه عن أهله، ويُضلّهم عن سبيل الله، بأيّة وسيلة، وبأيّة أداة. وفي حدود هذه المبادئ العامّة كان الجهاد في الإسلام. وكان لهذه الأهداف العليا وحدها، غير متلبّسة بأيّ هدف آخر، ولا بأيّ شارة أخرى. إنّه الجهاد للعقيدة؛ لحمايتها من الحصار؛ وحمايتها من الفتنة؛ وحماية منهجها وشريعتها في الحياة؛ وإقرار رايتها في الأرض، بحيث يرهبها من يهمّ بالاعتداء عليها، قبل الاعتداء؛ وبحيث يلجأ إليها كلّ راغب فيها، لا يخشى قوّة أخرى في الأرض، تتعرّض له أو تمنعه أو تفتنه. وهذا هو الجهاد الوحيد الذي يأمر به الإسلام، ويُقرّه ويُثيب عليه؛ ويعتبر الذين يُقتَلون فيه شهداء؛ والذين يحتملون أعباءه أولياء»(١).

٢- (الجِزْية): مال يدفعه غير المسلمين، لبيت المال؛ ليعيشوا في البلاد الإسلاميّة، بأديانهم، آمنين، وأموالهم محفوظة.

ويكفي أن تتذكّر أنّ المسلمين أنفسهم يدفعون الزكاة، لبيت المال، فوجوب الجزية - على غير المسلمين - يقابله وجوب الزكاة على المسلمين، والفريقان يعيشان في البلاد الإسلاميّة، آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، من كيد الكائدين، ومن اعتداء المعتدين.

فعقد الذمّة عقد عظيم، ينال به أهل الذمّة حقوقًا عظيمة، وليس ضريبة إقطاعيّة ظالِمة، كما يصوّرها الطاعنون في الإسلام.

قال القرافيّ: «وسرّ الفرق أنّ عقد الذمّة يُوجب حقوقًا علينا لهم؛ لأنّهم في جوارنا، وفي خفارتنا، وذمّة الله تعالى، وذمّة رسوله ﷺ، ودين الإسلام؛ فمن

---

(١) في ظلال القرآن: ١/١٨٦-١٨٧.

اعتدى عليهم - ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذيّة، أو أعان على ذلك - فقد ضيّع ذمّة الله تعالى، وذمّة رسوله ﷺ، وذمّة دين الإسلام. وكذلك حكى ابن حزم في مراتب الإجماع له: أنّ من كان في الذمّة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك؛ صونًا لمن هو في ذمّة الله تعالى، وذمّة رسوله ﷺ، فإنّ تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمّة. وحكى في ذلك إجماع الأمّة. فعقدٌ - يؤدّي إلى إتلاف النفوس والأموال؛ صونًا لمقتضاه عن الضياع - إنّه لعظيم»(١).

وقال ابن تيميّة: «وقد عرف النصارى كلّهم أنّي لمّا خاطبت التتار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم غازان وقطلوشاه، وخاطبت مولاي فيهم، فسمح بإطلاق المسلمين، قال لي: لكن معنا نصارى، أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يُطلَقون. فقلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى، الذين هم أهل ذمّتنا؛ فإنّا نفتكّهم، ولا ندع أسيرًا، لا من أهل الملّة، ولا من أهل الذمّة. وأطلقنا من النصارى من شاء الله. فهذا عملنا وإحساننا، والجزاء على الله. وكذلك السبي الذي بأيدينا، من النصارى، يعلم كلّ أحد إحساننا، ورحمتنا، ورأفتنا بهم؛ كما أوصانا خاتم المرسلين...»(٢).

ولذلك يجب أن نفهم حكم الجزية في مقامه؛ لكيلا يُفهَم من هذا الحكم ما هو غير مراد، فإعطاء الجزية دليل على الخضوع لدولة الإسلام، كما أنّ المسلم حين يُعطي الزكاة، فإنّه بذلك يخضع لدولة الإسلام.

---

(١) الفروق: ٣/١٤-١٥.

(٢) مجموعة الفتاوى: ٢٨/٣٣٦.

وإعطاء الجزية فرصة لحقن الدماء ووقف القتال، وبمعاشرة المسلمين قد يدخل الإيمان في قلوبهم، فتفعل الكلمة ما لا يفعله السيف.

والجزية وسيلة لإغناء دولة الإسلام، التي تحتاج إلى الأموال قطعًا؛ للإنفاق على المصالح العامّة للسكّان، من المسلمين، ومن غير المسلمين؛ فليس من المعقول ولا المقبول أن يكون عبء الإنفاق على المصالح العامّة محصورًا في المسلمين، والحال أنّ تلك المصالح لمنفعة الجميع، ومنهم غير المسلمين قطعًا.

قال سيّد قطب: «والشرط الذي يشترطه النصّ للكفّ عن قتالهم ليس أن يُسلِموا.. فلا إكراه في الدين؛ ولكن أن يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.. فما حكمة هذا الشرط، ولماذا كانت هذه هي الغاية التي ينتهي عندها القتال؟ إنّ أهل الكتاب - بصفاتهم تلك - حرب على دين الله اعتقادًا وسلوكًا؛ كما أنّهم حرب على المجتمع المسلم، بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيّين بين منهج الله، ومنهج الجاهليّة الممثّلة في عقيدة أهل الكتاب وواقعهم - وفق ما تصوّره هذه الآيات - كما أنّ الواقع التاريخيّ قد أثبت حقيقة التعارض وطبيعة التصادم؛ وعدم إمكان التعايش بين المنهجين؛ وذلك بوقوف أهل الكتاب في وجه دين الله فعلًا، وإعلان الحرب عليه، وعلى أهله بلا هوادة، خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآية، وخلال الفترة اللاحقة لها، إلى اليوم أيضًا! والإسلام - بوصفه دين الحقّ الوحيد القائم في الأرض - لا بدّ أن ينطلق لإزالة العوائق المادّيّة من وجهه؛ ولتحرير الإنسان من الدينونة بغير دين الحقّ؛ على أن يدع لكلّ فرد حرّيّة الاختيار، بلا إكراه منه، ولا من تلك العوائق المادّيّة كذلك. وإذن فإنّ الوسيلة العمليّة - لضمان إزالة العوائق المادّيّة، وعدم الإكراه على اعتناق الإسلام، في الوقت نفسه - هي كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحقّ؛ حتّى تستسلم؛ وتُعلن استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلًا. وعندئذ

تتمّ عمليّة التحرير فعلًا، بضمان الحرّيّة لكلّ فرد أن يختار دين الحقّ عن اقتناع. فإن لم يقتنع، بقي على عقيدته، وأعطى الجزية؛ لتحقيق عدّة أهداف: أوّلها أن يُعلن بإعطائها استسلامه، وعدم مقاومته بالقوّة المادّيّة، للدعوة إلى دين الله الحقّ. وثانيها أن يساهم في نفقات الدفاع عن نفسه وماله وعرضه وحرماته، التي يكفلها الإسلام لأهل الذمّة، الذين يؤدّون الجزية، فيُصبحون في ذمّة المسلمين وضمانتهم، ويدفع عنها من يُريد الاعتداء عليها، من الداخل، أو من الخارج، بالمجاهدين من المسلمين. وثالثها المساهمة في بيت مال المسلمين، الذي يضمن الكفالة، والإعاشة، لكلّ عاجز عن العمل، بما في ذلك أهل الذمّة، بلا تفرقة بينهم، وبين المسلمين دافعي الزكاة»[1].

٣- **(الرقيق)**: الأسرى نتيجة من نتائج معظم الحروب، وهم أناس لا يُقتَلون في أرض المعركة، بل يؤخَذون أحياء.

فلو خُيِّر الإنسان، بين القتل، والأسر، فإنّ معظم الناس، سيختارون الأسر - على مرارته وشدّته - لأنّ النفس الإنسانيّة، تجزع من الموت، وتحرص على الحياة.

وفي الأسر حقنٌ للدماء، وهو الأصل في دعوة الإسلام، وفي الأسر كسرُ شوكة العدوّ، ودفع شرّه، وفي الأسر إمكانٌ لاستنقاذ مَن في أيدي الأعداء، مِن أسرى المسلمين.

ولو خُيِّر الأسير بين دفع المال، ليُطلَق سراحه، وبين البقاء في الأسر، لاختار دفع المال قطعًا، ولكنّه قد يكون فقيرًا، لا يملك مالًا، فماذا لو خُيِّر بين الحبس، وبين العيش الخاصّ، مع الناس في بلاد الإسلام؟

---

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٦٣٣-١٦٣٤.

قطعًا، سيختار الأسيرُ الخروج، من الحبس، والعيش مع الناس؛ فما ذلك الوضع الخاصّ؟

إنّه وضع الرقيق.. وهو وضع صعب، أشبه بوضع الخادم، ولكنّه أهون من وضع الحبس، قطعًا، ولا سيّما إذا علمنا أنّ الإسلام أوصى بالرقيق خيرًا، وحثّ المسلمين، على تحريرهم من هذا الوضع، ولا سيّما من آمن، ودخل في الإسلام منهم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[(٤)].

---

(١) المجادلة: ٣.

(٢) المائدة: ٨٩.

(٣) النساء: ٣٦.

(٤) البلد: ١١-١٦.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢).

ولكن... لماذا لم يأمر الإسلام المسلمين، بإطلاق سراح الأسرى، وردّهم إلى ديارهم وأهليهم؟

هذا سؤال سائل، يغفل عن المقام؛ فالأصل في الإسلام هو السلم والسلام والأمان، والقتال أمر طارئ؛ لحماية الدعوة والدعاة والناس، من إرهاب أعداء الدين؛ والأسر نتيجة من نتائج القتال، وهو - على مرارته - أهون من القتل، والاسترقاق - على مرارته - أهون من الحبس، حين لا يستطيع الأسير أن يدفع مالًا للفداء، أو أنّ قوم الأسير لم يبالوا به، فلم يدفعوا لاستنقاذه، ولا استنقذوه، بردّ بعض أسرى المسلمين.

فهل من الحكمة أن يردّ المسلمون أسرى أعدائهم، بينما يعمد الأعداء إلى تقتيل أسرى المسلمين، أو تعذيبهم، أو حبسهم، أو استرقاقهم؟!!!

إنّ في ردّ الأسرى إلى الأعداء - في هذه الحالة - تقوية للأعداء، وإضعافًا للمسلمين، وخذلانًا لأسرى المسلمين، الذين ينتظرون الاستنقاذ.

---

(١) التوبة: ٦٠.

(٢) النور: ٣٣.

والأصل في الإسلام أن يكون أسر الأعداء؛ لجلب مصلحة إسلاميّة، إمّا بحقن دم الأسير، واسترقاقه؛ ليعيش بين المسلمين، فيتعرّف الإسلام، ويدخل الإيمان في قلبه، فيغدو واحدًا من المسلمين، بعد أن كان معدودًا من أعدائهم، وفي هذا مصلحة كبيرة، بلا ريب.

وإمّا بأن يكون أسر الأعداء؛ لاستنقاذ أسرى المسلمين من أيدي أعدائهم، بأن يسلّم المسلمون أسرى الأعداء، ويسلّم الأعداء أسرى المسلمين.

وإمّا بأن يدفع الأعداء الأموال؛ لاستنقاذ أسراهم، فينتفع المسلمون بهذه الأموال، في استنقاذ أسرى المسلمين، أو في إعداد السلاح، ورباط الخيل؛ لحماية المسلمين من كيد أعدائهم.

فليس من الحكمة تفويت هذه المصالح الإسلاميّة، في المقام الذي يُمعن فيه أعداء الإسلام، في الكيد والبغي؛ للنيل من المسلمين.

وفي المقابل تجد المعاملة الإسلاميّة الصحيحة، التي يلتزم فيها المسلمون، بأحكام الإسلام، في معاملة الرقيق، ذلك الإنسان الذي نسيه قومه، أو تناسوه، وأهملوه، فلم يكلّفوا أنفسهم جهدًا؛ لاستنقاذه؛ فأعطاه الإسلام فرصة للعيش بين المسلمين، وتلك نعمة أن يكون العيش وسيلة لهدايته إلى سبيل الله القويم.

قال سيّد قطب: «وأمّا في الرقّ مثلًا، فقد كان الأمر أمر وضع اجتماعيّ اقتصاديّ، وأمر عرف دوليّ وعالَميّ في استرقاق الأسرى، وفي استخدام الرقيق، والأوضاع الاجتماعيّة المعقّدة تحتاج إلى تعديل شامل، لمقوّماتها وارتباطاتها، قبل تعديل ظواهرها وآثارها. والعرف الدوليّ يحتاج إلى اتّفاقات دوليّة ومعاهدات جماعيّة.. ولم يأمر الإسلام بالرقّ قطّ، ولم يرد في القرآن نصّ على استرقاق الأسرى. ولكنّه جاء، فوجد الرقّ نظامًا عالَميًّا يقوم عليه الاقتصاد العالَميّ، ووجد استرقاق الأسرى عرفًا دوليًّا، يأخذ به المحاربون جميعًا.. فلم يكن بدٌّ أن

يتريّث في علاج الوضع الاجتماعيّ القائم، والنظام الدوليّ الشامل. وقد اختار الإسلام أن يجفّف منابع الرقّ وموارده، حتّى ينتهي بهذا النظام كلّه، مع الزمن، إلى الإلغاء، دون إحداث هزّة اجتماعيّة، لا يُمكن ضبطها ولا قيادتها. وذلك مع العناية بتوفير ضمانات الحياة المناسبة للرقيق، وضمان الكرامة الإنسانيّة في حدود واسعة. بدأ بتجفيف موارد الرقّ، فيما عدا أسرى الحرب الشرعيّة، ونسل الأرقّاء.. ذلك أنّ المجتمعات المعادية للإسلام كانت تسترقّ أسرى المسلمين حسب العرف السائد في ذلك الزمان. وما كان الإسلام يومئذ قادرًا على أن يُجبر المجتمعات المعادية على مخالفة ذلك العرف السائد، الذي تقوم عليه قواعد النظام الاجتماعيّ والاقتصاديّ في أنحاء الأرض. ولو أنّه قرّر إبطال استرقاق الأسرى، لكان هذا إجراء مقصورًا على الأسرى، الذين يقعون في أيدي المسلمين، بينما الأسارى المسلمون يلاقون مصيرهم السيّء في عالم الرقّ هناك. وفي هذا إطماع لأعداء الإسلام، في أهل الإسلام.. ولو أنّه قرّر تحرير نسل الأرقّاء الموجود فعلًا، قبل أن ينظّم الأوضاع الاقتصاديّة للدولة المسلمة، ولجميع من تضمّهم، لترك هؤلاء الأرقّاء بلا مورد رزق ولا كافل ولا عائل، ولا أواصر قربى تعصمهم من الفقر والسقوط الخُلُقيّ، الذي يُفسد حياة المجتمع الناشئ.. لهذه الأوضاع القائمة العميقة الجذور لم ينصّ القرآن على استرقاق الأسرى، بل قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[1].. ولكنّه كذلك لم ينصّ على عدم استرقاقهم. وترك الدولة المسلمة تُعامِل أسراها، حسب ما تقتضيه طبيعة موقفها. فتفادي من تفادي من الأسرى من الجانبين، وتتبادل الأسرى

---

(١) محمّد: ٤.

من الفريقين، وتسترقّ من تسترقّ وفق الملابسات الواقعيّة في التعامل مع أعدائها المحاربين. وبتجفيف موارد الرقّ الأخرى - وكانت كثيرة جدًّا ومتنوّعة - يقلّ العدد.. وهذا العدد القليل أخذ الإسلام يعمل على تحريره بمجرّد أن ينضمّ إلى الجماعة المسلمة، ويقطع صلته بالمعسكرات المعادية. فجعل للرقيق حقّه كاملًا في طلب الحرّيّة بدفع فدية عنه، يكاتب عليها سيّده. ومنذ هذه اللحظة التي يُريد فيها الحرّيّة يملك حرّيّة العمل وحرّيّة الكسب والتملّك، فيُصبح أجر عمله له، وله أن يعمل في غير خدمة سيّده؛ ليحصل على فديته - أي: أنّه يُصبح كيانًا مستقلًّا، ويحصل على أهمّ مقوّمات الحرّيّة فعلًا - ثمّ يُصبح له نصيبه من بيت مال المسلمين في الزكاة. والمسلمون مكلَّفون بعد هذا أن يساعدوه بالمال على استرداد حرّيّته.. وذلك كلّه غير الكفّارات التي تقتضي عتق رقبة، كبعض حالات القتل الخطإ، وفدية اليمين، وكفّارة الظهار.. وبذلك ينتهي وضع الرقّ نهاية طبيعيّة مع الزمن؛ لأنّ إلغاءه دفعة واحدة كان يؤدّي إلى هزّة، لا ضرورة لها، وإلى فساد في المجتمع أمكن اتّقاؤه. فأمّا تكاثر الرقيق في المجتمع الإسلاميّ بعد ذلك؛ فقد نشأ من الانحراف عن المنهج الإسلاميّ، شيئًا فشيئًا. وهذه حقيقة.. ولكنّ مبادئ الإسلام ليست هي المسؤولة عنه.. ولا يُحسَب ذلك على الإسلام، الذي لم يُطبَّق تطبيقًا صحيحًا، في بعض العهود؛ لانحراف الناس عن منهجه، قليلًا أو كثيرًا.. ووفق النظريّة الإسلاميّة التاريخيّة التي أسلفنا.. لا تُعدّ الأوضاع التي نشأت عن هذا الانحراف أوضاعًا إسلاميّة، ولا تُعدّ حلقات في تاريخ الإسلام، كذلك. فالإسلام لم يتغيّر، ولم تُضَف إلى مبادئه مبادئ جديدة. إنّما الذي تغيّر: هم الناس. وقد بعدوا عنه، فلم يعد له علاقة بهم، ولم يعودوا هم حلقة من تاريخه. وإذا أراد أحد أن يستأنف حياة إسلاميّة، فهو لا يستأنفها من حيث انتهت الجموع، المنتسبة إلى الإسلام، على مدى

التاريخ. إنّما يستأنفها من حيث يستمدّ استمدادًا مباشرًا، من أصول الإسلام الصحيحة.. وهذه الحقيقة مهمّة جدًّا، سواء من وجهة التحقيق النظريّ، أو النموّ الحركيّ، للعقيدة الإسلاميّة، وللمنهج الإسلاميّ. ونحن نؤكّدها للمرّة الثانية في هذا الجزء بهذه المناسبة، لما نراه من شدّة الضلال والخطإ في تصوّر النظريّة التاريخيّة الإسلاميّة، وفي فهم الواقع التاريخيّ الإسلاميّ؛ ومن شدّة الضلال والخطإ في تصوّر الحياة الإسلاميّة الحقيقيّة والحركة الإسلاميّة الصحيحة؛ وبخاصّة في دراسة المستشرقين للتاريخ الإسلاميّ، ومن يتأثّرون بمنهج المستشرقين الخاطئ، في فهم هذا التاريخ! وفيهم بعض المخلصين المخدوعين!»[1].

وقال سيّد قطب أيضًا: «أمّا ما وقع في بعض العصور، من الاستكثار، من الإماء، عن طريق الشراء، والخطف، والنخاسة، وتجميعهنّ في القصور، واتّخاذهنّ وسيلة للالتذاذ الجنسيّ البهيميّ، وتمضية الليالي الحمراء، بين قطعان الإماء، وعربدة السكر والرقص والغناء.. إلى آخر ما نقلته إلينا الأخبار الصادقة، والمبالَغ فيها على السواء.. أمّا هذا كلّه، فليس هو الإسلام. وليس من فعل الإسلام، ولا إيحاء الإسلام. ولا يجوز أن يُحسَب على النظام الإسلاميّ...»[2].

٤- **(ميراث الأنثى)**: يطعن بعض الطاعنين في بعض أحكام الميراث التي تخصّ الأنثى من المسلمين، فيزعمون أنّ الإسلام ظلم الأنثى في الميراث، غافلين عن مقام التشريع، أو متغافلين.

فالإسلام الذي جعل للذكر مثل حظّ الأنثيين - في بعض الحالات -

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٢٢٩-٢٣١.

(٢) في ظلال القرآن: ١/٥٨٣.

هو الإسلام نفسه الذي فرض على الذكر أن يُنفق على الأنثى من ماله، ولم يفرض عليها أن تُنفق على الذكر.

قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[1].

فالرجل يُنفق على زوجته، وابنته، ويُنفق أيضًا على أخته، وأمّه، وجدّته وعمّته وخالته، إن لم يكن ثمّة من يُنفق عليهنّ غيره؛ ولذلك يكون الرجل أحوج إلى نصيب أكبر من نصيب المرأة في الميراث.

فلو مات رجل، وورثه ابن واحد، وابنتان اثنتان، فإنّ الابن يأخذ نصف المال الموروث، وتأخذ كلّ ابنة منهما ربع المال الموروث؛ لأنّ هذا الابن الوارث مُلزَم بالإنفاق على أختيه، إن لم يكن ثمّة من يُنفق عليهما، وهو مُلزَم قطعًا بالإنفاق على زوجته، وأبنائه، وبناته.

قال سيّد قطب: «وليس الأمر في هذا أمر محاباة لجنس على حساب جنس. إنّما الأمر أمر توازن وعدل، بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى في التكوين العائليّ، وفي النظام الاجتماعيّ الإسلاميّ: فالرجل يتزوّج امرأة، ويُكلَّف إعالتها وإعالة أبنائها منه، في كلّ حالة، وهي معه، وهي مطلَّقة منه.. أمّا هي، فإمّا أن تقوم بنفسها فقط، وإمّا أن يقوم بها رجل قبل الزواج وبعده سواء، وليست مكلَّفة نفقة للزوج ولا للأبناء في أيّ حال.. فالرجل مكلَّف - على الأقلّ - ضعف أعباء المرأة في التكوين العائليّ، وفي النظام الاجتماعيّ الإسلاميّ. ومن ثمّ يبدو العدل كما يبدو التناسق بين الغُنْم والغُرْم، في هذا التوزيع الحكيم. ويبدو كلُّ كلام - في هذا التوزيع - جهالة من ناحية، وسوء أدب مع الله، من

---

(١) النساء: ٣٤.

ناحية أخرى، وزعزعة للنظام الاجتماعيّ والأسريّ، لا تستقيم معها حياة»(1).

٥- **(تعدُّد الزوجات)**: الأصل في الإسلام أن يتّخذ الرجل امرأة واحدة، زوجًا له، ولكنّ الرجل في بعض المقامات يحتاج إلى أن يتزوّج بأكثر من امرأة، كأن تكون زوجته الأُولى عاقرًا، وهو يُريد الذرّيّة، أو تكون زوجته الأُولى مريضة، غير قادرة على القيام بحقوق الزوج.

وقد يكون عدد الرجال - في بعض المقامات - أقلّ من عدد النساء، كما في حالة الحرب، أو قلّة الرجال المؤهَّلين للزواج، أو قلّة الرجال الصالحين، الذين يرضى أولياءُ النساء بمصاهرتهم، أو الذين ترضى النساء بهم أزواجًا.

وحاجة المرأة إلى الزواج أكثر من حاجة الرجل؛ لاحتياجها إلى رعاية رجل يُنفق عليها، ويحميها من الأذى، ولا سيّما إذا فقدت من يُنفق عليها، من أب، أو أخ، أو ابن، أو زوج.

ولذلك - في بعض المقامات - يكون الحلّ بأن يتزوّج الرجل الواحد أكثر من امرأة، ولكن بشروط معروفة؛ لكيلا يكون الأمر عبثًا، ولهوًا. وأوجب هذه الشروط هو العدل، فإن خاف الرجل أن يقع منه ظلمٌ لبعض الزوجات، وجب الاقتصار على زوجة واحدة.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾(2).

ولا ريب في أن تعدُّد الزوجات أَولى من معاشرة البغايا، ولكنّ الطاعنين

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٥٩١.

(٢) النساء: ٣.

في الإسلام يعيبون على الإسلام إباحة التعدُّد المشروط، ويسكتون عن جرائم الفجور والعهر والعلاقات الجنسيّة الموبوءة، التي تهدم البيوت؛ فيُجيزون تعدُّد الخليلات، ويعيبون تعدُّد الحليلات؟!!!

قال سيّد قطب: «إنّ الإسلام نظام للإنسان. نظام واقعيّ إيجابيّ. يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه، ويتوافق مع واقعه وضروراته، ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيّرة في شتّى البقاع، وشتّى الأزمان، وشتّى الأحوال. إنّه نظام واقعيّ إيجابيّ، يلتقط الإنسان من واقعه الذي هو فيه، ومن موقفه الذي هو عليه، ليرتفع به في المرتقى الصاعد، إلى القمّة السامقة. في غير إنكار لفطرته، أو تنكُّر؛ وفي غير إغفال لواقعه أو إهمال؛ وفي غير عنف في دفعه أو اعتساف! إنّه نظام لا يقوم على الحذلقة الجوفاء؛ ولا على التظرُّف المائع؛ ولا على المثاليّة الفارغة؛ ولا على الأمنيّات الحالِمة، التي تصطدم بفطرة الإنسان وواقعه وملابسات حياته، ثمّ تتبخّر في الهواء! وهو نظام يرعى خُلُق الإنسان، ونظافة المجتمع، فلا يسمح بإنشاء واقع مادّيّ، من شأنه انحلال الخُلُق، وتلويث المجتمع، تحت مطارق الضرورة التي تصطدم بذلك الواقع. بل يتوخّى دائمًا أن يُنشئ واقعًا، يساعد على صيانة الخُلُق، ونظافة المجتمع، مع أيسر جهد يبذله الفرد، ويبذله المجتمع. فإذا استصحبنا معنا هذه الخصائص الأساسيّة في النظام الإسلاميّ، ونحن ننظر إلى مسألة تعدّد الزوجات.. فماذا نرى؟ نرى.. أوّلًا.. أنّ هناك حالات واقعيّة في مجتمعات كثيرة - تاريخيّة وحاضرة - تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج، على عدد الرجال الصالحين للزواج.. والحدّ الأعلى لهذا الاختلال الذي يعتري بعض المجتمعات لم يُعرَف تاريخيًّا أنّه تجاوز نسبة أربع إلى واحد. وهو يدور دائمًا في حدودها. فكيف نعالج هذا الواقع، الذي يقع ويتكرّر وقوعه، بنسب مختلفة. هذا الواقع الذي لا يُجدي فيه

الإنكار؟ نعالجه بهزّ الكتفين؟ أو نتركه يعالج نفسه بنفسه؟ حسب الظروف والمصادفات؟! إنّ هزّ الكتفين لا يحلّ مشكلة! كما أنّ ترك المجتمع يعالج هذا الواقع - حسبما اتّفق - لا يقول به إنسان جادّ، يحترم نفسه، ويحترم الجنس البشريّ! ولا بدّ إذن من نظام، ولا بدّ إذن من إجراء.. وعندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات: ١- أن يتزوّج كلّ رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج. ثمّ تبقى واحدة أو أكثر - حسب درجة الاختلال الواقعة - بدون زواج، تقضي حياتها - أو حياتهنّ - لا تعرف الرجال! ٢- أن يتزوّج كلّ رجل صالح للزواج واحدة فقط، زواجًا شرعيًّا نظيفًا، ثمّ يخادن، أو يسافح واحدة، أو أكثر، من هؤلاء اللواتي ليس لهنّ مقابل في المجتمع من الرجال؛ فيعرفن الرجل خدينًا، أو خليلًا في الحرام والظلام! ٣- أن يتزوّج الرجال الصالحون - كلّهم أو بعضهم - أكثر من واحدة، وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل زوجة شريفة، في وضح النور، لا خدينة ولا خليلة، في الحرام والظلام! الاحتمال الأوّل ضدّ الفطرة، وضدّ الطاقة، بالقياس إلى المرأة، التي لا تعرف، في حياتها الرجال. ولا يدفع هذه الحقيقة ما يتشدّق به المتشدّقون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب. فالمسألة أعمق بكثير ممّا يظنّه هؤلاء السطحيّون المتحذلقون المتظرّفون الجهّال عن فطرة الإنسان. وألف عمل، وألف كسب لا تُغني المرأة عن حاجتها الفطريّة إلى الحياة الطبيعيّة.. سواء في ذلك مطالب الجسد والغريزة، ومطالب الروح والعقل، من السكن والأنس بالعشير.. والرجل يجد العمل ويجد الكسب؛ ولكنّ هذا لا يكفيه، فيروح يسعى للحصول على العشيرة، والمرأة كالرجل، في هذا، فهما من نفس واحدة! والاحتمال الثاني ضدّ اتّجاه الإسلام النظيف؛ وضدّ قاعدة المجتمع الإسلاميّ العفيف؛ وضدّ كرامة المرأة الإنسانيّة. والذين لا يحفلون أن تشيع الفاحشة في المجتمع، هم أنفسهم

الذين يتعالَمون على الله، ويتطاولون على شريعته؛ لأنّهم لا يجدون من يردعهم عن هذا التطاول. بل يجدون من الكائدين لهذا الدين كلّ تشجيع وتقدير!

والاحتمال الثالث هو الذي يختاره الإسلام. يختاره رخصة مقيَّدة؛ لمواجهة الواقع، الذي لا ينفع فيه هزّ الكتفين؛ ولا تنفع فيه الحذلقة والادّعاء. يختاره متمشّيًا مع واقعيّته الإيجابيّة، في مواجهة الإنسان كما هو - بفطرته وظروف حياته - ومع رعايته للخُلُق النظيف والمجتمع المتطهّر، ومع منهجه في التقاط الإنسان من السفح، والرقيّ به في الدرج الصاعد إلى القمّة السامقة. ولكن في يسر ولين وواقعيّة! ثمّ نرى.. ثانيًا.. في المجتمعات الإنسانيّة - قديمًا وحديثًا، وبالأمس واليوم والغد، إلى آخر الزمان - واقعًا في حياة الناس، لا سبيل إلى إنكاره كذلك، أو تجاهله، نرى أنّ فترة الإخصاب في الرجل تمتدّ إلى سنّ السبعين أو ما فوقها. بينما هي تقف في المرأة، عند سنّ الخمسين، أو حواليها. فهناك في المتوسّط عشرون سنة، من سني الإخصاب في حياة الرجل، لا مقابل لها في حياة المرأة. وما من شكّ أنّ من أهداف اختلاف الجنسين، ثمّ التقائهما: امتداد الحياة بالإخصاب والإنسال، وعمران الأرض بالتكاثر والانتشار. فليس ممّا يتّفق مع هذه السنّة الفطريّة العامّة أن نكفّ الحياة عن الانتفاع بفترة الإخصاب الزائدة في الرجال. ولكن ممّا يتّفق مع هذا الواقع الفطريّ أن يسنّ التشريع - الموضوع لكافّة البيئات في جميع الأزمان والأحوال - هذه الرخصة، لا على سبيل الإلزام الفرديّ، ولكن على سبيل إيجاد المجال العامّ الذي يلبّي هذا الواقع الفطريّ، ويسمح للحياة أن تنتفع به عند الاقتضاء.. وهو توافق بين واقع الفطرة وبين اتّجاه التشريع، ملحوظ دائمًا في التشريع الإلهيّ. لا يتوافر عادة في التشريعات البشريّة، لأنّ الملاحظة البشريّة القاصرة لا تنتبه له، ولا تُدرك جميع الملابسات القريبة، والبعيدة، ولا تنظر من جميع الزوايا، ولا تراعي جميع

الاحتمالات. ومن الحالات الواقعيّة - المرتبطة بالحقيقة السالفة - ما نراه أحيانًا من رغبة الزوج في أداء الوظيفة الفطريّة، مع رغبة الزوجة عنها؛ لعائق من السنّ، أو من المرض، مع رغبة الزوجين كليهما في استدامة العشرة الزوجيّة، وكراهية الانفصال؛ فكيف نواجه مثل هذه الحالات؟ نواجهها بهزّ الكتفين؛ وترك كلّ من الزوجين يخبط رأسه في الجدار؟! أو نواجهها بالحذلقة الفارغة، والتطرُّف السخيف؟ إنّ هزّ الكتفين - كما قلنا - لا يحلّ مشكلة. والحذلقة والتطرُّف لا يتّفقان، مع جدّيّة الحياة الإنسانيّة، ومشكلاتها الحقيقيّة.. وعندئذ نجد أنفسنا - مرّة أخرى - أمام احتمال من ثلاثة احتمالات: ١- أن نكبت الرجل، ونصدّه، عن مزاولة نشاطه الفطريّ، بقوّة التشريع، وقوّة السلطان! ونقول له: عيب، يا رجل! إنّ هذا لا يليق، ولا يتّفق مع حقّ المرأة، التي عندك، ولا مع كرامتها! ٢- أن نُطلق هذا الرجل، يخادن ويسافح من يشاء من النساء! ٣- أن نُبيح لهذا الرجل التعدُّد - وفق ضرورات الحال - ونتوقّى طلاق الزوجة الأُولى. الاحتمال الأوّل ضدّ الفطرة، وفوق الطاقة، وضدّ احتمال الرجل العصبيّ والنفسيّ. وثمرته القريبة - إذا نحن أكرهناه بحكم التشريع، وقوّة السلطان - هي كراهية الحياة الزوجيّة التي تكلّفه هذا العنت، ومعاناة جحيم هذه الحياة.. وهذه ما يكرهه الإسلام، الذي يجعل من البيت سكنًا، ومن الزوجة أنسًا ولباسًا. والاحتمال الثاني ضدّ اتجاه الإسلام الخُلُقيّ، وضدّ منهجه في ترقية الحياة البشريّة، ورفعها وتطهيرها وتزكيتها، كي تُصبح لائقة بالإنسان الذي كرّمه الله على الحيوان! والاحتمال الثالث هو وحده الذي يلبّي ضرورات الفطرة الواقعيّة، ويلبّي منهج الإسلام الخُلُقيّ، ويحتفظ للزوجة الأُولى، برعاية الزوجيّة، ويحقّق رغبة الزوجين، في الإبقاء على عشرتهما، وعلى ذكرياتهما، ويُيَسِّر على الإنسان الخطو الصاعد، في رفق ويسر وواقعيّة. وشيء كهذا، يقع في حالة عقم

الزوجة، مع رغبة الزوج الفطريّة، في النسل. حيث يكون أمامه طريقان، لا ثالث لهما: ١- أن يطلّقها؛ ليستبدل بها زوجة أخرى، تلبّي رغبة الإنسان الفطريّة، في النسل. ٢- أو أن يتزوّج بأخرى، ويُبقي على عشرته، مع الزوجة الأُولى. وقد يهذر قوم من المتحذلقين - ومن المتحذلقات - بإيثار الطريق الأوّل؛ ولكنّ تسعًا وتسعين زوجة - على الأقلّ - من كلّ مئة، سيتوجّهن باللعنة إلى من يُشير على الزوج بهذا الطريق! الطريق الذي يحطّم عليهنّ بيوتهنّ، بلا عوض منظور، فقلّما تجد العقيم - وقد تبيّن عقمها - راغبًا في الزواج، وكثيرًا ما تجد الزوجة العاقر أنسًا واسترواحًا في الأطفال الصغار، تجيء بهم الزوجة الأخرى من زوجها، فيملؤون عليهم الدار حركة وبهجة، أيًّا كان ابتئاسها لحرمانها الخاصّ. وهكذا حيثما ذهبنا نتأمّل الحياة الواقعيّة، بملابساتها العمليّة، التي لا تُصغي للحذلقة، ولا تستجيب للهذر، ولا تستروح للهزل السخيف والتميُّع المنحلّ في مواضع الجدّ الصارم.. وجدنا مظاهر الحكمة العلويّة، في سَنّ هذه الرخصة، مقيَّدة بذلك القيد: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[1]. فالرخصة تلبّي واقع الفطرة، وواقع الحياة، وتحمي المجتمع من الجنوح - تحت ضغط الضرورات الفطريّة والواقعيّة المتنوّعة - إلى الانحلال أو الملال.. والقيد يحمي الحياة الزوجيّة من الفوضى والاختلال، ويحمي الزوجة من الجور والظلم؛ ويحمي كرامة المرأة أن تتعرّض للمهانة، بدون ضرورة مُلجِئة، واحتياط كامل. ويضمن العدل الذي تحتمل معه الضرورة ومقتضياتها المريرة. إنّ أحدًا يُدرك روح الإسلام واتّجاهه لا يقول: إنّ التعدُّد مطلوب لذاته، مُستحَبّ، بلا مبرِّر من ضرورة فطريّة أو اجتماعيّة؛ وبلا دافع،

---

(١) النساء: ٣.

إلّا التلذُّذ الحيوانيّ، وإلّا التنقُّل بين الزوجات، كما يتنقّل الخليل بين الخليلات. إنّما هو ضرورة، تواجه ضرورة، وحلّ يواجه مشكلة. وهو ليس متروكًا للهوى، بلا قيد، ولا حدّ، في النظام الإسلاميّ، الذي يواجه كلّ واقعيّات الحياة. فإذا انحرف جيل من الأجيال، في استخدام هذه الرخصة، إذا راح رجال يتّخذون من هذه الرخصة فرصة؛ لإحالة الحياة الزوجيّة مسرحًا للذّة الحيوانيّة، إذا أمسوا يتنقّلون بين الزوجات، كما يتنقّل الخليل بين الخليلات، إذا أنشأوا الحريم في هذه الصورة المريبة.. فليس ذلك شأن الإسلام؛ وليس هؤلاء هم الذين يمثّلون الإسلام.. إنّ هؤلاء إنّما انحدروا إلى هذا الدرك؛ لأنّهم بعدوا عن الإسلام، ولم يُدركوا روحه النظيف الكريم. والسبب أنّهم يعيشون في مجتمع لا يحكمه الإسلام، ولا تسيطر فيه شريعته، مجتمع لا تقوم عليه سلطة مسلمة، تدين للإسلام وشريعته؛ وتأخذ الناس بتوجيهات الإسلام، وقوانينه، وآدابه، وتقاليده. إنّ المجتمع المعادي للإسلام، المتفلّت من شريعته وقانونه: هو المسؤول الأوّل عن هذه الفوضى، هو المسؤول الأوّل عن الحريم في صورته الهابطة المريبة، هو المسؤول الأوّل عن اتّخاذ الحياة الزوجيّة مسرح لذّة بهيميّة. فمن شاء أن يُصلح هذه الحال، فليردّ الناس إلى الإسلام، وشريعة الإسلام، ومنهج الإسلام؛ فيردّهم إلى النظافة والطهارة والاستقامة والاعتدال.. من شاء الإصلاح، فليردّ الناس إلى الإسلام، لا في هذه الجزئيّة، ولكن في منهج الحياة كلّها. فالإسلام نظام متكامل، لا يعمل، إلّا وهو كامل شامل»[(١)].

٦- **(العقوبات)**: الأصل في فرض العقوبات هو الردع: ردع من ارتكب المحظور، لئلّا يعود إلى ارتكابه، إن أمن العقاب، وردع من لم يرتكب المحظور،

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٥٧٩-٥٨٢.

لكنّه ممّن تسوّل له نفسه ارتكاب المحظور، ولا سيّما حين يرى المرتكبين في مأمن من العقاب.

والطاعنون في الإسلام يحاولون أن يصوّروا للناس الوحشيّة، في تنفيذ العقوبات، غافلين، أو متغافلين، عن المقام الذي استدعاها.

❁ عقوبة القصاص في جريمة القتل:

فعقوبة القصاص - في جريمة القتل - يكون تنفيذها لحقن الدماء، فلولا إقامة القصاص، لما حُقنت الدماء، من عدّة جهات، أبرزها:

أ- لمنع أولياء المقتول من قتل غير القاتل ثأرًا، والثأر من أولياء القاتل ظلمٌ، يؤدّي إلى أن يردّ أولياء القاتل، فربّما قتلوا من لا يستحقّ القتل، وهكذا.

ب- لمنع من تُسوِّل له نفسه الإقدام على القتل، فحين يعلم أنّ عقوبة القاتل هي القتل، فإنّ حرصه على حياته، سيكون رادعًا له، عن التهوُّر وارتكاب الجريمة، ولا سيّما حين يرى أنّ أصحاب الأمر لا يتساهلون في إقامة القصاص.

قال سيّد قطب: «فأمّا الأُولى، فهي القصاص العادل، الذي إنْ قتلَ نفسًا، فقد ضمن الحياة لنفوس ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[(١)]. حياة بكفّ يد الذين يهمّون بالاعتداء على الأنفس، والقصاص ينتظرهم، فيردعهم قبل الإقدام على الفعلة النكراء. وحياة بكفّ يد أصحاب الدم أن تثور نفوسهم، فيثأروا، ولا يقفوا عند القاتل، بل يمضوا في الثأر، ويتبادلوا القتل، فلا يقف هذا الفريق وذاك، حتّى تسيل دماء ودماء؛ وحياة بأمن كلّ فرد على شخصه واطمئنانه إلى عدالة القصاص، فينطلق آمنًا، يعمل، ويُنتج، فإذا الأمّة كلّها في حياة»[(٢)].

---

(١) البقرة: ١٧٩.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/٢٢٢٤-٢٢٢٥.

❁ عقوبة الجلد في جريمة الزنى:

وجلد الزانية والزاني ليس عقوبة، فرضها السلطان؛ ليتلذّذ بتعذيبهما، ويُشبع شهواته الوحشيّة، بالنظر إليهما، وهما في حالة التعذيب؛ وإنّما هي عقوبة مفروضة شرعًا، للردع.

فالزنى مرض كبير، خطير، يهدم البيوت، ويخرّب المجتمعات، ويُهلك الأمم، ويُشيع في الأرض الفساد، وفظائعه أوضح من أن يُنبَّه عليها الجاهل، وأبين من أن يتغافل عنها المتغافل.

قال سيّد قطب: «والإسلام - وهو يضع هذه العقوبات الصارمة الحاسمة لتلك الفعلة المستنكَرة الشائنة - لم يكن يغفل الدوافع الفطريّة، أو يحاربها. فالإسلام يقدّر أنّه لا حيلة للبشر، في دفع هذه الميول، ولا خير لهم في كبتها، أو قتلها. ولم يكن يحاول أن يوقف الوظائف الطبيعيّة التي ركّبها الله في كيانهم، وجعلها جزءًا من ناموس الحياة الأكبر، يؤدّي إلى غايته من امتداد الحياة، وعمارة الأرض، التي استخلف فيها هذا الإنسان. إنّما أراد الإسلام محاربة الحيوانيّة التي لا تفرّق بين جسد وجسد، أو لا تهدف إلى إقامة بيت، وبناء عشّ، وإنشاء حياة مشتركة، لا تنتهي بانتهاء اللحظة الجسديّة الغليظة! وأن يُقيم العلاقات الجنسيّة على أساس من المشاعر الإنسانيّة الراقية، التي تجعل من التقاء جسدين: نفسين وقلبين وروحين، وبتعبير شامل التقاء إنسانين، تربط بينهما حياة مشتركة، وآمال مشتركة، وآلام مشتركة، ومستقبل مشترك، يلتقي في الذرّيّة المرتقبة، ويتقابل في الجيل الجديد، الذي ينشأ في العشّ المشترك، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان. من هنا شدّد الإسلام في عقوبة الزنى بوصفه نكسة حيوانيّة، تذهب بكلّ هذه المعاني، وتُطيح بكلّ هذه الأهداف؛ وتردّ الكائن الإنسانيّ مسخًا حيوانيًّا، لا يفرّق بين أنثى وأنثى، ولا بين ذكر

وذكر، مسخًا كلّ همّه إرواء جوعة اللحم والدم، في لحظة عابرة. فإن فرّق وميّز، فليس وراء اللذّة بناء في الحياة، وليس وراءها عمارة في الأرض، وليس وراءها نتاج، ولا إرادة نتاج! بل ليس وراءها عاطفة حقيقيّة راقية، لأنّ العاطفة تحمل طابع الاستمرار. وهذا ما يفرّقها من الانفعال المنفرد المتقطّع، الذي يحسبه الكثيرون عاطفة، يتغنّون بها، وإنّما هي انفعال حيوانيّ، يتزيّا بزيّ العاطفة الإنسانيّة، في بعض الأحيان! إنّ الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة، ولا يستقذرها؛ إنّما ينظّمها ويطهّرها، ويرفعها عن المستوي الحيوانيّ، ويرقّيها حتّى تُصبح المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسيّة والاجتماعيّة. فأمّا الزنى، وبخاصّة البغاء، فيجرّد هذا الميل الفطريّ من كلّ الرفرفات الروحيّة، والأشواق العلويّة؛ ومن كلّ الآداب التي تجمّعت حول الجنس، في تاريخ البشريّة الطويل؛ ويُبديه عاريًا غليظًا قذرًا، كما هو في الحيوان، بل أشدّ غلظًا من الحيوان. ذلك أنّ كثيرًا من أزواج الحيوان والطير تعيش متلازمة، في حياة زوجيّة منظّمة، بعيدة عن الفوضى الجنسيّة التي يُشيعها الزنى، وبخاصّة البغاء، في بعض بيئات الإنسان! دفعُ هذه النكسة عن الإنسان هو الذي جعل الإسلام يشدّد ذلك التشديد في عقوبة الزنى.. ذلك إلى الأضرار الاجتماعيّة التي تعارف الناس على أن يذكروها عند الكلام عن هذه الجريمة، من اختلاط الأنساب، وإثارة الأحقاد، وتهديد البيوت الآمنة المطمئنّة.. وكلّ واحد من هذه الأسباب يكفي لتشديد العقوبة. ولكنّ السبب الأوّل، وهو دفع النكسة الحيوانيّة عن الفطرة البشريّة، ووقاية الآداب الإنسانيّة، التي تجمّعت حول الجنس، والمحافظة على أهداف الحياة العليا، من الحياة الزوجيّة المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد، هذا السبب هو الأهمّ في اعتقادي. وهو الجامع لكلّ الأسباب الفرعيّة الأخرى. على أنّ الإسلام لا يشدّد في العقوبة هذا التشديد، إلّا بعد

تحقيق الضمانات الوقائيّة المانعة من وقوع الفعل، ومن توقيع العقوبة، إلّا في الحالات الثابتة، التي لا شبهة فيها. فالإسلام منهج حياة متكامل، لا يقوم على العقوبة؛ إنّما يقوم على توفير أسباب الحياة النظيفة. ثمّ يعاقب بعد ذلك من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسّرة، ويتمرّغ في الوحل طائعًا، غير مضطرّ»[1].

❁ عقوبة الرجم في جريمة الزنى:

أمّا عقوبة الرجم في جريمة الزنى، فهي ليست ممّا اتّفقت فيه كلمة المؤلّفين القدامى، وإن كان جمهور المؤلّفين يرون أنّها عقوبة ثابتة شرعًا.

ويُنسَب إنكار الرجم، إلى طائفتين من القدامى، هما:

١- الخوارج.

٢- المعتزلة.

وقد اختلفت عبارات المؤلّفين في بيان تلك النسبة. فيُفهَم من عبارات بعض المؤلّفين أنّ فرق الخوارج كلّها قد أجمعت على إنكار الرجم.

قال ابن بطّال: «ودفع الخوارج الرجم، والمعتزلة، واعتلّوا بأنّ الرجم ليس في كتاب الله تعالى...»[2].

وقال شمس الأئمّة السرخسيّ: «وأمّا الرجم، فهو حدّ مشروع في حقّ المُحصَن، ثابت بالسنّة، إلّا على قول الخوارج؛ فإنّهم يُنكرون الرجم؛ لأنّهم لا يقبلون الأخبار، إذا لم تكن في حدّ التواتر»[3].

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٤٨٩/٤.

(٢) شرح صحيح البخاريّ: ٤٣١/٨-٤٣٢.

(٣) المبسوط: ٣٦/٩.

وقال القاضي عياض: «ولم يختلف علماء الأمصار، في جلد الزاني البكر، ورجم الزاني الثيّب، إلّا ما ذهب إليه الخوارج، وبعض المعتزلة - النظّام وأصحابه - من إبطال حكم الرجم»[١].

وقال الفخر الرازيّ: «المسألة الثالثة: الخوارج اتّفقوا على إنكار الرجم، واحتجّوا بهذه الآية، وهو أنّه تعالى أوجب على الأَمة نصف ما على الحرّة المحصَنة، فلو وجب على الحرّة المحصَنة الرجم، لزم أن يكون الواجب على الأَمة نصف الرجم، وذلك باطل، فثبت أنّ الواجب على الحرّة المتزوّجة ليس إلّا الجلد، والجواب عنه ما ذكرناه في المسألة المتقدّمة...»[٢].

وقال الفخر الرازيّ أيضًا: «المسألة الأولى: الخوارج أنكروا الرجم واحتجّوا فيه بوجوه، أحدها: قوله تعالى ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾[٣]، فلو وجب الرجم على المحصَن، لوجب نصف الرجم على الرقيق، لكنّ الرجم لا نصف له. وثانيها أنّ الله سبحانه ذكر في القرآن أنواع المعاصي من الكفر والقتل والسرقة ولم يستقصِ في أحكامها، كما استقصى في بيان أحكام الزنى؛ ألا ترى أنّه تعالى نهى عن الزنى بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾[٤]، ثمّ توعّد عليه ثانيًا بالنار، كما في كلّ المعاصي، ثمّ ذكر الجلد ثالثًا، ثمّ خصّ الجلد بوجوب إحضار المؤمنين رابعًا، ثمّ خصّه بالنهي عن الرأفة عليه بقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ

---

(١) إكمال المعلم: ٥/٥٠٤.

(٢) التفسير الكبير: ١٠/٦٦.

(٣) النساء: ٢٥.

(٤) الإسراء: ٣٢.

بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾[١] خامسًا، ثمّ أوجب على من رمى مسلمًا بالزنى ثمانين جلدة، وسادسًا، لم يجعل ذلك على من رماه بالقتل والكفر، وهما أعظم منه، ثمّ قال سابعًا: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾[٢]، ثمّ ذكر ثامنًا من رمى زوجته بما يُوجب التلاعن، واستحقاق غضب الله تعالى، ثمّ ذكر تاسعًا أنّ الزانية لا ينكحها إلّا زانٍ، أو مشرك، ثمّ ذكر عاشرًا أنّ ثبوت الزنى مخصوص بالشهود الأربعة؛ فمع المبالغة في استقصاء أحكام الزنى، قليلًا وكثيرًا، لا يجوز إهمال ما هو أجلّ أحكامها، وأعظم آثارها. ومعلوم أنّ الرجم لو كان مشروعًا، لكان أعظم الآثار، فحيث لم يذكره الله تعالى في كتابه، دلّ على أنّه غير واجب. وثالثها قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾[٣]، يقتضي وجوب الجلد على كلّ الزناة، وإيجاب الرجم على البعض - بخبر الواحد - يقتضي تخصيص عموم الكتاب، بخبر الواحد، وهو غير جائز؛ لأنّ الكتاب قاطع في متنه، وخبر الواحد غير قاطع في متنه، والمقطوع راجح على المظنون. واحتجّ الجمهور من المجتهدين على وجوب رجم المحصَن؛ لِما ثبت بالتواتر أنّه عليه الصلاة والسلام فعل ذلك...»[٤].

وقال ابن قدامة المقدسيّ: «في وجوب الرجم على الزاني المحصَن، رجلًا كان، أو امرأة. وهذا قول عامّة أهل العلم من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم من علماء الأمصار، في جميع الأعصار، ولا نعلم فيه مخالفًا إلّا الخوارج، فإنّهم قالوا: الجلد للبكر والثيّب، لقول الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ

(١) النور: ٢.

(٢) النور: ٤.

(٣) النور: ٢.

(٤) التفسير الكبير: ٢٣/١٣٥.

مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾[1]. وقالوا: لا يجوز ترك كتاب الله تعالى، الثابت بطريق القطع واليقين، لأخبار آحاد يجوز الكذب فيها؛ ولأنّ هذا يُفضي إلى نسخ الكتاب بالسنّة، وهو غير جائز. ولنا أنّه قد ثبت الرجم عن رسول الله ﷺ، بقوله، وفعله، في أخبار تُشبه التواتر، وأجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ، على ما سنذكره في أثناء الباب، في مواضعه، إن شاء الله تعالى، وقد أنزله الله تعالى، في كتابه، وإنّما نُسِخ رسمُه، دون حكمه...»[2].

فيُفهَم من هذه العبارات أنّ فرق الخوارج كلّها قد اتّفقت على إنكار الرجم، ولا سيّما عبارة الفخر الرازيّ: «الخوارج اتّفقوا على إنكار الرجم، واحتجّوا بهذه الآية...»؛ فهي صريحة في نسبة الاتّفاق إليهم.

ويُفهَم من عبارات مؤلّفين آخرين أنّ بعض فرق الخوارج - لا كلّها - قد ذهبت إلى إنكار الرجم، وأنّ مُنكري الرجم هم طائفة من الخوارج، أو هم معظم الخوارج.

قال ابن حجر العسقلانيّ: «فأنكر الرجم طائفة، من الخوارج، أو معظمهم، وبعض المعتزلة»[3].

وهذا يعني وجود بعض الخوارج، الذين أقرّوا بالرجم، فوافقوا الجمهور.

وقد ذكر بعض المؤلّفين أنّ فرقة (الصُّفْريّة) - وهم أصحاب زياد بن الأصفر - قد أقرّت بالرجم[4].

---

(١) النور: ٢.

(٢) المغني: ٣٠٩/١٢.

(٣) فتح الباري: ١٤٨/١٢.

(٤) انظر: الملل والنحل: ١٣٤/١.

ونسب بعض المؤلّفين إنكار الرجم، إلى فرقة (الأزارقة)، من الخوارج، وهم أصحاب نافع بن الأزرق[1].

وليست هذه النسبة دليلًا قطعيًّا، على انفراد فرقة (الأزارقة)، بهذا الإنكار؛ والدليل عبارات المؤلّفين، التي يُفهَم منها أنّ إنكار الرجم هو مذهب الخوارج، كلّهم، أو معظمهم.

وينسب كثير من المؤلّفين فرقة (الإباضيّة)، إلى الخوارج[2]، لكنّ مؤلّفي الإباضيّة - كلّهم، أو بعضهم - يتبرّؤون من هذه النسبة، صراحة[3].

وقد أقرّ بالرجم: محمّد بن يوسف الوهبيّ، وهو واحد من أشهر المؤلّفين المحدَثين، في الفقه الإباضيّ[4].

قال الوهبيّ: «وهو من السنن الواجبة، كالرجم بالحجارة للزاني والزانية المحصَنين، بعقد النكاح...»[5].

وقال الوهبيّ أيضًا: «وأمّا ما يتعلّق بالحدود والقصاص والرجم وغيره والقطع والجلد، فيرجم معهم المحصَن الزاني، ويقطع السارق، ويجلد القاذف، ويضرب رقبة المرتدّ، في أمثالها، فلا بأس»[6].

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميّين: ١/١٧٣، والفَرْق بين الفِرَق: ٨٤، والفصل في الملل والأهواء والنحل: ٤/١٤٤، والتبصير في الدين: ٥٠، والملل والنحل: ١/١١٥، وشرح النيل: ١٧/٥٣٤.

(٢) انظر: مقالات الإسلاميّين: ١/١٨٣، والفَرْق بين الفِرَق: ٧٢.

(٣) انظر: الإباضيّة بين الفرق الإسلاميّة: ١٨٣-١٩٠.

(٤) انظر: الأعلام: ٧/١٥٦.

(٥) شرح النيل: ٢/٧، وانظر: ٧/٣٥١.

(٦) شرح النيل: ١٧/٥٤٦.

وقال الوهبيّ أيضًا: «وأمّا المحصَن، فحكمه الرجم، كما عُلِم من السنّة وغيرها، كما تراه في سورة النساء، وسورة المائدة»[1].

وكذلك اختلفت عبارات المؤلّفين، في نسبة إنكار الرجم، إلى المعتزلة، بين قائل بما يُفهَم منه التعميم، وقائل بما يُفهَم منه التخصيص.

فمن عبارات التعميم قول ابن بطّال: «ودفع الخوارج الرجم، والمعتزلة، واعتلّوا بأنّ الرجم ليس في كتاب الله تعالى...»[2].

ومن عبارات التخصيص قول القاضي عياض: «ولم يختلف علماء الأمصار، في جلد الزاني البكر، ورجم الزاني الثيّب، إلّا ما ذهب إليه الخوارج، وبعض المعتزلة - النظّام وأصحابه - من إبطال حكم الرجم»[3].

وكذلك قول ابن حجر العسقلانيّ: «فأنكر الرجم طائفة من الخوارج، أو معظمهم، وبعض المعتزلة»[4].

وممّا يُضعِّف القول بالتعميم أنّ الزمخشريّ قد أقرّ بالرجم، مع أنّه من أشهر المؤلّفين المنسوبين إلى المعتزلة[5].

قال الزمخشريّ: «فإن قلت: أهذا حكم جميع الزناة والزواني، أم حكم بعضهم؟ قلت: بل هو حكم من ليس بمحصَن منهم؛ فإنّ المحصَن حكمه الرجم»[6].

---

(١) هميان الزاد: ١١/١٨١.

(٢) شرح صحيح البخاريّ: ٨/٤٣١-٤٣٢.

(٣) إكمال المعلم: ٥/٥٠٤.

(٤) فتح الباري: ١٢/١٤٨.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء: ٢٠/١٥١.

(٦) الكشّاف: ٤/٢٥٧.

وهذا الماورديّ، ينسبه بعض المؤلّفين إلى (الاعتزال)[1]، ولكنّنا - مع ذلك - نجده ممّن يُقِرّ بالرجم، صراحة.

قال الماورديّ: «فأمّا المحصَنان، فحدّهما الرجم بالسنّة، إمّا بيانًا لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾[2]، على قول فريق، وإمّا ابتداء فرض، على قول آخرين»[3].

وليست نسبة إنكار الرجم، إلى (النظّام)، وأصحابه: دليلًا قطعيًّا، على انفرادهم، بهذا القول. فجائز أن يكون (النظّام) هو أوّل من أنكر (الرجم)، من المعتزلة، ووافقه - على ذلك - أصحابه، ثمّ تأثّر بقوله - أو بقولهم - آخرون، من سائر فرق المعتزلة.

وجائز أن يكون (النظّام) مسبوقًا، إلى إنكار الرجم، لكنّه - مع ذلك - يُعَدّ من أبرز المُنكِرين؛ ولذلك صرّح بعض المؤلّفين، بنسبة الإنكار إليه، وإلى أصحابه، على سبيل التمثيل، لا على سبيل الحصر.

قال بدر الدين العينيّ: «ثمّ اعلم أنّ العلماء أجمعوا على وجوب حدّ جلد الزاني البكر مئة، ورجم المحصَن، وهو الثيّب، ولم يخالف في هذا أحدٌ، من أهل القبلة، إلّا ما حكى القاضي، وغيره، عن الخوارج، وبعض المعتزلة، كالنظّام وأصحابه؛ فإنّهم لم يقولوا بالرجم....»[4].

---

(١) انظر: طبقات الفقهاء الشافعيّة: ٦٣٨/٢، وسير أعلام النبلاء: ٦٧/١٨، وميزان الاعتدال: ١٥٥/٣.

(٢) النساء: ١٥.

(٣) النكت والعيون: ٧١/٤. وانظر: الحاوي الكبير: ٣٨٦/٩، ٣٨٩.

(٤) عمدة القاري: ١٩٣/٨.

فيُفهَم من عبارة: «وبعض المعتزلة، كالنظّام وأصحابه» أنّ من المعتزلة آخرين - غير النظّام، وغير أصحابه - قد ذهبوا إلى إنكار الرجم؛ فإنّ كافَ التشبيه للتمثيل، لا الحصر.

وأقرّ جمهور المحدَثين بالرجم، وأنكره منهم - عمومًا - صنفان:

١- المؤلّفون المستغربون، الذين تأثّروا بالمستشرقين، ولا سيّما أهل التعطيل، الذين أنكروا حجّيّة السنّة النبويّة، وابتدعوا تحريفات كثيرة، للنصوص القرآنيّة، وعطّلوا أحكامًا شرعيّة كثيرة؛ فاستحلّوا الربا والخمر والتبرُّج، وصرّح بعضهم بإباحة التعرّي والبغاء، وعطّلوا الحدود الشرعيّة... إلخ.

٢- المؤلّفون الفقهيّون، الذين اعتمدوا على أدلّة نِسبيّة، وجدوها كافية للقطع بإنكار الرجم، أو كافية لترجيح إنكاره، على الإقرار به.

قال مصطفى الزلميّ: «وعقوبة الرجم لم ترد في القرآن الكريم، وإنّما طبّقها الرسول ﷺ، على عدد قليل، ممّن ارتكبوا هذه الجريمة، من المتزوّجين والمتزوّجات، طبقًا لما ورد في التوراة، وبإقرار من الجاني، ومطالبته بتطبيق حكم الله عليه، ثمّ حصل الخلاف بين علماء الإسلام، في أنّ عقوبة الرجم: هل هي باقية إلى جانب عقوبة الجلد، على أساس أنّ الأُولى للمتزوّج والمتزوّجة، والثانية لغيرهما، أو أنّها نُسخت بآية: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾[(١)]. وإذا أخذنا بقول من قال بأنّها باقية، كما هو رأي الجمهور، فإنّ بقاءها يكون كعدم البقاء، من الناحية العمليّة، ما لم تثبت الجريمة، بشهادة أربعة رجال عادلين، لا يُوجَد الخلاف بين إفاداتهم...»[(٢)].

---

(١) النور: ٢.

(٢) أسباب إباحة الأعمال الجرميّة: ٤٠، وانظر: مجموعة الأبحاث القرآنيّة: ٨٥-١٤٥.

وقال مصطفى الزلميّ أيضًا: «وعقوبة المتزوّج والمتزوّجة: هي الإعدام بالرجم، عند بعض الفقهاء. وعند البعض الآخر: الرجم منسوخ بالجلد؛ لأنّ الأوّل ثبت بالسنّة النبويّة، والثاني بالقرآن، وهذا ما نرجّحه»[1].

ويكفي وجود الاختلاف - بين القدامى - في مسألة معيّنة، لتنتفي الحاجة إلى الجواب فيها؛ فليس الغرض - في هذا المقام - بيان الصواب، بل الغرض هو التنبيه على مبدإ (قطعيّة الأدلّة)، وقد ذكرنا أنّ المسائل التي اختلف فيها القدامى، لا يُمكن أن توصَف بالقطعيّة المطلَقة، لكن يُمكن أن توصَف بالقطعيّة النِّسبيّة.

فالذين يرون مشروعيّة الرجم - وهم الجمهور - يقطعون بذلك، والذين لا يرون مشروعيّة الرجم - وهم قلّة قليلة - يرفضون هذا القطع.

ونحن - في هذا المقام - لا يعنينا بيان رأينا، أو بيان الصواب في المسألة؛ لأنّ الغاية - من هذا الكتاب - ليست البحث في المسائل الخلافيّة، بل الغاية هي الدفاع عن الإسلام، بأوجز الطرائق، بعيدًا عن الاختلاف، وتعدّد الآراء، فيكفي إثبات اختلاف القدامى في المسألة، لتنتفي الحاجة إلى الجواب.

ومع ذلك كلّه، يستطيع القائل - برأي الجمهور - أن يُجيب، في هذه المسألة، فيقول: إنّ جريمة الزنى جريمة شنيعة، فظيعة، خطيرة، تفعل في المجتمعات، والبيوت، ما تفعله الأوبئة، والجراثيم، والأمراض الفتّاكة؛ فالردع عنها واجب، كلّ الوجوب.

فإذا انضاف إلى ذلك كلّه صفة (الإحصان)، أي: كون الزانية متزوّجة، أو كون الزاني متزوّجًا، كانت الجريمة أشنع، وأفظع، وأخطر، من عدّة جهات:

---

(١) المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميّة في نمط جديد: ١٥٣.

أ- خيانة الزوج الزاني لزوجته العفيفة، وخيانة الزوجة الزانية لزوجها العفيف، والزوجان شريكان في تربية الأطفال وتقويمهم، فما الذي يُمكن أن يقدّمه الزوج الزاني الخائن لزوجته وأطفاله، وما الذي يُمكن أن تقدّمه الزوجة الزانية الخائنة لزوجها وأطفالها؟!!!

ب- اختلاط الأنساب، فالزوجة الخائنة الزانية التي تأتي الفاحشة مع رجل آخر غير زوجها، يُمكن أن تحمل من الرجل الثاني، وزوجها غافل عن ذلك، فيربّي الرجل الغافل في حجره ابن زنى، أو بنت زنى.

ج- الزوجة الخائنة، إن لم تكن مبغضة لزوجها قبل الخيانة، فإنّ الخيانة ستجرّها إلى بغض زوجها، وعشق الرجل الذي يشاركها في رذيلة الزنى، وقد يقود ذلك إلى الطلاق، واختلاق المشاكل؛ ليُوقع الرجل الطلاق، وفي هذا تدمير للأسرة، وتقويض لتربية الأطفال؛ أو تبقى الزوجة عشيقة لرجل، وخائنة لزوجها.

د- الزوجة التي تتجرّأ، فتخون زوجها، وتكون في مأمن من العقاب؛ لغفلة زوجها عن جريمتها، يُمكن أن تتمادى في الجرأة، فتعاشر أكثر من رجل، فتكون مرتعًا موبوءًا للزناة.

هـ- الزوج الزاني الخائن قد يكون وسيطًا، لنقل الأمراض الفتّاكة، إلى زوجته العفيفة البريئة، وإلى الجنين الذي في بطنها؛ وكذلك الزوجة الزانية الخائنة قد تكون وسيطًا، لنقل الأمراض الفتّاكة، إلى زوجها العفيف البريء، وإلى جنينها(١).

قال سيّد قطب، وهو ممّن يرى الرجم على رأي الجمهور: «فنرى أنّ عقوبة البكر هي الجلد، وعقوبة المحصَن هي الرجم. ذلك أنّ الذي سبق له

---

(١) انظر: الأمراض الجنسيّة أسبابها وعلاجها: ١١٣-٤١٨.

الوطء، في نكاح صحيح، وهو مسلم حرّ بالغ، قد عرف الطريق الصحيح النظيف وجرّبه، فعدوله عنه إلى الزنى يشي بفساد فطرته وانحرافها، فهو جدير بتشديد العقوبة، بخلاف البكر الغُفْل الغِرّ، الذي قد يندفع تحت ضغط الميل وهو غرير.. وهناك فارق آخر في طبيعة الفعل. فالمحصَن ذو تجربة فيه تجعله يتذوّقه، ويستجيب له بدرجة أعمق، ممّا يتذوّقه البكر. فهو حريّ بعقوبة كذلك أشدّ»[1].

وقال ابن عثيمين: «فالزنى فاحشة؛ لأنّه يُفسد الأخلاق، ويُفسد الأنساب، ويُوجِد الأمراض. ومصداق هذا ما ظهر في الآونة الأخيرة، من المرض الخبيث الذي هو "فقد المناعة"، ويُسمّى بـ"الإيدز". هذا سببه الزنى، أو أكبر أسبابه الزنى. ولهذا سمّاه الله فاحشة، وساء سبيلًا. لا يُمكن أن يكون سبيلًا للمسلمين أبدًا؛ لأنّه طريق فاسد مُردٍ مُهلك»[2].

ويغفل الطاعنون – أو يتغافلون – عن أنّ تنفيذ عقوبة الزنى: لا يكون بالأقاويل والأكاذيب والافتراءات، بل لا بدّ من شهادة أربعة رجال عدول، يشهدون شهادة مفصّلة، لما رأوه من كيفيّة الزنى، وصفات الزاني، وصفات الزانية، ومكان الجريمة، وزمانها؛ خشية الاشتباه بغيرهما.

فإن وقعت شهادة مفصّلة بذلك كلّه، فإنّ هذا يدلّ على الاستهتار بالزنى، أو المجاهرة بالفاحشة، وإلّا، فلو كان الزانيان قد احتاطا، وأغلقا عليهما باب الدار، أو باب الغرفة، بإحكام، لما استطاع الشهود الأربعة رؤية التفصيلات كلّها.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٤٨٧.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمّد بن صالح العثيمين: ٧/٢٩٤.

والسكوت عن معاقبة المستهترين والمجاهرين يؤدّي إلى أن يتجرّأ من سواهم، فتكثر الفواحش، حتّى تُمسي حال المنسوبين إلى الإسلام، كحال أعداء الإسلام، الذين لا يبالون بانتشار الفواحش، في ديارهم، ونواديهم، ومعابدهم، وطرقاتهم.

قال سيّد قطب: «لذلك يطلب شهادة أربعة عدول يُقرّون برؤية الفعل، أو اعترافًا لا شبهة في صحّته. وقد يُظَنّ أنّ العقوبة إذن وهميّة لا تردع أحدًا، لأنّها غير قابلة للتطبيق. ولكنّ الإسلام، كما ذكرنا، لا يُقيم بناءه على العقوبة، بل على الوقاية من الأسباب الدافعة إلى الجريمة؛ وعلى تهذيب النفوس، وتطهير الضمائر؛ وعلى الحسّاسيّة التي يُثيرها في القلوب، فتتحرّج من الإقدام على جريمة تقطع ما بين فاعلها وبين الجماعة المسلمة من وشيجة. ولا يعاقب إلّا المتبجّحين بالجريمة، الذين يرتكبونها بطريقة فاضحة مستهترة، فيراها الشهود؛ أو الذين يرغبون في التطهّر بإقامة الحدّ عليهم...»(١).

فإذا كنت – أيّها الطاعن – تطعن في الإسلام؛ بسبب فرضه عقوبة على الزناة، فاستمتع، وأنت تنظر إلى زوجتك، وأختك، وابنتك، وهنّ يزنين، ويُنشئن أجيالًا من الزناة والزواني، وأبناء الزنى، وبنات الزنى!!!

وإيّاك أن تغضب؛ بسبب أفعالهنّ، وإيّاك أن تسارع إلى ضربهنّ، أو انتهارهنّ، بل الزم الهدوء، وسهّل أمر دخول الزناة، إلى بيتك؛ لتُثبت للناس أنّك إنسان مثاليّ، مثقّف، متفتّح، متحرّر، متنوّر، تعرف قيمة حقوق الإنسان، ومنها حقوق زوجتك، وأختك، وابنتك، في معاشرة الزناة!!!

إنّ إنكار القلب واللسان ليس رادعًا كافيًا؛ للقضاء على هذا الوباء؛ بل

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٤٩٠.

لا بدّ من إقامة الحدّ الشرعيّ، إقامة صحيحة؛ فإنّها كفيلة بمُداواة النفس الأمّارة بالسوء والفحش، وتخليصها، من الإدمان، والاستهتار، وتوجيهها نحو الطريق الشرعيّ (الزواج)؛ لإشباع الرغبة الجنسيّة؛ وإلّا، فإنّ الزنى سينتشر في البيوت والطرقات والنوادي والأسواق، انتشار النار في الهشيم!!!

❁ عقوبة الجلد في جريمة القذف:

وأمّا عقوبة القذف، فليست قتلًا لحرّيّة الرأي، وحرّيّة التعبير، بل هي ردع للتطاول على الأعراض بمقالة السوء. ولك أن تتخيّل أيّها الطاعن فداحة القذف، حين تسمع القاذف يتّهم أمّك، وعمّتك، وخالتك، وزوجتك، وأختك، وابنتك، وابنة عمّك، وابنة خالك، وابنة عمّتك، وابنة خالتك، وابنة أخيك، وابنة أختك، بارتكاب الفاحشة، وينشر ذلك، في كلّ نادٍ؛ فهل ترى - في قذفه لهنّ - حقًّا من حقوقه، في إبداء الرأي؟!!!

قال سيّد قطب: «إنّ ترك الألسنة تُلقي التُّهَم على المحصنات، وهنّ العفيفات الحرائر، ثيّبات أو أبكارًا، بدون دليل قاطع، يترك المجال فسيحًا لكلّ من شاء أن يقذف بريئة أو بريئًا، بتلك التهمة النكراء؛ ثمّ يمضي آمنًا! فتُصبح الجماعة وتُمسي، وإذا أعراضها مجرَّحة، وسمعتها ملوَّثة، وإذا كلّ فرد فيها متّهَم، أو مهدَّد بالاتّهام؛ وإذا كلّ زوج فيها شاكّ في زوجه، وكلّ رجل فيها شاكّ في أصله، وكلّ بيت فيها مهدَّد بالانهيار. وهي حالة من الشكّ والقلق والريبة، لا تُطاق. ذلك إلى أنّ اطّراد سماع التُّهَم يُوحي إلى النفوس المتحرّجة من ارتكاب الفعلة أنّ جوّ الجماعة كلّه مُلوَّث، وأنّ الفعلة فيها شائعة؛ فيُقدم عليها من كان يتحرّج منها، وتهون في حسّه بشاعتها، بكثرة تردادها، وشعوره بأنّ كثيرين غيره يأتونها! ومن ثمّ لا تُجدي عقوبة الزنى في منع وقوعه؛ والجماعة تُمسي وتُصبح، وهي تتنفّس في ذلك الجوّ الملوَّث الموحي بارتكاب الفحشاء.

لهذا، وصيانة للأعراض من التهجُّم، وحماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التي تصبّ عليهم: شدّد القرآن الكريم في عقوبة القذف، فجعلها قريبة من عقوبة الزنى، ثمانين جلدة، مع إسقاط الشهادة، والوصم بالفسق. والعقوبة الأُولى جسديّة، والثانية أدبيّة في وسط الجماعة؛ ويكفي أن يُهدَر قول القاذف، فلا يؤخَذ له بشهادة، وأن يسقط اعتباره بين الناس، ويمشي بينهم متّهَمًا، لا يوثَق له بكلام! والثالثة دينيّة، فهو منحرف عن الإيمان خارج عن طريقه المستقيم. ذلك إلّا أن يأتي القاذف بأربعة يشهدون برؤية الفعل، أو بثلاثة معه، إن كان قد رآه؛ فيكون قوله إذن صحيحًا، ويوقَع حدّ الزنى على صاحب الفعلة. والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محقَّقة، كما تخسر بشيوع الاتّهام والترخّص فيه، وعدم التحرّج من الإذاعة به، وتحريض الكثيرين من المتحرّجين، على ارتكاب الفعلة التي كانوا يستقذرونها، ويظنّونها ممنوعة في الجماعة، أو نادرة. وذلك فوق الآلام الفظيعة، التي تُصيب الحرائر الشريفات، والأحرار الشرفاء؛ وفوق الآثار التي تترتّب عليها في حياة الناس، وطمأنينة البيوت»[1].

❁ عقوبة قطع اليد في جريمة السرقة:

وأمّا قطع يد السارق، فإنّها عقوبة رادعة كلّ الردع، عن جريمة السرقة، وهي كفيلة - لو طُبّقت، التطبيق الصحيح - بالقضاء على السرقة؛ فليس للحبس من قوّة الردع ما للقطع. وقوّة الردع في القطع مناسبة لعظم جريمة السرقة، ومناسبة لخطرها في المجتمع.

ولك أن تتخيّل ذلك، بعد أن تكسب مالًا بشقّ الأنفس، وتذهب إلى

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٤٩٠-٢٤٩١.

السوق؛ لتشتري الطعام لك ولزوجتك وأطفالك؛ فيعدو عليك سارق، فيسلبك ما كسبت في يومك هذا، فتعود إليهم في المساء، خاويًا، خاليًا، خائبًا؛ فتبيتون ليلتكم جياعًا.

ثمّ يجد السارق أنّه في مأمن من العقاب، فبدلًا من أن يعمل كما تعمل أنت، يتّكل على سرقة جهودك، وجهود أمثالك، فيقتدي به آخرون، فيكثر اللصوص، ويسطون على البيوت، وتقوى جرأتهم، فربّما آذوا المسروق، في جسده، ليسرقوا منه ماله، وربّما سرقوا بعض أطفاله.

فليس عقاب اللصوص - بقطع أيديهم - وحشيّة، تُنسَب إلى الإسلام، ولا سيّما إذا علمنا أنّ الإسلام فرضَ الزكاة على المستطيعين، لتُصرَف على المحتاجين، من الفقراء، والمساكين، والغارمين، وغيرهم.

والذي يأخذ من مال غيره - وهو جاهل، أو غافل، أو مُكرَه، أو مضطرّ، أو جائع، لا يقوى على الكسب - لا تُقطَع يده؛ بل الذي تُقطَع يده هو من اتّخذ السرقة حرفة، وهو قادر، على الكسب الحلال، ولم يكن مضطرًّا، إلى السرقة، أو مكرَهًا عليها.

قال سيّد قطب: «إنّ المجتمع المسلم يوفّر لأهل دار الإسلام - على اختلاف عقائدهم - ما يدفع خاطر السرقة عن كلّ نفس سويّة.. إنّه يوفّر لهم ضمانات العيش والكفاية. وضمانات التربية والتقويم. وضمانات العدالة في التوزيع. وفي الوقت ذاته يجعل كلّ ملكيّة فرديّة فيه تنبت من حلال؛ ويجعل الملكيّة الفرديّة وظيفة اجتماعيّة، تنفع المجتمع ولا تؤذيه.. ومن أجل هذا كلّه يدفع خاطر السرقة عن كلّ نفس سويّة.. فمن حقّه إذن أن يشدّد في عقوبة السرقة، والاعتداء على الملكيّة الفرديّة، والاعتداء على أمن الجماعة.. ومع تشديده، فهو يدرأ الحدّ بالشبهة؛ ويوفّر الضمانات كاملة للمتّهَم؛ حتّى

لا يؤخَذ بغير الدليل الثابت.. ولعلّه من المناسب أن نفصّل شيئًا في هذا الإجمال.. إنّ النظام الإسلاميّ كلٌّ متكاملٌ، فلا تُفهَم حكمة الجزئيّات التشريعيّة فيه حقّ فهمها، إلّا أن يُنظَر في طبيعة النظام وأصوله ومبادئه وضماناته. كذلك لا تصلح هذه الجزئيّات فيه للتطبيق، إلّا أن يؤخَذ النظام كاملًا؛ ويُعمَل به جملة. أمّا الاجتزاء بحكم من أحكام الإسلام، أو مبدإ من مبادئه، في ظلّ نظام ليس كلّه إسلاميًّا، فلا جدوى له؛ ولا يُعدّ الجزء المقتطع منه تطبيقًا للإسلام؛ لأنّ الإسلام ليس أجزاء وتفاريق. الإسلام هو هذا النظام المتكامل الذي يشمل تطبيقه كلّ جوانب الحياة.. هذا بصفة عامّة. أمّا بالنسبة لموضوع السرقة، فالأمر لا يختلف.. إنّ الإسلام يبدأ بتقرير حقّ كلّ فرد، في المجتمع المسلم في دار الإسلام، في الحياة. وحقّه في كلّ الوسائل الضروريّة لحفظ الحياة.. من حقّ كلّ فرد أن يأكل وأن يشرب وأن يلبس وأن يكون له بيت يُكنّه ويؤويه، ويجد فيه السكن والراحة.. من حقّ كلّ فرد على الجماعة – وعلى الدولة النائبة عن الجماعة – أن يحصل على هذه الضروريّات.. أوّلًا عن طريق العمل – ما دام قادرًا على العمل – وعلى الجماعة – والدولة النائبة عن الجماعة – أن تعلّمه كيف يعمل، وأن تيسّر له العمل، وأداة العمل.. فإذا تعطّل؛ لعدم وجود العمل، أو أداته، أو لعدم قدرته على العمل، جزئيًّا أو كلّيًّا، وقتيًّا أو دائمًا، أو إذا كان كسبه من عمله لا يكفي لضروريّاته، فله الحقّ في استكمال هذه الضروريّات من عدّة وجوه: أوّلًا من النفقة التي تُفرَض له شرعًا على القادرين في أسرته. وثانيًا على القادرين من أهل محلّته. وثالثًا من بيت مال المسلمين من حقّه المفروض له في الزكاة. فإذا لم تكفِ الزكاة فرضت الدولة المسلمة – المنفِّذة لشريعة الإسلام كلّها في دار الإسلام – ما يحقّق الكفاية للمحرومين في مال الواجدين؛ بحيث لا تتجاوز هذه الحدود، ولا تتوسّع في غير

ضرورة. ولا تجور على الملكيّة الفرديّة الناشئة من حلال.. والإسلام كذلك يتشدّد في تحديد وسائل جمع المال؛ فلا تقوم الملكيّة الفرديّة فيه إلّا من حلال.. ومن ثمّ لا تُثير الملكيّة الفرديّة في المجتمع المسلم أحقاد الذين لا يملكون؛ ولا تُثير أطماعهم في سلب ما في أيدي الآخرين. وبخاصّة أنّ النظام يكفل لهم الكفاية؛ ولا يدعهم محرومين. والإسلام يربّي ضمائر الناس وأخلاقهم؛ فيجعل تفكيرهم يتّجه إلى العمل والكسب عن طريقه؛ لا إلى السرقة والكسب عن طريقها.. فإذا لم يُوجَد العمل، أو لم يكفِ؛ لتوفير ضروريّاتهم، أعطاهم حقّهم بالوسائل النظيفة الكريمة.. وإذن، فلماذا يسرق السارق في ظلّ هذا النظام؟ إنّه لا يسرق لسدّ حاجة. إنّما يسرق للطمع في الثراء من غير طريق العمل. والثراء لا يُطلَب من هذا الوجه الذي يروّع الجماعة المسلمة، في دار الإسلام، ويحرمها الطمأنينة التي من حقّها أن تستمتع بها. ويحرم أصحاب المال الحلال أن يطمئنّوا على مالِهم الحلال. وإنّه لمن حقّ كلّ فرد في مثل هذا المجتمع - كَسَبَ ماله من حلال، لا من ربا، ولا من غشّ، ولا من احتكار، ولا من أكل أجور العمّال، ثمّ أخرج زكاته، وقدّم ما قد تحتاج إليه الجماعة من بعد الزكاة - من حقّ كلّ فرد في مثل هذا النظام أن يأمن على ماله الخاصّ، وألّا يُباح هذا المال للسرقات أو لغير السرقات. فإذا سرق السارق بعد ذلك كلّه.. إذا سرق وهو مكفيّ الحاجة، متبيّن حرمة الجريمة، غير محتاج لسلب ما في أيدي الآخرين، لأنّ الآخرين لم يغصبوا أموالهم، ولم يجمعوها من حرام.. إذا سرق في مثل هذه الأحوال، فإنّه لا يسرق وله عذر. ولا ينبغي لأحد أن يرأف به، متى ثبتت عليه الجريمة. فأمّا حين تُوجَد شبهة من حاجة أو غيرها، فالمبدأ العامّ في الإسلام هو درء الحدود بالشبهات... وهكذا ينبغي أن تُفهَم حدود الإسلام، في ظلّ نظامه المتكامل؛ الذي يضع الضمانات للجميع، لا لطبقة، على حساب طبقة.

والذي يتّخذ أسباب الوقاية، قبل أن يتّخذ أسباب العقوبة. والذي لا يُعاقِب إلّا المعتدين، بلا مبرِّر للاعتداء»[١].

وقال محمّد قطب: «يقرّر الإسلام عقوبات رادعة، قد تبدو قاسية، فظّة، لِمن يأخذها أخذًا سطحيًّا، بلا تمعُّن، ولا تفكير؛ ولكنّه لا يطبِّقها أبدًا، حتّى يضمن أوّلًا أنّ الفرد - الذي ارتكب الجريمة - قد ارتكبها، دون مُبرِّر، ولا شبهة اضطرار. فهو يقرِّر قطع يد السارق، ولكنّه لا يقطعها أبدًا، وهناك شبهة بأنّ السرقة نشأت من الجوع...»[٢].

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٨٨٢-٨٨٣.

(٢) شبهات حول الإسلام: ١٥٢-١٥٣.

المبدأ العاشر
الموازنة العادلة

يعتمد هذا المبدأ على مبدإ (تكافؤ الفُرَص)[1]، ويعني أن يُعامَل المحامي والمدّعي معاملة متساوية، تضمن حصول كلّ واحد منهما على فُرَص متساوية، في (السلاح القانونيّ)، فكما يحصل المدّعي على فرصة كافية ليطرح ادّعاءه، ويأتي بالأدلّة على ما يدّعيه، فكذلك يحقّ للمحامي أن ينال فرصة كافية؛ لإثبات براءة المتّهَم من التُّهَم الموجَّهة إليه.

ومن هذا المبدإ يُمكن اشتقاق مبدإ (الموازنة العادلة)، بمعنى أن يقوم المحامي بالموازنة بين سيرة المتّهَم، وسيرة المدّعي؛ ليطّلع القاضي على الفرق بينهما، فيعلم من يستحقّ الإدانة منهما.

فماذا لو تقدّم إلى القاضي العادل ثلاثة رجال موصوفين بالكذب والظلم والفجور والخيانة والخبث، يسألونه أن يُدين رجلًا موصوفًا بالصدق والعدل والعفّة والأمانة والطيبة؟!!!

ماذا لو كان هؤلاء الثلاثة يتّهمون الرجل الصالح بأضداد صفاته، التي هي في الحقيقة صفاتهم السيّئة؟!!!

هل يصحّ أن يتّهم المجنونُ العاقلَ بالجنون، ويتّهم الكاذبُ الصادقَ بالكذب، ويتّهم الظالمُ العادلَ بالظلم، ويتّهم الفاجرُ العفيفَ بالفجور، ويتّهم الخائنُ الأمينَ بالخيانة، ويتّهم الخبيثُ الطيّبَ بالخبث؟!!!

لقد حدثت أمثال هذه الادّعاءات الأثيمة المكذوبة المقلوبة، في سِيَر

---

(١) انظر: دليل المحاكمة العادلة: ٧٤، ١٠٥، ١٠٨-١١٩.

الأنبياء عليهم السلام، وفي سير الصالحين، وكان الطاعنون فيهم من شرار الناس، دائمًا.

فقد أُرسِل نوح وهود وصالح عليهم السلام، إلى أقوامهم ناصحين، فاتّهمهم أقوامهم بالكذب والضلالة والسفاهة!!!

وهذا إبراهيم عليه السلام أراد به قومه كيدًا، وهمّوا بتحريقه، وكذّبوه، بعد أن غلبهم بالحجّة البيّنة!!!

وهذا يوسف عليه السلام راودته امرأة العزيز، عن نفسها، فاستعصم، فلمّا حضر سيّدها، ادّعت أنّ يوسف هو الذي أراد بها سوءًا، فمكث في السجن بضع سنين، وهو العفيف الأمين، وأُدين بما هو بريء منه!!!

واتّهم فرعونُ وأتباعُه موسى عليه السلام بالسحر والكذب؛ واتّهم كفّارُ اليهود عيسى عليه السلام بالسحر والكذب، واتّهموا أمّه مريم عليها السلام بالزنى، وهي الصدّيقة العفيفة المطهَّرة المصطفاة!!!

وعرفت قريش محمّدًا صلى الله عليه وسلم، بالصدق، والأمانة، والخُلُق العظيم، وعرفته أمّيًّا، لا يقرأ، ولا يكتب؛ فلمّا دعاهم إلى الله سبحانه وتعالى، اتّهموه بالشعر والسحر والجنون والكذب والكهانة، وبتلقّي العلم عن بعض البشر!!!

ففي المحاكمة العلميّة لا يكتفي المحامي، بالدفاع عن المتّهَم، بل له الحقّ في محاكمة المدّعي، أي: الانتقال من حالة الدفاع، إلى حالة الهجوم؛ فإنّ خير وسيلة للدفاع هي الهجوم، إذا كان المقام مناسبًا لذلك.

ولذلك لا بدّ في محاكمة الإسلام - وهي محاكمة علميّة، بلا ريب - من الموازنة بين (سيرة الإسلام)، وسِيَر المناهج المخالفة، وأبرزها ثلاثة مناهج، يُنسَب إليها أبرز الطاعنين، هي: اللادينيّة، واليهوديّة، والمسيحيّة.

ويجب التنبيه على أنّ سيرة المنسوبين إلى الإسلام لا تمثّل سيرة الإسلام، ولا سيّما الذين يُنسَبون إليه، نسبة ظاهريّة، أو نسبة وراثيّة، أو نسبة مذهبيّة،

أو نسبة عصريّة؛ لأنّهم بشرٌ، يُصيبون، ويُخطئون، وأخطاؤهم حاصلة؛ بسبب مخالفتهم لأحكام الإسلام، فلا يجوز أن تُنسَب إليه.

فالمصدر الوحيد الذي نعتمد عليه في عرض (سيرة الإسلام) هو الصورة التنزيليّة، دون ما سواها، من الصور المنسوبة إلى الإسلام.

أمّا الصورتان التأليفيّة والتطبيقيّة، الموافقتان للصورة التنزيليّة، فليستا بمصدرين أصيلين، وإنّما هما مفتاحان لفهم الصورة التنزيليّة، لا أكثر.

فمن باب أولى، لا يُمكن الاعتماد في عرض سيرة الإسلام، على أيّ عنصر مستمدّ، من أيّ صورة مخالفة للصورة التنزيليّة، سواء أكانت من الصور التأليفيّة، أم كانت من الصور التطبيقيّة؛ وكذلك لا يُمكن الاعتماد على أيّ عنصر مستمدّ من أيّ صورة اختلافيّة، غير ثابتة، بالقطع المُطلَق، سواء أكانت من الصور التأليفيّة، أم كانت من الصور التطبيقيّة.

وكذلك سِيَر المناهج الثلاثة: (اللادينيّة واليهوديّة والمسيحيّة)، سيكون بيانُها بالاعتماد على المصادر، والمبادئ، التي يعترف بها أصحابُ تلك المناهج.

فالمنهج اللادينيّ قائم على مبدإ (إنكار هداية الخالق)، والفرع الإلحاديّ منه قائم صراحة على مبدإ (إنكار وجود الخالق)، أصلًا. وبالاعتماد على هذين المبدأين ستكون محاكمة (المنهج اللادينيّ)، بفروعه الثلاثة: (الفرع الإلحاديّ)، و(الفرع اللاأدريّ)، و(الفرع الرُّبوبيّ).

والمنهج اليهوديّ قائم على تقديس (العهد القديم)، والاستمداد منه؛ ولذلك ستكون محاكمته، بالاعتماد على بيان ما في نصوص (العهد القديم)، من خرافات، وأساطير، وأكاذيب، وفظائع.

والمنهج المسيحيّ قائم على تقديس العهد القديم، والعهد الجديد؛ ولذلك ستكون محاكمته، بعرض أبرز العقائد المسيحيّة، المستمدّة من هذين العهدين.

الإسلام هو الدين الأوّل والأخير والوحيد المرضيّ، عند الله ﷻ. أمّا ما عداه من الأديان، فهي أديان باطلة، بلا ريب.

والإسلام عبارة عن خضوع المخلوق الضعيف الفقير الصغير، لخالقه القويّ الغنيّ الكبير.

وهذا الخضوع ليس من مختصّات الإنسان، بل إنّ الإنسان في الحقيقة هو أقلّ المخلوقات خضوعًا للخالق ﷻ.

فكلّ مخلوقات الله ﷻ: مُسلِمة له، خاضعة له، منقادة لأمره.

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(١).

فالشمس والقمر والنجوم والكواكب والجبال والأودية والبحار والأنهار والرياح والأشجار والثمار والزروع والملائكة والدوابّ والطيور والحشرات، كلّها لله ﷻ: مُسلِمة خاضعة، منقادة طائعة، مُسبِّحة حامدة، مُصلِّية ساجدة.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(٣).

---

(١) آل عمران: ٨٣.

(٢) الرعد: ١٥.

(٣) النور: ٤١.

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(١).

أمّا الناس، فمنهم المسلم، ومنهم غير المسلم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(٢).

والجنّ كالإنس في هذا الأمر؛ فإنّهم انقسموا على مُسلِمين وقاسطين. قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا. وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾(٣).

فإذا نظرنا في إسلام الإنسان رأينا أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي ارتضاه الله ﷻ لعباده؛ ولذلك كان الرسل كلّهم يدعون - في الحقيقة - إلى دين واحد، هو الإسلام.

فنوح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وسليمان، وعيسى عليهم السلام، وأتباعهم - كالسحرة بعد أن آمنوا، وملكة سبإ بعد أن آمنت، والحواريّين - كلّهم كانوا مسلمين.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ. فَإِنْ

---

(١) الإسراء: ٤٤.

(٢) الحجّ: ١٨.

(٣) الجنّ: ١٤-١٥.

تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ. قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ. أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى

---

(١) يونس: ٧١-٧٢.

قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ. وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ. وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ. قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ. قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[5].

---

(١) البقرة: ١٢٧-١٤٠.

(٢) الذاريات: ٣٥-٣٦.

(٣) يوسف: ١٠١.

(٤) يونس: ٨٣-٨٤.

(٥) الأعراف: ١١٩-١٢٦.

وقال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(٥).

فلم يدعُ موسى عليه السلام فرعونَ، والمصريّين، وبني إسرائيل، إلى اليهوديّة؛ ولا دعا عيسى عليه السلام بني إسرائيل، إلى المسيحيّة؛ بل الأصل هو الدعوة إلى

(١) يونس: ٩٠.

(٢) المائدة: ٤٤.

(٣) النمل: ٤٤.

(٤) آل عمران: ٥٢.

(٥) المائدة: ١١١.

الإسلام؛ وما اليهوديّة والمسيحيّة إلّا صورتان محرَّفتان، عن الإسلام، الذي دعا إليه موسى وعيسى عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ. فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(٢).

والإسلام هو الدين الوحيد، الذي يُمكِن أن يُنقِذ الناس، من جنون الإلحاد، وولاية الشيطان، وجرائم الإنسان؛ لأنّ كتابه المحفوظ من التحريف قد اشتمل على ما يقمع الإلحاد، ويهزم الشيطان، ويُنقِذ الإنسان.

فلو أقبل الناس، كلّ الناس، على الإسلام؛ لينتفعوا بحقائقه الانتفاع

(١) آل عمران: ٦٤-٦٨.

(٢) آل عمران: ١٩-٢٠.

الأمثل، لامتلأت قلوبُهم بالإيمان، وانتشر بينهم الحقّ والخير والسلام والأمن والبركة والتعاون والتآخي والتسالُم والتراحم والتعاطف والتلاطف والتحابّ والتسامح والصدق والعدل والأمانة والبرّ والتقوى والورع والإخلاص والإحسان والإيثار والتواضع والكرم والعفّة، وسائر الفضائل.

ولو عمل الناس، كلّ الناس، بأحكام الإسلام، لخلت الأرض من جرائم القتل والزنى، وسائر الفواحش، ومن الربا والسرقة والغشّ، ومن المخدِّرات والخمور، ومن الاستعباد والاضطهاد والحروب والمجاعات، والعدوان والتباغض والتناحر والباطل والشرّ والإرهاب والقحط والتعادي والتدابر والقسوة والكذب والظلم والخيانة والفجور والجشع والحسد والغِيبة والنميمة والإساءة والأنانيّة والاستكبار والبخل، وسائر الرذائل.

إنّ هذا الكلام ليس ادّعاء، لا مصداق له، فالقرآن الكريم موجود، وهو شاهد صادق على عظمة الإسلام، ويكفي أن تقرأه قراءة باحث عن الحقيقة، لتجد أنّ الإسلام يأمر بالمعروف، بكلّ صوره، وينهى عن المنكر، بكلّ صوره.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

(٢) التوبة: ٧١.

سنتخيّل أنّ الناس – كلّ الناس – قد تحوّلوا إلى الحالة اللادينيّة، بدرجاتها الثلاث: الإلحاديّة، واللاأدريّة، والرُّبوبيّة.

إنّ التفاوت – في هذه الدرجات الثلاث – لن يغيّر الحقيقة الواقعة، وهي أنّ الإنسان اللادينيّ – مهما كانت درجته في الحالة اللادينيّة – لن يطبّق أحكام الخالق؛ لأنّه يزعم أنّ هذه الأحكام من مختَرَعات الناس.

ومَثَلُ الإنسان الدينيّ، والإنسان اللادينيّ بدرجاته الثلاث، كمَثَلِ أربعة إخوة، وجدوا أنفسهم – حين بلغوا – في دار عامرة بالطعام والشراب والثياب، وبكلّ ما يحتاج إليه الإنسان للعيش الكريم.

أمّا الأخ الأكبر، فقد قال لهم مرّة: إنّ لنا والدًا، وإن لم نره من قبل، بنى لنا هذه الدار، وملأها بالخيرات، وقد أرسل إلينا رسولًا؛ ليُخبرنا بذلك، ومعه وصايا، من والدنا، إن تمسّكنا بها، كنّا في خير وعافية وأمان، وإن أعرضنا عنها، خسرنا الخير كلّه.

فقال الأخ الثاني: أمّا أنا، فأصدّق أن يكون لنا والد، لأنّنا لم نلد أنفسنا، بأنفسنا، وأصدّق أن يكون هو من بنى لنا هذه الدار، وأعدّ لنا هذه الخيرات، فنحن قطعًا لم نفعل من ذلك شيئًا؛ ولكنّني لا أصدّق أنّه أرسل إلينا رسولًا، وأرسل معه وصايا، يجب أن نلتزم بها؛ بل الرسول كاذب، أو مكذوب عليه، والأحكام ليست من والدنا؛ لأنّه تركنا، وما نشتهي، نحكم أنفسنا، بأنفسنا، فلا محظورات، ولا واجبات.

وقال الأخ الثالث: أمّا أنا، فلا أستطيع أن أقطع بأنّ لنا والدًا، وأنّه هو من بنى لنا هذه الدار، وأعدّ لنا هذه الخيرات، كما لا أستطيع أن أنفي ذلك

نفيًا قاطعًا، فالأمران متساويان عندي، ولا مرجّح لأحدهما، على الآخر؛ ولكنّني أوافق أخي، كلّ الموافقة؛ فالرسول كاذب، أو مكذوب عليه، والوصايا مكذوبة، وليس من حقّ أحد أن يفرض علينا أحكامه.

وقال الأخ الرابع: أمّا أنا، فإنّني أقطع، بيقين - لا يشوبه أدنى شكّ - أنّ فكرة الوالد، وفكرة الوصايا فكرتان مخترَعتان، اخترعهما الرسول، أو من أرسله، وليس ببعيد أن يكون أخونا الأكبر هو من اخترعهما، وادّعى أنّه رأى ذلك الرسول، وتلقّى منه هذه الوصايا.

فالمتأمّل في هذا المثل يجد أنّ الإخوة الثلاثة المنكِرين، بدرجاتهم المتفاوتة: قد أعرضوا عن العمل بتلك الأحكام، واتّهموا الرسول الذي جاء بها، أو من أرسله، بالكذب والاختراع.

وهذا هو شأن الإنسان اللادينيّ، الذي أعرض عن تطبيق الأحكام الدينيّة؛ لأنّها بزعمه من اختراع الناس، فلا قيمة لها.

وإنّما أُصرّ، كلّ الإصرار، على تقييد الإنكار بأنّه زعم، يزعمه الإنسان اللادينيّ، بدرجاته الثلاث؛ لأنّ ثمّة فرقًا كبيرًا، بين ما في باطن الإنسان، وما في ظاهره.

فالإنسان الإلحاديّ يزعم أنّه يُنكِر وجود الخالق إنكارًا قاطعًا، ولكن لا أحد يستطيع الإيقان بأنّ هذا الزعم حقيقة واقعة.

فقد يكون موقنًا بوجود الخالق، ولكنّه يزعم إنكاره؛ ليتهرّب من تبعات الإقرار بوجوده؛ وقد يكون مرجِّحًا لوجوده، أو شاكًّا في وجوده، ولكنّه لا يستطيع أن يقطع؛ وقد يكون مُذبذَبًا، فمرّة يُوقن بوجوده، ومرّة تعرض له شبهات، فيشكّ.

والحقيقة الواقعة شاهدة على أنّ إنكار وجود الخالق، على وجه القطع

واليقين: لا يُمكن أن يصدر، إلّا من سكران، أو مجازف، لا يدري ما يقول، أو غافل لم يطّلع، في حياته، على أيّ دليل، من الأدلّة القطعيّة، الدالّة على وجود الخالق، ولا سيّما دليل العناية، ودليل الاختراع.

قال ابن رشد: «الطريق التي نبّه الكتاب العزيز عليها، ودعا الكلّ من بابها، إذا استُقري الكتاب العزيز، وُجِدت تنحصر في جنسين: أحدهما طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجلها، ولنُسمِّ هذه: دليل العناية. والطريقة الثانية ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات، مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسّيّة والعقل، ولنُسمِّ هذه: دليل الاختراع. فأمّا الطريقة الأُولى، فتنبني على أصلين: أحدهما أنّ جميع الموجودات التي ههنا موافِقة لوجود الإنسان؛ والأصل الثاني أنّ هذه الموافَقة هي ضرورة، من قِبل فاعل قاصد لذلك، مريد؛ إذ ليس يُمكن أن تكون هذه الموافَقة بالاتّفاق. فأمّا كونها موافِقة لوجود الإنسان، فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافَقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان. وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة له، والمكان الذي هو فيه أيضًا، وهو الأرض. وكذلك تظهر أيضًا موافَقة كثير من الحيوان له والنباتات والجماد وجزئيّات كثيرة، مثل الأمطار والأنهار والبحار، وبالجملة الأرض والماء والنار والهواء. وكذلك أيضًا تظهر العناية في أعضاء الإنسان، وأعضاء الحيوان، أعني كونها موافِقة لحياته ووجوده. وبالجملة فمعرفة ذلك - أعني منافع الموجودات - داخلة في هذا الجنس. ولذلك وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامّة أن يفحص عن منافع جميع الموجودات. وأمّا دلالة الاختراع، فيدخل فيها وجود الحيوان كلّه، ووجود النبات ووجود السماوات. وهذه الطريقة تنبني على أصلين موجودين بالقوّة في جميع فِطَر الناس: أحدهما أنّ هذه الموجودات مخترَعة. وهذا معروف بنفسه في الحيوان

والنبات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ الآية[1]. فإنّا نرى أجسامًا جماديّة، ثمّ تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعًا أنّ ههنا مُوجِدًا للحياة ومنعِمًا بها، وهو الله تبارك وتعالى. وأمّا السماوات فنعلم، من قِبل حركاتها التي لا تفتر، أنّها مأمورة بالعناية بما ههنا، ومسخَّرة لنا. والمسخَّر المأمور مخترَع من قِبل غيره، ضرورة. وأمّا الأصل الثاني، فهو أنّ كلّ مخترَع، فله مخترِع. فيصحّ من هذين الأصلين أنّ للموجود فاعلًا مخترِعًا له. وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترَعات. ولذلك كان واجبًا على من أراد معرفة الله حقّ معرفته أن يعرف جواهر الأشياء؛ ليقف على الاختراع الحقيقيّ في جميع الموجودات؛ لأنّ من لم يعرف حقيقة الشيء، لم يعرف حقيقة الاختراع. وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾[2]. وكذلك أيضًا مَن تتبّع معنى الحكمة في موجود، موجود، أعني معرفة السبب الذي من أجله خُلق، والغاية المقصودة به، كان وقوفه على دليل العناية أتمّ»[3].

وقال محمّد الغزاليّ: «هل العالَم خُلق صدفة؟ نشوء حياتنا هذه ودوامها: يقومان على جملة ضخمة، من القوانين الدقيقة، يحكم العقل باستحالة وجودها هكذا جزافًا! فوضع الأرض أمام الشمس، مثلًا... ثمّ على مسافة معيّنة، لو نقصت، بحيث ازداد قربها من الشمس، لاحترقت أنواع الأحياء من نبات وحيوان؛ ولو بعدت المسافة، لعمَّ الجليدُ والصقيعُ وجهَ الأرض، وهلك كذلك

---

(١) الحجّ: ٧٣.

(٢) الأعراف: ١٨٥.

(٣) مناهج الأدلّة: ١٥٠-١٥١.

الزرع والضرع.. أفتظنّ إقامتها في مكانها ذاك؛ لتنعم بحرارة مناسبة، جاء خبط عشواء؟ وحركة المدّ والجزر التي ترتبط بالقمر!! أفما كان من الممكن أن يقترب القمر من أمّه أكثر، فيسحب أمواج المحيطات سحبًا، يغطّي به وجه اليابسة كلّها، ثمّ ينحسر عنها، وقد تلاشى كلّ شيء؟ من الذي أقام القمر على هذا المدى المحدود؛ ليكون مصدر ضوء، لا مصدر هلاك؟ إنّنا على سطح هذه الأرض نستنشق "الأوكسجين"؛ لنحيا به، ونطرد "ثاني أكسيد الكربون" الناشئ من احتراق الطعام في جسومنا. وكان ينبغي أن يستنفد الأحياء - وما أكثرهم - هذا العنصر الثمين في الهواء، فهم لا ينقطعون عن التنفّس أبدًا؛ لكنّ الذي يقع أنّ النبات الأخضر يأخذ "ثاني أكسيد الكربون"، ويُعطي بدله "أكسجين"، وبهذه المعاوضة الغريبة، يبقى التوازن في طبيعة الغلاف الهوائيّ، الذي يحيا في جوفه اللطيف الحيوان والنبات جميعًا!! أفتحسب هذا التوافق حدث من تلقاء نفسه؟! إنّي أحيانًا أسرّح الطرف في زهرة مخطّطة بعشرات الألوان، ألتقطها بأصابع عابثة، من بين مئات الأزهار، الطالعة في إحدى الحدائق.. ثمّ أسأل نفسي: بأيّ ريشة نُسّقت هذه الألوان؟ إنّها ليست ألوان الطيف وحدها. إنّها مزيج رائق ساحر من الألوان التي تبدو هنا محفّفة، وهنا مظلّلة، وهنا مخطَّطة، وهنا منقّطة. وأنظر إلى أسفل، إلى التراب الأعفر، الذي اطّلع على هذه الألوان؛ إنّه بيقين ليس راسم هذه الألوان، ولا موزّع أصباغها. هل الصدفة هي التي أشرفت على ذلك؟ أيّ صدفة؟ إنّ المرء يكون غبيًّا جدًّا، عندما يتصوّر الأمور على هذا النحو... وألوان الزهرة هذه ملاحظة شكليّة ساذجة، بالنسبة إلى ملاحظة قصّة الحياة في أدنى صورها. إنّ إنشاء الحياة في أصغر خليّة يتطلّب نظامًا بالغ الإحكام. ومن الحمق تصوُّر الفوضى قادرة على خلق "جُزيء"، في جسم دودة حقيرة؟ فضلًا عن خلق جهازها الهضميّ، أو

العصبيّ. فما بالك بخلق هذا الإنسان الرائع البنيان، الهائل الكيان. ثمّ ما بالك بخلق ذلكم العالَم الرحب؟؟ لماذا يُطلَب منّي - إذا رأيت ثوبًا مخيّطًا أنيقًا - أن أتصوّر خيطًا قد دخل من تلقاء نفسه، في ثقب إبرة، اشتبكت من تلقاء نفسها، في نسيج الثوب، أو أخذت تعلو وتهبط صانعة الصدر والذيل والوسط والأكمام والأزرار، والفتحات والزركشة والمحاسن، إلخ. إنّ إحالة الأمور على المصادفات ضرب من الدجل العلميّ، يرفضه أولو الألباب.. لنفرض أنّ الآلة الكاتبة في أحد الدواوين، وُجدت بجوارها ورقة، مكتوب عليها اسم "عمر"، ماذا يعني هذا...؟ أحد أمرين: أقربهما إلى البداهة، هو أنّ خبيرًا بالكتابة طبع الاسم على الورقة. والأمر الثاني أنّ حروف الاسم تجمّعت، وترتّبت، وتلاقت، هكذا، جزافًا. إنّ الفرض الأخير معناه من الناحية العلميّة ما يأتي: الابتداء بكتابة العين، أو سقوط حرفها وحده على الورقة، دون وعي، يجوز بنسبة (١) إلى (٢٨)، وهو عدد حروف الهجاء العربيّة. وسقوط حرفي العين والميم يجوز بنسبة (١) إلى (٢٨ × ٢٨)، ونزول الحروف الثلاثة، بعوامل الصدفة المحضة يجوز بنسبة (١) إلى (٢٨ × ٢٨ × ٢٨)، أي: بنسبة (١) إلى (٢١٩٥٢). وليس أغبى فكرًا، ممّن يترك الفرض الوحيد المعقول، ويؤثر عليه فرضًا آخر، لا يُتصوّر وقوعه، إلّا مرّة، بين اثنتين وعشرين ألف مرّة... والصدف حين تخطّ على القرطاس كلمة "عمر"، أقرب إلى الذهن، من تصوُّر الصدف هذه، تخلق قطرة ماء، في المحيطات الغامرة، أو حبّة رمل، في الصحاري الشاسعة.. إنّ العلم بريء من مزاعم الإلحاد، ومضادّ لما يُرسِل من أحكام بلهاء»[1].

---

(١) عقيدة المسلم: ١٦-١٨.

وقال ابن عثيمين: «لأنّ هذا الكون إمّا أن يُحدِث نفسه، وإمّا أن يحدث صدفة، وإمّا أن يُحدِثه خالق، وهو الله ﷻ؛ فكونه يُحدِث نفسه مستحيل؛ لأنّ الشيء لا يخلق نفسه؛ لأنّه قبل وجوده معدوم، فكيف يكون خالقًا. ولا يُمكن أن يُوجَد صدفة؛ لأنّ كلّ حادث لا بدّ له من مُحدِث، ولأنّ وجوده على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف، والارتباط الملتحم، بين الأسباب ومسبَّباتها، وبين الكائنات بعضها مع بعض، يمنع منعًا باتًّا أن يكون وجوده صدفة، إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده، فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوُّره؟ وإذا لم يُمكن أن تُوجِد هذه المخلوقات نفسها بنفسها، ولا تُوجَد صدفة، تعيّن أن يكون لها موجِد، وهو الله ربّ العالمين»(١).

فإذا وجدت عالـمًا كبيرًا، ينتسب إلى أهل الإلحاد، ويقول بقولهم، ولم يكن سكران، ولا غافلًا عن دليل العناية، ودليل الاختراع؛ فاعلم أنّه إمّا أن يكون كاذبًا، وإمّا أن يكون مجنونًا؛ ولكنّه ليس ذلك الجنون المألوف المعروف، الذي يُعذَر صاحبه؛ بل هو جنون أعظم منه، وأخطر.

فالمجنون الإلحاديّ قادر على إعمال عقله؛ للنظر في أدلّة (وجود الخالق)، لكنّه يأبى الإفادة من عقله، في ذلك؛ فيكون كمن يُنكر وجود الشمس، بعد أن يُغمض عينيه، ثمّ يأبى فتحهما، حتّى لا يرى الشمس الطالعة الساطعة!!!

ولذلك يُعرض المجنون الإلحاديّ، كلّ الإعراض، عن آلاف الأدلّة القطعيّة الدالّة على (وجود الخالق)، متظاهرًا بأنّه يعتمد على عقله، في رفض تلك الأدلّة، موهِمًا غيره بأنّه لا يرى تلك الأدلّة كافية للاعتقاد بوجود الخالق.

والسبب الأكبر لإعراضه عن تلك الأدلّة هو (الكِبْر)، وهو أخطر صور

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمّد بن صالح العثيمين: ٢٦/٢٩.

الهوى؛ فإنّه يمنع صاحبه من الإقرار بالحقّ، حتّى حين يكون الحقّ واضحًا، كلّ الوضوح، لا خلاف فيه، بين العقلاء؛ فيكون بإعراضه من المتناقضين؛ لأنّه يُعمِل عقله فيما يوافق هواه، ويعطّل عقله فيما يخالف هواه!!!

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وقد كان إبليس اللعين أوّل المتناقضين؛ حين أبى، واستكبر، وعصى خالقه العظيم، ثمّ أقسم بعزّة خالقه، الذي عصاه!!! وهذا هو الجنون الذي لا يُعذَر صاحبه؛ لأنّه جنون يختاره المجنون اختيارًا، حين يتّبع هواه!!!

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(٢).

أجل، إنّه جنون العالِم؛ لكنّه المعاند، الرافض لما يعلم؛ لأنّ هواه على خلاف ما يعلم. وكان فرعون واحدًا من أكابر المجانين المستكبرين.

---

(١) غافر: ٥٦-٥٧.

(٢) ص: ٧١-٨٣.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾(١).

فجنون الإلحاد لا يُصاب به إلّا أكابر المجرمين، الذين يعلمون أنّ وجود الخالق هو الحقيقة الكبرى، في الوجود؛ ولكنّ الإقرار بهذه الحقيقة يعني التغيير، الذي يأبون الخضوع له، كلّ الإباء؛ فيحاولون بكلّ وسائلهم القذرة تحويل الناس كلّهم، إلى دين جديد، هو دين الإلحاد.

والمجنون الإلحاديّ يعطّل عقله، كلّ التعطيل، حين يسأله المؤمنون عن (الخالق)، الذي خلق (ملايين الأسباب)، التي لولا اجتماعها، بتقدير حكيم، وميزان قويم، لما ظهر ذلك (المجنون الإلحاديّ)، بصورته الإنسانيّة المعروفة!!!

إنّ العلم التجريبيّ الحديث، الذي تتقبّل معطياته - أيّها المجنون - يقول: إنّك كنتَ - في وقت من الأوقات - جنينًا في بطن أمّك؛ ولكنّك - قبل ذلك الوقت - كنت خليّتين منفصلتين متباعدتين، هما:

أ- حيمن في جسد أبيك، خرج مع ملايين الحيامن، ودخل في جسد أمّك.

ب- بويضة في جسد أمّك، دخل فيها أحدُ حيامن أبيك؛ فأخصبها.

فكنتَ في بطن أمّك بويضة مُخصَبة واحدة؛ ثمّ نَمَتِ البويضةُ بالانقسام؛ فكنتَ جنينًا في بطن أمّك؛ ثمّ خرجتَ بعد نحو تسعة أشهر، من بطن أمّك وليدًا رضيعًا؛ ثمّ كبرتَ شيئًا، فشيئًا، حتّى صرتَ واحدًا من مجانين الإلحاد!!!

---

(١) القصص: ٣٨-٤٠.

فهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي يُوجَد حيمن أبيك؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي تُوجَد بويضة أمّك؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي يكون حيمن أبيك، بصفات وراثيّة خاصّة؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي تكون بويضة أمّك، بصفات وراثيّة خاصّة؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي تدخل حيامنُ أبيك في جسد أمّك؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي يسبق الحيمنُ المخصِبُ سائرَ الحيامن؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي تسبق البويضةُ المخصَبةُ سائرَ البويضات؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي يُخصب حيمنُ أبيك بويضةَ أمّك؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي تنقسم البويضة المخصَبة، وتنمو؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي تتحوّل البويضة المخصَبة، إلى جنين؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي يعيش ذلك الجنين، في بطن أمّه؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي يخرج ذلك الجنين، من بطن أمّه؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي يعيش ذلك المولود، خارج بطن أمّه؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي ينمو ذلك المولود، حتّى يبلغ مرحلة الشباب؟!!!

وهل تعلم شيئًا عن الأسباب المادّيّة، والأسباب غير المادّيّة، التي كان يجب أن تكون موجودة؛ لكي تُبصر، وتسمع، وتلمس، وتتذوّق، وتشمّ، وتتنفّس، وتأكل، وتشرب، وتبلع، وتهضم، وتلبس، وتخلع، وتنام، وتقوم، وتقعد، وتقف، وتجلس، وتمشي، وتهرول، وتركض، وتقفز، وتسبح، وتلعب، وتتكلّم، وتضحك، وتبكي، وتصرخ، وتفكّر، وتعمل، وتحمل، وتصنع، وتزرع، وتجمع، وتُمسك، وترمي، وتأخذ، وتُعطي، وتطرق، وتضرب، وتكتب، وتقرأ، وتحفظ، وتتذكّر، وتجامع، وتغتسل، وتبول، وتتغوّط؟!!!

فإن كنتَ لا تدري، فتلك مُصيبةٌ،   وإن كنتَ تدري، فالمُصيبةُ أعظَمُ

أليس عجيبًا - أيّها المجنون - أن تُنكر وجود (الخالق العظيم)، الذي أوجد الأسباب اللازمة لوجودك؛ وفي الوقت نفسه تُقرّ بوجودك الناقص، الذي ما كان له أن يكون، لو انعدم سبب واحد، من تلك الأسباب؟!!!

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ

يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

أليس تعطيلًا لعقلك أن تصرفه، عن النظر في (المصنوعات الطبيعيّة)، الدالّة دلالة قطعيّة، على (وجود الخالق)؟!!!

انظر في صنع الهواء، والماء، والمعادن، والوقود، والحبوب، والخضار، والأزهار، والثمار، والخشب، والقطن، والحرير، والزيت، والدهن، والملح، والعسل، واللبن، والبيض، واللحم، والجلد، والصوف، والوبر، والشعر[2].

انظر في هذه (المصنوعات الطبيعيّة)، ثمّ اسأل نفسك:

هل (المصنوعات الطبيعيّة) واجبة الوجود، لا تحتاج إلى صانع؟

من الذي صنع (المصنوعات الطبيعيّة)؟

هل صنعت (المصنوعات الطبيعيّة) أنفسها بأنفسها؟

هل (المصادفة العمياء) هي التي صنعت (المصنوعات الطبيعيّة)؟

هل يستطيع (الإنسان الحديث) أن يصنع (المصنوعات الطبيعيّة)؟

إنّ (الإنسان الحديث) يُدرك يقينًا أنّ صنع هذه (المصنوعات الطبيعيّة): لا يكون إلّا بعد صنع (العناصر الكيميائيّة)، التي تتركّب منها هذه المصنوعات؛ وبعد صنع (القوانين الفيزيائيّة)، التي تحكم حركة العناصر والمركَّبات؛ وبعد صنع (الطاقة الكونيّة)، التي تحرّك العناصر والمركَّبات؛ وبعد صنع (الخرائط التركيبيّة)، التي تشكّل خصائص (المصنوعات الطبيعيّة).

فالفرق كبير جدًّا بين (صنع الخالق)، و(صنع الإنسان)!!!

---

(١) يس: ٧٧-٨٣.

(٢) انظر: قصّة الإيمان: ٣٣٣-٣٧٢.

فالخالق هو الذي صنع العناصر الكيميائيّة، وهو الذي صنع القوانين الفيزيائيّة، وهو الذي صنع الطاقة الكونيّة، وهو الذي صنع الخرائط التركيبيّة.

فإذا استطاع (الإنسان الحديث) صنع بعض (المصنوعات)؛ فإنّه سيعتمد اعتمادًا تامًّا على كلّ ما صنعه الخالق، من عناصر كيميائيّة، وقوانين فيزيائيّة، وطاقة كونيّة، وخرائط تركيبيّة؛ فأين صنع المخلوق من صنع الخالق؟!!!

وإذا نظرنا في صنع المخلوق وجدناه على صورتين بارزتين:

١- الصورة الاستنساخيّة، كاستنساخ نعجة مثلًا، بالاعتماد على خليّة من خلايا نعجة مخلوقة. فأين صنع المخلوق من صنع الخالق؟!!!

٢- الصورة التقليديّة، كصناعة السيّارة، وصناعة الطيّارة، وصناعة الغوّاصة، وسائر الصناعات القديمة والحديثة، ومنها صناعة ما يسمّونه: (الإنسان الآليّ).

وإذا نظرنا في صنع (الإنسان الآليّ)، وجدنا أوّلًا أنّ (الإنسان الحديث) لم يصنع العناصر الكيميائيّة، ولا القوانين الفيزيائيّة، ولا الطاقة الكونيّة، بل كلّها موجودة من قبل؛ وإنّما الذي صنعه (الإنسان الحديث) هو الخريطة التركيبيّة، فقط، مع اعتماده اعتمادًا كبيرًا على (الخريطة التركيبيّة الآدميّة). وهذا مثال من أبرز أمثلة ما يُسمّى: (المُحاكاة الحيويّة)، أو (تقليد الطبيعة).

ووجدنا ثانيًا الفروق الكثيرة والكبيرة، بين (الإنسان الآليّ)، الذي صنعه (الإنسان الحديث)؛ و(الإنسان الآدميّ)، الذي صنعه (الخالق العظيم)؟!!!

فانظر - أيّها المجنون - في تناقضاتك الشيطانيّة العجيبة؛ فأنت تُقرّ بوجود صانع (الإنسان الآليّ)، وتصفه بالعلم والقدرة؛ ولكنّك تُنكر وجود صانع (الإنسان الآدميّ)، وتنسب صنعه إلى المصادفة العمياء؟!!!

وأنت تُقرّ بوجود صانع (المصباح الصغير)، الذي يُنير الغرفة؛ ولكنّك

تُنكر وجود صانع (المصباح الكبير)، أو (السراج الوهّاج)، وهي (الشمس)، التي تُنير الأرض كلّها؟!!!

وأنت تُقرّ بوجود صانع (آلة التصوير)، التي تلتقط الصور؛ ولكنّك تُنكر وجود صانع (العين البصريّة)، التي هي أعجب آلات التقاط الصور؟!!!

وأنت تُقرّ بوجود صانع (اللوحة الفنّيّة الميّتة)، التي اشتملت على صورة شجرة، مرسومة بالألوان، أو بالأصباغ، على الورق، أو على القماش؛ ولكنّك تُنكر وجود صانع (الشجرة الحيّة)، الدالّة دلالة قطعيّة، على وجود صانعها؟!!!

وأنت تُقرّ بوجود صانع (التمثال الميّت)، المصنوع على صورة إنسان، من الصخر، أو الخزف، أو الخشب، أو المعدن، أو الشمع؛ ولكنّك تُنكر وجود صانع (الإنسان الحيّ)، الدالّ دلالة قطعيّة، على وجود صانعه؟!!!

وأنت تُقرّ بوجود صانع (المراكب البرّيّة الميّتة)، كالسيّارات بأنواعها، والدرّاجات بأنواعها؛ ولكنّك تُنكر وجود صانع (المراكب البرّيّة الحيّة)، أعني الخيل، والبغال، والحمير، والإبل؟!!!

وأنت تُقرّ بوجود صانع (المراكب المائيّة الميّتة)، وهي السفن، والقوارب، والغوّاصات؛ ولكنّك تُنكر وجود صانع (الأحياء المائيّة)، كالأسماك والحيتان؟!!!

فجنون الإلحاد لا يُصاب به إلّا أكابر المجرمين، الذين يعلمون أنّ وجود الخالق هو الحقيقة الكبرى، ولكنّهم يأبون تقبُّل هذه الحقيقة، كلّ الإباء؟!!!

أمّا سائر المنتسبين إلى الإلحاد، فإنّ معظمهم كاذبون، مراوغون، إذا واجههم مخالفوهم، بالأدلّة القطعيّة، الدالّة على (وجود الخالق)، هربوا إلى (اللاأدريّة)، فإذا تكاثرت عليهم أدلّة المخالفين، هربوا إلى (الرُّبوبيّة)؛ فإذا خلوا

بالغافلين، والمراهقين، تنمّروا، واستأسدوا، واستنسروا، وعادوا إلى إعلان الإلحاد، والدعوة إليه، والطعن في مخالفيهم.

ومثلُهم قريب، من مثل أولئك، الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾(١).

ولنا أن نتخيّل ما الذي يحدث، لو أنّ الناس – كلّ الناس – قد تحوّلوا إلى الحالة اللادينيّة؟!

أهون ما يُمكن أن نتخيّله أن يتحوّل الناس إلى الحالة الحيوانيّة، فالقويّ يأكل الضعيف، كما يأكل الذئب الشاة، والأقوياء يتنافسون على المزيد من الفرائس، كما تتنافس السباع على الفريسة.

ولكنّ الحقيقة أنّ الناس سيتحوّلون إلى حالة دون الحيوانيّة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٣).

فحين يتحوّل الناس إلى الحالة اللادينيّة، ستنعدم من الحياة تلك القيم

---

(١) الأحزاب: ١٩.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) الفرقان: ٤٤.

الدينيّة العليا، التي لا يكاد يخلو منها أيّ دين، حتّى الأديان المحرّفة، كاليهوديّة، والمسيحيّة – وحتّى الهندوسيّة، وهو دين وثنيّ، والبوذيّة، وهو دين وضعيّ – تتضمّن بعض القيم الدينيّة العليا، التي تنفع في تخفيف حدّة الفساد البشريّ، كما ينفع الدواء في تخفيف حدّة الآلام.

وانعدام (القيم الدينيّة العليا) يعني قطعًا: انعدام الحقّ، والخير، والسلام، والتعاوُن، والتآخي، والتسالُم، والتراحُم، والتعاطُف، والتلاطُف، والتسامُح، والصدق، والعدل، والأمانة، والبِرّ، والتقوى، والورع، والإخلاص، والإحسان، والإيثار، والتواضُع، والكرم، والعِفّة، والنزاهة، والزهد، والقناعة، وسائر الفضائل.

وسيكون الناس في الحالة اللادينيّة متساوين في انعدام هذه القيم؛ ولكنّهم سيظلّون متفاوتين في الغنى والفقر، وفي الجمال والقبح، وفي القوّة والضعف، وفي الصحّة والمرض، وفي القلّة والكثرة، وفي الذكورة والأنوثة، وفي الطفولة والمراهقة والشباب والشيخوخة.

فإذا لم تكن ثمّة قوانين تحكمهم، كانوا أسوأ حالًا من الحشرات؛ فإنّ للحشرات قوانين تحكمها، كالنمل، والنحل.

وإذا كانت لهم قوانين، فثمّة أسئلة تحتاج إلى أجوبة:

أ– من الذي وضع تلك القوانين؟

ب– هل راعى واضِعُها القيمَ العُليا، حين وضعها؟

ج– هل راعى واضِعُها الأهواءَ والمنافعَ الخاصّة؟

د– هل توافَقَ الناسُ كلُّهم عليها، فلا معترِض؟

هـ– ما موقف الراضين بها، من المعارضين لها؟

لا ريب في أنّ واضع القوانين سيكون من طبقة الأقوياء الأغنياء، ولا ريب في أنّه لن يراعي القيم العليا، بل سيراعي الأهواء والمنافع الخاصّة له ولأقرانه، ولا ريب في أنّ التوافُق عليها لا يُمكن وقوعه، ولكنّ الويل، كلّ الويل للمعارضين؛ لأنّهم بلا ريب، من طبقة الضعفاء المستضعَفين.

وهكذا سيتفانى الضعفاء في خدمة الأقوياء، وسيتلذّذ الأقوياء في استعباد الضعفاء، ولن يتركوا وسيلة من وسائل الاستعباد، إلّا وتوسّلوا بها؛ لتكثير الأموال، والتمتُّع بالملذّات، وتقوية السلطات.

فيكثر بذلك القتل والتعذيب والتنكيل والاضطهاد والاغتصاب والزنى واللواط والسحاق والربا والغشّ والسرقة والخمور والمخدِّرات وأفلام الدعارة!!!

إنّها حياة دونيّة قذرة، تسمو عليها الحياة الحيوانيّة؛ حتّى في أقذر صورها المعروفة في عالَم الحيوان، وأقساها، وأبشعها، لن يجد الباحث مثالًا لهذه الحياة الدونيّة القذرة!!!

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ. وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[1].

إنّ هذه الحياة الدونيّة القذرة تؤكّد الحاجة الكبيرة إلى هداية الخالق؛ فإنّ الإنسان يخالف سائر المخلوقات المعروفة المشاهَدة، في أنّه يُولَد من نقطة الصفر؛ ولكنّه يُمكن أن يرقى إلى أعلى الدرجات؛ لِما أودعه الله فيه، من قدرات بدنيّة، وعقليّة.

ولك أن تُدرك ذلك إذا نظرت إلى الفرق الكبير بين طفل الإنسان، وفرخ الدجاجة، مثلًا، فالأوّل يُولَد ضعيفًا في بدنه، ضعيفًا في عقله، فقدراته بدرجة

---

(١) الأنفال: ٢٢-٢٣.

الصفر، والثاني لا يلبث بعد خروجه من البيضة، إلّا وقتًا قصيرًا، ثمّ يتصرّف في حياته تصرُّف العالِم بكلّ ما يحتاج إليه.

وحتّى حين يعيش فرخ الدجاجة وحيدًا، بعد أن يخرج من البيضة، وليس بقربه أحد من بني جنسه؛ فإنّه يتصرّف التصرُّف المناسب، وكأنّه على علم بكلّ ما يتعلّق بنظام حياته!!!

أمّا الإنسان، فإنّه لا يُمكن أن يستغني عن رعاية من يرعاه، من بني جنسه، وهو في حياته يتدرّج في القدرات البدنيّة والعقليّة، حتّى يصل إلى درجات لا يُمكن أن يصل إليها من سواه، من المخلوقات المعروفة المشاهَدة.

ويكفي لتُدرك ذلك أن تنظر فيما أنتجه الإنسان، وما أنجزه في عصرنا، من أقمار صناعيّة، وشبكات عالَميّة، وحواسيب محمولة، وهواتف محمولة، وأسلحة مدمّرة، ووسائل نقل عملاقة: بريّة، وبحريّة، وجوّيّة!!!

إنّ هذا الرقيّ العلميّ الذي لا يُمكن أن تصل إليه الأسود، ولا القرود، ولو بعد ملايين القرون، يقابله خواء دينيّ، لا يُمكن للإنسان أن يُنتج ما يملأه؛ ولو حاول إنتاجه، لانتكس إلى تلك الحياة الدونيّة القذرة؛ لأنّه يحتاج إلى نظام إلهيّ، لتنظيم حياته، كما احتاجت إليه سائر المخلوقات.

والفرق أنّ الإنسان قد أُعطي الاختيار؛ فله أن يقبل النظام الإلهيّ، فينال ثواب القبول؛ وله أن يُعرض عنه، فينال عقاب الإعراض؛ لأنّه مخلوق قد اختصّه خالقه بخصائص بدنيّة وعقليّة؛ ليكون خليفة في الأرض.

وليس النظام الإلهيّ إلّا نظام الإسلام، وهو نظام واحد، ولكنّ صوره كثيرة؛ لأنّ مخلوقات الله كثيرة، ولكلّ مخلوق صورة خاصّة مناسبة؛ ولذلك لا يفقه الإنسان تسبيح المخلوقات المسبِّحة؛ لأنّ تسبيح كلّ مخلوق منها على صورة خاصّة، والمعنى العامّ الذي يجمع الصور كلّها واحد.

إنّ مَثَلَ الإنسان الذي يُنكر هداية الخالق، أو يُعرض عنها، كمَثَلِ المريض الذي يُنكر هداية الطبيب، أو يُعرض عنها، فبدلًا من أن يُقرّ بعلم الطبيب وقدرته ونصحه، يُنكر ذلك كلّه، أو يُقرّ مضطرًّا، ولكنّه لا يعمل بإرشاده، ثمّ يبحث لنفسه عن دواء لأمراضه!!!

ولذلك لا فرق بين أن يُقرّ هذ المريض بوجود الطبيب، وبين أن يُنكر وجوده؛ لأنّ النتيجة واحدة، وهي إعراض المريض عن إرشاد الطبيب، وبحثه عن بديل، يُنتجه بنفسه، معتمدًا على معرفته البائسة!!!

إنّ مَثَلَ الإنسان الرُّبوبيّ، الذي يزعم أنّه لا يُنكر وجود الخالق، ولكنّه يزعم أنّه يُنكر هدايته، كمَثَلِ من يزعم أنّ والدًا اشترى لولده الأثير عنده سيّارة حديثة، تسرّ الناظرين، ثمّ أهمل إرشاده طريقة قيادتها، وهو يعلم يقينًا أنّ ولده لا يعرف طريقة قيادتها، ولا يُمكنه أن يستنبطها، ويعلم أن ليس ثمّة من يستطيع إرشاده في ذلك، غيره، ويعلم أنّ ولده لا يُمكن أن يتوقّف في منتصف الطريق، بل لا بدّ من أن يقود السيّارة؛ ليصل إلى غايته؛ ثمّ تَرَكَهُ والدُه، في الطريق المزدحِم، يواجه المصير المحتوم!!!

لا ريب في أنّ هذا الزاعم يسعى بزعمه هذا، إلى الطعن في ذلك الوالد، الذي لو لم يُنعم على ولده، بتلك السيّارة، لكان خيرًا له ولولده، فالعطيّة لا يُمكن أن تُسمّى نعمة، إذا أدّت إلى ضدّ ما هي له في الأصل، بل هي نقمة، لا تصدر إلّا من عدوّ، أو من عابث، أو من غافل.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾(١).

---

(١) المؤمنون: ١١٥-١١٦.

ولذلك ليس صوابًا ظنُّ من يظنّ أنّ الإنسان الرُّبوبيّ أهون من الإنسان الإلحاديّ؛ لأنّ الرُّبوبيّ قد نسب إلى الخالق ما لا يليق به، من عداوة مخلوقاته، والعبث بهم، وإهمالهم، والغفلة عنهم، تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا!!!

قال أبو حامد الغزاليّ: «الصنف الأوّل الدهريّون، وهم طائفة من الأقدمين، جحدوا الصانع المُدبِّر، العالِم القادر، وزعموا أنّ العالَم لم يزل موجودًا كذلك، بنفسه، بلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبدًا. وهؤلاء هم الزنادقة. والصنف الثاني الطبيعيّون، وهم قوم أكثروا بحثهم، عن عالَم الطبيعة، وعن عجائب الحيوان، والنبات، وأكثروا الخوض، في علم تشريح أعضاء الحيوان. فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى، وبدائع حكمته، ما اضطُرّوا معه، إلى الاعتراف بفاطر حكيم، مُطّلِع على غايات الأمور، ومقاصدها. ولا يُطالِع التشريحَ، وعجائبَ منافع الأعضاء مُطالِعٌ، إلّا ويحصل له هذا العلم الضروريّ، بكمال تدبير الباني، لبنية الحيوان، لا سيّما بنية الإنسان. إلّا أنّ هؤلاء لكثرة بحثهم، عن الطبيعة، ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم، في قوام قوى الحيوان به، فظنّوا أنّ القوّة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه، أيضًا، وأنّها تبطل ببطلان مزاجه، فتنعدم، ثمّ إذا انعدمت، فلا يُعقَل إعادة المعدوم، كما زعموا، فذهبوا إلى أنّ النفس تموت، ولا تعود، فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنّة، والنار، والحشر والنشر، والقيامة، والحساب، فلم يبقَ عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب، فانحلّ عنهم اللجام، وانهمكوا - في الشهوات - انهماك الأنعام. وهؤلاء أيضًا زنادقة...»[1].

---

(١) المنقذ من الضلال: ٧٦-٧٧.

والدليل الذي يتمسّك به الرُّبوبيّ خصوصًا، واللاديني عمومًا - وهو أنّ تعارض الأديان دليل على اختلاقها - ليس بحجّة مقنعة؛ لأنّك إذا أيقنت بالأصل الأوّل، وهو (وجود الخالق)، فلا بدّ أنّك ستُوقن بالأصل الثاني، وهو (هداية الخالق)؛ وإلّا فإنّ إنكارك للأصل الثاني، يعني إنكارك للأصل الأوّل؛ لأنّ الخالق العظيم العليم الحكيم الخبير القدير الكبير: لا يُمكن أن يوصَف بصفات النقص البشريّ، من غفلة، وإهمال، وعبث، ولعب!!!

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ. بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(١).

فإذا أيقنت بالأصل الثاني، وجب عليك البحث عن الدين الصحيح، الذي تُوقن به عقول العقلاء، الذين سلموا من آثار الجهل والهوى والخوف، وليس الصواب بأن تهرب من البحث؛ لأنّك رأيت الأديان متعارضة.

هل ستهرب من البحث عن الدواء الشافي، الذي يشفيك من مرضك الخطير، بعد أن أنبأك الطبيب بمرضك، إذا وجدت أنّ الصيادلة قد اختلفوا في الدواء؟!!!

لا أراك إلّا ستجتهد في البحث، عمّا يُمكن أن يكون سببًا لنجاتك، وستبحث أوّلًا عن الصيدلانيّ الخبير الناصح الأمين؛ فإذا وجدته واطمأننت إليه، فلا ريب في أنّك ستأخذ منه الدواء؛ لتُنقذ نفسك.

فما أحراك أن تجتهد مثل هذا الاجتهاد؛ لإنقاذ نفسك من شرورها، وقد

---

(١) الأنبياء: ١٦-١٨.

علمتَ علم اليقين أنّ الخالق موجود، وأنّ هدايته موجودة، وأنّه – إن أردتَ أنت الاهتداء – فسيهديك إلى الصراط المستقيم!

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٢).

---

(١) الأنعام: ١٢٥.

(٢) المائدة: ١٥-١٦.

ولو تخيّلنا أنّ الناس – كلّ الناس – قد تحوّلوا إلى اليهوديّة، فلا ريب في أنّ الفارق كبير بين الحياة اللادينيّة، والحياة اليهوديّة؛ فإنّ اليهوديّة صورة محرّفة عن الإسلام، الذي دعا إليه موسى عليه السلام، وهذا يعني أنّها قد اشتملت على بعض الحقائق الإسلاميّة، ولكن مع تحريفات واختلاقات، أدخلها بعض المفترين، ولا سيّما من المنسوبين القدامى إلى اليهوديّة.

ومن شأن هذه التحريفات أن تنشر بعض الأمراض القذرة، في نفوس من يعتقد بصحّة نسبتها إلى الشرع، كالحسد والحقد والنفاق والنميمة والخداع والغشّ والبغضاء وقسوة القلب.

لقد نسبوا إلى الله سبحانه وتعالى بعض صفات النقص البشريّ، أبرزها:

– **الاستراحة من العمل**: «وَفَرَغَ اللهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ، لِأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللهُ خَالِقًا»[1].

– **الحزن والتأسُّف**: «فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الْإِنْسَانَ فِي الْأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ. فَقَالَ الرَّبُّ: أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ الْإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ، الْإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمَ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لِأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ»[2].

– **الندم**: «لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ الْمِصْرِيُّونَ قَائِلِينَ: أَخْرَجَهُمْ بِخُبْثٍ لِيَقْتُلَهُمْ فِي الْجِبَالِ، وَيُفْنِيَهُمْ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ؟ ارْجِعْ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِكَ، وَانْدَمْ عَلَى الشَّرِّ بِشَعْبِكَ.

---

(١) الكتاب المقدّس، ترجمة فان دايك، سفر التكوين، الفصل ٢، الآيتان ٢-٣.

(٢) سفر التكوين، الفصل ٦، الآيتان ٦-٧.

اذْكُرْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْرَائِيلَ عَبِيدَكَ الَّذِينَ حَلَفْتَ لَهُمْ بِنَفْسِكَ وَقُلْتَ لَهُمْ: أُكَثِّرُ نَسْلَكُمْ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، وَأُعْطِي نَسْلَكُمْ كُلَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي تَكَلَّمْتُ عَنْهَا فَيَمْلِكُونَهَا إِلَى الْأَبَدِ. فَنَدِمَ الرَّبُّ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ»(١).

«وَلَمْ يَعُدْ صَمُوئِيلُ لِرُؤْيَةِ شَاوُلَ إِلَى يَوْمِ مَوْتِهِ، لِأَنَّ صَمُوئِيلَ نَاحَ عَلَى شَاوُلَ. وَالرَّبُّ نَدِمَ لِأَنَّهُ مَلَّكَ شَاوُلَ عَلَى إِسْرَائِيلَ»(٢).

– **النوم والاستيقاظ:** «فَاسْتَيْقَظَ الرَّبُّ كَنَائِمٍ، كَجَبَّارٍ مُعَيِّطٍ مِنَ الْخَمْرِ. فَضَرَبَ أَعْدَاءَهُ إِلَى الْوَرَاءِ. جَعَلَهُمْ عَارًا أَبَدِيًّا»(٣).

– **النَّوْح والوَلْوَلة والنَّحيب والحفاء والعُرْي:** «قَوْلُ الرَّبِّ الَّذِي صَارَ إِلَى مِيخَا الْمُورَشْتِيِّ فِي أَيَّامِ يُوثَامَ وَآحَازَ وَحَزَقِيَّا مُلُوكِ يَهُوذَا، الَّذِي رَآهُ عَلَى السَّامِرَةِ وَأُورُشَلِيمَ: اسْمَعُوا أَيُّهَا الشُّعُوبُ جَمِيعُكُمْ. أَصْغِي أَيَّتُهَا الْأَرْضُ وَمِلْؤُهَا. وَلْيَكُنِ السَّيِّدُ الرَّبُّ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ، السَّيِّدُ مِنْ هَيْكَلِ قُدْسِهِ. فَإِنَّهُ هُوَذَا الرَّبُّ يَخْرُجُ مِنْ مَكَانِهِ وَيَنْزِلُ وَيَمْشِي عَلَى شَوَامِخِ الْأَرْضِ، فَتَذُوبُ الْجِبَالُ تَحْتَهُ، وَتَنْشَقُّ الْوِدْيَانُ كَالشَّمْعِ قُدَّامَ النَّارِ. كَالْمَاءِ الْمُنْصَبِّ فِي مُنْحَدَرٍ. كُلُّ هَذَا مِنْ أَجْلِ إِثْمِ يَعْقُوبَ، وَمِنْ أَجْلِ خَطِيَّةِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ. مَا هُوَ ذَنْبُ يَعْقُوبَ؟ أَلَيْسَ هُوَ السَّامِرَةَ؟ وَمَا هِيَ مُرْتَفَعَاتُ يَهُوذَا؟ أَلَيْسَتْ هِيَ أُورُشَلِيمَ؟ فَأَجْعَلُ السَّامِرَةَ خَرِبَةً فِي الْبَرِّيَّةِ، مَغَارِسَ لِلْكُرُومِ، وَأُلْقِي حِجَارَتَهَا إِلَى الْوَادِي، وَأَكْشِفُ أُسُسَهَا. وَجَمِيعُ تَمَاثِيلِهَا الْمَنْحُوتَةِ تُحَطَّمُ، وَكُلُّ أَعْقَارِهَا تُحْرَقُ بِالنَّارِ، وَجَمِيعُ أَصْنَامِهَا أَجْعَلُهَا

---

(١) سفر الخروج، الفصل ٣٢، الآيات ١٢-١٤.

(٢) سفر صموئيل الأوّل، الفصل ١٥، الآية ٣٥.

(٣) سفر المزامير، الفصل ٧٨، الآيات ٦٥-٦٦.

خَرَابًا، لِأَنَّهَا مِنْ عُقْرِ الزَّانِيَةِ جَمَعَتْهَا، وَإِلَى عُقْرِ الزَّانِيَةِ تَعُودُ. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنُوحُ وَأُوَلْوِلُ. أَمْشِي حَافِيًا وَعُرْيَانًا. أَصْنَعُ نَحِيبًا كَبَنَاتِ آوَى، وَنَوْحًا كَرِعَالِ النَّعَامِ. لِأَنَّ جِرَاحَاتِهَا عَدِيمَةُ الشِّفَاءِ، لِأَنَّهَا قَدْ أَتَتْ إِلَى يَهُوذَا، وَصَلَتْ إِلَى بَابِ شَعْبِي إِلَى أُورُشَلِيمَ»(١).

– **مصارعة يعقوب عليه السلام**: «فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ، وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ. وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، ضَرَبَ حُقَّ فَخِذِهِ، فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخِذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ. وَقَالَ: أَطْلِقْنِي، لِأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ. فَقَالَ: لَا أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي. فَقَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ؟ فَقَالَ: يَعْقُوبُ. فَقَالَ: لَا يُدْعَى اسْمُكَ فِيمَا بَعْدُ يَعْقُوبَ، بَلْ إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ، وَقَدَرْتَ. وَسَأَلَ يَعْقُوبُ وَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِاسْمِكَ. فَقَالَ: لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟ وَبَارَكَهُ هُنَاكَ. فَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ: فَنِيئِيلَ، قَائِلًا: لِأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي»(٢).

– **تذكُّر الميثاق بعد نسيانه**: «وَحَدَثَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْكَثِيرَةِ أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ مَاتَ. وَتَنَهَّدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ وَصَرَخُوا، فَصَعِدَ صُرَاخُهُمْ إِلَى اللهِ مِنْ أَجْلِ الْعُبُودِيَّةِ. فَسَمِعَ اللهُ أَنِينَهُمْ، فَتَذَكَّرَ اللهُ مِيثَاقَهُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. وَنَظَرَ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعَلِمَ اللهُ»(٣).

ونسبوا إلى الأنبياء – وأبناء الأنبياء، وبناتهم – بعض الرذائل، أبرزها:

---

(١) سفر ميخا، الفصل ١، الآيات ١-٩.

(٢) سفر التكوين، الفصل ٣٢، الآيات ٢٤-٣٠.

(٣) سفر الخروج، الفصل ٢، الآيات ٢٣-٢٥.

- نسبوا إلى نوح ﷺ التعرّي، وشرب الخمر: «وَكَانَ بَنُو نُوحٍ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْفُلْكِ سَامًا وَحَامًا وَيَافَثَ. وَحَامٌ هُوَ أَبُو كَنْعَانَ. هؤُلاَءِ الثَّلاَثَةُ هُمْ بَنُو نُوحٍ. وَمِنْ هؤُلاَءِ تَشَعَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ. وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلاَّحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ، فَسَكِرَ، وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا. فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا، وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، فَقَالَ: مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ. وَقَالَ: مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ، فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ»(١).

- نسبوا إلى إبراهيم ﷺ الكذب والدياثة: «وَحَدَثَ جُوعٌ فِي الأَرْضِ، فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ، لأَنَّ الْجُوعَ فِي الأَرْضِ كَانَ شَدِيدًا. وَحَدَثَ لَمَّا قَرُبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَايَ امْرَأَتِهِ: إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ. فَيَكُونُ إِذَا رَآكِ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكِ. قُولِي إِنَّكِ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكِ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكِ. فَحَدَثَ لَمَّا دَخَلَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ رَأَوْا الْمَرْأَةَ أَنَّهَا حَسَنَةٌ جِدًّا. وَرَآهَا رُؤَسَاءُ فِرْعَوْنَ وَمَدَحُوهَا لَدَى فِرْعَوْنَ، فَأُخِذَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ، فَصَنَعَ إِلَى أَبْرَامَ خَيْرًا بِسَبَبِهَا، وَصَارَ لَهُ غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَحَمِيرٌ وَعَبِيدٌ وَإِمَاءٌ وَأُتُنٌ وَجِمَالٌ. فَضَرَبَ الرَّبُّ فِرْعَوْنَ وَبَيْتَهُ ضَرَبَاتٍ عَظِيمَةً بِسَبَبِ سَارَايَ امْرَأَةِ أَبْرَامَ. فَدَعَا فِرْعَوْنُ أَبْرَامَ وَقَالَ: مَا هذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِي؟ لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي

(١) سفر التكوين، الفصل ٩، الآيات ١٨-٢٧.

أَنَّهَا امْرَأَتُكَ؟ لِمَاذَا قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي، حَتَّى أَخَذْتُهَا لِي لِتَكُونَ زَوْجَتِي؟ وَالْآنَ هُوَذَا امْرَأَتُكَ! خُذْهَا وَاذْهَبْ! فَأَوْصَى عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ رِجَالًا فَشَيَّعُوهُ وَامْرَأَتَهُ وَكُلَّ مَا كَانَ لَهُ»[1].

«وَانْتَقَلَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَرْضِ الْجَنُوبِ، وَسَكَنَ بَيْنَ قَادِشَ وَشُورَ، وَتَغَرَّبَ فِي جَرَارَ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ سَارَةَ امْرَأَتِهِ: هِيَ أُخْتِي. فَأَرْسَلَ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ جَرَارَ وَأَخَذَ سَارَةَ. فَجَاءَ اللهُ إِلَى أَبِيمَالِكَ فِي حُلْمِ اللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: هَا أَنْتَ مَيِّتٌ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ الَّتِي أَخَذْتَهَا، فَإِنَّهَا مُتَزَوِّجَةٌ بِبَعْلٍ. وَلكِنْ لَمْ يَكُنْ أَبِيمَالِكُ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: يَا سَيِّدُ، أَأُمَّةً بَارَّةً تَقْتُلُ؟ أَلَمْ يَقُلْ هُوَ لِي: إِنَّهَا أُخْتِي، وَهِيَ أَيْضًا نَفْسُهَا قَالَتْ: هُوَ أَخِي؟ بِسَلَامَةِ قَلْبِي وَنَقَاوَةِ يَدَيَّ فَعَلْتُ هَذَا. فَقَالَ لَهُ اللهُ فِي الْحُلْمِ: أَنَا أَيْضًا عَلِمْتُ أَنَّكَ بِسَلَامَةِ قَلْبِكَ فَعَلْتَ هَذَا. وَأَنَا أَيْضًا أَمْسَكْتُكَ عَنْ أَنْ تُخْطِئَ إِلَيَّ، لِذَلِكَ لَمْ أَدَعْكَ تَمَسُّهَا. فَالْآنَ رُدَّ امْرَأَةَ الرَّجُلِ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، فَيُصَلِّيَ لِأَجْلِكَ، فَتَحْيَا. وَإِنْ كُنْتَ لَسْتَ تَرُدُّهَا، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَوْتًا تَمُوتُ، أَنْتَ وَكُلُّ مَنْ لَكَ. فَبَكَّرَ أَبِيمَالِكُ فِي الْغَدِ وَدَعَا جَمِيعَ عَبِيدِهِ، وَتَكَلَّمَ بِكُلِّ هَذَا الْكَلَامِ فِي مَسَامِعِهِمْ، فَخَافَ الرِّجَالُ جِدًّا. ثُمَّ دَعَا أَبِيمَالِكُ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لَهُ: مَاذَا فَعَلْتَ بِنَا؟ وَبِمَاذَا أَخْطَأْتُ إِلَيْكَ، حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيَّ وَعَلَى مَمْلَكَتِي خَطِيَّةً عَظِيمَةً؟ أَعْمَالًا لَا تُعْمَلُ عَمِلْتَ بِي. وَقَالَ أَبِيمَالِكُ لِإِبْرَاهِيمَ: مَاذَا رَأَيْتَ حَتَّى عَمِلْتَ هَذَا الشَّيْءَ؟ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: إِنِّي قُلْتُ: لَيْسَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ خَوْفُ اللهِ الْبَتَّةَ، فَيَقْتُلُونَنِي لِأَجْلِ امْرَأَتِي. وَبِالْحَقِيقَةِ أَيْضًا هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي، غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتِ ابْنَةَ أُمِّي، فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً. وَحَدَثَ لَمَّا أَتَاهَنِي اللهُ مِنْ بَيْتِ أَبِي أَنِّي قُلْتُ لَهَا: هَذَا مَعْرُوفُكِ الَّذِي تَصْنَعِينَ إِلَيَّ: فِي كُلِّ مَكَانٍ نَأْتِي إِلَيْهِ

(١) سفر التكوين، الفصل ١٢، الآيات ١٠-٢٠.

قُولِي عَنِّي: هُوَ أَخِي. فَأَخَذَ أَبِيمَالِكُ غَنَمًا وَبَقَرًا وَعَبِيدًا وَإِمَاءً وَأَعْطَاهَا لإِبْرَاهِيمَ، وَرَدَّ إِلَيْهِ سَارَةَ امْرَأَتَهُ. وَقَالَ أَبِيمَالِكُ: هُوَذَا أَرْضِي قُدَّامَكَ. اسْكُنْ فِي مَا حَسُنَ فِي عَيْنَيْكَ. وَقَالَ لِسَارَةَ: إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُ أَخَاكِ أَلْفًا مِنَ الْفِضَّةِ. هَا هُوَ لَكِ غِطَاءُ عَيْنٍ مِنْ جِهَةِ كُلِّ مَا عِنْدَكِ وَعِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ، فَأُنْصِفْتِ. فَصَلَّى إِبْرَاهِيمُ إِلَى اللهِ، فَشَفَى اللهُ أَبِيمَالِكَ وَامْرَأَتَهُ وَجَوَارِيَهُ فَوَلَدْنَ. لأَنَّ الرَّبَّ كَانَ قَدْ أَغْلَقَ كُلَّ رَحِمٍ لِبَيْتِ أَبِيمَالِكَ؛ بِسَبَبِ سَارَةَ امْرَأَةِ إِبْرَاهِيمَ»[(١)].

- **نسبوا إلى إسحاق عليه السلام الكذب والدياثة:** «فَأَقَامَ إِسْحَاقُ فِي جَرَارَ. وَسَأَلَهُ أَهْلُ الْمَكَانِ عَنِ امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: هِيَ أُخْتِي. لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَقُولَ: امْرَأَتِي؛ لَعَلَّ أَهْلَ الْمَكَانِ: يَقْتُلُونَنِي مِنْ أَجْلِ رِفْقَةَ؛ لأَنَّهَا كَانَتْ حَسَنَةَ الْمَنْظَرِ. وَحَدَثَ إِذْ طَالَتْ لَهُ الأَيَّامُ هُنَاكَ أَنَّ أَبِيمَالِكَ مَلِكَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ أَشْرَفَ مِنَ الْكُوَّةِ وَنَظَرَ، وَإِذَا إِسْحَاقُ يُلاَعِبُ رِفْقَةَ امْرَأَتَهُ. فَدَعَا أَبِيمَالِكُ إِسْحَاقَ، وَقَالَ: إِنَّمَا هِيَ امْرَأَتُكَ! فَكَيْفَ قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي؟ فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ: لأَنِّي قُلْتُ: لَعَلِّي أَمُوتُ بِسَبَبِهَا. فَقَالَ أَبِيمَالِكُ: مَا هذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِنَا؟ لَوْلاَ قَلِيلٌ لاضْطَجَعَ أَحَدُ الشَّعْبِ مَعَ امْرَأَتِكَ، فَجَلَبْتَ عَلَيْنَا ذَنْبًا. فَأَوْصَى أَبِيمَالِكُ جَمِيعَ الشَّعْبِ قَائِلاً: الَّذِي يَمَسُّ هذَا الرَّجُلَ أَوِ امْرَأَتَهُ مَوْتًا يَمُوتُ»[(٢)].

- **نسبوا إلى إسحاق عليه السلام شرب الخمر:** «فَقَالَ: قَدِّمْ لِي لآكُلَ مِنْ صَيْدِ ابْنِي حَتَّى تُبَارِكَكَ نَفْسِي. فَقَدَّمَ لَهُ فَأَكَلَ، وَأَحْضَرَ لَهُ خَمْرًا فَشَرِبَ»[(٣)].

- **نسبوا إلى يعقوب عليه السلام الكذب والاحتيال:** «فَدَخَلَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ: يَا أَبِي.

---

(١) سفر التكوين، الفصل ٢٠، الآيات ١-١٨.

(٢) سفر التكوين، الفصل ٢٦، الآيات ٦-١١.

(٣) سفر التكوين، الفصل ٢٧، الآية ٢٥.

فَقَالَ: هَأَنَذَا. مَنْ أَنْتَ يَا ابْنِي؟ فَقَالَ يَعْقُوبُ لِأَبِيهِ: أَنَا عِيسُو بِكْرُكَ. قَدْ فَعَلْتُ كَمَا كَلَّمْتَنِي. قُمِ اجْلِسْ وَكُلْ مِنْ صَيْدِي لِكَيْ تُبَارِكَنِي نَفْسُكَ. فَقَالَ إِسْحَاقُ لِابْنِهِ: مَا هَذَا الَّذِي أَسْرَعْتَ لِتَجِدَ يَا ابْنِي؟ فَقَالَ: إِنَّ الرَّبَّ إِلَهَكَ قَدْ يَسَّرَ لِي. فَقَالَ إِسْحَاقُ لِيَعْقُوبَ: تَقَدَّمْ لِأَجُسَّكَ يَا ابْنِي. أَأَنْتَ هُوَ ابْنِي عِيسُو أَمْ لَا؟ فَتَقَدَّمَ يَعْقُوبُ إِلَى إِسْحَاقَ أَبِيهِ، فَجَسَّهُ، وَقَالَ: الصَّوْتُ صَوْتُ يَعْقُوبَ، وَلَكِنَّ الْيَدَيْنِ يَدَا عِيسُو. وَلَمْ يَعْرِفْهُ لِأَنَّ يَدَيْهِ كَانَتَا مُشْعِرَتَيْنِ كَيَدَيْ عِيسُو أَخِيهِ، فَبَارَكَهُ. وَقَالَ: هَلْ أَنْتَ هُوَ ابْنِي عِيسُو؟ فَقَالَ: أَنَا هُوَ»[1].

– **نسبوا إلى لوط عليه السلام مضاجعة ابنتيه، وأنّهما أسكرتاه، وهو لا يعلم، فحبلتا منه:** «وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لِأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الْأَرْضِ. هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا، وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلًا. فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا، وَلَا بِقِيَامِهَا. وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا، فَادْخُلِي، اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلًا. فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ، وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا، وَلَا بِقِيَامِهَا، فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ، مِنْ أَبِيهِمَا. فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا، وَدَعَتِ اسْمَهُ: مُوآبَ، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ. وَالصَّغِيرَةُ أَيْضًا وَلَدَتِ ابْنًا، وَدَعَتِ اسْمَهُ: بِنْ عَمِّي، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ، إِلَى الْيَوْمِ»[2].

---

(١) سفر التكوين، الفصل ٢٧، الآيات ١٨-٢٤.

(٢) سفر التكوين، الفصل ١٩، الآيات ٣٠-٣٨.

– نسبوا إلى هارون عليه السلام صنع العجل؛ ليعبده بنو إسرائيل: «وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ، اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ، وَقَالُوا لَهُ: قُمِ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً، تَسِيرُ أَمَامَنَا، لِأَنَّ هَذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لَا نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ. فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ، وَأْتُونِي بِهَا. فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ، وَأَتَوْا بِهَا إِلَى هَارُونَ. فَأَخَذَ ذَلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالْإِزْمِيلِ، وَصَنَعَهُ عِجْلًا مَسْبُوكًا. فَقَالُوا: هَذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. فَلَمَّا نَظَرَ هَارُونُ بَنَى مَذْبَحًا أَمَامَهُ، وَنَادَى هَارُونُ وَقَالَ: غَدًا عِيدٌ لِلرَّبِّ. فَبَكَّرُوا فِي الْغَدِ وَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ وَقَدَّمُوا ذَبَائِحَ سَلَامَةٍ. وَجَلَسَ الشَّعْبُ لِلْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلَّعِبِ. فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: اذْهَبِ انْزِلْ. لِأَنَّهُ قَدْ فَسَدَ شَعْبُكَ الَّذِي أَصْعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. زَاغُوا سَرِيعًا عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتُهُمْ بِهِ. صَنَعُوا لَهُمْ عِجْلًا مَسْبُوكًا، وَسَجَدُوا لَهُ وَذَبَحُوا لَهُ وَقَالُوا: هَذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: رَأَيْتُ هَذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ. فَالْآنَ اتْرُكْنِي لِيَحْمَى غَضَبِي عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ، فَأُصَيِّرَكَ شَعْبًا عَظِيمًا. فَتَضَرَّعَ مُوسَى أَمَامَ الرَّبِّ إِلَهِهِ، وَقَالَ: لِمَاذَا يَا رَبُّ يَحْمَى غَضَبُكَ عَلَى شَعْبِكَ الَّذِي أَخْرَجْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَيَدٍ شَدِيدَةٍ؟ لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ الْمِصْرِيُّونَ قَائِلِينَ: أَخْرَجَهُمْ بِخُبْثٍ لِيَقْتُلَهُمْ فِي الْجِبَالِ، وَيُفْنِيَهُمْ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ؟ ارْجِعْ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِكَ، وَانْدَمْ عَلَى الشَّرِّ بِشَعْبِكَ. اذْكُرْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْرَائِيلَ عَبِيدَكَ الَّذِينَ حَلَفْتَ لَهُمْ بِنَفْسِكَ وَقُلْتَ لَهُمْ: أُكَثِّرُ نَسْلَكُمْ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، وَأُعْطِي نَسْلَكُمْ كُلَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي تَكَلَّمْتُ عَنْهَا فَيَمْلِكُونَهَا إِلَى الْأَبَدِ. فَنَدِمَ الرَّبُّ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ. فَانْصَرَفَ مُوسَى وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ وَلَوْحَا الشَّهَادَةِ فِي يَدِهِ: لَوْحَانِ مَكْتُوبَانِ عَلَى جَانِبَيْهِمَا. مِنْ هُنَا وَمِنْ

هُنا كَانَا مَكْتُوبَيْنِ. وَاللَّوْحَانِ هُمَا صَنْعَةُ اللهِ، وَالْكِتَابَةُ كِتَابَةُ اللهِ مَنْقُوشَةٌ عَلَى اللَّوْحَيْنِ. وَسَمِعَ يَشُوعُ صَوْتَ الشَّعْبِ فِي هُتَافِهِ، فَقَالَ لِمُوسَى: صَوْتُ قِتَالٍ فِي الْمَحَلَّةِ. فَقَالَ: لَيْسَ صَوْتَ صِيَاحِ النُّصْرَةِ وَلَا صَوْتَ صِيَاحِ الْكَسْرَةِ، بَلْ صَوْتَ غِنَاءٍ أَنَا سَامِعٌ. وَكَانَ عِنْدَمَا اقْتَرَبَ إِلَى الْمَحَلَّةِ أَنَّهُ أَبْصَرَ الْعِجْلَ وَالرَّقْصَ، فَحَمِيَ غَضَبُ مُوسَى، وَطَرَحَ اللَّوْحَيْنِ مِنْ يَدَيْهِ وَكَسَّرَهُمَا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ. ثُمَّ أَخَذَ الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعُوا وَأَحْرَقَهُ بِالنَّارِ، وَطَحَنَهُ حَتَّى صَارَ نَاعِمًا، وَذَرَّاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَسَقَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَقَالَ مُوسَى لِهَارُونَ: مَاذَا صَنَعَ بِكَ هَذَا الشَّعْبُ، حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيْهِ خَطِيَّةً عَظِيمَةً؟ فَقَالَ هَارُونُ: لَا يَحْمَ غَضَبُ سَيِّدِي. أَنْتَ تَعْرِفُ الشَّعْبَ أَنَّهُ فِي شَرٍّ. فَقَالُوا لِيَ: اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لِأَنَّ هَذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لَا نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ. فَقُلْتُ لَهُمْ: مَنْ لَهُ ذَهَبٌ، فَلْيَنْزِعْهُ، وَيُعْطِنِي. فَطَرَحْتُهُ فِي النَّارِ، فَخَرَجَ هَذَا الْعِجْلُ»(١).

– **نسبوا إلى داود عليه السلام الرقص**: «وَلَمَّا دَخَلَ تَابُوتُ الرَّبِّ مَدِينَةَ دَاوُدَ، أَشْرَفَتْ مِيكَالُ بِنْتُ شَاوُلَ مِنَ الْكُوَّةِ وَرَأَتِ الْمَلِكَ دَاوُدَ يَطْفُرُ وَيَرْقُصُ أَمَامَ الرَّبِّ، فَاحْتَقَرَتْهُ فِي قَلْبِهَا. فَأَدْخَلُوا تَابُوتَ الرَّبِّ وَأَوْقَفُوهُ فِي مَكَانِهِ فِي وَسَطِ الْخَيْمَةِ الَّتِي نَصَبَهَا لَهُ دَاوُدُ. وَأَصْعَدَ دَاوُدُ مُحْرَقَاتٍ أَمَامَ الرَّبِّ وَذَبَائِحَ سَلَامَةٍ. وَلَمَّا انْتَهَى دَاوُدُ مِنْ إِصْعَادِ الْمُحْرَقَاتِ وَذَبَائِحِ السَّلَامَةِ بَارَكَ الشَّعْبَ بِاسْمِ رَبِّ الْجُنُودِ. وَقَسَمَ عَلَى جَمِيعِ الشَّعْبِ، عَلَى كُلِّ جُمْهُورِ إِسْرَائِيلَ رِجَالًا وَنِسَاءً، عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ رَغِيفَ خُبْزٍ وَكَأْسَ خَمْرٍ وَقُرْصَ زَبِيبٍ. ثُمَّ ذَهَبَ كُلُّ الشَّعْبِ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى بَيْتِهِ، وَرَجَعَ دَاوُدُ لِيُبَارِكَ بَيْتَهُ. فَخَرَجَتْ مِيكَالُ بِنْتُ شَاوُلَ لِاسْتِقْبَالِ دَاوُدَ، وَقَالَتْ: مَا كَانَ أَكْرَمَ مَلِكَ إِسْرَائِيلَ الْيَوْمَ، حَيْثُ تَكَشَّفَ الْيَوْمَ فِي أَعْيُنِ إِمَاءِ

---

(١) سفر الخروج، الفصل ٣٢، الآيات ١-٢٤.

عَبِيدِهِ كَمَا يَتَكَشَّفُ أَحَدُ السُّفَهَاءِ. فَقَالَ دَاوُدُ لِمِيكَالَ: إِنَّمَا أَمَامَ الرَّبِّ الَّذِي اخْتَارَنِي، دُونَ أَبِيكِ، وَدُونَ كُلِّ بَيْتِهِ؛ لِيُقِيمَنِي رَئِيسًا، عَلَى شَعْبِ الرَّبِّ إِسْرَائِيلَ، فَلَعِبْتُ أَمَامَ الرَّبِّ. وَإِنِّي أَتَصَاغَرُ، دُونَ ذَلِكَ، وَأَكُونُ وَضِيعًا، فِي عَيْنَيْ نَفْسِي، وَأَمَّا عِنْدَ الْإِمَاءِ، الَّتِي ذَكَرْتِ، فَأَتَمَجَّدُ. وَلَمْ يَكُنْ لِمِيكَالَ بِنْتِ شَاوُلَ وَلَدٌ إِلَى يَوْمِ مَوْتِهَا»(١).

– **نسبوا إلى داود عليه السلام أنّه زنى بامرأة أوريّا الحثّيّ، وحبلت منه، وتخلّص من زوجها، بجعله في وجه الحرب الشديدة، وتركه وحده؛ ليموت:** «وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جِدًّا. فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ وَاحِدٌ: أَلَيْسَتْ هَذِهِ بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ؟ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلًا وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا، وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: إِنِّي حُبْلَى. فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى يُوآبَ يَقُولُ: أَرْسِلْ إِلَيَّ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ. فَأَرْسَلَ يُوآبُ أُورِيَّا إِلَى دَاوُدَ. فَأَتَى أُورِيَّا إِلَيْهِ، فَسَأَلَ دَاوُدُ عَنْ سَلَامَةِ يُوآبَ وَسَلَامَةِ الشَّعْبِ وَنَجَاحِ الْحَرْبِ. وَقَالَ دَاوُدُ لِأُورِيَّا: انْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ وَاغْسِلْ رِجْلَيْكَ. فَخَرَجَ أُورِيَّا مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ، وَخَرَجَتْ وَرَاءَهُ حِصَّةٌ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ. وَنَامَ أُورِيَّا عَلَى بَابِ بَيْتِ الْمَلِكِ، مَعَ جَمِيعِ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَلَمْ يَنْزِلْ إِلَى بَيْتِهِ. فَأَخْبَرُوا دَاوُدَ قَائِلِينَ: لَمْ يَنْزِلْ أُورِيَّا إِلَى بَيْتِهِ. فَقَالَ دَاوُدُ لِأُورِيَّا: أَمَا جِئْتَ مِنَ السَّفَرِ؟ فَلِمَاذَا لَمْ تَنْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ؟ فَقَالَ أُورِيَّا لِدَاوُدَ: إِنَّ التَّابُوتَ وَإِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا سَاكِنُونَ فِي الْخِيَامِ، وَسَيِّدِي يُوآبُ وَعَبِيدُ سَيِّدِي نَازِلُونَ عَلَى وَجْهِ الصَّحْرَاءِ، وَأَنَا آتِي إِلَى

---

(١) سفر صموئيل الثاني، الفصل ٦، الآيات ١٦-٢٣.

بَيْتِي لِآكُلَ وَأَشْرَبَ وَأَضْطَجِعَ مَعَ امْرَأَتِي؟ وَحَيَاتِكَ وَحَيَاةِ نَفْسِكَ، لَا أَفْعَلُ هَذَا الْأَمْرَ. فَقَالَ دَاوُدُ لِأُورِيَّا: أَقِمْ هُنَا الْيَوْمَ أَيْضًا، وَغَدًا أُطْلِقُكَ. فَأَقَامَ أُورِيَّا فِي أُورُشَلِيمَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَغَدَهُ. وَدَعَاهُ دَاوُدُ فَأَكَلَ أَمَامَهُ وَشَرِبَ وَأَسْكَرَهُ. وَخَرَجَ عِنْدَ الْمَسَاءِ لِيَضْطَجِعَ فِي مَضْجَعِهِ مَعَ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَإِلَى بَيْتِهِ لَمْ يَنْزِلْ. وَفِي الصَّبَاحِ كَتَبَ دَاوُدُ مَكْتُوبًا إِلَى يُوآبَ وَأَرْسَلَهُ بِيَدِ أُورِيَّا. وَكَتَبَ فِي الْمَكْتُوبِ يَقُولُ: اجْعَلُوا أُورِيَّا فِي وَجْهِ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ، وَارْجِعُوا مِنْ وَرَائِهِ، فَيُضْرَبَ وَيَمُوتَ. وَكَانَ فِي مُحَاصَرَةِ يُوآبَ الْمَدِينَةَ أَنَّهُ جَعَلَ أُورِيَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّ رِجَالَ الْبَأْسِ فِيهِ. فَخَرَجَ رِجَالُ الْمَدِينَةِ وَحَارَبُوا يُوآبَ، فَسَقَطَ بَعْضُ الشَّعْبِ مِنْ عَبِيدِ دَاوُدَ، وَمَاتَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضًا. فَأَرْسَلَ يُوآبُ وَأَخْبَرَ دَاوُدَ بِجَمِيعِ أُمُورِ الْحَرْبِ. وَأَوْصَى الرَّسُولَ قَائِلًا: عِنْدَمَا تَفْرَغُ مِنَ الْكَلَامِ مَعَ الْمَلِكِ عَنْ جَمِيعِ أُمُورِ الْحَرْبِ، فَإِنِ اشْتَعَلَ غَضَبُ الْمَلِكِ، وَقَالَ لَكَ: لِمَاذَا دَنَوْتُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ لِلْقِتَالِ؟ أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَرْمُونَ مِنْ عَلَى السُّورِ؟ مَنْ قَتَلَ أَبِيمَالِكَ بْنَ يَرُبُّوشَثَ؟ أَلَمْ تَرْمِهِ امْرَأَةٌ بِقِطْعَةِ رَحًى مِنْ عَلَى السُّورِ فَمَاتَ فِي تَابَاصَ؟ لِمَاذَا دَنَوْتُمْ مِنَ السُّورِ؟ فَقُلْ: قَدْ مَاتَ عَبْدُكَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضًا. فَذَهَبَ الرَّسُولُ وَدَخَلَ وَأَخْبَرَ دَاوُدَ بِكُلِّ مَا أَرْسَلَهُ فِيهِ يُوآبُ. وَقَالَ الرَّسُولُ لِدَاوُدَ: قَدْ تَجَبَّرَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ وَخَرَجُوا إِلَيْنَا إِلَى الْحَقْلِ فَكُنَّا عَلَيْهِمْ إِلَى مَدْخَلِ الْبَابِ. فَرَمَى الرُّمَاةُ عَبِيدَكَ مِنْ عَلَى السُّورِ، فَمَاتَ الْبَعْضُ مِنْ عَبِيدِ الْمَلِكِ، وَمَاتَ عَبْدُكَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضًا. فَقَالَ دَاوُدُ لِلرَّسُولِ: هَكَذَا تَقُولُ لِيُوآبَ: لَا يَسُؤْ فِي عَيْنَيْكَ هَذَا الْأَمْرُ، لِأَنَّ السَّيْفَ يَأْكُلُ هَذَا وَذَاكَ. شَدِّدْ قِتَالَكَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَأَخْرِبْهَا. وَشَدِّدْهُ. فَلَمَّا سَمِعَتِ امْرَأَةُ أُورِيَّا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ أُورِيَّا رَجُلُهَا، نَدَبَتْ بَعْلَهَا. وَلَمَّا مَضَتِ الْمَنَاحَةُ أَرْسَلَ دَاوُدُ وَضَمَّهَا إِلَى بَيْتِهِ، وَصَارَتْ لَهُ امْرَأَةً وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا. وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي فَعَلَهُ دَاوُدُ، فَقَبُحَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ. فَأَرْسَلَ الرَّبُّ نَاثَانَ إِلَى دَاوُدَ. فَجَاءَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: كَانَ رَجُلَانِ فِي

مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ، وَاحِدٌ مِنْهُمَا غَنِيٌّ وَالآخَرُ فَقِيرٌ. وَكَانَ لِلْغَنِيِّ غَنَمٌ وَبَقَرٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا. وَأَمَّا الْفَقِيرُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ إِلاَّ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ صَغِيرَةٌ قَدِ اقْتَنَاهَا وَرَبَّاهَا وَكَبُرَتْ مَعَهُ وَمَعَ بَنِيهِ جَمِيعًا. تَأْكُلُ مِنْ لُقْمَتِهِ وَتَشْرَبُ مِنْ كَأْسِهِ وَتَنَامُ فِي حِضْنِهِ، وَكَانَتْ لَهُ كَابْنَةٍ. فَجَاءَ ضَيْفٌ إِلَى الرَّجُلِ الْغَنِيِّ، فَعَفَا أَنْ يَأْخُذَ مِنْ غَنَمِهِ وَمِنْ بَقَرِهِ لِيُهَيِّئَ لِلضَّيْفِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ نَعْجَةَ الرَّجُلِ الْفَقِيرِ وَهَيَّأَ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ. فَحَمِيَ غَضَبُ دَاوُدَ عَلَى الرَّجُلِ جِدًّا، وَقَالَ لِنَاثَانَ: حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ، إِنَّهُ يُقْتَلُ الرَّجُلُ الْفَاعِلُ ذلِكَ، وَيَرُدُّ النَّعْجَةَ أَرْبَعَةَ أَضْعَافٍ؛ لِأَنَّهُ فَعَلَ هَذَا الْأَمْرَ، وَلِأَنَّهُ لَمْ يُشْفِقْ. فَقَالَ نَاثَانُ لِدَاوُدَ: أَنْتَ هُوَ الرَّجُلُ! هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: أَنَا مَسَحْتُكَ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَأَنْقَذْتُكَ مِنْ يَدِ شَاوُلَ، وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ سَيِّدِكَ، وَنِسَاءَ سَيِّدِكَ فِي حِضْنِكَ، وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا. وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ قَلِيلاً، كُنْتُ أَزِيدُ لَكَ كَذَا وَكَذَا. لِمَاذَا احْتَقَرْتَ كَلَامَ الرَّبِّ لِتَعْمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيْهِ؟ قَدْ قَتَلْتَ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذْتَ امْرَأَتَهُ لَكَ امْرَأَةً، وَإِيَّاهُ قَتَلْتَ بِسَيْفِ بَنِي عَمُّونَ. وَالْآنَ لَا يُفَارِقُ السَّيْفُ بَيْتَكَ إِلَى الْأَبَدِ، لِأَنَّكَ احْتَقَرْتَنِي وَأَخَذْتَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ لِتَكُونَ لَكَ امْرَأَةً. هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هَأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجِعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هَذِهِ الشَّمْسِ. لِأَنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ بِالسِّرِّ وَأَنَا أَفْعَلُ هَذَا الْأَمْرَ قُدَّامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَقُدَّامَ الشَّمْسِ. فَقَالَ دَاوُدُ لِنَاثَانَ: قَدْ أَخْطَأْتُ إِلَى الرَّبِّ. فَقَالَ نَاثَانُ لِدَاوُدَ: الرَّبُّ أَيْضًا قَدْ نَقَلَ عَنْكَ خَطِيَّتَكَ. لَا تَمُوتُ. غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ بِهَذَا الْأَمْرِ أَعْدَاءَ الرَّبِّ يَشْمَتُونَ، فَالِابْنُ الْمَوْلُودُ لَكَ يَمُوتُ. وَذَهَبَ نَاثَانُ إِلَى بَيْتِهِ. وَضَرَبَ الرَّبُّ الْوَلَدَ الَّذِي وَلَدَتْهُ امْرَأَةُ أُورِيَّا لِدَاوُدَ فَثَقِلَ. فَسَأَلَ دَاوُدُ اللهَ مِنْ أَجْلِ الصَّبِيِّ، وَصَامَ دَاوُدُ صَوْمًا، وَدَخَلَ وَبَاتَ مُضْطَجِعًا عَلَى الْأَرْضِ. فَقَامَ شُيُوخُ بَيْتِهِ عَلَيْهِ لِيُقِيمُوهُ عَنِ

الْأَرْضِ فَلَمْ يَشَأْ، وَلَمْ يَأْكُلْ مَعَهُمْ خُبْزًا. وَكَانَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ أَنَّ الْوَلَدَ مَاتَ، فَخَافَ عَبِيدُ دَاوُدَ أَنْ يُخْبِرُوهُ بِأَنَّ الْوَلَدَ قَدْ مَاتَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: هُوَذَا لَمَّا كَانَ الْوَلَدُ حَيًّا كَلَّمْنَاهُ، فَلَمْ يَسْمَعْ لِصَوْتِنَا. فَكَيْفَ نَقُولُ لَهُ: قَدْ مَاتَ الْوَلَدُ؟ يَعْمَلُ أَشَرَّ! وَرَأَى دَاوُدُ عَبِيدَهُ يَتَنَاجَوْنَ، فَفَطِنَ دَاوُدُ أَنَّ الْوَلَدَ قَدْ مَاتَ. فَقَالَ دَاوُدُ لِعَبِيدِهِ: هَلْ مَاتَ الْوَلَدُ؟ فَقَالُوا: مَاتَ. فَقَامَ دَاوُدُ عَنِ الْأَرْضِ وَاغْتَسَلَ وَادَّهَنَ وَبَدَّلَ ثِيَابَهُ وَدَخَلَ بَيْتَ الرَّبِّ وَسَجَدَ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى بَيْتِهِ وَطَلَبَ فَوَضَعُوا لَهُ خُبْزًا فَأَكَلَ. فَقَالَ لَهُ عَبِيدُهُ: مَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي فَعَلْتَ؟ لَمَّا كَانَ الْوَلَدُ حَيًّا صُمْتَ وَبَكَيْتَ، وَلَمَّا مَاتَ الْوَلَدُ قُمْتَ وَأَكَلْتَ خُبْزًا. فَقَالَ: لَمَّا كَانَ الْوَلَدُ حَيًّا صُمْتُ وَبَكَيْتُ لِأَنِّي قُلْتُ: مَنْ يَعْلَمُ؟ رُبَّمَا يَرْحَمُنِي الرَّبُّ وَيَحْيَا الْوَلَدُ. وَالْآنَ قَدْ مَاتَ، فَلِمَاذَا أَصُومُ؟ هَلْ أَقْدِرُ أَنْ أَرُدَّهُ بَعْدُ؟ أَنَا ذَاهِبٌ إِلَيْهِ، وَأَمَّا هُوَ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيَّ. وَعَزَّى دَاوُدُ بَثْشَبَعَ امْرَأَتَهُ، وَدَخَلَ إِلَيْهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا فَوَلَدَتِ ابْنًا، فَدَعَا اسْمَهُ: "سُلَيْمَانَ"، وَالرَّبُّ أَحَبَّهُ، وَأَرْسَلَ بِيَدِ نَاثَانَ النَّبِيِّ، وَدَعَا اسْمَهُ: "يَدِيدِيَّا" مِنْ أَجْلِ الرَّبِّ»(١).

– **نسبوا إلى سليمان عليه السلام أنّه عبد الأوثان لمّا شاخ:** «وَأَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ نِسَاءً غَرِيبَةً كَثِيرَةً مَعَ بِنْتِ فِرْعَوْنَ: مُوآبِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وَأَدُومِيَّاتٍ وَصِيدُونِيَّاتٍ وَحِثِّيَّاتٍ. مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمُ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: لَا تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ، وَهُمْ لَا يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ، لِأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ. فَالْتَصَقَ سُلَيْمَانُ بِهَؤُلَاءِ بِالْمَحَبَّةِ. وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلَاثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ. وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلًا مَعَ الرَّبِّ إِلَهِهِ كَقَلْبِ

(١) سفر صموئيل الثاني، من الفصل ١١، الآية ٢، إلى الفصل ١٢، الآية ٢٥.

دَاوُدَ أَبِيهِ. فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلَهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ. وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَامًا كَدَاوُدَ أَبِيهِ. حِينَئِذٍ بَنَى سُلَيْمَانُ مُرْتَفَعَةً لِكَمُوشَ رِجْسِ الْمُوآبِيِّينَ عَلَى الْجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَ أُورُشَلِيمَ، وَلِمُولَكَ رِجْسِ بَنِي عَمُّونَ. وَهكَذَا فَعَلَ لِجَمِيعِ نِسَائِهِ الْغَرِيبَاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يُوقِدْنَ وَيَذْبَحْنَ لآلِهَتِهِنَّ. فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ؛ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ، الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ، أَلاَّ يَتَّبِعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْزِيقًا، وَأُعْطِيهَا لِعَبْدِكَ. إِلاَّ إِنِّي لاَ أَفْعَلُ ذلِكَ فِي أَيَّامِكَ، مِنْ أَجْلِ دَاوُدَ أَبِيكَ، بَلْ مِنْ يَدِ ابْنِكَ أُمَزِّقُهَا. عَلَى أَنِّي لاَ أُمَزِّقُ مِنْكَ الْمَمْلَكَةَ كُلَّهَا، بَلْ أُعْطِي سِبْطًا وَاحِدًا لابْنِكَ، لأَجْلِ دَاوُدَ عَبْدِي، وَلأَجْلِ أُورُشَلِيمَ الَّتِي اخْتَرْتُهَا»(1).

– **نسبوا إلى أيّوب عليه السلام الجزع:** «بَعْدَ هذَا فَتَحَ أَيُّوبُ فَاهُ وَسَبَّ يَوْمَهُ، وَأَخَذَ أَيُّوبُ يَتَكَلَّمُ فَقَالَ: لَيْتَهُ هَلَكَ الْيَوْمُ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ، وَاللَّيْلُ الَّذِي قَالَ: قَدْ حُبِلَ بِرَجُلٍ. لِيَكُنْ ذلِكَ الْيَوْمُ ظَلاَمًا. لاَ يَعْتَنِ بِهِ اللهُ مِنْ فَوْقُ، وَلاَ يُشْرِقْ عَلَيْهِ نَهَارٌ. لِيَمْلِكْهُ الظَّلاَمُ وَظِلُّ الْمَوْتِ. لِيَحُلَّ عَلَيْهِ سَحَابٌ. لِتَرْعَبْهُ كَاسِفَاتُ النَّهَارِ. أَمَّا ذلِكَ اللَّيْلُ فَلْيُمْسِكْهُ الدُّجَى، وَلاَ يَفْرَحْ بَيْنَ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَلاَ يَدْخُلَنَّ فِي عَدَدِ الشُّهُورِ. هُوَذَا ذلِكَ اللَّيْلُ لِيَكُنْ عَاقِرًا، لاَ يُسْمَعْ فِيهِ هُتَافٌ. لِيَلْعَنْهُ لاَعِنُو الْيَوْمِ الْمُسْتَعِدُّونَ لإِيقَاظِ التِّنِّينِ. لِتُظْلِمْ نُجُومُ عِشَائِهِ. لِيَنْتَظِرِ النُّورَ وَلاَ يَكُنْ، وَلاَ يَرَ هُدُبَ الصُّبْحِ، لأَنَّهُ لَمْ يُغْلِقْ أَبْوَابَ بَطْنِ أُمِّي، وَلَمْ يَسْتُرِ الشَّقَاوَةَ

---

(1) سفر الملوك الأوّل، الفصل ١١، الآيات ١-١٣.

عَنْ عَيْنَيَّ. لِمَ لَمْ أَمُتْ مِنَ الرَّحِمِ؟ عِنْدَمَا خَرَجْتُ مِنَ الْبَطْنِ، لِمَ لَمْ أُسْلِمِ الرُّوحَ؟ لِمَاذَا أَعَانَتْنِي الرُّكَبُ، وَلِمَ الثُّدِيُّ حَتَّى أَرْضَعَ؟ لِأَنِّي قَدْ كُنْتُ الْآنَ مُضْطَجِعًا سَاكِنًا. حِينَئِذٍ كُنْتُ نِمْتُ مُسْتَرِيحًا مَعَ مُلُوكٍ وَمُشِيرِي الْأَرْضِ، الَّذِينَ بَنَوْا أَهْرَامًا لِأَنْفُسِهِمْ، أَوْ مَعَ رُؤَسَاءَ لَهُمْ ذَهَبٌ، الْمَالِئِينَ بُيُوتَهُمْ فِضَّةً، أَوْ كَسِقْطٍ مَطْمُورٍ فَلَمْ أَكُنْ، كَأَجِنَّةٍ لَمْ يَرَوْا نُورًا. هُنَاكَ يَكُفُّ الْمُنَافِقُونَ عَنِ الشَّغْبِ، وَهُنَاكَ يَسْتَرِيحُ الْمُتْعَبُونَ. الْأَسْرَى يَطْمَئِنُّونَ جَمِيعًا، لَا يَسْمَعُونَ صَوْتَ الْمُسَخِّرِ. الصَّغِيرُ كَمَا الْكَبِيرُ هُنَاكَ، وَالْعَبْدُ حُرٌّ مِنْ سَيِّدِهِ. لِمَ يُعْطَى لِشَقِيٍّ نُورٌ، وَحَيَاةٌ لِمُرِّي النَّفْسِ؟ الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ الْمَوْتَ وَلَيْسَ هُوَ، وَيَحْفِرُونَ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنَ الْكُنُوزِ، الْمَسْرُورِينَ إِلَى أَنْ يَبْتَهِجُوا، الْفَرِحِينَ عِنْدَمَا يَجِدُونَ قَبْرًا! لِرَجُلٍ قَدْ خَفِيَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ، وَقَدْ سَيَّجَ اللهُ حَوْلَهُ. لِأَنَّهُ مِثْلَ خُبْزِي يَأْتِي أَنِينِي، وَمِثْلَ الْمِيَاهِ تَنْسَكِبُ زَفْرَتِي، لِأَنِّي ارْتِعَابًا ارْتَعَبْتُ فَأَتَانِي، وَالَّذِي فَزِعْتُ مِنْهُ جَاءَ عَلَيَّ. لَمْ أَطْمَئِنَّ وَلَمْ أَسْكُنْ وَلَمْ أَسْتَرِحْ، وَقَدْ جَاءَ الرُّجْزُ»(١).

– نسبوا إلى رأوبين بن يعقوب أنّه اضطجع مع بلهة سرّيّة أبيه، وأنّ يعقوب عليه السلام سمع بذلك: «وَحَدَثَ إِذْ كَانَ إِسْرَائِيلُ سَاكِنًا فِي تِلْكَ الْأَرْضِ، أَنَّ رَأُوبَيْنَ ذَهَبَ، وَاضْطَجَعَ، مَعَ بِلْهَةَ سُرِّيَّةِ أَبِيهِ، وَسَمِعَ إِسْرَائِيلُ. وَكَانَ بَنُو يَعْقُوبَ اثْنَيْ عَشَرَ: بَنُو لَيْئَةَ: رَأُوبَيْنُ، بِكْرُ يَعْقُوبَ، وَشِمْعُونُ، وَلَاوِي، وَيَهُوذَا، وَيَسَّاكَرُ، وَزَبُولُونُ. وَابْنَا رَاحِيلَ: يُوسُفُ، وَبَنْيَامِينُ. وَابْنَا بِلْهَةَ، جَارِيَةِ رَاحِيلَ: دَانُ، وَنَفْتَالِي. وَابْنَا زِلْفَةَ، جَارِيَةِ لَيْئَةَ: جَادُ، وَأَشِيرُ. هَؤُلَاءِ بَنُو يَعْقُوبَ، الَّذِينَ وُلِدُوا لَهُ، فِي فَدَّانِ أَرَامَ»(٢).

---

(١) سفر أيّوب، الفصل ٣، الآيات ١-٢٦.

(٢) سفر التكوين، الفصل ٣٥، الآية ٢٢-٢٦.

– **نسبوا إلى يهوذا بن يعقوب أنّه زنى بثامار كنّته، وحبلت منه، وولدت توأمًا:** «وَأَخَذَ يَهُوذَا زَوْجَةً لِعِيرٍ بِكْرِهِ اسْمُهَا ثَامَارُ. وَكَانَ عِيرٌ بِكْرُ يَهُوذَا شِرِّيرًا فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، فَأَمَاتَهُ الرَّبُّ. فَقَالَ يَهُوذَا لِأُونَانَ: ادْخُلْ عَلَى امْرَأَةِ أَخِيكَ وَتَزَوَّجْ بِهَا، وَأَقِمْ نَسْلًا لِأَخِيكَ. فَعَلِمَ أُونَانُ أَنَّ النَّسْلَ لَا يَكُونُ لَهُ، فَكَانَ إِذْ دَخَلَ عَلَى امْرَأَةِ أَخِيهِ أَنَّهُ أَفْسَدَ عَلَى الْأَرْضِ، لِكَيْلَا يُعْطِيَ نَسْلًا لِأَخِيهِ. فَقَبُحَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ مَا فَعَلَهُ، فَأَمَاتَهُ أَيْضًا. فَقَالَ يَهُوذَا لِثَامَارَ كَنَّتِهِ: اقْعُدِي أَرْمَلَةً فِي بَيْتِ أَبِيكِ حَتَّى يَكْبُرَ شِيلَةُ ابْنِي. لِأَنَّهُ قَالَ: لَعَلَّهُ يَمُوتُ هُوَ أَيْضًا كَأَخَوَيْهِ. فَمَضَتْ ثَامَارُ وَقَعَدَتْ فِي بَيْتِ أَبِيهَا. وَلَمَّا طَالَ الزَّمَانُ مَاتَتِ ابْنَةُ شُوعٍ امْرَأَةُ يَهُوذَا. ثُمَّ تَعَزَّى يَهُوذَا فَصَعِدَ إِلَى جُزَّازِ غَنَمِهِ إِلَى تِمْنَةَ، هُوَ وَحِيرَةُ صَاحِبُهُ الْعَدُلَّامِيُّ. فَأُخْبِرَتْ ثَامَارُ وَقِيلَ لَهَا: هُوَذَا حَمُوكِ صَاعِدٌ إِلَى تِمْنَةَ لِيَجُزَّ غَنَمَهُ. فَخَلَعَتْ عَنْهَا ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا، وَتَغَطَّتْ بِبُرْقُعٍ وَتَلَفَّفَتْ، وَجَلَسَتْ فِي مَدْخَلِ عَيْنَايِمَ الَّتِي عَلَى طَرِيقِ تِمْنَةَ، لِأَنَّهَا رَأَتْ أَنَّ شِيلَةَ قَدْ كَبُرَ وَهِيَ لَمْ تُعْطَ لَهُ زَوْجَةً. فَنَظَرَهَا يَهُوذَا وَحَسِبَهَا زَانِيَةً، لِأَنَّهَا كَانَتْ قَدْ غَطَّتْ وَجْهَهَا. فَمَالَ إِلَيْهَا عَلَى الطَّرِيقِ وَقَالَ: هَاتِي أَدْخُلْ عَلَيْكِ. لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا كَنَّتُهُ. فَقَالَتْ: مَاذَا تُعْطِينِي لِكَيْ تَدْخُلَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ: إِنِّي أُرْسِلُ جَدْيَ مِعْزًى مِنَ الْغَنَمِ. فَقَالَتْ: هَلْ تُعْطِينِي رَهْنًا حَتَّى تُرْسِلَهُ؟ فَقَالَ: مَا الرَّهْنُ الَّذِي أُعْطِيكِ؟ فَقَالَتْ: خَاتَمُكَ وَعِصَابَتُكَ وَعَصَاكَ الَّتِي فِي يَدِكَ. فَأَعْطَاهَا وَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَحَبِلَتْ مِنْهُ. ثُمَّ قَامَتْ وَمَضَتْ وَخَلَعَتْ عَنْهَا بُرْقُعَهَا وَلَبِسَتْ ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا. فَأَرْسَلَ يَهُوذَا جَدْيَ الْمِعْزَى بِيَدِ صَاحِبِهِ الْعَدُلَّامِيِّ لِيَأْخُذَ الرَّهْنَ مِنْ يَدِ الْمَرْأَةِ، فَلَمْ يَجِدْهَا. فَسَأَلَ أَهْلَ مَكَانِهَا قَائِلًا: أَيْنَ الزَّانِيَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي عَيْنَايِمَ عَلَى الطَّرِيقِ؟ فَقَالُوا: لَمْ تَكُنْ هَهُنَا زَانِيَةٌ. فَرَجَعَ إِلَى يَهُوذَا وَقَالَ: لَمْ أَجِدْهَا. وَأَهْلُ الْمَكَانِ أَيْضًا قَالُوا: لَمْ تَكُنْ هَهُنَا زَانِيَةٌ. فَقَالَ

يَهُوذَا: لِتَأْخُذْ لِنَفْسِهَا، لِئَلَّا نَصِيرَ إِهَانَةً. إِنِّي قَدْ أَرْسَلْتُ هَذَا الْجَدْيَ وَأَنْتَ لَمْ تَجِدْهَا. وَلَمَّا كَانَ نَحْوُ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، أُخْبِرَ يَهُوذَا وَقِيلَ لَهُ: قَدْ زَنَتْ ثَامَارُ كَنَّتُكَ، وَهَا هِيَ حُبْلَى أَيْضًا مِنَ الزِّنَى. فَقَالَ يَهُوذَا: أَخْرِجُوهَا فَتُحْرَقَ. أَمَّا هِيَ فَلَمَّا أُخْرِجَتْ أَرْسَلَتْ إِلَى حَمِيهَا قَائِلَةً: مِنَ الرَّجُلِ الَّذِي هَذِهِ لَهُ أَنَا حُبْلَى! وَقَالَتْ: حَقِّقْ لِمَنِ الْخَاتَمُ وَالْعِصَابَةُ وَالْعَصَا هَذِهِ. فَتَحَقَّقَهَا يَهُوذَا وَقَالَ: هِيَ أَبَرُّ مِنِّي، لِأَنِّي لَمْ أُعْطِهَا لِشِيلَةَ ابْنِي. فَلَمْ يَعُدْ يَعْرِفُهَا أَيْضًا. وَفِي وَقْتِ وِلَادَتِهَا إِذَا فِي بَطْنِهَا تَوْأَمَانِ»(١).

- **نسبوا إلى أمنون بن داود أنّه اغتصب أخته ثامار نفسها:** «وَجَرَى بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لِأَبْشَالُومَ بْنِ دَاوُدَ أُخْتٌ جَمِيلَةٌ اسْمُهَا ثَامَارُ، فَأَحَبَّهَا أَمْنُونُ بْنُ دَاوُدَ. وَأُحْصِرَ أَمْنُونُ لِلسُّقْمِ مِنْ أَجْلِ ثَامَارَ أُخْتِهِ لِأَنَّهَا كَانَتْ عَذْرَاءَ، وَعَسُرَ فِي عَيْنَيْ أَمْنُونَ أَنْ يَفْعَلَ لَهَا شَيْئًا. وَكَانَ لِأَمْنُونَ صَاحِبٌ اسْمُهُ يُونَادَابُ بْنُ شِمْعَى أَخِي دَاوُدَ. وَكَانَ يُونَادَابُ رَجُلًا حَكِيمًا جِدًّا. فَقَالَ لَهُ: لِمَاذَا يَا ابْنَ الْمَلِكِ أَنْتَ ضَعِيفٌ هَكَذَا مِنْ صَبَاحٍ إِلَى صَبَاحٍ؟ أَمَا تُخْبِرُنِي؟ فَقَالَ لَهُ أَمْنُونُ: إِنِّي أُحِبُّ ثَامَارَ أُخْتَ أَبْشَالُومَ أَخِي. فَقَالَ يُونَادَابُ: اضْطَجِعْ عَلَى سَرِيرِكَ وَتَمَارَضْ. وَإِذَا جَاءَ أَبُوكَ لِيَرَاكَ فَقُلْ لَهُ: دَعْ ثَامَارَ أُخْتِي فَتَأْتِيَ وَتُطْعِمَنِي خُبْزًا، وَتَعْمَلَ أَمَامِي الطَّعَامَ لِأَرَى فَآكُلَ مِنْ يَدِهَا. فَاضْطَجَعَ أَمْنُونُ وَتَمَارَضَ، فَجَاءَ الْمَلِكُ لِيَرَاهُ. فَقَالَ أَمْنُونُ لِلْمَلِكِ: دَعْ ثَامَارَ أُخْتِي فَتَأْتِيَ وَتَصْنَعَ أَمَامِي كَعْكَتَيْنِ فَآكُلَ مِنْ يَدِهَا. فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى ثَامَارَ إِلَى الْبَيْتِ قَائِلًا: اذْهَبِي إِلَى بَيْتِ أَمْنُونَ أَخِيكِ وَاعْمَلِي لَهُ طَعَامًا. فَذَهَبَتْ ثَامَارُ إِلَى بَيْتِ أَمْنُونَ أَخِيهَا وَهُوَ مُضْطَجِعٌ. وَأَخَذَتِ الْعَجِينَ وَعَجَنَتْ وَعَمِلَتْ كَعْكًا أَمَامَهُ وَخَبَزَتِ الْكَعْكَ، وَأَخَذَتِ

---

(١) سفر التكوين، الفصل ٣٨، الآيات ٦-٢٧.

الْمِقْلَاةَ وَسَكَبَتْ أَمَامَهُ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ. وَقَالَ أَمْنُونُ: أَخْرِجُوا كُلَّ إِنْسَانٍ عَنِّي. فَخَرَجَ كُلُّ إِنْسَانٍ عَنْهُ. ثُمَّ قَالَ أَمْنُونُ لِثَامَارَ: ايتِي بِالطَّعَامِ إِلَى الْمِخْدَعِ فَآكُلَ مِنْ يَدِكِ. فَأَخَذَتْ ثَامَارُ الْكَعْكَ الَّذِي عَمِلَتْهُ وَأَتَتْ بِهِ أَمْنُونَ أَخَاهَا إِلَى الْمِخْدَعِ. وَقَدَّمَتْ لَهُ لِيَأْكُلَ، فَأَمْسَكَهَا، وَقَالَ لَهَا: تَعَالَيِ اضْطَجِعِي مَعِي، يَا أُخْتِي. فَقَالَتْ لَهُ: لَا يَا أَخِي، لَا تُذِلَّنِي لِأَنَّهُ لَا يُفْعَلُ هَكَذَا فِي إِسْرَائِيلَ. لَا تَعْمَلْ هَذِهِ الْقَبَاحَةَ. أَمَّا أَنَا، فَأَيْنَ أَذْهَبُ بِعَارِي؟ وَأَمَّا أَنْتَ فَتَكُونُ كَوَاحِدٍ مِنَ السُّفَهَاءِ فِي إِسْرَائِيلَ! وَالْآنَ كَلِّمِ الْمَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَمْنَعُنِي مِنْكَ. فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَسْمَعَ لِصَوْتِهَا، بَلْ تَمَكَّنَ مِنْهَا وَقَهَرَهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا. ثُمَّ أَبْغَضَهَا أَمْنُونُ بِغْضَةً شَدِيدَةً جِدًّا، حَتَّى إِنَّ الْبِغْضَةَ الَّتِي أَبْغَضَهَا إِيَّاهَا كَانَتْ أَشَدَّ مِنَ الْمَحَبَّةِ الَّتِي أَحَبَّهَا إِيَّاهَا. وَقَالَ لَهَا أَمْنُونُ: قُومِي انْطَلِقِي. فَقَالَتْ لَهُ: لَا سَبَبَ! هَذَا الشَّرُّ بِطَرْدِكَ إِيَّايَ هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ الَّذِي عَمِلْتَهُ بِي. فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَسْمَعَ لَهَا، بَلْ دَعَا غُلَامَهُ الَّذِي كَانَ يَخْدِمُهُ وَقَالَ: اطْرُدْ هَذِهِ عَنِّي خَارِجًا، وَأَقْفِلِ الْبَابَ وَرَاءَهَا. وَكَانَ عَلَيْهَا ثَوْبٌ مُلَوَّنٌ، لِأَنَّ بَنَاتِ الْمَلِكِ الْعَذَارَى كُنَّ يَلْبَسْنَ جُبَّاتٍ مِثْلَ هَذِهِ. فَأَخْرَجَهَا خَادِمُهُ إِلَى الْخَارِجِ، وَأَقْفَلَ الْبَابَ وَرَاءَهَا. فَجَعَلَتْ ثَامَارُ رَمَادًا عَلَى رَأْسِهَا، وَمَزَّقَتِ الثَّوْبَ الْمُلَوَّنَ الَّذِي عَلَيْهَا، وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا وَكَانَتْ تَذْهَبُ صَارِخَةً. فَقَالَ لَهَا أَبْشَالُومُ أَخُوهَا: هَلْ كَانَ أَمْنُونُ أَخُوكِ مَعَكِ؟ فَالْآنَ يَا أُخْتِي اسْكُتِي. أَخُوكِ هُوَ. لَا تَضَعِي قَلْبَكِ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ. فَأَقَامَتْ ثَامَارُ مُسْتَوْحِشَةً فِي بَيْتِ أَبْشَالُومَ أَخِيهَا. وَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ دَاوُدُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْأُمُورِ اغْتَاظَ جِدًّا. وَلَمْ يُكَلِّمْ أَبْشَالُومُ أَمْنُونَ بِشَرٍّ وَلَا بِخَيْرٍ، لِأَنَّ أَبْشَالُومَ أَبْغَضَ أَمْنُونَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَذَلَّ ثَامَارَ أُخْتَهُ»[١].

---

(١) سفر صموئيل الثاني، الفصل ١٣، الآيات ١-٢٢.

وفي نسخة ثانية: «وَسَمِعَ دَاوُدُ الْمَلِكُ بِكُلِّ مَا جَرَى، فَغَضِبَ جِدًّا، لَكِنْ لَمْ يَشَأْ أَذِيَّةَ ابْنِهِ أَمْنُونَ، لِأَنَّهُ كَانَ يُحِبُّهُ، فَهُوَ ابْنُهُ الْبِكْرُ»[1].

وفي نسخة ثالثة: «وَسَمِعَ دَاوُدُ الْمَلِكُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَاغْتَاظَ غَيْظًا شَدِيدًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُحْزِنْ نَفْسَ أَمْنُونَ ابْنِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ يُحِبُّهُ لِأَنَّهُ بِكْرُهُ»[2].

– نسبوا إلى أبشالوم بن داود أنّه دخل إلى سراريّ أبيه، أمام بني إسرائيل:

«وَقَالَ أَبْشَالُومُ لِأَخِيتُوفَلَ: أَعْطُوا مَشُورَةً، مَاذَا نَفْعَلُ؟ فَقَالَ أَخِيتُوفَلُ لِأَبْشَالُومَ: ادْخُلْ إِلَى سَرَارِيِّ أَبِيكَ اللَّوَاتِي تَرَكَهُنَّ لِحِفْظِ الْبَيْتِ، فَيَسْمَعَ كُلُّ إِسْرَائِيلَ أَنَّكَ قَدْ صِرْتَ مَكْرُوهًا مِنْ أَبِيكَ، فَتَتَشَدَّدَ أَيْدِي جَمِيعِ الَّذِينَ مَعَكَ. فَنَصَبُوا لِأَبْشَالُومَ الْخَيْمَةَ عَلَى السَّطْحِ، وَدَخَلَ أَبْشَالُومُ إِلَى سَرَارِيِّ أَبِيهِ أَمَامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ. وَكَانَتْ مَشُورَةُ أَخِيتُوفَلَ الَّتِي كَانَ يُشِيرُ بِهَا فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ كَمَنْ يَسْأَلُ بِكَلَامِ اللهِ. هَكَذَا كُلُّ مَشُورَةِ أَخِيتُوفَلَ عَلَى دَاوُدَ وَعَلَى أَبْشَالُومَ جَمِيعًا»[3].

واشتمل العهد القديم، أيضًا، على ألفاظ الفحش والفجور:

«وَكَانَتْ إِلَيَّ كَلِمَةُ الرَّبِّ قَائِلَةً: يَا ابْنَ آدَمَ، عَرِّفْ أُورُشَلِيمَ بِرَجَاسَاتِهَا، وَقُلْ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لِأُورُشَلِيمَ: مَخْرَجُكِ وَمَوْلِدُكِ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. أَبُوكِ أَمُورِيٌّ وَأُمُّكِ حِثِّيَّةٌ. أَمَّا مِيلَادُكِ يَوْمَ وُلِدْتِ فَلَمْ تُقْطَعْ سُرَّتُكِ، وَلَمْ تُغْسَلِي بِالْمَاءِ لِلتَّنَظُّفِ، وَلَمْ تُمَلَّحِي تَمْلِيحًا، وَلَمْ تُقَمَّطِي تَقْمِيطًا. لَمْ تَشْفُقْ عَلَيْكِ عَيْنٌ لِتَصْنَعَ لَكِ وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ؛ لِتَرِقَّ لَكِ، بَلْ طُرِحْتِ عَلَى وَجْهِ الْحَقْلِ بِكَرَاهَةِ نَفْسِكِ يَوْمَ وُلِدْتِ. فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ، فَقُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ

(١) الكتاب المقدّس، الترجمة المشتركة.

(٢) الكتاب المقدّس، الترجمة الكاثوليكيّة.

(٣) سفر صموئيل الثاني، الفصل ١٦، الآيات ٢٠-٢٣.

عِيشِي، قُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِي. جَعَلْتُكِ رَبْوَةً، كَنَبَاتِ الْحَقْلِ، فَرَبَوْتِ وَكَبُرْتِ، وَبَلَغْتِ زِينَةَ الأَزْيَانِ. نَهَدَ ثَدْيَاكِ، وَنَبَتَ شَعْرُكِ، وَقَدْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً. فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ، وَإِذَا زَمَنُكِ زَمَنُ الْحُبِّ. فَبَسَطْتُ ذَيْلِي عَلَيْكِ، وَسَتَرْتُ عَوْرَتَكِ، وَحَلَفْتُ لَكِ، وَدَخَلْتُ مَعَكِ فِي عَهْدٍ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَصِرْتِ لِي. فَحَمَّمْتُكِ بِالْمَاءِ، وَغَسَلْتُ عَنْكِ دِمَاءَكِ، وَمَسَحْتُكِ بِالزَّيْتِ، وَأَلْبَسْتُكِ مُطَرَّزَةً، وَنَعَلْتُكِ بِالتُّخَسِ، وَأَزَّرْتُكِ بِالْكَتَّانِ، وَكَسَوْتُكِ بَزًّا، وَحَلَّيْتُكِ بِالْحُلِيِّ، فَوَضَعْتُ أَسْوِرَةً فِي يَدَيْكِ وَطَوْقًا فِي عُنُقِكِ. وَوَضَعْتُ خِزَامَةً فِي أَنْفِكِ وَأَقْرَاطًا فِي أُذُنَيْكِ وَتَاجَ جَمَالٍ عَلَى رَأْسِكِ. فَتَحَلَّيْتِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلِبَاسُكِ الْكَتَّانُ وَالْبَزُّ وَالْمُطَرَّزُ. وَأَكَلْتِ السَّمِيذَ وَالْعَسَلَ وَالزَّيْتَ، وَجَمُلْتِ جِدًّا جِدًّا، فَصَلُحْتِ لِمَمْلَكَةٍ. وَخَرَجَ لَكِ اسْمٌ فِي الأُمَمِ لِجَمَالِكِ، لأَنَّهُ كَانَ كَامِلًا بِبَهَائِي الَّذِي جَعَلْتُهُ عَلَيْكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. فَاتَّكَلْتِ عَلَى جَمَالِكِ، وَزَنَيْتِ عَلَى اسْمِكِ، وَسَكَبْتِ زِنَاكِ عَلَى كُلِّ عَابِرٍ فَكَانَ لَهُ. وَأَخَذْتِ مِنْ ثِيَابِكِ وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَاتٍ مُوَشَّاةٍ، وَزَنَيْتِ عَلَيْهَا. أَمْرٌ لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يَكُنْ. وَأَخَذْتِ أَمْتِعَةَ زِينَتِكِ مِنْ ذَهَبِي وَمِنْ فِضَّتِي الَّتِي أَعْطَيْتُكِ، وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ صُوَرَ ذُكُورٍ وَزَنَيْتِ بِهَا. وَأَخَذْتِ ثِيَابَكِ الْمُطَرَّزَةَ وَغَطَّيْتِهَا بِهَا، وَوَضَعْتِ أَمَامَهَا زَيْتِي وَبَخُورِي. وَخُبْزِي الَّذِي أَعْطَيْتُكِ، السَّمِيذَ وَالزَّيْتَ وَالْعَسَلَ الَّذِي أَطْعَمْتُكِ، وَضَعْتِهَا أَمَامَهَا رَائِحَةَ سُرُورٍ. وَهكَذَا كَانَ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. أَخَذْتِ بَنِيكِ وَبَنَاتِكِ الَّذِينَ وَلَدْتِهِمْ لِي، وَذَبَحْتِهِمْ لَهَا طَعَامًا. أَهُوَ قَلِيلٌ مِنْ زِنَاكِ أَنَّكِ ذَبَحْتِ بَنِيَّ وَجَعَلْتِهِمْ يَجُوزُونَ فِي النَّارِ لَهَا؟ وَفِي كُلِّ رَجَاسَاتِكِ وَزِنَاكِ لَمْ تَذْكُرِي أَيَّامَ صِبَاكِ، إِذْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً، وَكُنْتِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ. وَكَانَ بَعْدَ كُلِّ شَرِّكِ. وَيْلٌ، وَيْلٌ لَكِ! يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، أَنَّكِ بَنَيْتِ لِنَفْسِكِ قُبَّةً وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَةً فِي كُلِّ شَارِعٍ. فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ بَنَيْتِ مُرْتَفَعَتَكِ وَرَجَّسْتِ جَمَالَكِ، وَفَرَّجْتِ رِجْلَيْكِ لِكُلِّ عَابِرٍ

وَأَكْثَرْتِ زِنَاكِ. وَزَنَيْتِ مَعَ جِيرَانِكِ بَنِي مِصْرَ الْغِلاَظِ اللَّحْمِ، وَزِدْتِ فِي زِنَاكِ لإِغَاظَتِي. فَهأَنَذَا قَدْ مَدَدْتُ يَدِي عَلَيْكِ، وَمَنَعْتُ عَنْكِ فَرِيضَتَكِ، وَأَسْلَمْتُكِ لِمَرَامِ مُبْغِضَاتِكِ، بَنَاتِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ، اللَّوَاتِي يَخْجَلْنَ مِنْ طَرِيقِكِ الرَّذِيلَةِ. وَزَنَيْتِ مَعَ بَنِي أَشُّورَ، إِذْ كُنْتِ لَمْ تَشْبَعِي فَزَنَيْتِ بِهِمْ، وَلَمْ تَشْبَعِي أَيْضًا. وَكَثَّرْتِ زِنَاكِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ، وَبِهذَا أَيْضًا لَمْ تَشْبَعِي. مَا أَمْرَضَ قَلْبَكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِذْ فَعَلْتِ كُلَّ هَذَا فِعْلَ امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ سَلِيطَةٍ، بِبِنَائِكِ قُبَّتَكِ فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ، وَصُنْعِكِ مُرْتَفَعَتَكِ فِي كُلِّ شَارِعٍ. وَلَمْ تَكُونِي كَزَانِيَةٍ، بَلْ مُحْتَقِرَةً الأُجْرَةَ. أَيَّتُهَا الزَّوْجَةُ الْفَاسِقَةُ، تَأْخُذُ أَجْنَبِيِّينَ مَكَانَ زَوْجِهَا. لِكُلِّ الزَّوَانِي يُعْطُونَ هَدِيَّةً، أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ أَعْطَيْتِ كُلَّ مُحِبِّيكِ هَدَايَاكِ، وَرَشَيْتِهِمْ لِيَأْتُوكِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلزِّنَى بِكِ. وَصَارَ فِيكِ عَكْسُ عَادَةِ النِّسَاءِ فِي زِنَاكِ، إِذْ لَمْ يُزْنَ وَرَاءَكِ، بَلْ أَنْتِ تُعْطِينَ أُجْرَةً وَلاَ أُجْرَةَ تُعْطَى لَكِ، فَصِرْتِ بِالْعَكْسِ. فَلِذلِكَ يَا زَانِيَةُ اسْمَعِي كَلاَمَ الرَّبِّ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أُنْفِقَ نُحَاسُكِ وَانْكَشَفَتْ عَوْرَتُكِ بِزِنَاكِ بِمُحِبِّيكِ وَبِكُلِّ أَصْنَامِ رَجَاسَاتِكِ، وَلِدِمَاءِ بَنِيكِ الَّذِينَ بَذَلْتِهِمْ لَهَا، لِذلِكَ هأَنَذَا أَجْمَعُ جَمِيعَ مُحِبِّيكِ الَّذِينَ لَذَذْتِ لَهُمْ، وَكُلَّ الَّذِينَ أَحْبَبْتِهِمْ مَعَ كُلِّ الَّذِينَ أَبْغَضْتِهِمْ، فَأَجْمَعُهُمْ عَلَيْكِ مِنْ حَوْلِكِ، وَأَكْشِفُ عَوْرَتَكِ لَهُمْ لِيَنْظُرُوا كُلَّ عَوْرَتِكِ. وَأَحْكُمُ عَلَيْكِ أَحْكَامَ الْفَاسِقَاتِ السَّافِكَاتِ الدَّمِ، وَأَجْعَلُكِ دَمَ السَّخَطِ وَالْغَيْرَةِ. وَأُسَلِّمُكِ لِيَدِهِمْ فَيَهْدِمُونَ قُبَّتَكِ وَيُهَدِّمُونَ مُرْتَفَعَاتِكِ، وَيَنْزِعُونَ عَنْكِ ثِيَابَكِ، وَيَأْخُذُونَ أَدَوَاتِ زِينَتِكِ، وَيَتْرُكُونَكِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً. وَيُصْعِدُونَ عَلَيْكِ جَمَاعَةً، وَيَرْجُمُونَكِ بِالْحِجَارَةِ وَيَقْطَعُونَكِ بِسُيُوفِهِمْ، وَيُحْرِقُونَ بُيُوتَكِ بِالنَّارِ، وَيُجْرُونَ عَلَيْكِ أَحْكَامًا قُدَّامَ عُيُونِ نِسَاءٍ كَثِيرَةٍ. وَأَكُفُّكِ عَنِ الزِّنَا، وَأَيْضًا لاَ تُعْطِينَ أُجْرَةً بَعْدُ. وَأُحِلُّ غَضَبِي بِكِ فَتَنْصَرِفُ غَيْرَتِي عَنْكِ، فَأَسْكُنُ وَلاَ أَغْضَبُ بَعْدُ. مِنْ أَجْلِ أَنَّكِ لَمْ تَذْكُرِي أَيَّامَ صِبَاكِ، بَلْ أَسْخَطْتِنِي

فِي كُلِّ هَذِهِ، فَهَأَنَذَا أَيْضًا أَجْلِبُ طَرِيقَكِ عَلَى رَأْسِكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَلَا تَفْعَلِينَ هَذِهِ الرَّذِيلَةَ فَوْقَ رَجَاسَاتِكِ كُلِّهَا»(١).

واشتمل العهد القديم، على تصويرات إباحيّة خليعة فاجرة:

«وَكَانَ إِلَيَّ كَلَامُ الرَّبِّ قَائِلًا: يَا ابْنَ آدَمَ، كَانَ امْرَأَتَانِ ابْنَتَا أُمٍّ وَاحِدَةٍ، وَزَنَتَا بِمِصْرَ. فِي صِبَاهُمَا زَنَتَا. هُنَاكَ دُغْدِغَتْ ثُدِيُّهُمَا، وَهُنَاكَ تَزَغْزَغَتْ تَرَائِبُ عُذْرَتِهِمَا. وَاسْمُهُمَا: أُهُولَةُ الْكَبِيرَةُ، وَأُهُولِيبَةُ أُخْتُهَا. وَكَانَتَا لِي، وَوَلَدَتَا بَنِينَ وَبَنَاتٍ. وَاسْمَاهُمَا: السَّامِرَةُ أُهُولَةُ، وَأُورُشَلِيمُ أُهُولِيبَةُ. وَزَنَتْ أُهُولَةُ مِنْ تَحْتِي وَعَشِقَتْ مُحِبِّيهَا، أَشُّورَ الْأَبْطَالَ اللَّابِسِينَ الْأَسْمَانْجُونِيَّ وُلَاةً وَشِحَنًا، كُلُّهُمْ شُبَّانُ شَهْوَةٍ، فُرْسَانٌ رَاكِبُونَ الْخَيْلَ. فَدَفَعَتْ لَهُمْ عُقْرَهَا لِمُخْتَارِي بَنِي أَشُّورَ كُلِّهِمْ، وَتَنَجَّسَتْ بِكُلِّ مَنْ عَشِقَتْهُمْ بِكُلِّ أَصْنَامِهِمْ. وَلَمْ تَتْرُكْ زِنَاهَا مِنْ مِصْرَ أَيْضًا، لِأَنَّهُمْ ضَاجَعُوهَا فِي صِبَاهَا، وَزَغْزَغُوا تَرَائِبَ عِذْرَتِهَا وَسَكَبُوا عَلَيْهَا زِنَاهُمْ. لِذَلِكَ سَلَّمْتُهَا لِيَدِ عُشَّاقِهَا، لِيَدِ بَنِي أَشُّورَ الَّذِينَ عَشِقَتْهُمْ. هُمْ كَشَفُوا عَوْرَتَهَا. أَخَذُوا بَنِيهَا وَبَنَاتِهَا، وَذَبَحُوهَا بِالسَّيْفِ، فَصَارَتْ عِبْرَةً لِلنِّسَاءِ. وَأَجْرَوْا عَلَيْهَا حُكْمًا. فَلَمَّا رَأَتْ أُخْتُهَا أُهُولِيبَةُ ذَلِكَ أَفْسَدَتْ فِي عِشْقِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، وَفِي زِنَاهَا أَكْثَرَ مِنْ زِنَى أُخْتِهَا. عَشِقَتْ بَنِي أَشُّورَ الْوُلَاةَ وَالشِّحَنَ الْأَبْطَالَ اللَّابِسِينَ أَفْخَرَ لِبَاسٍ، فُرْسَانًا رَاكِبِينَ الْخَيْلَ كُلُّهُمْ شُبَّانُ شَهْوَةٍ. فَرَأَيْتُ أَنَّهَا قَدْ تَنَجَّسَتْ، وَلِكِلْتَيْهِمَا طَرِيقٌ وَاحِدَةٌ. وَزَادَتْ زِنَاهَا. وَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَى رِجَالٍ مُصَوَّرِينَ عَلَى الْحَائِطِ، صُوَرُ الْكَلْدَانِيِّينَ مُصَوَّرَةٍ بِمُغْرَةٍ، مُنَطَّقِينَ بِمَنَاطِقَ عَلَى أَحْقَائِهِمْ، عَمَائِمُهُمْ مَسْدُولَةٌ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. كُلُّهُمْ فِي الْمَنْظَرِ رُؤَسَاءُ مَرْكَبَاتٍ شِبْهُ بَنِي بَابِلَ الْكَلْدَانِيِّينَ أَرْضُ مِيلَادِهِمْ، عَشِقَتْهُمْ عِنْدَ لَمْحِ عَيْنَيْهَا إِيَّاهُمْ، وَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ رُسُلًا إِلَى أَرْضِ

---

(١) سفر حزقيال، الفصل ١٦، الآيات ١-٤٣.

الْكَلْدَانِيِّينَ. فَأَتَاهَا بَنُو بَابِلَ فِي مَضْجَعِ الْحُبِّ وَنَجَّسُوهَا بِزِنَاهُمْ، فَتَنَجَّسَتْ بِهِمْ، وجَفَتْهُمْ نَفْسُهَا. وَكَشَفَتْ زِنَاهَا وَكَشَفَتْ عَوْرَتَهَا، فَجَفَتْهَا نَفْسِي، كَمَا جَفَتْ نَفْسِي أُخْتَهَا. وَأَكْثَرَتْ زِنَاهَا بِذِكْرِهَا أَيَّامَ صِبَاهَا الَّتِي فِيهَا زَنَتْ بِأَرْضِ مِصْرَ. وَعَشِقَتْ مَعْشُوقِيهِمِ الَّذِينَ لَحْمُهُمْ كَلَحْمِ الْحَمِيرِ وَمَنِيُّهُمْ كَمَنِيِّ الْخَيْلِ. وَافْتَقَدْتِ رَذِيلَةَ صِبَاكِ بِزَغْزَغَةِ الْمِصْرِيِّينَ تَرَائِبَكِ لِأَجْلِ ثَدْيِ صِبَاكِ. لِأَجْلِ ذَلِكَ يَا أُهُولِيبَةُ، هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَأَنَذَا أُهَيِّجُ عَلَيْكِ عُشَّاقَكِ الَّذِينَ جَفَتْهُمْ نَفْسُكِ، وَآتِي بِهِمْ عَلَيْكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ: بَنِي بَابِلَ وَكُلَّ الْكَلْدَانِيِّينَ، فَقُودَ وَشُوعَ وَقُوعَ، وَمَعَهُمْ كُلُّ بَنِي أَشُّورَ، شُبَّانُ شَهْوَةٍ، وُلاَةٌ وَشِحَنٌ كُلُّهُمْ رُؤَسَاءُ مَرْكَبَاتٍ وَشُهَرَاءُ. كُلُّهُمْ رَاكِبُونَ الْخَيْلَ. فَيَأْتُونَ عَلَيْكِ بِأَسْلِحَةٍ مَرْكَبَاتٍ وَعَجَلاَتٍ، وَبِجَمَاعَةِ شُعُوبٍ يُقِيمُونَ عَلَيْكِ التُّرْسَ وَالْمِجَنَّ وَالْخُوذَةَ مِنْ حَوْلِكِ، وَأُسَلِّمُ لَهُمُ الْحُكْمَ فَيَحْكُمُونَ عَلَيْكِ بِأَحْكَامِهِمْ. وَأَجْعَلُ غَيْرَتِي عَلَيْكِ، فَيُعَامِلُونَكِ بِالسَّخَطِ. يَقْطَعُونَ أَنْفَكِ وَأُذُنَيْكِ، وَبَقِيَّتُكِ تَسْقُطُ بِالسَّيْفِ. يَأْخُذُونَ بَنِيكِ وَبَنَاتِكِ، وَتُؤْكَلُ بَقِيَّتُكِ بِالنَّارِ. وَيَنْزِعُونَ عَنْكِ ثِيَابَكِ، وَيَأْخُذُونَ أَدَوَاتِ زِينَتِكِ. وَأُبَطِّلُ رَذِيلَتَكِ عَنْكِ، وَزِنَاكِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فَلاَ تَرْفَعِينَ عَيْنَيْكِ إِلَيْهِمْ، وَلاَ تَذْكُرِينَ مِصْرَ بَعْدُ. لِأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَأَنَذَا أُسَلِّمُكِ لِيَدِ الَّذِينَ أَبْغَضْتِهِمْ، لِيَدِ الَّذِينَ جَفَتْهُمْ نَفْسُكِ. فَيُعَامِلُونَكِ بِالْبُغْضَاءِ وَيَأْخُذُونَ كُلَّ تَعَبِكِ، وَيَتْرُكُونَكِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً، فَتَنْكَشِفُ عَوْرَةُ زِنَاكِ وَرَذِيلَتُكِ وَزِنَاكِ. أَفْعَلُ بِكِ هَذَا لِأَنَّكِ زَنَيْتِ وَرَاءَ الأُمَمِ، لِأَنَّكِ تَنَجَّسْتِ بِأَصْنَامِهِمْ. فِي طَرِيقِ أُخْتِكِ سَلَكْتِ فَأَدْفَعُ كَأْسَهَا لِيَدِكِ. هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: إِنَّكِ تَشْرَبِينَ كَأْسَ أُخْتِكِ الْعَمِيقَةَ الْكَبِيرَةَ. تَكُونِينَ لِلضَّحِكِ وَلِلاِسْتِهْزَاءِ. تَسَعُ كَثِيرًا. تَمْتَلِئِينَ سُكْرًا وَحُزْنًا، كَأْسَ التَّحَيُّرِ وَالْخَرَابِ، كَأْسَ أُخْتِكِ السَّامِرَةِ. فَتَشْرَبِينَهَا وَتَمْتَصِّينَهَا وَتَقْضَمِينَ شُقَفَهَا وَتَجْتَثِّينَ ثَدْيَيْكِ، لِأَنِّي تَكَلَّمْتُ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ

السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّكِ نَسِيتِنِي وَطَرَحْتِنِي وَرَاءَ ظَهْرِكِ، فَتَحْمِلِي أَيْضًا رَذِيلَتَكِ وَزِنَاكِ. وَقَالَ الرَّبُّ لِي: يَا ابْنَ آدَمَ، أَتَحْكُمُ عَلَى أُهُولَةَ وَأُهُولِيبَةَ؟ بَلْ أَخْبِرْهُمَا بِرَجَاسَاتِهِمَا، لِأَنَّهُمَا قَدْ زَنَتَا وَفِي أَيْدِيهِمَا دَمٌ، وَزَنَتَا بِأَصْنَامِهِمَا وَأَيْضًا أَجَازَتَا بَنِيهِمَا الَّذِينَ وَلَدَتَاهُمْ لِي النَّارَ أَكْلًا لَهَا. وَفَعَلَتَا أَيْضًا بِي هَذَا: نَجَّسَتَا مَقْدِسِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَدَنَّسَتَا سُبُوتِي. وَلَمَّا ذَبَحَتَا بَنِيهِمَا لِأَصْنَامِهِمَا، أَتَتَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى مَقْدِسِي لِتُنَجِّسَاهُ. فَهُوَذَا هَكَذَا فَعَلَتَا فِي وَسْطِ بَيْتِي. بَلْ أَرْسَلْتُمَا إِلَى رِجَالٍ آتِينَ مِنْ بَعِيدٍ. الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولٌ فَهُوَذَا جَاءُوا. هُمُ الَّذِينَ لِأَجْلِهِمِ اسْتَحْمَمْتِ وَكَحَّلْتِ عَيْنَيْكِ وَتَحَلَّيْتِ بِالْحُلِيِّ، وَجَلَسْتِ عَلَى سَرِيرٍ فَاخِرٍ أَمَامَهُ مَائِدَةٌ مُنَضَّدَةٌ، وَوَضَعْتِ عَلَيْهَا بَخُورِي وَزَيْتِي. وَصَوْتُ جُمْهُورٍ مُتَرَفِّهِينَ مَعَهَا، مَعَ أُنَاسٍ مِنْ رَعَاعِ الْخَلْقِ. أُتِيَ بِسَكَارَى مِنَ الْبَرِّيَّةِ، الَّذِينَ جَعَلُوا أَسْوِرَةً عَلَى أَيْدِيهِمَا وَتَاجَ جَمَالٍ عَلَى رُؤُوسِهِمَا. فَقُلْتُ عَنِ الْبَالِيَةِ فِي الزِّنَى: الْآنَ يَزْنُونَ زِنًى مَعَهَا وَهِيَ. فَدَخَلُوا عَلَيْهَا كَمَا يُدْخَلُ عَلَى امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ. هَكَذَا دَخَلُوا عَلَى أُهُولَةَ وَعَلَى أُهُولِيبَةَ الْمَرْأَتَيْنِ الزَّانِيَتَيْنِ. وَالرِّجَالُ الصِّدِّيقُونَ هُمْ يَحْكُمُونَ عَلَيْهِمَا حُكْمَ زَانِيَةٍ وَحُكْمَ سَفَّاكَةِ الدَّمِ، لِأَنَّهُمَا زَانِيَتَانِ وَفِي أَيْدِيهِمَا دَمٌ. لِأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: إِنِّي أُصْعِدُ عَلَيْهِمَا جَمَاعَةً وَأُسَلِّمُهُمَا لِلْجَوْرِ وَالنَّهْبِ. وَتَرْجُمُهُمَا الْجَمَاعَةُ بِالْحِجَارَةِ، وَيُقَطِّعُونَهُمَا بِسُيُوفِهِمْ، وَيَذْبَحُونَ أَبْنَاءَهُمَا وَبَنَاتِهِمَا، وَيُحْرِقُونَ بُيُوتَهُمَا بِالنَّارِ. فَأُبَطِّلُ الرَّذِيلَةَ مِنَ الْأَرْضِ، فَتَتَأَدَّبُ جَمِيعُ النِّسَاءِ، وَلَا يَفْعَلْنَ مِثْلَ رَذِيلَتِكُمَا. وَيَرُدُّونَ عَلَيْكُمَا رَذِيلَتَكُمَا، فَتَحْمِلَانِ خَطَايَا أَصْنَامِكُمَا، وَتَعْلَمَانِ أَنِّي أَنَا السَّيِّدُ الرَّبُّ»[1].

واشتمل العهد القديم - فوق ذلك كلّه - على شعر غزل ماجن، في

(١) سفر حزقيال، الفصل ٢٣، الآيات ١-٤٩.

سفر كامل، هو (نشيد الأنشاد)(١):

«نَشِيدُ الْأَنْشَادِ الَّذِي لِسُلَيْمَانَ: لِيُقَبِّلْنِي بِقُبْلَاتِ فَمِهِ، لِأَنَّ حُبَّكَ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْرِ. لِرَائِحَةِ أَدْهَانِكَ الطَّيِّبَةِ. اسْمُكَ دُهْنٌ مُهْرَاقٌ، لِذلِكَ أَحَبَّتْكَ الْعَذَارَى. اجْذُبْنِي وَرَاءَكَ فَنَجْرِيَ. أَدْخَلَنِي الْمَلِكُ إِلَى حِجَالِهِ. نَبْتَهِجُ وَنَفْرَحُ بِكَ. نَذْكُرُ حُبَّكَ أَكْثَرَ مِنَ الْخَمْرِ. بِالْحَقِّ يُحِبُّونَكَ. أَنَا سَوْدَاءُ وَجَمِيلَةٌ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ، كَخِيَامِ قِيدَارَ، كَشُقَقِ سُلَيْمَانَ. لَا تَنْظُرْنَ إِلَيَّ لِكَوْنِي سَوْدَاءَ، لِأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ لَوَّحَتْنِي. بَنُو أُمِّي غَضِبُوا عَلَيَّ. جَعَلُونِي نَاطُورَةَ الْكُرُومِ. أَمَّا كَرْمِي فَلَمْ أَنْطُرْهُ. أَخْبِرْنِي يَا مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي، أَيْنَ تَرْعَى، أَيْنَ تُرْبِضُ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ. لِمَاذَا أَنَا أَكُونُ كَمُقَنَّعَةٍ عِنْدَ قُطْعَانِ أَصْحَابِكَ؟ إِنْ لَمْ تَعْرِفِي أَيَّتُهَا الْجَمِيلَةُ بَيْنَ النِّسَاءِ، فَاخْرُجِي عَلَى آثَارِ الْغَنَمِ، وَارْعَيْ جِدَاءَكِ عِنْدَ مَسَاكِنِ الرُّعَاةِ. لَقَدْ شَبَّهْتُكِ يَا حَبِيبَتِي بِفَرَسٍ فِي مَرْكَبَاتِ فِرْعَوْنَ. مَا أَجْمَلَ خَدَّيْكِ بِسُمُوطٍ، وَعُنُقَكِ بِقَلَائِدَ! نَصْنَعُ لَكِ سَلَاسِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَعَ جُمَانٍ مِنْ فِضَّةٍ. مَا دَامَ الْمَلِكُ فِي مَجْلِسِهِ أَفَاحَ نَارِدِينِي رَائِحَتَهُ. صُرَّةُ الْمُرِّ حَبِيبِي لِي. بَيْنَ ثَدْيَيَّ يَبِيتُ. طَاقَةُ فَاغِيَةٍ حَبِيبِي لِي فِي كُرُومِ عَيْنِ جَدْيٍ. هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِي، هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ. عَيْنَاكِ حَمَامَتَانِ. هَا أَنْتَ جَمِيلٌ يَا حَبِيبِي وَحُلْوٌ، وَسَرِيرُنَا أَخْضَرُ. جَوَائِزُ بَيْتِنَا أَرْزٌ، وَرَوَافِدُنَا سَرْوٌ. أَنَا نَرْجِسُ شَارُونَ، سَوْسَنَةُ الْأَوْدِيَةِ. كَالسَّوْسَنَةِ بَيْنَ الشَّوْكِ كَذلِكَ حَبِيبَتِي بَيْنَ الْبَنَاتِ. كَالتُّفَّاحِ بَيْنَ شَجَرِ الْوَعْرِ كَذلِكَ حَبِيبِي بَيْنَ الْبَنِينَ. تَحْتَ ظِلِّهِ اشْتَهَيْتُ أَنْ أَجْلِسَ، وَثَمَرَتُهُ حُلْوَةٌ لِحَلْقِي. أَدْخَلَنِي إِلَى بَيْتِ الْخَمْرِ، وَعَلَمُهُ فَوْقِي مَحَبَّةٌ. أَسْنِدُونِي بِأَقْرَاصِ الزَّبِيبِ. أَنْعِشُونِي بِالتُّفَّاحِ، فَإِنِّي مَرِيضَةٌ حُبًّا. شِمَالُهُ تَحْتَ رَأْسِي وَيَمِينُهُ تُعَانِقُنِي. أُحَلِّفُكُنَّ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ بِالظِّبَاءِ وَبِأَيَائِلِ الْحُقُولِ، أَلَّا تُيَقِّظْنَ

---

(١) سفر نشيد الأنشاد، من الفصل ١، الآية ١، إلى الفصل ٨، الآية ١٤.

وَلَا تُنَبِّهْنَ الْحَبِيبَ حَتَّى يَشَاءَ. صَوْتُ حَبِيبِي. هُوَذَا آتٍ طَافِرًا عَلَى الْجِبَالِ، قَافِزًا عَلَى التِّلَالِ. حَبِيبِي هُوَ شَبِيهٌ بِالظَّبْيِ أَوْ بِغُفْرِ الْأَيَائِلِ. هُوَذَا وَاقِفٌ وَرَاءَ حَائِطِنَا، يَتَطَلَّعُ مِنَ الْكُوَى، يُوَصْوِصُ مِنَ الشَّبَابِيكِ. أَجَابَ حَبِيبِي، وَقَالَ لِي: قُومِي يَا حَبِيبَتِي، يَاجَمِيلَتِي وَتَعَالَيْ. لِأَنَّ الشِّتَاءَ قَدْ مَضَى، وَالْمَطَرَ مَرَّ وَزَالَ. الزُّهُورُ ظَهَرَتْ فِي الْأَرْضِ. بَلَغَ أَوَانُ الْقَضْبِ، وَصَوْتُ الْيَمَامَةِ سُمِعَ فِي أَرْضِنَا. التِّينَةُ أَخْرَجَتْ فِجَّهَا، وَقُعَالُ الْكُرُومِ تُفِيحُ رَائِحَتَهَا. قُومِي يَا حَبِيبَتِي، يَا جَمِيلَتِي وَتَعَالَيْ. يَا حَمَامَتِي فِي مَحَاجِئِ الصَّخْرِ، فِي سِتْرِ الْمَعَاقِلِ، أَرِينِي وَجْهَكِ، أَسْمِعِينِي صَوْتَكِ، لِأَنَّ صَوْتَكِ لَطِيفٌ وَوَجْهَكِ جَمِيلٌ. خُذُوا لَنَا الثَّعَالِبَ، الثَّعَالِبَ الصِّغَارَ الْمُفْسِدَةَ الْكُرُومِ، لِأَنَّ كُرُومَنَا قَدْ أَقْعَلَتْ. حَبِيبِي لِي وَأَنَا لَهُ. الرَّاعِي بَيْنَ السَّوْسَنِ. إِلَى أَنْ يَفِيحَ النَّهَارُ وَتَنْهَزِمَ الظِّلَالُ، ارْجِعْ وَأَشْبِهْ يَا حَبِيبِي الظَّبْيَ أَوْ غُفْرَ الْأَيَائِلِ عَلَى الْجِبَالِ الْمُشَعَّبَةِ. فِي اللَّيْلِ عَلَى فِرَاشِي طَلَبْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ. إِنِّي أَقُومُ وَأَطُوفُ فِي الْمَدِينَةِ، فِي الْأَسْوَاقِ وَفِي الشَّوَارِعِ، أَطْلُبُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ. وَجَدَنِي الْحَرَسُ الطَّائِفُ فِي الْمَدِينَةِ، فَقُلْتُ: أَرَأَيْتُمْ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي؟ فَمَا جَاوَزْتُهُمْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى وَجَدْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي، فَأَمْسَكْتُهُ وَلَمْ أَرْخِهِ، حَتَّى أَدْخَلْتُهُ بَيْتَ أُمِّي وَحُجْرَةَ مَنْ حَبِلَتْ بِي. أُحَلِّفُكُنَّ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ بِالظِّبَاءِ وَبِأَيَائِلِ الْحَقْلِ، أَلَّا تُيَقِّظْنَ وَلَا تُنَبِّهْنَ الْحَبِيبَ حَتَّى يَشَاءَ. مَنْ هَذِهِ الطَّالِعَةُ مِنَ الْبَرِّيَّةِ كَأَعْمِدَةٍ مِنْ دُخَانٍ، مُعَطَّرَةً بِالْمُرِّ وَاللُّبَانِ وَبِكُلِّ أَذِرَّةِ التَّاجِرِ؟ هُوَذَا تَخْتُ سُلَيْمَانَ حَوْلَهُ سِتُّونَ جَبَّارًا مِنْ جَبَابِرَةِ إِسْرَائِيلَ. كُلُّهُمْ قَابِضُونَ سُيُوفًا وَمُتَعَلِّمُونَ الْحَرْبَ. كُلُّ رَجُلٍ سَيْفُهُ عَلَى فَخْذِهِ مِنْ هَوْلِ اللَّيْلِ. الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ عَمِلَ لِنَفْسِهِ تَخْتًا مِنْ خَشَبِ لُبْنَانَ. عَمِلَ أَعْمِدَتَهُ فِضَّةً، وَرَوَافِدَهُ ذَهَبًا، وَمَقْعَدَهُ أُرْجُوانًا، وَوَسَطَهُ مَرْصُوفًا مَحَبَّةً مِنْ بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ. اخْرُجْنَ يَا بَنَاتِ صِهْيَوْنَ، وَانْظُرْنَ الْمَلِكَ سُلَيْمَانَ بِالتَّاجِ الَّذِي تَوَّجَتْهُ بِهِ أُمُّهُ فِي يَوْمِ

عُرْسِهِ، وَفِي يَوْمِ فَرَحِ قَلْبِهِ. هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِي، هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ! عَيْنَاكِ حَمَامَتَانِ مِنْ تَحْتِ نَقَابِكِ. شَعْرُكِ كَقَطِيعِ مِعْزٍ رَابِضٍ عَلَى جَبَلِ جِلْعَادَ. أَسْنَانُكِ كَقَطِيعِ الجَزَائِزِ الصَّادِرَةِ مِنَ الْغَسْلِ، اللَّوَاتِي كُلُّ وَاحِدَةٍ مُتْئِمٌ، وَلَيْسَ فِيهِنَّ عَقِيمٌ. شَفَتَاكِ كَسِلْكَةٍ مِنَ الْقِرْمِزِ، وَفَمُكِ حُلْوٌ. خَدُّكِ كَفِلْقَةِ رُمَّانَةٍ تَحْتَ نَقَابِكِ. عُنُقُكِ كَبُرْجِ دَاوُدَ الْمَبْنِيِّ لِلأَسْلِحَةِ. أَلْفُ مِجَنٍّ عُلِّقَ عَلَيْهِ، كُلُّهَا أَتْرَاسُ الْجَبَابِرَةِ. ثَدْيَاكِ كَخِشْفَتَيْ ظَبْيَةٍ، تَوْأَمَيْنِ يَرْعَيَانِ بَيْنَ السَّوْسَنِ. إِلَى أَنْ يَفِيحَ النَّهَارُ وَتَنْهَزِمَ الظِّلاَلُ، أَذْهَبُ إِلَى جَبَلِ الْمُرِّ وَإِلَى تَلِّ اللُّبَانِ. كُلُّكِ جَمِيلٌ يَا حَبِيبَتِي لَيْسَ فِيكِ عَيْبَةٌ. هَلُمِّي مَعِي مِنْ لُبْنَانَ يَا عَرُوسُ، مَعِي مِنْ لُبْنَانَ! انْظُرِي مِنْ رَأْسِ أَمَانَةَ، مِنْ رَأْسِ شَنِيرَ وَحَرْمُونَ، مِنْ خُدُورِ الأُسُودِ، مِنْ جِبَالِ النُّمُورِ. قَدْ سَبَيْتِ قَلْبِي يَا أُخْتِي الْعَرُوسُ. قَدْ سَبَيْتِ قَلْبِي بِإِحْدَى عَيْنَيْكِ، بِقَلاَدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عُنُقِكِ. مَا أَحْسَنَ حُبَّكِ يَا أُخْتِي الْعَرُوسُ! كَمْ مَحَبَّتُكِ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْرِ! وَكَمْ رَائِحَةُ أَدْهَانِكِ أَطْيَبُ مِنْ كُلِّ الأَطْيَابِ! شَفَتَاكِ يَا عَرُوسُ تَقْطُرَانِ شَهْدًا. تَحْتَ لِسَانِكِ عَسَلٌ وَلَبَنٌ، وَرَائِحَةُ ثِيَابِكِ كَرَائِحَةِ لُبْنَانَ. أُخْتِي الْعَرُوسُ جَنَّةٌ مُغْلَقَةٌ، عَيْنٌ مُقْفَلَةٌ، يَنْبُوعٌ مَخْتُومٌ. أَغْرَاسُكِ فِرْدَوْسُ رُمَّانٍ مَعَ أَثْمَارٍ نَفِيسَةٍ، فَاغِيَةٍ وَنَارِدِينٍ. نَارِدِينٍ وَكُرْكُمٍ. قَصَبِ الذَّرِيرَةِ وَقِرْفَةٍ، مَعَ كُلِّ عُودِ اللُّبَانِ. مُرٌّ وَعُودٌ مَعَ كُلِّ أَنْفَسِ الأَطْيَابِ. يَنْبُوعُ جَنَّاتٍ، بِئْرُ مِيَاهٍ حَيَّةٍ، وَسُيُولٌ مِنْ لُبْنَانَ. اسْتَيْقِظِي يَا رِيحَ الشَّمَالِ، وَتَعَالَيْ يَا رِيحَ الْجَنُوبِ! هَبِّي عَلَى جَنَّتِي فَتَقْطُرَ أَطْيَابُهَا. لِيَأْتِ حَبِيبِي إِلَى جَنَّتِهِ وَيَأْكُلْ ثَمَرَهُ النَّفِيسَ. قَدْ دَخَلْتُ جَنَّتِي يَا أُخْتِي الْعَرُوسُ. قَطَفْتُ مُرِّي مَعَ طِيبِي. أَكَلْتُ شَهْدِي مَعَ عَسَلِي. شَرِبْتُ خَمْرِي مَعَ لَبَنِي. كُلُوا أَيُّهَا الأَصْحَابُ. اشْرَبُوا وَاسْكَرُوا أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ. أَنَا نَائِمَةٌ وَقَلْبِي مُسْتَيْقِظٌ. صَوْتُ حَبِيبِي قَارِعًا: افْتَحِي لِي يَا أُخْتِي، يَا حَبِيبَتِي، يَاحَمَامَتِي، يَا كَامِلَتِي! لأَنَّ رَأْسِي امْتَلأَ مِنَ الطَّلِّ، وَقُصَصِي مِنْ نُدَى اللَّيْلِ. قَدْ خَلَعْتُ ثَوْبِي، فَكَيْفَ أَلْبَسُهُ؟ قَدْ

غَسَلْتُ رِجْلَيَّ، فَكَيْفَ أُوَسِّخُهُمَا؟ حَبِيبِي مَدَّ يَدَهُ مِنَ الْكَوَّةِ، فَأَنَّتْ عَلَيْهِ أَحْشَائِي. قُمْتُ لِأَفْتَحَ لِحَبِيبِي وَيَدَايَ تَقْطُرَانِ مُرًّا، وَأَصَابِعِي مُرٌّ قَاطِرٌ عَلَى مَقْبَضِ الْقُفْلِ. فَتَحْتُ لِحَبِيبِي، لَكِنَّ حَبِيبِي تَحَوَّلَ وَعَبَرَ. نَفْسِي خَرَجَتْ عِنْدَمَا أَدْبَرَ. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ. دَعَوْتُهُ فَمَا أَجَابَنِي. وَجَدَنِي الْحَرَسُ الطَّائِفُ فِي الْمَدِينَةِ. ضَرَبُونِي. جَرَحُونِي. حَفَظَةُ الْأَسْوَارِ رَفَعُوا إِزَارِي عَنِّي. أُحَلِّفُكُنَّ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ إِنْ وَجَدْتُنَّ حَبِيبِي أَنْ تُخْبِرْنَهُ بِأَنِّي مَرِيضَةٌ حُبًّا. مَا حَبِيبُكِ مِنْ حَبِيبٍ أَيَّتُهَا الْجَمِيلَةُ بَيْنَ النِّسَاءِ! مَا حَبِيبُكِ مِنْ حَبِيبٍ حَتَّى تُحَلِّفِينَا هكَذَا! حَبِيبِي أَبْيَضُ وَأَحْمَرُ. مُعْلَمٌ بَيْنَ رَبْوَةٍ. رَأْسُهُ ذَهَبٌ إِبْرِيزٌ. قُصَصُهُ مُسْتَرْسِلَةٌ حَالِكَةٌ كَالْغُرَابِ. عَيْنَاهُ كَالْحَمَامِ عَلَى مَجَارِي الْمِيَاهِ، مَغْسُولَتَانِ بِاللَّبَنِ، جَالِسَتَانِ فِي وَقْبَيْهِمَا. خَدَّاهُ كَخَمِيلَةِ الطِّيبِ وَأَتْلَامِ رَيَاحِينَ ذَكِيَّةٍ. شَفَتَاهُ سُوْسَنٌ تَقْطُرَانِ مُرًّا مَائِعًا. يَدَاهُ حَلْقَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، مُرَصَّعَتَانِ بِالزَّبَرْجَدِ. بَطْنُهُ عَاجٌ أَبْيَضُ مُغَلَّفٌ بِالْيَاقُوتِ الْأَزْرَقِ. سَاقَاهُ عَمُودَا رُخَامٍ، مُؤَسَّسَتَانِ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ مِنْ إِبْرِيزٍ. طَلْعَتُهُ كَلُبْنَانَ. فَتًى كَالْأَرْزِ. حَلْقُهُ حَلَاوَةٌ وَكُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ. هَذَا حَبِيبِي، وَهَذَا خَلِيلِي، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ. أَيْنَ ذَهَبَ حَبِيبُكِ أَيَّتُهَا الْجَمِيلَةُ بَيْنَ النِّسَاءِ؟ أَيْنَ تَوَجَّهَ حَبِيبُكِ فَنَطْلُبَهُ مَعَكِ؟ حَبِيبِي نَزَلَ إِلَى جَنَّتِهِ، إِلَى خَمَائِلِ الطِّيبِ، لِيَرْعَى فِي الْجَنَّاتِ، وَيَجْمَعَ السَّوْسَنَ. أَنَا لِحَبِيبِي وَحَبِيبِي لِي. الرَّاعِي بَيْنَ السَّوْسَنِ. أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِي كَتِرْصَةَ، حَسَنَةٌ كَأُورُشَلِيمَ، مُرْهِبَةٌ كَجَيْشٍ بِأَلْوِيَةٍ. حَوِّلِي عَنِّي عَيْنَيْكِ فَإِنَّهُمَا قَدْ غَلَبَتَانِي. شَعْرُكِ كَقَطِيعِ الْمَعْزِ الرَّابِضِ فِي جِلْعَادَ. أَسْنَانُكِ كَقَطِيعِ نِعَاجٍ صَادِرَةٍ مِنَ الْغَسْلِ، اللَّوَاتِي كُلُّ وَاحِدَةٍ مُتْئِمٌ وَلَيْسَ فِيهَا عَقِيمٌ. كَفِلْقَةِ رُمَّانَةٍ خَدُّكِ تَحْتَ نَقَابِكِ. هُنَّ سِتُّونَ مَلِكَةً وَثَمَانُونَ سُرِّيَّةً وَعَذَارَى بِلَا عَدَدٍ. وَاحِدَةٌ هِيَ حَمَامَتِي كَامِلَتِي. الْوَحِيدَةُ لِأُمِّهَا هِيَ. عَقِيلَةُ وَالِدَتِهَا هِيَ. رَأَتْهَا الْبَنَاتُ فَطَوَّبْنَهَا. الْمَلِكَاتُ وَالسَّرَارِيُّ فَمَدَحْنَهَا. مَنْ هِيَ الْمُشْرِفَةُ مِثْلَ الصَّبَاحِ، جَمِيلَةٌ كَالْقَمَرِ،

طَاهِرَةٌ كَالشَّمْسِ، مُرْهِبَةٌ كَجَيْشٍ بِأَلْوِيَةٍ؟ نَزَلْتُ إِلَى جَنَّةِ الْجَوْزِ لِأَنْظُرَ إِلَى خُضَرِ الْوَادِي، وَلأَنْظُرَ: هَلْ أَقْعَلَ الْكَرْمُ؟ هَلْ نَوَّرَ الرُّمَّانُ؟ فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَقَدْ جَعَلَتْنِي نَفْسِي بَيْنَ مَرْكَبَاتِ قَوْمِ شَرِيفٍ. ارْجِعِي، ارْجِعِي يَا شُولَمِّيثُ. ارْجِعِي، ارْجِعِي فَنَنْظُرَ إِلَيْكِ. مَاذَا تَرَوْنَ فِي شُولَمِّيثَ، مِثْلَ رَقْصِ صَفَّيْنِ؟ مَا أَجْمَلَ رِجْلَيْكِ بِالنَّعْلَيْنِ يَا بِنْتَ الْكَرِيمِ! دَوَائِرُ فَخِذَيْكِ مِثْلُ الْحَلْيِ، صَنْعَةِ يَدَيْ صَنَّاعٍ. سُرَّتُكِ كَأْسٌ مُدَوَّرَةٌ، لَا يُعْوِزُهَا شَرَابٌ مَمْزُوجٌ. بَطْنُكِ صُبْرَةُ حِنْطَةٍ مُسَيَّجَةٌ بِالسَّوْسَنِ. ثَدْيَاكِ كَخِشْفَتَيْنِ، تَوْأَمَيْ ظَبْيَةٍ. عُنُقُكِ كَبُرْجٍ مِنْ عَاجٍ. عَيْنَاكِ كَالْبِرَكِ فِي حَشْبُونَ عِنْدَ بَابِ بَثِّ رَبِّيمَ. أَنْفُكِ كَبُرْجِ لُبْنَانَ النَّاظِرِ تُجَاهَ دِمَشْقَ. رَأْسُكِ عَلَيْكِ مِثْلُ الْكَرْمَلِ، وَشَعْرُ رَأْسِكِ كَأُرْجُوَانٍ. مَلِكٌ قَدْ أُسِرَ بِالْخُصَلِ. مَا أَجْمَلَكِ وَمَا أَحْلاَكِ أَيَّتُهَا الْحَبِيبَةُ بِاللَّذَّاتِ! قَامَتُكِ هَذِهِ شَبِيهَةٌ بِالنَّخْلَةِ، وَثَدْيَاكِ بِالْعَنَاقِيدِ. قُلْتُ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى النَّخْلَةِ وَأُمْسِكُ بِعُذُوقِهَا. وَتَكُونُ ثَدْيَاكِ كَعَنَاقِيدِ الْكَرْمِ، وَرَائِحَةُ أَنْفِكِ كَالتُّفَّاحِ، وَحَنَكُكِ كَأَجْوَدِ الْخَمْرِ. لِحَبِيبِي السَّائِغَةُ الْمُرَقْرِقَةُ السَّائِحَةُ عَلَى شِفَاهِ النَّائِمِينَ. أَنَا لِحَبِيبِي، وَإِلَيَّ اشْتِيَاقُهُ. تَعَالَ يَاحَبِيبِي لِنَخْرُجْ إِلَى الْحَقْلِ، وَلْنَبِتْ فِي الْقُرَى. لِنُبَكِّرَنَّ إِلَى الْكُرُومِ، لِنَنْظُرَ: هَلْ أَزْهَرَ الْكَرْمُ؟ هَلْ تَفَتَّحَ الْقُعَالُ؟ هَلْ نَوَّرَ الرُّمَّانُ؟ هُنَالِكَ أُعْطِيكَ حُبِّي. اللُّفَّاحُ يَفُوحُ رَائِحَةً، وَعِنْدَ أَبْوَابِنَا كُلُّ النَّفَائِسِ مِنْ جَدِيدَةٍ وَقَدِيمَةٍ، ذَخَرْتُهَا لَكَ يَاحَبِيبِي. لَيْتَكَ كَأَخٍ لِي الرَّاضِعِ ثَدْيَيْ أُمِّي، فَأَجِدَكَ فِي الْخَارِجِ وَأُقَبِّلَكَ وَلَا يُخْزُونَنِي. وَأَقُودُكَ وَأَدْخُلُ بِكَ بَيْتَ أُمِّي، وَهِيَ تُعَلِّمُنِي، فَأَسْقِيكَ مِنَ الْخَمْرِ الْمَمْزُوجَةِ مِنْ سُلاَفِ رُمَّانِي. شِمَالُهُ تَحْتَ رَأْسِي، وَيَمِينُهُ تُعَانِقُنِي. أُحَلِّفُكُنَّ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ أَلَّا تُيَقِّظْنَ وَلَا تُنَبِّهْنَ الْحَبِيبَ حَتَّى يَشَاءَ. مَنْ هَذِهِ الطَّالِعَةُ مِنَ الْبَرِّيَّةِ مُسْتَنِدَةً عَلَى حَبِيبِهَا؟ تَحْتَ شَجَرَةِ التُّفَّاحِ شَوَّقْتُكَ، هُنَاكَ خَطَبَتْ لَكَ أُمُّكَ، هُنَاكَ خَطَبَتْ لَكَ وَالِدَتُكَ. اجْعَلْنِي كَخَاتِمٍ عَلَى قَلْبِكَ، كَخَاتِمٍ عَلَى سَاعِدِكَ. لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ قَوِيَّةٌ كَالْمَوْتِ. الْغَيْرَةُ

قَاسِيَةٌ كَالْهَاوِيَةِ. لَهِيبُهَا لَهِيبُ نَارِ لَظَى الرَّبِّ. مِيَاهٌ كَثِيرَةٌ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْفِئَ الْمَحَبَّةَ، وَالسُّيُولُ لَا تَغْمُرُهَا. إِنْ أَعْطَى الْإِنْسَانُ كُلَّ ثَرْوَةِ بَيْتِهِ بَدَلَ الْمَحَبَّةِ، تُحْتَقَرُ احْتِقَارًا. لَنَا أُخْتٌ صَغِيرَةٌ لَيْسَ لَهَا ثَدْيَانِ. فَمَاذَا نَصْنَعُ لِأُخْتِنَا فِي يَوْمٍ تُخْطَبُ؟ إِنْ تَكُنْ سُورًا فَنَبْنِي عَلَيْهَا بُرْجَ فِضَّةٍ. وَإِنْ تَكُنْ بَابًا فَنَحْصُرُهَا بِأَلْوَاحِ أَرْزٍ. أَنَا سُورٌ وَثَدْيَايَ كَبُرْجَيْنِ. حِينَئِذٍ كُنْتُ فِي عَيْنَيْهِ كَوَاجِدَةٍ سَلَامَةً. كَانَ لِسُلَيْمَانَ كَرْمٌ فِي بَعْلَ هَامُونَ. دَفَعَ الْكَرْمَ إِلَى نَوَاطِيرَ، كُلُّ وَاحِدٍ يُؤَدِّي عَنْ ثَمَرِهِ أَلْفًا مِنَ الْفِضَّةِ. كَرْمِي الَّذِي لِي هُوَ أَمَامِي. الْأَلْفُ لَكَ يَا سُلَيْمَانُ، وَمِئَتَانِ لِنَوَاطِيرِ الثَّمَرِ. أَيَّتُهَا الْجَالِسَةُ فِي الْجَنَّاتِ، الْأَصْحَابُ يَسْمَعُونَ صَوْتَكِ، فَأَسْمِعِينِي. اهْرُبْ يَا حَبِيبِي، وَكُنْ كَالظَّبْيِ أَوْ كَغُفْرِ الْأَيَائِلِ عَلَى جِبَالِ الْأَطْيَابِ».

واشتمل (العهد القديم)، على الكثير من الخرافات والأكاذيب، منها:

- **الحيّة الملعونة**: «وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الْإِلَهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: أَحَقًّا قَالَ اللهُ لَا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لَا تَأْكُلَا مِنْهُ وَلَا تَمَسَّاهُ لِئَلَّا تَمُوتَا. فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لِأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ. وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الْإِلَهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الْإِلَهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنَادَى الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: أَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لِأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ. فَقَالَ: مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ

مِنْهَا؟ فَقَالَ آدَمُ: الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ. فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ لِلْمَرْأَةِ: مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ. فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ لِلْحَيَّةِ: لِأَنَّكِ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ. وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ. وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلَادًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ. وَقَالَ لِآدَمَ: لِأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لَا تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الْأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ. وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ حَوَّاءَ لِأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ. وَصَنَعَ الرَّبُّ الْإِلَهُ لِآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا. وَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ: هُوَذَا الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالْآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ. فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الْإِلَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الْأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. فَطَرَدَ الْإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ»(١).

- **برج بابل**: «وَكَانَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا لِسَانًا وَاحِدًا وَلُغَةً وَاحِدَةً. وَحَدَثَ فِي ارْتِحَالِهِمْ شَرْقًا أَنَّهُمْ وَجَدُوا بُقْعَةً فِي أَرْضِ شِنْعَارَ وَسَكَنُوا هُنَاكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَلُمَّ نَصْنَعُ لِبْنًا وَنَشْوِيهِ شَيًّا. فَكَانَ لَهُمُ اللِّبْنُ مَكَانَ الْحَجَرِ، وَكَانَ لَهُمُ

---

(١) سفر التكوين، الفصل ٣، الآيات ١-٢٤.

الْحُمَرُ مَكَانَ الطِّينِ. وَقَالُوا: هَلُمَّ نَبْنِ لِأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا رَأْسُهُ بِالسَّمَاءِ. وَنَصْنَعُ لِأَنْفُسِنَا اسْمًا لِئَلَّا نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ. فَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَنْظُرَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ كَانَ بَنُو آدَمَ يَبْنُونَهُمَا. وَقَالَ الرَّبُّ: هُوَذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لِجَمِيعِهِمْ، وَهَذَا ابْتِدَاؤُهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالْآنَ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ. هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لَا يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ. فَبَدَّدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ، فَكَفُّوا عَنْ بُنْيَانِ الْمَدِينَةِ، لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا بَابِلَ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الْأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ»(١).

- **دينة وشكيم**: «وَخَرَجَتْ دِينَةُ ابْنَةُ لَيْئَةَ الَّتِي وَلَدَتْهَا لِيَعْقُوبَ لِتَنْظُرَ بَنَاتِ الْأَرْضِ، فَرَآهَا شَكِيمُ ابْنُ حَمُورَ الْحِوِّيِّ رَئِيسِ الْأَرْضِ، وَأَخَذَهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَأَذَلَّهَا. وَتَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِدِينَةَ ابْنَةِ يَعْقُوبَ، وَأَحَبَّ الْفَتَاةَ وَلَاطَفَ الْفَتَاةَ. فَكَلَّمَ شَكِيمُ حَمُورَ أَبَاهُ قَائِلًا: خُذْ لِي هَذِهِ الصَّبِيَّةَ زَوْجَةً. وَسَمِعَ يَعْقُوبُ أَنَّهُ نَجَّسَ دِينَةَ ابْنَتَهُ. وَأَمَّا بَنُوهُ فَكَانُوا مَعَ مَوَاشِيهِ فِي الْحَقْلِ، فَسَكَتَ يَعْقُوبُ حَتَّى جَاءُوا. فَخَرَجَ حَمُورُ أَبُو شَكِيمَ إِلَى يَعْقُوبَ لِيَتَكَلَّمَ مَعَهُ. وَأَتَى بَنُو يَعْقُوبَ مِنَ الْحَقْلِ حِينَ سَمِعُوا. وَغَضِبَ الرِّجَالُ وَاغْتَاظُوا جِدًّا لِأَنَّهُ صَنَعَ قَبَاحَةً فِي إِسْرَائِيلَ بِمُضَاجَعَةِ ابْنَةِ يَعْقُوبَ، وَهَكَذَا لَا يُصْنَعُ. وَتَكَلَّمَ حَمُورُ مَعَهُمْ قَائِلًا: شَكِيمُ ابْنِي قَدْ تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِابْنَتِكُمْ. أَعْطُوهُ إِيَّاهَا زَوْجَةً وَصَاهِرُونَا. تُعْطُونَنَا بَنَاتِكُمْ، وَتَأْخُذُونَ لَكُمْ بَنَاتِنَا. وَتَسْكُنُونَ مَعَنَا، وَتَكُونُ الْأَرْضُ قُدَّامَكُمْ. اسْكُنُوا وَاتَّجِرُوا فِيهَا وَتَمَلَّكُوا بِهَا. ثُمَّ قَالَ شَكِيمُ لِأَبِيهَا وَلِإِخْوَتِهَا: دَعُونِي أَجِدْ نِعْمَةً فِي أَعْيُنِكُمْ. فَالَّذِي تَقُولُونَ لِي أُعْطِي. كَثِّرُوا عَلَيَّ جِدًّا مَهْرًا وَعَطِيَّةً، فَأُعْطِيَ كَمَا تَقُولُونَ لِي.

---

(١) سفر التكوين، الفصل ١١، الآيات ١-٩.

وَأَعْطُونِي الْفَتَاةَ زَوْجَةً. فَأَجَابَ بَنُو يَعْقُوبَ شَكِيمَ وَحَمُورَ أَبَاهُ، بِمَكْرٍ، وَتَكَلَّمُوا؛ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ نَجَّسَ دِينَةَ أُخْتَهُمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْعَلَ هَذَا الْأَمْرَ، أَنْ نُعْطِيَ أُخْتَنَا لِرَجُلٍ أَغْلَفَ؛ لِأَنَّهُ عَارٌ لَنَا. غَيْرَ أَنَّنَا بِهَذَا نُواتِيكُمْ، إِنْ صِرْتُمْ مِثْلَنَا، بِخَتْنِكُمْ كُلَّ ذَكَرٍ. نُعْطِيكُمْ بَنَاتِنَا، وَنَأْخُذُ لَنَا بَنَاتِكُمْ، وَنَسْكُنُ مَعَكُمْ، وَنَصِيرُ شَعْبًا وَاحِدًا. وَإِنْ لَمْ تَسْمَعُوا لَنَا، أَنْ تَخْتَتِنُوا، نَأْخُذُ ابْنَتَنَا، وَنَمْضِي. فَحَسُنَ كَلَامُهُمْ، فِي عَيْنَيْ حَمُورَ، وَفِي عَيْنَيْ شَكِيمَ بْنِ حَمُورَ. وَلَمْ يَتَأَخَّرِ الْغُلَامُ أَنْ يَفْعَلَ الْأَمْرَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مَسْرُورًا بِابْنَةِ يَعْقُوبَ. وَكَانَ أَكْرَمَ جَمِيعِ بَيْتِ أَبِيهِ. فَأَتَى حَمُورُ وَشَكِيمُ ابْنُهُ، إِلَى بَابِ مَدِينَتِهِمَا، وَكَلَّمَا أَهْلَ مَدِينَتِهِمَا قَائِلَيْنِ: هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ مُسَالِمُونَ لَنَا. فَلْيَسْكُنُوا فِي الْأَرْضِ، وَيَتَّجِرُوا فِيهَا. وَهُوَذَا الْأَرْضُ وَاسِعَةُ الطَّرَفَيْنِ أَمَامَهُمْ. نَأْخُذُ لَنَا بَنَاتِهِمْ زَوْجَاتٍ، وَنُعْطِيهِمْ بَنَاتِنَا. غَيْرَ أَنَّهُ بِهَذَا فَقَطْ يُواتِينَا الْقَوْمُ، عَلَى السَّكَنِ مَعَنَا؛ لِنَصِيرَ شَعْبًا وَاحِدًا: بِخَتْنِنَا كُلَّ ذَكَرٍ، كَمَا هُمْ مَخْتُونُونَ. أَلَا تَكُونُ مَوَاشِيهِمْ، وَمُقْتَنَاهُمْ، وَكُلُّ بَهَائِمِهِمْ لَنَا؟ نُواتِيهِمْ فَقَطْ، فَيَسْكُنُونَ مَعَنَا. فَسَمِعَ لِحَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنِهِ جَمِيعُ الْخَارِجِينَ، مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ، وَاخْتَتَنَ كُلُّ ذَكَرٍ. كُلُّ الْخَارِجِينَ مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ. فَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، إِذْ كَانُوا مُتَوَجِّعِينَ، أَنَّ ابْنَيْ يَعْقُوبَ، شِمْعُونَ وَلَاوِيَ، أَخَوَيْ دِينَةَ، أَخَذَا كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ، وَأَتَيَا عَلَى الْمَدِينَةِ بِأَمْنٍ، وَقَتَلَا كُلَّ ذَكَرٍ. وَقَتَلَا حَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنَهُ، بِحَدِّ السَّيْفِ، وَأَخَذَا دِينَةَ، مِنْ بَيْتِ شَكِيمَ، وَخَرَجَا. ثُمَّ أَتَى بَنُو يَعْقُوبَ عَلَى الْقَتْلَى، وَنَهَبُوا الْمَدِينَةَ، لِأَنَّهُمْ نَجَّسُوا أُخْتَهُمْ. غَنَمَهُمْ، وَبَقَرَهُمْ، وَحَمِيرَهُمْ، وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ، وَمَا فِي الْحَقْلِ، أَخَذُوهُ. وَسَبَوْا، وَنَهَبُوا كُلَّ ثَرْوَتِهِمْ، وَكُلَّ أَطْفَالِهِمْ، وَنِسَاءَهُمْ، وَكُلَّ مَا فِي الْبُيُوتِ. فَقَالَ يَعْقُوبُ لِشِمْعُونَ وَلَاوِي: كَدَّرْتُمَانِي بِتَكْرِيهِكُمَا إِيَّايَ عِنْدَ سُكَّانِ الْأَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ، وَأَنَا نَفَرٌ قَلِيلٌ. فَيَجْتَمِعُونَ عَلَيَّ وَيَضْرِبُونَنِي، فَأَبِيدُ أَنَا

وَبَيْتِي. فَقَالَا: أَنَظِيرَ زَانِيَةٍ يَفْعَلُ بِأُخْتِنَا؟»[1].

– أتان بلعام: «فَقَامَ بَلْعَامُ صَبَاحًا وَشَدَّ عَلَى أَتَانِهِ وَانْطَلَقَ مَعَ رُؤَسَاءِ مُوآبَ. فَحَمِيَ غَضَبُ اللهِ لِأَنَّهُ مُنْطَلِقٌ، وَوَقَفَ مَلَاكُ الرَّبِّ فِي الطَّرِيقِ لِيُقَاوِمَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى أَتَانِهِ وَغُلَامَاهُ مَعَهُ. فَأَبْصَرَتِ الْأَتَانُ مَلَاكَ الرَّبِّ وَاقِفًا فِي الطَّرِيقِ وَسَيْفُهُ مَسْلُولٌ فِي يَدِهِ، فَمَالَتِ الْأَتَانُ عَنِ الطَّرِيقِ وَمَشَتْ فِي الْحَقْلِ. فَضَرَبَ بَلْعَامُ الْأَتَانَ لِيَرُدَّهَا إِلَى الطَّرِيقِ. ثُمَّ وَقَفَ مَلَاكُ الرَّبِّ فِي خَنْدَقٍ لِلْكُرُومِ، لَهُ حَائِطٌ مِنْ هُنَا وَحَائِطٌ مِنْ هُنَاكَ. فَلَمَّا أَبْصَرَتِ الْأَتَانُ مَلَاكَ الرَّبِّ زَحَمَتِ الْحَائِطَ، وَضَغَطَتْ رِجْلَ بَلْعَامَ بِالْحَائِطِ، فَضَرَبَهَا أَيْضًا. ثُمَّ اجْتَازَ مَلَاكُ الرَّبِّ أَيْضًا وَوَقَفَ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ حَيْثُ لَيْسَ سَبِيلٌ لِلنُّكُوبِ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا. فَلَمَّا أَبْصَرَتِ الْأَتَانُ مَلَاكَ الرَّبِّ، رَبَضَتْ تَحْتَ بَلْعَامَ. فَحَمِيَ غَضَبُ بَلْعَامَ وَضَرَبَ الْأَتَانَ بِالْقَضِيبِ. فَفَتَحَ الرَّبُّ فَمَ الْأَتَانِ، فَقَالَتْ لِبَلْعَامَ: مَاذَا صَنَعْتُ بِكَ حَتَّى ضَرَبْتَنِي الْآنَ ثَلَاثَ دَفَعَاتٍ؟ فَقَالَ بَلْعَامُ لِلْأَتَانِ: لِأَنَّكِ ازْدَرَيْتِ بِي. لَوْ كَانَ فِي يَدِي سَيْفٌ لَكُنْتُ الْآنَ قَدْ قَتَلْتُكِ. فَقَالَتِ الْأَتَانُ لِبَلْعَامَ: أَلَسْتُ أَنَا أَتَانَكَ الَّتِي رَكِبْتَ عَلَيْهَا مُنْذُ وُجُودِكَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ؟ هَلْ تَعَوَّدْتُ أَنْ أَفْعَلَ بِكَ هَكَذَا؟ فَقَالَ: لَا. ثُمَّ كَشَفَ الرَّبُّ عَنْ عَيْنَيْ بَلْعَامَ، فَأَبْصَرَ مَلَاكَ الرَّبِّ وَاقِفًا فِي الطَّرِيقِ وَسَيْفُهُ مَسْلُولٌ فِي يَدِهِ، فَخَرَّ سَاجِدًا عَلَى وَجْهِهِ. فَقَالَ لَهُ مَلَاكُ الرَّبِّ: لِمَاذَا ضَرَبْتَ أَتَانَكَ الْآنَ ثَلَاثَ دَفَعَاتٍ؟ هَأَنَذَا قَدْ خَرَجْتُ لِلْمُقَاوَمَةِ لِأَنَّ الطَّرِيقَ وَرْطَةٌ أَمَامِي، فَأَبْصَرَتْنِي الْأَتَانُ وَمَالَتْ مِنْ قُدَّامِي الْآنَ ثَلَاثَ دَفَعَاتٍ. وَلَوْ لَمْ تَمِلْ مِنْ قُدَّامِي لَكُنْتُ الْآنَ قَدْ قَتَلْتُكَ وَاسْتَبْقَيْتُهَا. فَقَالَ بَلْعَامُ لِمَلَاكِ الرَّبِّ: أَخْطَأْتُ. إِنِّي لَمْ أَعْلَمْ أَنَّكَ وَاقِفٌ تِلْقَائِي فِي الطَّرِيقِ. وَالْآنَ إِنْ قَبُحَ فِي عَيْنَيْكَ

(١) سفر التكوين، الفصل ٣٤، الآيات ١-٣١.

فَإِنِّي أَرْجِعُ. فَقَالَ مَلَاكُ الرَّبِّ لِبَلْعَامَ: اذْهَبْ مَعَ الرِّجَالِ، وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ بِالْكَلَامِ الَّذِي أُكَلِّمُكَ بِهِ فَقَطْ. فَانْطَلَقَ بَلْعَامُ مَعَ رُؤَسَاءِ بَالَاقَ»[١].

- **مخلوع النعل**: «إِذَا سَكَنَ إِخْوَةٌ مَعًا وَمَاتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَلَيْسَ لَهُ ابْنٌ، فَلَا تَصِرِ امْرَأَةُ الْمَيْتِ إِلَى خَارِجٍ لِرَجُلٍ أَجْنَبِيٍّ. أَخُو زَوْجِهَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا وَيَتَّخِذُهَا لِنَفْسِهِ زَوْجَةً، وَيَقُومُ لَهَا بِوَاجِبِ أَخِي الزَّوْجِ. وَالْبِكْرُ الَّذِي تَلِدُهُ يَقُومُ بِاسْمِ أَخِيهِ الْمَيْتِ، لِئَلَّا يُمْحَى اسْمُهُ مِنْ إِسْرَائِيلَ. وَإِنْ لَمْ يَرْضَ الرَّجُلُ أَنْ يَأْخُذَ امْرَأَةَ أَخِيهِ، تَصْعَدُ امْرَأَةُ أَخِيهِ إِلَى الْبَابِ إِلَى الشُّيُوخِ وَتَقُولُ: قَدْ أَبَى أَخُو زَوْجِي أَنْ يُقِيمَ لِأَخِيهِ اسْمًا فِي إِسْرَائِيلَ. لَمْ يَشَأْ أَنْ يَقُومَ لِي بِوَاجِبِ أَخِي الزَّوْجِ. فَيَدْعُوهُ شُيُوخُ مَدِينَتِهِ وَيَتَكَلَّمُونَ مَعَهُ. فَإِنْ أَصَرَّ وَقَالَ: لَا أَرْضَى أَنْ أَتَّخِذَهَا. تَتَقَدَّمُ امْرَأَةُ أَخِيهِ إِلَيْهِ أَمَامَ أَعْيُنِ الشُّيُوخِ، وَتَخْلَعُ نَعْلَهُ مِنْ رِجْلِهِ، وَتَبْصُقُ فِي وَجْهِهِ، وَتُصَرِّحُ وَتَقُولُ: هَكَذَا يُفْعَلُ بِالرَّجُلِ الَّذِي لَا يَبْنِي بَيْتَ أَخِيهِ. فَيُدْعَى اسْمُهُ فِي إِسْرَائِيلَ بَيْتَ مَخْلُوعِ النَّعْلِ»[٢].

- **بطولة شمجر**: «وَكَانَ بَعْدَهُ شَمْجَرُ بْنُ عَنَاةَ، فَضَرَبَ مِنَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ سِتَّ مِئَةِ رَجُلٍ بِمِنْسَاسِ الْبَقَرِ. وَهُوَ أَيْضًا خَلَّصَ إِسْرَائِيلَ»[٣].

- **شمشون ودليلة**: «وَنَزَلَ شَمْشُونُ إِلَى تِمْنَةَ، وَرَأَى امْرَأَةً فِي تِمْنَةَ مِنْ بَنَاتِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ. فَصَعِدَ وَأَخْبَرَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَقَالَ: قَدْ رَأَيْتُ امْرَأَةً فِي تِمْنَةَ مِنْ بَنَاتِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ، فَالْآنَ خُذَاهَا لِيَ امْرَأَةً. فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ وَأُمُّهُ: أَلَيْسَ فِي بَنَاتِ إِخْوَتِكَ وَفِي كُلِّ شَعْبِي امْرَأَةٌ حَتَّى أَنَّكَ ذَاهِبٌ لِتَأْخُذَ امْرَأَةً مِنَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ الْغُلْفِ؟

---

(١) سفر العدد، الفصل ٢٢، الآيات ٢١-٣٥.

(٢) سفر التثنية، الفصل ٢٥، الآيات ٥-١٠.

(٣) سفر القضاة، الفصل ٣، الآية ٣١.

فَقَالَ شَمْشُونُ لِأَبِيهِ: إِيَّاهَا خُذْ لِي لِأَنَّهَا حَسُنَتْ فِي عَيْنَيَّ. وَلَمْ يَعْلَمْ أَبُوهُ وَأُمُّهُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الرَّبِّ، لِأَنَّهُ كَانَ يَطْلُبُ عِلَّةً عَلَى الْفِلَسْطِينِيِّينَ. وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ الْفِلَسْطِينِيُّونَ مُتَسَلِّطِينَ عَلَى إِسْرَائِيلَ. فَنَزَلَ شَمْشُونُ وَأَبُوهُ وَأُمُّهُ إِلَى تِمْنَةَ، وَأَتَوْا إِلَى كُرُومِ تِمْنَةَ. وَإِذَا بِشِبْلِ أَسَدٍ يُزَمْجِرُ لِلِقَائِهِ. فَحَلَّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ، فَشَقَّهُ كَشَقِّ الْجَدْيِ، وَلَيْسَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ. وَلَمْ يُخْبِرْ أَبَاهُ وَأُمَّهُ بِمَا فَعَلَ. فَنَزَلَ وَكَلَّمَ الْمَرْأَةَ فَحَسُنَتْ فِي عَيْنَيْ شَمْشُونَ. وَلَمَّا رَجَعَ بَعْدَ أَيَّامٍ لِكَيْ يَأْخُذَهَا، مَالَ لِكَيْ يَرَى رِمَّةَ الْأَسَدِ، وَإِذَا دَبْرٌ مِنَ النَّحْلِ فِي جَوْفِ الْأَسَدِ مَعَ عَسَلٍ. فَاشْتَارَ مِنْهُ عَلَى كَفَّيْهِ، وَكَانَ يَمْشِي وَيَأْكُلُ، وَذَهَبَ إِلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَأَعْطَاهُمَا فَأَكَلَا، وَلَمْ يُخْبِرْهُمَا أَنَّهُ مِنْ جَوْفِ الْأَسَدِ اشْتَارَ الْعَسَلَ. وَنَزَلَ أَبُوهُ إِلَى الْمَرْأَةِ، فَعَمِلَ هُنَاكَ شَمْشُونُ وَلِيمَةً، لِأَنَّهُ هَكَذَا كَانَ يَفْعَلُ الْفِتْيَانُ. فَلَمَّا رَأَوْهُ، أَحْضَرُوا ثَلَاثِينَ، مِنَ الْأَصْحَابِ، فَكَانُوا مَعَهُ. فَقَالَ لَهُمْ شَمْشُونُ: لَأُحَاجِيَنَّكُمْ أُحْجِيَّةً، فَإِذَا حَلَلْتُمُوهَا لِي فِي سَبْعَةِ أَيَّامِ الْوَلِيمَةِ وَأَصَبْتُمُوهَا، أُعْطِيكُمْ ثَلَاثِينَ قَمِيصًا وَثَلَاثِينَ حُلَّةَ ثِيَابٍ. وَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا أَنْ تَحُلُّوهَا لِي، تُعْطُونِي أَنْتُمْ ثَلَاثِينَ قَمِيصًا وَثَلَاثِينَ حُلَّةَ ثِيَابٍ. فَقَالُوا لَهُ: حَاجِ أُحْجِيَّتَكَ فَنَسْمَعَهَا. فَقَالَ لَهُمْ: مِنَ الْآكِلِ خَرَجَ أُكْلٌ، وَمِنَ الْجَافِي خَرَجَتْ حَلَاوَةٌ. فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَحُلُّوا الْأُحْجِيَّةَ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. وَكَانَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ أَنَّهُمْ قَالُوا لِامْرَأَةِ شَمْشُونَ: تَمَلَّقِي رَجُلَكِ لِكَيْ يُظْهِرَ لَنَا الْأُحْجِيَّةَ، لِئَلَّا نُحْرِقَكِ وَبَيْتَ أَبِيكِ بِنَارٍ. أَلِتَسْلُبُونَا دَعَوْتُمُونَا أَمْ لَا؟ فَبَكَتِ امْرَأَةُ شَمْشُونَ لَدَيْهِ وَقَالَتْ: إِنَّمَا كَرِهْتَنِي وَلَا تُحِبُّنِي. قَدْ حَاجَيْتَ بَنِي شَعْبِي أُحْجِيَّةً وَإِيَّايَ لَمْ تُخْبِرْ. فَقَالَ لَهَا: هُوَذَا أَبِي وَأُمِّي لَمْ أُخْبِرْهُمَا، فَهَلْ إِيَّاكِ أُخْبِرُ؟. فَبَكَتْ لَدَيْهِ السَّبْعَةَ الْأَيَّامِ الَّتِي فِيهَا كَانَتْ لَهُمُ الْوَلِيمَةُ. وَكَانَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ أَنَّهُ أَخْبَرَهَا لِأَنَّهَا ضَايَقَتْهُ، فَأَظْهَرَتِ الْأُحْجِيَّةَ لِبَنِي شَعْبِهَا. فَقَالَ لَهُ رِجَالُ الْمَدِينَةِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ: أَيُّ شَيْءٍ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَمَا أَجْفَى مِنَ

الْأَسَدِ؟ فَقَالَ لَهُمْ: لَوْ لَمْ تَحْرُثُوا عَلَى عِجْلَتِي، لَمَا وَجَدْتُمْ أُحْجِيَّتِي. وَحَلَّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ فَنَزَلَ إِلَى أَشْقَلُونَ وَقَتَلَ مِنْهُمْ ثَلَاثِينَ رَجُلًا، وَأَخَذَ سَلَبَهُمْ وَأَعْطَى الْحُلَلَ لِمُظْهِرِي الْأُحْجِيَّةِ. وَحَمِيَ غَضَبُهُ وَصَعِدَ إِلَى بَيْتِ أَبِيهِ. فَصَارَتِ امْرَأَةُ شَمْشُونَ لِصَاحِبِهِ الَّذِي كَانَ يُصَاحِبُهُ. وَكَانَ بَعْدَ مُدَّةٍ فِي أَيَّامِ حَصَادِ الْحِنْطَةِ، أَنَّ شَمْشُونَ افْتَقَدَ امْرَأَتَهُ بِجَدْيِ مِعْزًى. وَقَالَ: أَدْخُلُ إِلَى امْرَأَتِي إِلَى حُجْرَتِهَا. وَلَكِنَّ أَبَاهَا لَمْ يَدَعْهُ أَنْ يَدْخُلَ. وَقَالَ أَبُوهَا: إِنِّي قُلْتُ إِنَّكَ قَدْ كَرِهْتَهَا فَأَعْطَيْتُهَا لِصَاحِبِكَ. أَلَيْسَتْ أُخْتُهَا الصَّغِيرَةُ أَحْسَنَ مِنْهَا؟ فَلْتَكُنْ لَكَ عِوَضًا عَنْهَا. فَقَالَ لَهُمْ شَمْشُونُ: إِنِّي بَرِيءٌ الْآنَ مِنَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ إِذَا عَمِلْتُ بِهِمْ شَرًّا. وَذَهَبَ شَمْشُونُ وَأَمْسَكَ ثَلَاثَ مِئَةِ ابْنِ آوَى، وَأَخَذَ مَشَاعِلَ وَجَعَلَ ذَنَبًا إِلَى ذَنَبٍ، وَوَضَعَ مَشْعَلًا بَيْنَ كُلِّ ذَنَبَيْنِ فِي الْوَسَطِ، ثُمَّ أَضْرَمَ الْمَشَاعِلَ نَارًا وَأَطْلَقَهَا بَيْنَ زُرُوعِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ، فَأَحْرَقَ الْأَكْدَاسَ وَالزَّرْعَ وَكُرُومَ الزَّيْتُونِ. فَقَالَ الْفِلَسْطِينِيُّونَ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ فَقَالُوا: شَمْشُونُ صِهْرُ التِّمْنِيِّ، لِأَنَّهُ أَخَذَ امْرَأَتَهُ وَأَعْطَاهَا لِصَاحِبِهِ. فَصَعِدَ الْفِلَسْطِينِيُّونَ وَأَحْرَقُوهَا وَأَبَاهَا بِالنَّارِ. فَقَالَ لَهُمْ شَمْشُونُ: وَلَوْ فَعَلْتُمْ هَذَا فَإِنِّي أَنْتَقِمُ مِنْكُمْ، وَبَعْدُ أَكُفُّ. وَضَرَبَهُمْ سَاقًا عَلَى فَخِذٍ ضَرْبًا عَظِيمًا. ثُمَّ نَزَلَ وَأَقَامَ فِي شَقِّ صَخْرَةِ عِيطَمَ. وَصَعِدَ الْفِلَسْطِينِيُّونَ وَنَزَلُوا فِي يَهُوذَا وَتَفَرَّقُوا فِي لَحْيٍ. فَقَالَ رِجَالُ يَهُوذَا: لِمَاذَا صَعِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ فَقَالُوا: صَعِدْنَا لِكَيْ نُوثِقَ شَمْشُونَ لِنَفْعَلَ بِهِ كَمَا فَعَلَ بِنَا. فَنَزَلَ ثَلَاثَةُ آلَافِ رَجُلٍ مِنْ يَهُوذَا إِلَى شَقِّ صَخْرَةِ عِيطَمَ، وَقَالُوا لِشَمْشُونَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْفِلَسْطِينِيِّينَ مُتَسَلِّطُونَ عَلَيْنَا؟ فَمَاذَا فَعَلْتَ بِنَا؟ فَقَالَ لَهُمْ: كَمَا فَعَلُوا بِي هَكَذَا فَعَلْتُ بِهِمْ. فَقَالُوا لَهُ: نَزَلْنَا لِكَيْ نُوثِقَكَ وَنُسَلِّمَكَ إِلَى يَدِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ. فَقَالَ لَهُمْ شَمْشُونُ: احْلِفُوا لِي أَنَّكُمْ أَنْتُمْ لَا تَقَعُونَ عَلَيَّ. فَكَلَّمُوهُ قَائِلِينَ: كَلَّا. وَلَكِنَّنَا نُوثِقُكَ وَنُسَلِّمُكَ إِلَى يَدِهِمْ، وَقَتْلًا لَا نَقْتُلُكَ. فَأَوْثَقُوهُ بِحَبْلَيْنِ جَدِيدَيْنِ وَأَصْعَدُوهُ مِنَ الصَّخْرَةِ. وَلَمَّا جَاءَ إِلَى لَحْيٍ،

صَاحَ الْفِلَسْطِينِيُّونَ لِلِقَائِهِ. فَحَلَّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ، فَكَانَ الْحَبْلاَنِ اللَّذَانِ عَلَى ذِرَاعَيْهِ كَكَتَّانٍ أُحْرِقَ بِالنَّارِ، فَانْحَلَّ الْوِثَاقُ عَنْ يَدَيْهِ. وَوَجَدَ لَحْيَ حِمَارٍ طَرِيًّا، فَمَدَّ يَدَهُ وَأَخَذَهُ وَضَرَبَ بِهِ أَلْفَ رَجُلٍ. فَقَالَ شَمْشُونُ: بِلَحْيِ حِمَارٍ كُومَةً كُومَتَيْنِ. بِلَحْيِ حِمَارٍ قَتَلْتُ أَلْفَ رَجُلٍ. وَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْكَلاَمِ رَمَى اللَّحْيَ مِنْ يَدِهِ، وَدَعَا ذَلِكَ الْمَكَانَ: "رَمَتَ لَحْيٍ". ثُمَّ عَطِشَ جِدًّا فَدَعَا الرَّبَّ وَقَالَ: إِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ بِيَدِ عَبْدِكَ هَذَا الْخَلاَصَ الْعَظِيمَ، وَالآنَ أَمُوتُ مِنَ الْعَطَشِ وَأَسْقُطُ بِيَدِ الْغُلْفِ. فَشَقَّ اللهُ الْكِفَّةَ الَّتِي فِي لَحْيٍ، فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ، فَشَرِبَ وَرَجَعَتْ رُوحُهُ فَانْتَعَشَ. لِذَلِكَ دَعَا اسْمَهُ: "عَيْنَ هَقُّورِي" الَّتِي فِي لَحْيٍ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ. وَقَضَى لإِسْرَائِيلَ فِي أَيَّامِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ عِشْرِينَ سَنَةً. ثُمَّ ذَهَبَ شَمْشُونُ إِلَى غَزَّةَ، وَرَأَى هُنَاكَ امْرَأَةً زَانِيَةً فَدَخَلَ إِلَيْهَا. فَقِيلَ لِلْغَزِّيِّينَ: قَدْ أَتَى شَمْشُونُ إِلَى هُنَا. فَأَحَاطُوا بِهِ وَكَمَنُوا لَهُ اللَّيْلَ كُلَّهُ عِنْدَ بَابِ الْمَدِينَةِ. فَهَدَأُوا اللَّيْلَ كُلَّهُ قَائِلِينَ: عِنْدَ ضَوْءِ الصَّبَاحِ نَقْتُلُهُ. فَاضْطَجَعَ شَمْشُونُ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَامَ فِي نِصْفِ اللَّيْلِ وَأَخَذَ مِصْرَاعَيْ بَابِ الْمَدِينَةِ وَالْقَائِمَتَيْنِ وَقَلَعَهُمَا مَعَ الْعَارِضَةِ، وَوَضَعَهَا عَلَى كَتِفَيْهِ وَصَعِدَ بِهَا إِلَى رَأْسِ الْجَبَلِ الَّذِي مُقَابِلَ حَبْرُونَ. وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ أَحَبَّ امْرَأَةً فِي وَادِي سُورَقَ اسْمُهَا دَلِيلَةُ. فَصَعِدَ إِلَيْهَا أَقْطَابُ الْفِلَسْطِينِيِّينَ وَقَالُوا لَهَا: تَمَلَّقِيهِ وَانْظُرِي بِمَاذَا قُوَّتُهُ الْعَظِيمَةُ، وَبِمَاذَا نَتَمَكَّنُ مِنْهُ لِكَيْ نُوثِقَهُ لإِذْلاَلِهِ، فَنُعْطِيَكِ كُلُّ وَاحِدٍ أَلْفًا وَمِئَةَ شَاقِلِ فِضَّةٍ. فَقَالَتْ دَلِيلَةُ لِشَمْشُونَ: أَخْبِرْنِي بِمَاذَا قُوَّتُكَ الْعَظِيمَةُ؟ وَبِمَاذَا تُوثَقُ لإِذْلاَلِكَ؟ فَقَالَ لَهَا شَمْشُونُ: إِذَا أَوْثَقُونِي بِسَبْعَةِ أَوْتَارٍ طَرِيَّةٍ لَمْ تَجِفَّ، أَضْعُفُ وَأَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ. فَأَصْعَدَ لَهَا أَقْطَابُ الْفِلَسْطِينِيِّينَ سَبْعَةَ أَوْتَارٍ طَرِيَّةٍ لَمْ تَجِفَّ، فَأَوْثَقَتْهُ بِهَا، وَالْكَمِينُ لاَبِثٌ عِنْدَهَا فِي الْحُجْرَةِ. فَقَالَتْ لَهُ: الْفِلَسْطِينِيُّونَ عَلَيْكَ يَا شَمْشُونُ. فَقَطَعَ الأَوْتَارَ كَمَا يُقْطَعُ فَتِيلُ الْمُشَاقَةِ إِذَا شَمَّ النَّارَ، وَلَمْ تُعْلَمْ قُوَّتُهُ. فَقَالَتْ دَلِيلَةُ لِشَمْشُونَ: هَا قَدْ

خَتَلْتَنِي وَكَلَّمْتَنِي بِالْكَذِبِ، فَأَخْبِرْنِي الْآنَ بِمَاذَا تُوثَقُ؟ فَقَالَ لَهَا: إِذَا أَوْثَقُونِي بِحِبَالٍ جَدِيدَةٍ لَمْ تُسْتَعْمَلْ، أَضْعُفُ وَأَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ. فَأَخَذَتْ دَلِيلَةُ حِبَالًا جَدِيدَةً وَأَوْثَقَتْهُ بِهَا، وَقَالَتْ لَهُ: الْفِلَسْطِينِيُّونَ عَلَيْكَ يَا شَمْشُونُ، وَالْكَمِينُ لَابِثٌ فِي الْحُجْرَةِ. فَقَطَعَهَا عَنْ ذِرَاعَيْهِ كَخَيْطٍ. فَقَالَتْ دَلِيلَةُ لِشَمْشُونَ: حَتَّى الْآنَ خَتَلْتَنِي وَكَلَّمْتَنِي بِالْكَذِبِ، فَأَخْبِرْنِي بِمَاذَا تُوثَقُ؟. فَقَالَ لَهَا: إِذَا ضَفَرْتِ سَبْعَ خُصَلِ رَأْسِي مَعَ السَّدَى. فَمَكَّنَتْهَا بِالْوَتَدِ. وَقَالَتْ لَهُ: الْفِلَسْطِينِيُّونَ عَلَيْكَ، يَا شَمْشُونُ. فَانْتَبَهَ مِنْ نَوْمِهِ وَقَلَعَ وَتَدَ النَّسِيجِ وَالسَّدَى. فَقَالَتْ لَهُ: كَيْفَ تَقُولُ أُحِبُّكِ، وَقَلْبُكَ لَيْسَ مَعِي؟ هُوَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَدْ خَتَلْتَنِي وَلَمْ تُخْبِرْنِي بِمَاذَا قُوَّتُكَ الْعَظِيمَةُ. وَلَمَّا كَانَتْ تُضَايِقُهُ بِكَلَامِهَا كُلَّ يَوْمٍ وَأَلَحَّتْ عَلَيْهِ، ضَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى الْمَوْتِ، فَكَشَفَ لَهَا كُلَّ قَلْبِهِ، وَقَالَ لَهَا: لَمْ يَعْلُ مُوسَى رَأْسِي لِأَنِّي نَذِيرُ اللهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّي، فَإِنْ حُلِقْتُ تُفَارِقُنِي قُوَّتِي وَأَضْعُفُ وَأَصِيرُ كَأَحَدِ النَّاسِ. وَلَمَّا رَأَتْ دَلِيلَةُ أَنَّهُ قَدْ أَخْبَرَهَا بِكُلِّ مَا بِقَلْبِهِ، أَرْسَلَتْ فَدَعَتْ أَقْطَابَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ وَقَالَتِ: اصْعَدُوا هَذِهِ الْمَرَّةَ فَإِنَّهُ قَدْ كَشَفَ لِي كُلَّ قَلْبِهِ. فَصَعِدَ إِلَيْهَا أَقْطَابُ الْفِلَسْطِينِيِّينَ وَأَصْعَدُوا الْفِضَّةَ بِيَدِهِمْ. وَأَنَامَتْهُ عَلَى رُكْبَتَيْهَا وَدَعَتْ رَجُلًا وَحَلَقَتْ سَبْعَ خُصَلِ رَأْسِهِ، وَابْتَدَأَتْ بِإِذْلَالِهِ، وَفَارَقَتْهُ قُوَّتُهُ. وَقَالَتِ: الْفِلَسْطِينِيُّونَ عَلَيْكَ يَا شَمْشُونُ. فَانْتَبَهَ مِنْ نَوْمِهِ وَقَالَ: أَخْرُجُ حَسَبَ كُلِّ مَرَّةٍ وَأَنْتَفِضُ. وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الرَّبَّ قَدْ فَارَقَهُ. فَأَخَذَهُ الْفِلَسْطِينِيُّونَ وَقَلَعُوا عَيْنَيْهِ، وَنَزَلُوا بِهِ إِلَى غَزَّةَ وَأَوْثَقُوهُ بِسَلَاسِلِ نُحَاسٍ. وَكَانَ يَطْحَنُ فِي بَيْتِ السِّجْنِ. وَابْتَدَأَ شَعْرُ رَأْسِهِ يَنْبُتُ بَعْدَ أَنْ حُلِقَ. وَأَمَّا أَقْطَابُ الْفِلَسْطِينِيِّينَ فَاجْتَمَعُوا لِيَذْبَحُوا ذَبِيحَةً عَظِيمَةً لِدَاجُونَ إِلَهِهِمْ وَيَفْرَحُوا، وَقَالُوا: قَدْ دَفَعَ إِلَهُنَا لِيَدِنَا شَمْشُونَ عَدُوَّنَا. وَلَمَّا رَآهُ الشَّعْبُ مَجَّدُوا إِلَهَهُمْ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا: قَدْ دَفَعَ إِلَهُنَا لِيَدِنَا عَدُوَّنَا الَّذِي خَرَّبَ أَرْضَنَا وَكَثَّرَ قَتْلَانَا. وَكَانَ لَمَّا طَابَتْ قُلُوبُهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ادْعُوا شَمْشُونَ لِيَلْعَبَ لَنَا. فَدَعَوْا شَمْشُونَ مِنْ

بَيْتِ السِّجْنِ، فَلَعِبَ أَمَامَهُمْ. وَأَوْقَفُوهُ بَيْنَ الْأَعْمِدَةِ. فَقَالَ شَمْشُونُ لِلْغُلَامِ الْماسِكِ بِيَدِهِ: دَعْنِي أَلْمِسِ الْأَعْمِدَةَ الَّتِي الْبَيْتُ قَائِمٌ عَلَيْهَا لِأَسْتَنِدَ عَلَيْهَا. وَكَانَ الْبَيْتُ مَمْلُوءًا رِجَالًا وَنِساءً، وَكَانَ هُنَاكَ جَمِيعُ أَقْطَابِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ، وَعَلَى السَّطْحِ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافِ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ يَنْظُرُونَ لِعْبَ شَمْشُونَ. فَدَعَا شَمْشُونُ الرَّبَّ وَقَالَ: يَا سَيِّدِي، الرَّبَّ، اذْكُرْنِي وَشَدِّدْنِي يَا اللهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ فَقَطْ، فَأَنْتَقِمَ نَقْمَةً وَاحِدَةً عَنْ عَيْنَيَّ مِنَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ. وَقَبَضَ شَمْشُونُ عَلَى الْعَمُودَيْنِ الْمُتَوَسِّطَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَ الْبَيْتُ قَائِمًا عَلَيْهِمَا، وَاسْتَنَدَ عَلَيْهِمَا الْوَاحِدِ بِيَمِينِهِ وَالْآخَرِ بِيَسَارِهِ. وَقَالَ شَمْشُونُ: لِتَمُتْ نَفْسِي مَعَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ. وَانْحَنَى بِقُوَّةٍ، فَسَقَطَ الْبَيْتُ، عَلَى الْأَقْطَابِ، وَعَلَى كُلِّ الشَّعْبِ الَّذِي فِيهِ، فَكَانَ الْمَوْتَى - الَّذِينَ أَمَاتَهُمْ فِي مَوْتِهِ - أَكْثَرَ مِنَ الَّذِينَ أَمَاتَهُمْ، فِي حَيَاتِهِ. فَنَزَلَ إِخْوَتُهُ، وَكُلُّ بَيْتِ أَبِيهِ، وَحَمَلُوهُ، وَصَعِدُوا بِهِ، وَدَفَنُوهُ بَيْنَ صُرْعَةَ وَأَشْتَأُولَ، فِي قَبْرِ مَنُوحَ أَبِيهِ. وَهُوَ قَضَى لِإِسْرَائِيلَ عِشْرِينَ سَنَةً»[1].

- ابنا صموئيل: «وَكَانَ لَمَّا شَاخَ صَمُوئِيلُ أَنَّهُ جَعَلَ بَنِيهِ قُضَاةً لِإِسْرَائِيلَ. وَكَانَ اسْمُ ابْنِهِ الْبِكْرِ يُوئِيلَ، وَاسْمُ ثَانِيهِ أَبِيَّا. كَانَا قَاضِيَيْنِ فِي بِئْرِ سَبْعٍ. وَلَمْ يَسْلُكِ ابْنَاهُ فِي طَرِيقِهِ، بَلْ مَالَا وَرَاءَ الْمَكْسَبِ، وَأَخَذَا رَشْوَةً وَعَوَّجَا الْقَضَاءَ. فَاجْتَمَعَ كُلُّ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ وَجَاءُوا إِلَى صَمُوئِيلَ إِلَى الرَّامَةِ، وَقَالُوا لَهُ: هُوَذَا أَنْتَ قَدْ شِخْتَ، وَابْنَاكَ لَمْ يَسِيرَا فِي طَرِيقِكَ. فَالْآنَ اجْعَلْ لَنَا مَلِكًا يَقْضِي لَنَا كَسَائِرِ الشُّعُوبِ. فَسَاءَ الْأَمْرُ فِي عَيْنَيْ صَمُوئِيلَ إِذْ قَالُوا: أَعْطِنَا مَلِكًا يَقْضِي لَنَا. وَصَلَّى صَمُوئِيلُ إِلَى الرَّبِّ. فَقَالَ الرَّبُّ لِصَمُوئِيلَ: اسْمَعْ لِصَوْتِ الشَّعْبِ فِي كُلِّ مَا يَقُولُونَ لَكَ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْفُضُوكَ أَنْتَ بَلْ إِيَّايَ رَفَضُوا حَتَّى لَا أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ.

(١) سفر القضاة، من الفصل ١٤، الآية ١، إلى الفصل ١٦، الآية ٣١.

حَسَبَ كُلِّ أَعْمَالِهِمِ الَّتِي عَمِلُوا مِنْ يَوْمِ أَصْعَدْتُهُمْ مِنْ مِصْرَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ وَتَرَكُونِي وَعَبَدُوا آلِهَةً أُخْرَى، هَكَذَا هُمْ عَامِلُونَ بِكَ أَيْضًا. فَالآنَ اسْمَعْ لِصَوْتِهِمْ. وَلكِنْ أَشْهِدَنَّ عَلَيْهِمْ وَأَخْبِرْهُمْ بِقَضَاءِ الْمَلِكِ الَّذِي يَمْلِكُ عَلَيْهِمْ. فَكَلَّمَ صَمُوئِيلُ الشَّعْبَ الَّذِينَ طَلَبُوا مِنْهُ مَلِكًا بِجَمِيعِ كَلاَمِ الرَّبِّ، وَقَالَ: هَذَا يَكُونُ قَضَاءُ الْمَلِكِ الَّذِي يَمْلِكُ عَلَيْكُمْ: يَأْخُذُ بَنِيكُمْ وَيَجْعَلُهُمْ لِنَفْسِهِ، لِمَرَاكِبِهِ وَفُرْسَانِهِ، فَيَرْكُضُونَ أَمَامَ مَرَاكِبِهِ. وَيَجْعَلُ لِنَفْسِهِ رُؤَسَاءَ أُلُوفٍ وَرُؤَسَاءَ خَمَاسِينَ، فَيَحْرُثُونَ حَرَاثَتَهُ وَيَحْصُدُونَ حَصَادَهُ، وَيَعْمَلُونَ عُدَّةَ حَرْبِهِ وَأَدَوَاتِ مَرَاكِبِهِ. وَيَأْخُذُ بَنَاتِكُمْ عَطَّارَاتٍ وَطَبَّاخَاتٍ وَخَبَّازَاتٍ. وَيَأْخُذُ حُقُولَكُمْ وَكُرُومَكُمْ وَزَيْتُونَكُمْ، أَجْوَدَهَا وَيُعْطِيهَا لِعَبِيدِهِ. وَيُعَشِّرُ زُرُوعَكُمْ وَكُرُومَكُمْ، وَيُعْطِي لِخِصْيَانِهِ وَعَبِيدِهِ. وَيَأْخُذُ عَبِيدَكُمْ وَجَوَارِيَكُمْ وَشُبَّانَكُمُ الْحِسَانَ وَحَمِيرَكُمْ وَيَسْتَعْمِلُهُمْ لِشُغْلِهِ. وَيُعَشِّرُ غَنَمَكُمْ وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لَهُ عَبِيدًا. فَتَصْرُخُونَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مِنْ وَجْهِ مَلِكِكُمُ الَّذِي اخْتَرْتُمُوهُ لأَنْفُسِكُمْ، فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمُ الرَّبُّ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ. فَأَبَى الشَّعْبُ أَنْ يَسْمَعُوا لِصَوْتِ صَمُوئِيلَ، وَقَالُوا: لاَ بَلْ يَكُونُ عَلَيْنَا مَلِكٌ، فَنَكُونُ نَحْنُ أَيْضًا مِثْلَ سَائِرِ الشُّعُوبِ، وَيَقْضِي لَنَا مَلِكُنَا وَيَخْرُجُ أَمَامَنَا وَيُحَارِبُ حُرُوبَنَا. فَسَمِعَ صَمُوئِيلُ كُلَّ كَلاَمِ الشَّعْبِ وَتَكَلَّمَ بِهِ فِي أُذُنَيِ الرَّبِّ. فَقَالَ الرَّبُّ لِصَمُوئِيلَ: اسْمَعْ لِصَوْتِهِمْ وَمَلِّكْ عَلَيْهِمْ مَلِكًا. فَقَالَ صَمُوئِيلُ لِرِجَالِ إِسْرَائِيلَ: اذْهَبُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَدِينَتِهِ»[(١)].

– **مهر ميكال**: «وَقَالَ شَاوُلُ لِدَاوُدَ: هُوَذَا ابْنَتِي الْكَبِيرَةُ مَيْرَبُ أُعْطِيكَ إِيَّاهَا امْرَأَةً. إِنَّمَا كُنْ لِي ذَا بَأْسٍ وَحَارِبْ حُرُوبَ الرَّبِّ. فَإِنَّ شَاوُلَ قَالَ: لاَ تَكُنْ يَدِي عَلَيْهِ، بَلْ لِتَكُنْ عَلَيْهِ يَدُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ. فَقَالَ دَاوُدُ لِشَاوُلَ: مَنْ أَنَا، وَمَا هِيَ

---

(١) سفر صموئيل الأوّل، الفصل ٨، الآيات ١-٢٢.

حَيَاتِي وَعَشِيرَةُ أَبِي فِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى أَكُونَ صِهْرَ الْمَلِكِ؟. وَكَانَ فِي وَقْتِ إِعْطَاءِ مَيْرَبَ ابْنَةِ شَاوُلَ لِدَاوُدَ أَنَّهَا أُعْطِيَتْ لِعَدْرِيئِيلَ الْمَحُولِيِّ امْرَأَةً. وَمِيكَالُ ابْنَةُ شَاوُلَ أَحَبَّتْ دَاوُدَ، فَأَخْبَرُوا شَاوُلَ، فَحَسُنَ الأَمْرُ فِي عَيْنَيْهِ. وَقَالَ شَاوُلُ: أُعْطِيهِ إِيَّاهَا فَتَكُونُ لَهُ شَرَكًا وَتَكُونُ يَدُ الْفِلَسْطِينِيِّينَ عَلَيْهِ. وَقَالَ شَاوُلُ لِدَاوُدَ ثَانِيَةً: تُصَاهِرُنِي الْيَوْمَ. وَأَمَرَ شَاوُلُ عَبِيدَهُ: تَكَلَّمُوا مَعَ دَاوُدَ سِرًّا قَائِلِينَ: هُوَذَا قَدْ سُرَّ بِكَ الْمَلِكُ، وَجَمِيعُ عَبِيدِهِ قَدْ أَحَبُّوكَ. فَالآنَ صَاهِرِ الْمَلِكَ. فَتَكَلَّمَ عَبِيدُ شَاوُلَ فِي أُذُنَيْ دَاوُدَ بِهَذَا الْكَلاَمِ. فَقَالَ دَاوُدُ: هَلْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ فِي أَعْيُنِكُمْ مُصَاهَرَةُ الْمَلِكِ وَأَنَا رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَحَقِيرٌ؟ فَأَخْبَرَ شَاوُلَ عَبِيدُهُ قَائِلِينَ: بِمِثْلِ هَذَا الْكَلاَمِ تَكَلَّمَ دَاوُدُ. فَقَالَ شَاوُلُ: هكَذَا تَقُولُونَ لِدَاوُدَ: لَيْسَتْ مَسَرَّةُ الْمَلِكِ بِالْمَهْرِ، بَلْ بِمِئَةِ غُلْفَةٍ مِنَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ لِلانْتِقَامِ مِنْ أَعْدَاءِ الْمَلِكِ. وَكَانَ شَاوُلُ يَتَفَكَّرُ أَنْ يُوقِعَ دَاوُدَ بِيَدِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ. فَأَخْبَرَ عَبِيدُهُ دَاوُدَ بِهَذَا الْكَلاَمِ، فَحَسُنَ الْكَلاَمُ فِي عَيْنَيْ دَاوُدَ أَنْ يُصَاهِرَ الْمَلِكَ. وَلَمْ تَكْمُلِ الأَيَّامُ حَتَّى قَامَ دَاوُدُ وَذَهَبَ هُوَ وَرِجَالُهُ وَقَتَلَ مِنَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ مِئَتَيْ رَجُلٍ، وَأَتَى دَاوُدُ بِغُلَفِهِمْ فَأَكْمَلُوهَا لِلْمَلِكِ لِمُصَاهَرَةِ الْمَلِكِ. فَأَعْطَاهُ شَاوُلُ مِيكَالَ ابْنَتَهُ امْرَأَةً. فَرَأَى شَاوُلُ وَعَلِمَ أَنَّ الرَّبَّ مَعَ دَاوُدَ. وَمِيكَالُ ابْنَةُ شَاوُلَ كَانَتْ تُحِبُّهُ. وَعَادَ شَاوُلُ يَخَافُ دَاوُدَ بَعْدُ، وَصَارَ شَاوُلُ عَدُوًّا لِدَاوُدَ كُلَّ الأَيَّامِ»(١).

– **تعرّي شاول**: «فَقَالَ شَاوُلُ لِمِيكَالَ: لِمَاذَا خَدَعْتِنِي، فَأَطْلَقْتِ عَدُوِّي حَتَّى نَجَا، فَقَالَتْ مِيكَالُ لِشَاوُلَ: هُوَ قَالَ لِي: أَطْلِقِينِي، لِمَاذَا أَقْتُلُكِ؟ فَهَرَبَ دَاوُدُ وَنَجَا وَجَاءَ إِلَى صَمُوئِيلَ فِي الرَّامَةِ وَأَخْبَرَهُ بِكُلِّ مَا عَمِلَ بِهِ شَاوُلُ. وَذَهَبَ هُوَ وَصَمُوئِيلُ وَأَقَامَا فِي نَايُوتَ. فَأُخْبِرَ شَاوُلُ وَقِيلَ لَهُ: هُوَذَا دَاوُدُ فِي نَايُوتَ فِي

(١) سفر صموئيل الأوّل، الفصل ١٨، الآيات ١٧-٢٩.

الرَّامَةِ. فَأَرْسَلَ شَاوُلُ رُسُلًا لِأَخْذِ دَاوُدَ. وَلَمَّا رَأَوْا جَمَاعَةَ الْأَنْبِيَاءِ يَتَنَبَّأُونَ، وَصَمُوئِيلَ وَاقِفًا رَئِيسًا عَلَيْهِمْ، كَانَ رُوحُ اللهِ عَلَى رُسُلِ شَاوُلَ فَتَنَبَّأُوا هُمْ أَيْضًا. وَأَخْبَرُوا شَاوُلَ، فَأَرْسَلَ رُسُلًا آخَرِينَ، فَتَنَبَّأُوا هُمْ أَيْضًا. ثُمَّ عَادَ شَاوُلُ فَأَرْسَلَ رُسُلًا ثَالِثَةً، فَتَنَبَّأُوا هُمْ أَيْضًا. فَذَهَبَ هُوَ أَيْضًا إِلَى الرَّامَةِ وَجَاءَ إِلَى الْبِئْرِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي عِنْدَ سِيخُو وَسَأَلَ وَقَالَ: أَيْنَ صَمُوئِيلُ وَدَاوُدُ؟ فَقِيلَ: هَا هُمَا فِي نَايُوتَ فِي الرَّامَةِ. فَذَهَبَ إِلَى هُنَاكَ إِلَى نَايُوتَ فِي الرَّامَةِ، فَكَانَ عَلَيْهِ أَيْضًا رُوحُ اللهِ، فَكَانَ يَذْهَبُ وَيَتَنَبَّأُ حَتَّى جَاءَ إِلَى نَايُوتَ فِي الرَّامَةِ. فَخَلَعَ هُوَ أَيْضًا ثِيَابَهُ وَتَنَبَّأَ هُوَ أَيْضًا أَمَامَ صَمُوئِيلَ، وَانْطَرَحَ عُرْيَانًا ذَلِكَ النَّهَارَ كُلَّهُ وَكُلَّ اللَّيْلِ. لِذَلِكَ يَقُولُونَ: أَشَاوُلُ أَيْضًا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ؟»[1].

– **أبطال داود**: «هَذِهِ أَسْمَاءُ الْأَبْطَالِ الَّذِينَ لِدَاوُدَ: يُشَيْب بَشَّبَثُ التَّحْكَمُونِيُّ رَئِيسُ الثَّلَاثَةِ. هُوَ هَزَّ رُمْحَهُ عَلَى ثَمَانِ مِئَةٍ قَتَلَهُمْ دَفْعَةً وَاحِدَةً. وَبَعْدَهُ أَلِعَازَارُ بْنُ دُودُو بْنِ أَخُوخِي، أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الْأَبْطَالِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ دَاوُدَ حِينَمَا عَيَّرُوا الْفِلَسْطِينِيِّينَ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا هُنَاكَ لِلْحَرْبِ وَصَعِدَ رِجَالُ إِسْرَائِيلَ. أَمَّا هُوَ فَأَقَامَ وَضَرَبَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ حَتَّى كَلَّتْ يَدُهُ، وَلَصِقَتْ يَدُهُ بِالسَّيْفِ، وَصَنَعَ الرَّبُّ خَلَاصًا عَظِيمًا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَرَجَعَ الشَّعْبُ وَرَاءَهُ لِلنَّهْبِ فَقَطْ. وَبَعْدَهُ شَمَّةُ بْنُ أَجِي الْهَرَارِيُّ. فَاجْتَمَعَ الْفِلَسْطِينِيُّونَ جَيْشًا، وَكَانَتْ هُنَاكَ قِطْعَةُ حَقْلٍ مَمْلُوءَةً عَدَسًا، فَهَرَبَ الشَّعْبُ مِنْ أَمَامِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ. فَوَقَفَ فِي وَسَطِ الْقِطْعَةِ وَأَنْقَذَهَا، وَضَرَبَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ، فَصَنَعَ الرَّبُّ خَلَاصًا عَظِيمًا. وَنَزَلَ الثَّلَاثَةُ مِنَ الثَّلَاثِينَ رَئِيسًا وَأَتَوْا فِي الْحَصَادِ إِلَى دَاوُدَ إِلَى مَغَارَةِ عَدُلَّامَ، وَجَيْشُ الْفِلَسْطِينِيِّينَ نَازِلٌ فِي وَادِي الرَّفَائِيِّينَ. وَكَانَ دَاوُدُ حِينَئِذٍ فِي الْحِصْنِ، وَحَفَظَةُ الْفِلَسْطِينِيِّينَ حِينَئِذٍ فِي

(١) سفر صموئيل الأوّل، الفصل ١٩، الآيات ١٧-٢٤.

بَيْتِ لَحْمٍ. فَتَأَوَّهَ دَاوُدُ وَقَالَ: مَنْ يَسْقِينِي مَاءً مِنْ بِئْرِ بَيْتِ لَحْمٍ الَّتِي عِنْدَ الْبَابِ؟ فَشَقَّ الْأَبْطَالُ الثَّلَاثَةُ مَحَلَّةَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ وَاسْتَقَوْا مَاءً مِنْ بِئْرِ بَيْتِ لَحْمٍ الَّتِي عِنْدَ الْبَابِ، وَحَمَلُوهُ وَأَتَوْا بِهِ إِلَى دَاوُدَ، فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَشْرَبَهُ، بَلْ سَكَبَهُ لِلرَّبِّ، وَقَالَ: حَاشَا لِي يَارَبُّ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ! هَذَا دَمُ الرِّجَالِ الَّذِينَ خَاطَرُوا بِأَنْفُسِهِمْ. فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَشْرَبَهُ. هَذَا مَا فَعَلَهُ الثَّلَاثَةُ الْأَبْطَالُ. وَأَبِيشَايُ أَخُو يُوآبَ ابْنُ صَرُويَةَ هُوَ رَئِيسُ ثَلَاثَةٍ. هَذَا هَزَّ رُمْحَهُ عَلَى ثَلَاثِ مِئَةٍ قَتَلَهُمْ، فَكَانَ لَهُ اسْمٌ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ. أَلَمْ يُكْرَمْ عَلَى الثَّلَاثَةِ فَكَانَ لَهُمْ رَئِيسًا، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَى الثَّلَاثَةِ الْأُوَلِ. وَبَنَايَاهُو بْنُ يَهُويَادَاعَ، ابْنُ ذِي بَأْسٍ، كَثِيرُ الْأَفْعَالِ، مِنْ قَبْصِئِيلَ، هُوَ الَّذِي ضَرَبَ أَسَدَيْ مُوآبَ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ وَضَرَبَ أَسَدًا فِي وَسَطِ جُبٍّ يَوْمَ الثَّلْجِ. وَهُوَ ضَرَبَ رَجُلًا مِصْرِيًّا ذَا مَنْظَرٍ، وَكَانَ بِيَدِ الْمِصْرِيِّ رُمْحٌ، فَنَزَلَ إِلَيْهِ بِعَصًا وَخَطَفَ الرُّمْحَ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّ وَقَتَلَهُ بِرُمْحِهِ. هَذَا مَا فَعَلَهُ بَنَايَاهُو بْنُ يَهُويَادَاعَ، فَكَانَ لَهُ اسْمٌ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ الْأَبْطَالِ، وَأُكْرِمَ عَلَى الثَّلَاثِينَ، إِلَا أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَى الثَّلَاثَةِ. فَجَعَلَهُ دَاوُدُ مِنْ أَصْحَابِ سِرِّهِ»[(١)].

– **أبيشج الشونمية**: «وَشَاخَ الْمَلِكُ دَاوُدُ. تَقَدَّمَ فِي الْأَيَّامِ. وَكَانُوا يُدَثِّرُونَهُ بِالثِّيَابِ فَلَمْ يَدْفَأْ. فَقَالَ لَهُ عَبِيدُهُ: لِيُفَتِّشُوا لِسَيِّدِنَا الْمَلِكِ عَلَى فَتَاةٍ عَذْرَاءَ، فَلْتَقِفْ أَمَامَ الْمَلِكِ وَلْتَكُنْ لَهُ حَاضِنَةً وَلْتَضْطَجِعْ فِي حِضْنِكَ فَيَدْفَأَ سَيِّدُنَا الْمَلِكُ. فَفَتَّشُوا عَلَى فَتَاةٍ جَمِيلَةٍ فِي جَمِيعِ تُخُومِ إِسْرَائِيلَ، فَوَجَدُوا أَبِيشَجَ الشُّونَمِيَّةَ، فَجَاءُوا بِهَا إِلَى الْمَلِكِ. وَكَانَتِ الْفَتَاةُ جَمِيلَةً جِدًّا، فَكَانَتْ حَاضِنَةَ الْمَلِكِ. وَكَانَتْ تَخْدِمُهُ، وَلَكِنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَعْرِفْهَا»[(٢)].

---

(١) سفر صموئيل الثاني، الفصل ٢٣، الآيات ٨-٢٣.

(٢) سفر الملوك الأوّل، الفصل ١، الآيات ١-٤.

– **روح الكذب**: «فَقَالَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ لِيَهُوشَافَاطَ: أَمَا قُلْتُ لَكَ إِنَّهُ لاَ يَتَنَبَّأُ عَلَيَّ خَيْرًا بَلْ شَرًّا؟ وَقَالَ: فَاسْمَعْ إِذَنْ كَلاَمَ الرَّبِّ: قَدْ رَأَيْتُ الرَّبَّ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَكُلُّ جُنْدِ السَّمَاءِ وُقُوفٌ لَدَيْهِ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ. فَقَالَ الرَّبُّ: مَنْ يُغْوِي أَخْآبَ فَيَصْعَدَ وَيَسْقُطَ فِي رَامُوتَ جِلْعَادَ؟ فَقَالَ هذَا هكَذَا، وَقَالَ ذَاكَ هكَذَا. ثُمَّ خَرَجَ الرُّوحُ وَوَقَفَ أَمَامَ الرَّبِّ وَقَالَ: أَنَا أُغْوِيهِ. وَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: بِمَاذَا؟ فَقَالَ: أَخْرُجُ، وَأَكُونُ رُوحَ كَذِبٍ، فِي أَفْوَاهِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ. فَقَالَ: إِنَّكَ تُغْوِيهِ وَتَقْتَدِرُ، فَاخْرُجْ وَافْعَلْ هكَذَا. وَالآنَ هُوَذَا قَدْ جَعَلَ الرَّبُّ رُوحَ كَذِبٍ فِي أَفْوَاهِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِكَ هؤُلاَءِ، وَالرَّبُّ تَكَلَّمَ عَلَيْكَ بِشَرٍّ»(١).

– **إحياء الصبيّ**: «وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ عَبَرَ أَلِيشَعُ إِلَى شُونَمَ. وَكَانَتْ هُنَاكَ امْرَأَةٌ عَظِيمَةٌ، فَأَمْسَكَتْهُ لِيَأْكُلَ خُبْزًا. وَكَانَ كُلَّمَا عَبَرَ يَمِيلُ إِلَى هُنَاكَ لِيَأْكُلَ خُبْزًا. فَقَالَتْ لِرَجُلِهَا: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَجُلُ اللهِ، مُقَدَّسٌ الَّذِي يَمُرُّ عَلَيْنَا دَائِمًا. فَلْنَعْمَلْ عُلِّيَّةً عَلَى الْحَائِطِ صَغِيرَةً وَنَضَعْ لَهُ هُنَاكَ سَرِيرًا وَخِوَانًا وَكُرْسِيًّا وَمَنَارَةً، حَتَّى إِذَا جَاءَ إِلَيْنَا يَمِيلُ إِلَيْهَا. وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ جَاءَ إِلَى هُنَاكَ وَمَالَ إِلَى الْعُلِّيَّةِ وَاضْطَجَعَ فِيهَا. فَقَالَ لِجِيحْزِي غُلاَمِهِ: ادْعُ هذِهِ الشُّونَمِيَّةَ. فَدَعَاهَا، فَوَقَفَتْ أَمَامَهُ. فَقَالَ لَهُ: قُلْ لَهَا: هُوَذَا قَدِ انْزَعَجْتِ بِسَبَبِنَا كُلَّ هذَا الانْزِعَاجِ، فَمَاذَا يُصْنَعُ لَكِ؟ هَلْ لَكِ مَا يُتَكَلَّمُ بِهِ إِلَى الْمَلِكِ أَوْ إِلَى رَئِيسِ الْجَيْشِ؟ فَقَالَتْ: إِنَّمَا أَنَا سَاكِنَةٌ فِي وَسْطِ شَعْبِي. ثُمَّ قَالَ: فَمَاذَا يُصْنَعُ لَهَا؟ فَقَالَ جِيحْزِي: إِنَّهُ لَيْسَ لَهَا ابْنٌ، وَرَجُلُهَا قَدْ شَاخَ. فَقَالَ: ادْعُهَا. فَدَعَاهَا، فَوَقَفَتْ فِي الْبَابِ. فَقَالَ: فِي هذَا الْمِيعَادِ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ تَحْتَضِنِينَ ابْنًا. فَقَالَتْ: لاَ يَا سَيِّدِي رَجُلَ اللهِ. لاَ تَكْذِبْ عَلَى جَارِيَتِكَ. فَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ وَوَلَدَتِ ابْنًا فِي ذلِكَ الْمِيعَادِ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ، كَمَا قَالَ

(١) سفر الملوك الأوّل، الفصل ٢٢، الآيات ١٨-٢٣.

لَهَا أَلِيشَعُ. وَكَبِرَ الْوَلَدُ. وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ خَرَجَ إِلَى أَبِيهِ إِلَى الْحَصَّادِينَ، وَقَالَ لِأَبِيهِ: رَأْسِي، رَأْسِي. فَقَالَ لِلْغُلَامِ: احْمِلْهُ إِلَى أُمِّهِ. فَحَمَلَهُ وَأَتَى بِهِ إِلَى أُمِّهِ، فَجَلَسَ عَلَى رُكْبَتَيْهَا إِلَى الظُّهْرِ وَمَاتَ. فَصَعِدَتْ وَأَضْجَعَتْهُ عَلَى سَرِيرِ رَجُلِ اللهِ، وَأَغْلَقَتْ عَلَيْهِ وَخَرَجَتْ. وَنَادَتْ رَجُلَهَا وَقَالَتْ: أَرْسِلْ لِي وَاحِدًا مِنَ الْغِلْمَانِ وَإِحْدَى الْأُتُنِ، فَأَجْرِيَ إِلَى رَجُلِ اللهِ، وَأَرْجِعَ. فَقَالَ: لِمَاذَا تَذْهَبِينَ إِلَيْهِ الْيَوْمَ؟ لَا رَأْسُ شَهْرٍ، وَلَا سَبْتٌ. فَقَالَتْ: سَلَامٌ. وَشَدَّتْ عَلَى الْأَتَانِ، وَقَالَتْ لِغُلَامِهَا: سُقْ وَسِرْ وَلَا تَتَعَوَّقْ لِأَجْلِي فِي الرُّكُوبِ إِنْ لَمْ أَقُلْ لَكَ. وَانْطَلَقَتْ حَتَّى جَاءَتْ إِلَى رَجُلِ اللهِ إِلَى جَبَلِ الْكَرْمَلِ. فَلَمَّا رَآهَا رَجُلُ اللهِ مِنْ بَعِيدٍ قَالَ لِجِيحْزِي غُلَامِهِ: هُوَذَا تِلْكَ الشُّونَمِيَّةُ. ارْكُضِ الْآنَ لِلِقَائِهَا وَقُلْ لَهَا: أَسَلَامٌ لَكِ؟ أَسَلَامٌ لِزَوْجِكِ؟ أَسَلَامٌ لِلْوَلَدِ؟ فَقَالَتْ: سَلَامٌ. فَلَمَّا جَاءَتْ إِلَى رَجُلِ اللهِ إِلَى الْجَبَلِ أَمْسَكَتْ رِجْلَيْهِ. فَتَقَدَّمَ جِيحْزِي لِيَدْفَعَهَا، فَقَالَ رَجُلُ اللهِ: دَعْهَا لِأَنَّ نَفْسَهَا مُرَّةٌ فِيهَا وَالرَّبُّ كَتَمَ الْأَمْرَ عَنِّي وَلَمْ يُخْبِرْنِي. فَقَالَتْ: هَلْ طَلَبْتُ ابْنًا مِنْ سَيِّدِي؟ أَلَمْ أَقُلْ لَا تَخْدَعْنِي؟ فَقَالَ لِجِيحْزِي: اشْدُدْ حَقَوَيْكَ وَخُذْ عُكَّازِي بِيَدِكَ وَانْطَلِقْ، وَإِذَا صَادَفْتَ أَحَدًا فَلَا تُبَارِكْهُ، وَإِنْ بَارَكَكَ أَحَدٌ فَلَا تُجِبْهُ. وَضَعْ عُكَّازِي عَلَى وَجْهِ الصَّبِيِّ. فَقَالَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ: حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ، وَحَيَّةٌ هِيَ نَفْسُكَ، إِنَّنِي لَا أَتْرُكُكَ. فَقَامَ وَتَبِعَهَا. وَجَازَ جِيحْزِي قُدَّامَهُمَا وَوَضَعَ الْعُكَّازَ عَلَى وَجْهِ الصَّبِيِّ، فَلَمْ يَكُنْ صَوْتٌ وَلَا مُصْغٍ. فَرَجَعَ لِلِقَائِهِ وَأَخْبَرَهُ قَائِلًا: لَمْ يَنْتَبِهِ الصَّبِيُّ. وَدَخَلَ أَلِيشَعُ الْبَيْتَ وَإِذَا بِالصَّبِيِّ مَيْتٌ وَمُضْطَجِعٌ عَلَى سَرِيرِهِ. فَدَخَلَ وَأَغْلَقَ الْبَابَ عَلَى نَفْسَيْهِمَا كِلَيْهِمَا، وَصَلَّى إِلَى الرَّبِّ. ثُمَّ صَعِدَ وَاضْطَجَعَ فَوْقَ الصَّبِيِّ وَوَضَعَ فَمَهُ عَلَى فَمِهِ، وَعَيْنَيْهِ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَيَدَيْهِ عَلَى يَدَيْهِ، وَتَمَدَّدَ عَلَيْهِ فَسَخُنَ جَسَدُ الْوَلَدِ. ثُمَّ عَادَ وَتَمَشَّى فِي الْبَيْتِ تَارَةً إِلَى هُنَا وَتَارَةً إِلَى هُنَاكَ، وَصَعِدَ وَتَمَدَّدَ عَلَيْهِ فَعَطَسَ الصَّبِيُّ سَبْعَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ فَتَحَ الصَّبِيُّ عَيْنَيْهِ. فَدَعَا جِيحْزِي وَقَالَ: ادْعُ

هَذِهِ الشُّونَمِيَّةَ فَدَعَاهَا. وَلَمَّا دَخَلَتْ إِلَيْهِ قَالَ: احْمِلِي ابْنَكِ. فَأَتَتْ وَسَقَطَتْ عَلَى رِجْلَيْهِ وَسَجَدَتْ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ حَمَلَتِ ابْنَهَا وَخَرَجَتْ»(١).

– **تعرّي إشعياء**: «فِي سَنَةِ مَجِيءِ تَرْتَانَ إِلَى أَشْدُودَ، حِينَ أَرْسَلَهُ سَرْجُونُ مَلِكُ أَشُّورَ، فَحَارَبَ أَشْدُودَ وَأَخَذَهَا، فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ تَكَلَّمَ الرَّبُّ عَنْ يَدِ إِشَعْيَاءَ بْنِ آمُوصَ قَائِلًا: اذْهَبْ وَحُلَّ الْمِسْحَ عَنْ حَقْوَيْكَ وَاخْلَعْ حِذَاءَكَ عَنْ رِجْلَيْكَ. فَفَعَلَ هَكَذَا وَمَشَى مُعَرًّى وَحَافِيًا. فَقَالَ الرَّبُّ: كَمَا مَشَى عَبْدِي إِشَعْيَاءُ مُعَرًّى وَحَافِيًا ثَلَاثَ سِنِينٍ، آيَةً وَأُعْجُوبَةً عَلَى مِصْرَ وَعَلَى كُوشَ، هَكَذَا يَسُوقُ مَلِكُ أَشُّورَ سَبْيَ مِصْرَ، وَجَلَاءَ كُوشَ، الْفِتْيَانَ وَالشُّيُوخَ، عُرَاةً، وَحُفَاةً، وَمَكْشُوفِي الْأَسْتَاهِ؛ خِزْيًا لِمِصْرَ. فَيَرْتَاعُونَ، وَيَخْجَلُونَ؛ مِنْ أَجْلِ كُوشَ رَجَائِهِمْ، وَمِنْ أَجْلِ مِصْرَ فَخْرِهِمْ. وَيَقُولُ سَاكِنُ هَذَا السَّاحِلِ، فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: هُوَذَا هَكَذَا مَلْجَأُنَا الَّذِي هَرَبْنَا إِلَيْهِ لِلْمَعُونَةِ؛ لِنَنْجُو مِنْ مَلِكِ أَشُّورَ، فَكَيْفَ نَسْلَمُ نَحْنُ؟»(٢).

– **الكعك والخُرْء**: «وَخُذْ أَنْتَ لِنَفْسِكَ قَمْحًا وَشَعِيرًا وَفُولًا وَعَدَسًا وَدُخْنًا وَكَرْسَنَّةً وَضَعْهَا فِي وِعَاءٍ وَاحِدٍ، وَاصْنَعْهَا لِنَفْسِكَ خُبْزًا كَعَدَدِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَتَّكِئُ فِيهَا عَلَى جَنْبِكَ. ثَلَاثَ مِئَةِ يَوْمٍ وَتِسْعِينَ يَوْمًا تَأْكُلُهُ. وَطَعَامُكَ الَّذِي تَأْكُلُهُ يَكُونُ بِالْوَزْنِ. كُلَّ يَوْمٍ عِشْرِينَ شَاقِلًا. مِنْ وَقْتٍ إِلَى وَقْتٍ تَأْكُلُهُ. وَتَشْرَبُ الْمَاءَ بِالْكَيْلِ، سُدْسَ الْهِينِ، مِنْ وَقْتٍ إِلَى وَقْتٍ تَشْرَبُهُ. وَتَأْكُلُ كَعْكًا مِنَ الشَّعِيرِ. عَلَى الْخُرْءِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْإِنْسَانِ تَخْبِزُهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ. وَقَالَ الرَّبُّ: هَكَذَا يَأْكُلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ خُبْزَهُمُ النَّجِسَ بَيْنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ أَطْرُدُهُمْ إِلَيْهِمْ. فَقُلْتُ: آهِ، يَا سَيِّدُ الرَّبُّ، هَا نَفْسِي لَمْ تَتَنَجَّسْ. وَمِنْ صِبَايَ إِلَى الْآنَ، لَمْ آكُلْ مَيْتَةً، أَوْ فَرِيسَةً،

(١) سفر الملوك الثاني، الفصل ٤، الآيات ٨-٣٧.

(٢) سفر إشعياء، الفصل ٢٠، الآيات ١-٦.

وَلَا دَخَلَ فَمِي لَحْمٌ نَجِسٌ. فَقَالَ لِي: انْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُ لَكَ خِثْيَ الْبَقَرِ بَدَلَ خُرْءِ الْإِنْسَانِ، فَتَصْنَعُ خُبْزَكَ عَلَيْهِ. وَقَالَ لِي: يَا ابْنَ آدَمَ، هَأَنَذَا أُكَسِّرُ قِوَامَ الْخُبْزِ فِي أُورُشَلِيمَ، فَيَأْكُلُونَ الْخُبْزَ بِالْوَزْنِ وَبِالْغَمِّ، وَيَشْرَبُونَ الْمَاءَ بِالْكَيْلِ وَبِالْحَيْرَةِ، لِكَيْ يُعْوِزَهُمُ الْخُبْزُ وَالْمَاءُ، وَيَتَحَيَّرُوا الرَّجُلُ وَأَخُوهُ وَيَفْنَوْا بِإِثْمِهِمْ»[(١)].

فلك أن تتخيّل أخلاق الإنسان، الذي يعتقد بشرعيّة كلّ ما ورد في هذا الكتاب، ويطلب الهداية منه؟!!!

ولك أن تتخيّل سقامة عقائده، وسُخفها، وقذارتها، ونتانتها، وبُعدها عن (حقائق الوحي الإلهيّ المُنزَّل)، المُبرَّأة من الأهواء، والأوهام، والأباطيل، والأكاذيب، والخرافات، والأساطير؟!!!

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[(٢)].

قال محمّد الغزاليّ: «ونحن – المسلمين – نعتقد أنّ الكتاب النازل على موسى: بريء من هذا اللغو. أمّا التوراة الحاليّة، فهي تأليف بشريّ، سيطرت عليه أمور ثلاثة: الأوّل– وصف الله، بما لا ينبغي أن يُوصَف به، وإسقاط صورة ذهنيّة معتلّة على ذاته، سبحانه وتعالى، عمّا يقولون علوًّا كبيرًا. الثاني– إبراز بني إسرائيل، وكأنّهم محور العالم، وإكسير الحياة، وغاية الوجود.. فهُمُ الشعب المختار للسيادة، والقيادة، لا يجوز أن يُنازَعوا في ذلك. الثالث– تحقير الأمم الأخرى، وإرخاص حقوقها، وإلحاق أشنع

---

(١) سفر حزقيال، الفصل ٤، الآيات ٩-١٧.

(٢) المائدة: ١٣.

الأوصاف بها، وبأنبيائها، وقادتها. وقد تتخلّل هذه الأمور بقايا، من الوحي الصادق، والتوجيهات المُبرَّأة، بيد أنّ الأسفار الشائعة الآن تغلب عليها الصبغة، التي لاحظناها»[1].

فإن قيل: إنّ للترجمة أثرًا، في تقبيح النصوص المذكورة، ولو أنّ القارئ قرأها باللغة العِبْريّة، لَما استقبحها؛ كما أنّ نصوص القرآن قد يُفهَم منها ما لا يُراد، إذا تُرجِمَتْ إلى لغة أخرى، غير العربيّة.

قلتُ: قد يصحّ هذا الافتراض، في بعض نصوص (العهد القديم)، ولكنّه لا يمكن أن يصحّ في نصوصه كلّها.

فما نسبوه إلى لوط وداود عليهما السلام، وما نسبوه إلى رأوبين ويهوذا وأمنون وأبشالوم، وابنتَي لوط: فواحش مُستنكَرة، يتورّع كثير من الفُسّاق، عن ارتكابها، فحتّى في (العهد القديم) تجد استبشاعًا، واستنكارًا، لهذه الفواحش الكبرى:

- «عَوْرَةَ أَبِيكَ وَعَوْرَةَ أُمِّكَ لَا تَكْشِفْ. إِنَّهَا أُمُّكَ لَا تَكْشِفْ عَوْرَتَهَا. عَوْرَةَ امْرَأَةِ أَبِيكَ لَا تَكْشِفْ. إِنَّهَا عَوْرَةُ أَبِيكَ. عَوْرَةَ أُخْتِكَ بِنْتِ أَبِيكَ أَوْ بِنْتِ أُمِّكَ، الْمَوْلُودَةِ فِي الْبَيْتِ أَوِ الْمَوْلُودَةِ خَارِجًا، لَا تَكْشِفْ عَوْرَتَهَا. عَوْرَةَ ابْنَةِ ابْنِكَ، أَوِ ابْنَةِ بِنْتِكَ لَا تَكْشِفْ عَوْرَتَهَا. إِنَّهَا عَوْرَتُكَ. عَوْرَةَ بِنْتِ امْرَأَةِ أَبِيكَ الْمَوْلُودَةِ مِنْ أَبِيكَ لَا تَكْشِفْ عَوْرَتَهَا. إِنَّهَا أُخْتُكَ. عَوْرَةَ أُخْتِ أَبِيكَ لَا تَكْشِفْ. إِنَّهَا قَرِيبَةُ أَبِيكَ. عَوْرَةَ أُخْتِ أُمِّكَ لَا تَكْشِفْ. إِنَّهَا قَرِيبَةُ أُمِّكَ. عَوْرَةَ أَخِي أَبِيكَ لَا تَكْشِفْ. إِلَى امْرَأَتِهِ لَا تَقْتَرِبْ. إِنَّهَا عَمَّتُكَ. عَوْرَةَ كَنَّتِكَ لَا تَكْشِفْ. إِنَّهَا امْرَأَةُ ابْنِكَ. لَا تَكْشِفْ عَوْرَتَهَا. عَوْرَةَ امْرَأَةِ أَخِيكَ لَا تَكْشِفْ. إِنَّهَا عَوْرَةُ أَخِيكَ. عَوْرَةَ امْرَأَةٍ وَبِنْتِهَا لَا تَكْشِفْ. وَلَا تَأْخُذِ ابْنَةَ ابْنِهَا، أَوِ ابْنَةَ بِنْتِهَا لِتَكْشِفَ

---

(١) قذائف الحقّ: ٢٣.

عَوْرَتَهَا. إِنَّهُمَا قَرِيبَتَاهَا. إِنَّهُ رَذِيلَةٌ. وَلَا تَأْخُذِ امْرَأَةً عَلَى أُخْتِهَا لِلضِّرِّ لِتَكْشِفَ عَوْرَتَهَا مَعَهَا فِي حَيَاتِهَا»[1].

– «لَا تُدَنِّسِ ابْنَتَكَ بِتَعْرِيضِهَا لِلزِّنَى لِئَلَّا تَزْنِيَ الْأَرْضُ وَتَمْتَلِئَ الْأَرْضُ رَذِيلَةً»[2].

– «وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةِ أَبِيهِ، فَقَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَبِيهِ. إِنَّهُمَا يُقْتَلَانِ كِلَاهُمَا. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا. وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ كَنَّتِهِ، فَإِنَّهُمَا يُقْتَلَانِ كِلَاهُمَا. قَدْ فَعَلَا فَاحِشَةً. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا»[3].

– «وَإِذَا أَخَذَ رَجُلٌ أُخْتَهُ بِنْتَ أَبِيهِ أَوْ بِنْتَ أُمِّهِ، وَرَأَى عَوْرَتَهَا وَرَأَتْ هِيَ عَوْرَتَهُ، فَذَلِكَ عَارٌ. يُقْطَعَانِ أَمَامَ أَعْيُنِ بَنِي شَعْبِهِمَا. قَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ أُخْتِهِ. يَحْمِلُ ذَنْبَهُ»[4].

– «إِذَا وُجِدَ رَجُلٌ مُضْطَجِعًا مَعَ امْرَأَةٍ، زَوْجَةِ بَعْلٍ، يُقْتَلُ الِاثْنَانِ: الرَّجُلُ الْمُضْطَجِعُ مَعَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةُ. فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ إِسْرَائِيلَ»[5].

فهل الترجمة السقيمة: هي التي اختلقَتْ تلك (القصص المُستنكَرة)، المنسوبة إلى: لوط وابنتيه، وداود وامرأة أوريّا، ورأوبين وسرّيّة أبيه، ويهوذا وكنّته، وأمنون وأخته، وأبشالوم وسراريّ أبيه؟!!!

وهل الترجمة السقيمة: هي التي نسبَتْ إلى نوح وإسحاق شُربَ الخمر، ونسبَتْ إلى هارون صُنعَ العجل، وإلى سليمان عبادةَ الأوثان؟!!!

---

(١) سفر اللاويّين، الفصل ١٨، الآيات ٧-١٨.

(٢) سفر اللاويّين، الفصل ١٩، الآية ٢٩.

(٣) سفر اللاويّين، الفصل ٢٠، الآيات ١١-١٢.

(٤) سفر اللاويّين، الفصل ٢٠، الآية ١٧.

(٥) سفر التثنية، الفصل ٢٢، الآية ٢٢.

إنّ مَثَلَ (العهد القديم)، في اشتماله على حقّ قليل، وباطل كثير، كمَثَلِ (كشكول كبير)، جمع فيه مؤلِّفُه:

١- القليل من الآيات القرآنيّة.

٢- الكثير من القراءات الشاذّة.

٣- القليل من الأحاديث الصحيحة.

٤- الكثير من الأحاديث الموضوعة.

٥- القليل من التفسيرات الصحيحة.

٦- الكثير من التفسيرات السقيمة.

٧- القليل من العَقَديّات الصحيحة.

٨- الكثير من العَقَديّات السقيمة.

٩- القليل من الفقهيّات الصحيحة.

١٠- الكثير من الفقهيّات السقيمة.

١١- القليل من الخُلُقيّات الصحيحة.

١٢- الكثير من الخُلُقيّات السقيمة.

١٣- القليل من التاريخيّات الصحيحة.

١٤- الكثير من التاريخيّات السقيمة.

١٥- القليل من الأشعار الإيمانيّة.

١٦- الكثير من الأشعار الشيطانيّة.

ولذلك لا يصحّ أن يُسمّى هذا (الكشكول): (الكشكول المُقدَّس)، وإن اشتمل على بعض الحقائق؛ لأنّ الحقائق والأباطيل لا تجتمع في كُتُب (الوحي الإلهيّ المنزَّل)؛ فإذا اجتمعت في كتاب بشريّ، فلا يُمكن غضُّ النظر، عن الأباطيل التي فيه، حتّى إن كانت قليلةً، فكيف وهي الغالبة عليه؟!!!

ومن يطالع (العهد القديم)، يجد فيه الكثير من الأمور، التي لا علاقة لها بالوحي الإلهيّ المنزَّل، لا من قريب، ولا من بعيد. وإليك بعض الأمثلة:

– «وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى فِي بَرِّيَّةِ سِينَاءَ، فِي خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ، فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ الثَّانِي فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِخُرُوجِهِمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ قَائِلًا: أَحْصُوا كُلَّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الأَسْمَاءِ، كُلَّ ذَكَرٍ بِرَأْسِهِ، مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلَّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ فِي إِسْرَائِيلَ. تَحْسُبُهُمْ أَنْتَ وَهَارُونُ حَسَبَ أَجْنَادِهِمْ. وَيَكُونُ مَعَكُمَا رَجُلٌ لِكُلِّ سِبْطٍ، رَجُلٌ هُوَ رَأْسٌ لِبَيْتِ آبَائِهِ. وَهَذِهِ أَسْمَاءُ الرِّجَالِ الَّذِينَ يَقِفُونَ مَعَكُمَا: لِرَأُوبَيْنَ أَلِيصُورُ بْنُ شَدَيْئُورَ. لِشِمْعُونَ شَلُومِيئِيلُ بْنُ صُورِيشَدَّاي. لِيَهُوذَا نَحْشُونُ بْنُ عَمِّينَادَابَ. لِيَسَّاكَرَ نَثَنَائِيلُ بْنُ صُوغَرَ. لِزَبُولُونَ أَلِيآبُ بْنُ حِيلُونَ. لاِبْنَيْ يُوسُفَ: لأَفْرَايِمَ أَلِيشَمَعُ بْنُ عَمِّيهُودَ، وَلِمَنَسَّى جَمْلِيئِيلُ بْنُ فَدَهْصُورَ. لِبَنْيَامِينَ أَبِيدَنُ بْنُ جِدْعُونِي. لِدَانَ أَخِيعَزَرُ بْنُ عَمِّيشَدَّاي. لأَشِيرَ فَجْعِيئِيلُ بْنُ عُكْرَنَ. لِجَادَ أَلِيَاسَافُ بْنُ دَعُوئِيلَ. لِنَفْتَالِي أَخِيرَعُ بْنُ عِينَنَ. هؤُلاَءِ هُمْ مَشَاهِيرُ الْجَمَاعَةِ، رُؤَسَاءُ أَسْبَاطِ آبَائِهِمْ. رُؤُوسُ أُلُوفِ إِسْرَائِيلَ. فَأَخَذَ مُوسَى وَهَارُونُ هؤُلاَءِ الرِّجَالَ الَّذِينَ تَعَيَّنُوا بِأَسْمَائِهِمْ، وَجَمَعَا كُلَّ الْجَمَاعَةِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ الثَّانِي، فَانْتَسَبُوا إِلَى عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ بِعَدَدِ الأَسْمَاءِ، مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا بِرُؤُوسِهِمْ، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى. فَعَدَّهُمْ فِي بَرِّيَّةِ سِينَاءَ. فَكَانَ بَنُو رَأُوبَيْنَ بِكْرِ إِسْرَائِيلَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الأَسْمَاءِ بِرُؤُوسِهِمْ، كُلُّ ذَكَرٍ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، كَانَ الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ رَأُوبَيْنَ سِتَّةً وَأَرْبَعِينَ أَلْفًا وَخَمْسَ مِئَةٍ. بَنُو شِمْعُونَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمِ، الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ بِعَدَدِ الأَسْمَاءِ بِرُؤُوسِهِمْ، كُلُّ ذَكَرٍ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ شِمْعُونَ تِسْعَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفًا وَثَلاَثُ مِئَةٍ.

بَنُو جَادَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ جَادَ خَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا وَسِتُّ مِئَةٍ وَخَمْسُونَ. بَنُو يَهُوذَا، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ يَهُوذَا أَرْبَعَةٌ وَسَبْعُونَ أَلْفًا وَسِتُّ مِئَةٍ. بَنُو يَسَّاكَرَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ يَسَّاكَرَ أَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِئَةٍ. بَنُو زَبُولُونَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ زَبُولُونَ سَبْعَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِئَةٍ. بَنُو يُوسُفَ: بَنُو أَفْرَايِمَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ أَفْرَايِمَ أَرْبَعُونَ أَلْفًا وَخَمْسُ مِئَةٍ. بَنُو مَنَسَّى، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ مَنَسَّى اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا وَمِئَتَانِ. بَنُو بَنْيَامِينَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ بَنْيَامِينَ خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِئَةٍ. بَنُو دَانَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ دَانَ اثْنَانِ وَسِتُّونَ أَلْفًا وَسَبْعُ مِئَةٍ. بَنُو أَشِيرَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ أَشِيرَ وَاحِدٌ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا وَخَمْسُ مِئَةٍ. بَنُو نَفْتَالِي، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ

مِن ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ نَفْتَالِي ثَلاَثَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِئَةٍ. هَؤُلاَءِ هُمُ الْمَعْدُودُونَ الَّذِينَ عَدَّهُمْ مُوسَى وَهَارُونُ وَرُؤَسَاءُ إِسْرَائِيلَ، اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، رَجُلٌ وَاحِدٌ لِبَيْتِ آبَائِهِ. فَكَانَ جَمِيعُ الْمَعْدُودِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَسَبَ بُيُوتِ آبَائِهِمْ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ فِي إِسْرَائِيلَ. كَانَ جَمِيعُ الْمَعْدُودِينَ سِتَّ مِئَةِ أَلْفٍ وَثَلاثَةَ آلافٍ وَخَمْسَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ. وَأَمَّا اللاَّوِيُّونَ حَسَبَ سِبْطِ آبَائِهِمْ فَلَمْ يُعَدُّوا بَيْنَهُمْ، إِذْ كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: أَمَّا سِبْطُ لاَوِي فَلاَ تَحْسُبْهُ وَلاَ تَعُدَّهُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. بَلْ وَكِّلِ اللاَّوِيِّينَ عَلَى مَسْكَنِ الشَّهَادَةِ وَعَلَى جَمِيعِ أَمْتِعَتِهِ وَعَلَى كُلِّ مَا لَهُ. هُمْ يَحْمِلُونَ الْمَسْكَنَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهِ، وَهُمْ يَخْدِمُونَهُ، وَحَوْلَ الْمَسْكَنِ يَنْزِلُونَ. فَعِنْدَ ارْتِحَالِ الْمَسْكَنِ يُنَزِّلُهُ اللاَّوِيُّونَ وَعِنْدَ نُزُولِ الْمَسْكَنِ يُقِيمُهُ اللاَّوِيُّونَ. وَالأَجْنَبِيُّ الَّذِي يَقْتَرِبُ يُقْتَلُ. وَيَنْزِلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ كُلٌّ فِي مَحَلَّتِهِ وَكُلٌّ عِنْدَ رَايَتِهِ بِأَجْنَادِهِمْ. وَأَمَّا اللاَّوِيُّونَ فَيَنْزِلُونَ حَوْلَ مَسْكَنِ الشَّهَادَةِ لِكَيْ لاَ يَكُونَ سَخَطٌ عَلَى جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَيَحْفَظُ اللاَّوِيُّونَ شَعَائِرَ مَسْكَنِ الشَّهَادَةِ. فَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى كَذَلِكَ فَعَلُوا»(١).

– «وَيَوْمَ فَرَغَ مُوسَى مِنْ إِقَامَةِ الْمَسْكَنِ، وَمَسَحَهُ وَقَدَّسَهُ وَجَمِيعَ أَمْتِعَتِهِ، وَالْمَذْبَحَ وَجَمِيعَ أَمْتِعَتِهِ وَمَسَحَهَا وَقَدَّسَهَا، قَرَّبَ رُؤَسَاءُ إِسْرَائِيلَ، رُؤُوسُ بُيُوتِ آبَائِهِمْ، هُمْ رُؤَسَاءُ الأَسْبَاطِ الَّذِينَ وَقَفُوا عَلَى الْمَعْدُودِينَ. أَتَوْا بِقَرَابِينِهِمْ أَمَامَ الرَّبِّ: سِتَّ عَجَلاَتٍ مُغَطَّاةً، وَاثْنَيْ عَشَرَ ثَوْرًا. لِكُلِّ رَئِيسَيْنِ عَجَلَةٌ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ ثَوْرٌ، وَقَدَّمُوهَا أَمَامَ الْمَسْكَنِ. فَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: خُذْهَا مِنْهُمْ فَتَكُونَ لِعَمَلِ خِدْمَةِ خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ، وَأَعْطِهَا لِلاَّوِيِّينَ، لِكُلِّ وَاحِدٍ حَسَبَ

---

(١) سفر العدد، الفصل ١، الآيات ١–٥٤.

خِدْمَتِهِ. فَأَخَذَ مُوسَى الْعَجَلاَتِ وَالثِّيرَانَ وَأَعْطَاهَا لِلاَّوِيِّينَ: اثْنَتَانِ مِنَ الْعَجَلاَتِ وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الثِّيرَانِ أَعْطَاهَا لِبَنِي جَرْشُونَ حَسَبَ خِدْمَتِهِمْ، وَأَرْبَعٌ مِنَ الْعَجَلاَتِ وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الثِّيرَانِ أَعْطَاهَا لِبَنِي مَرَارِي حَسَبَ خِدْمَتِهِمْ بِيَدِ إِيثَامَارَ بْنِ هَارُونَ الْكَاهِنِ. وَأَمَّا بَنُو قَهَاتَ فَلَمْ يُعْطِهِمْ، لأَنَّ خِدْمَةَ الْقُدْسِ كَانَتْ عَلَيْهِمْ، عَلَى الأَكْتَافِ كَانُوا يَحْمِلُونَ. وَقَرَّبَ الرُّؤَسَاءُ لِتَدْشِينِ الْمَذْبَحِ يَوْمَ مَسْحِهِ. وَقَدَّمَ الرُّؤَسَاءُ قَرَابِينَهُمْ أَمَامَ الْمَذْبَحِ. فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: رَئِيسًا رَئِيسًا فِي كُلِّ يَوْمٍ يُقَرِّبُونَ قَرَابِينَهُمْ لِتَدْشِينِ الْمَذْبَحِ. وَالَّذِي قَرَّبَ قُرْبَانَهُ فِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ نَحْشُونُ بْنُ عَمِّينَادَابَ، مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا. وَقُرْبَانُهُ طَبَقٌ وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَزْنُهُ مِئَةٌ وَثَلاَثُونَ شَاقِلاً، وَمِنْضَحَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِضَّةٍ سَبْعُونَ شَاقِلاً عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، كِلْتَاهُمَا مَمْلُوءَتَانِ دَقِيقًا مَلْتُوتًا بِزَيْتٍ لِتَقْدِمَةٍ، وَصَحْنٌ وَاحِدٌ عَشَرَةُ شَوَاقِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٌ بَخُورًا، وَثَوْرٌ وَاحِدٌ ابْنُ بَقَرٍ وَكَبْشٌ وَاحِدٌ وَخَرُوفٌ وَاحِدٌ حَوْلِيٌّ لِمُحْرَقَةٍ، وَتَيْسٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمَعَزِ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ، وَلِذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ ثَوْرَانِ وَخَمْسَةُ كِبَاشٍ وَخَمْسَةُ تُيُوسٍ وَخَمْسَةُ خِرَافٍ حَوْلِيَّةٍ. هذَا قُرْبَانُ نَحْشُونَ بْنِ عَمِّينَادَابَ. وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي قَرَّبَ نَثَنَائِيلُ بْنُ صُوغَرَ رَئِيسُ يَسَّاكَرَ. قَرَّبَ قُرْبَانَهُ طَبَقًا وَاحِدًا مِنْ فِضَّةٍ وَزْنُهُ مِئَةٌ وَثَلاَثُونَ شَاقِلاً، وَمِنْضَحَةً وَاحِدَةً مِنْ فِضَّةٍ سَبْعِينَ شَاقِلاً عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، كِلْتَاهُمَا مَمْلُوءَتَانِ دَقِيقًا مَلْتُوتًا بِزَيْتٍ لِتَقْدِمَةٍ، وَصَحْنًا وَاحِدًا عَشَرَةَ شَوَاقِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوًّا بَخُورًا، وَثَوْرًا وَاحِدًا ابْنَ بَقَرٍ وَكَبْشًا وَاحِدًا وَخَرُوفًا وَاحِدًا حَوْلِيًّا لِمُحْرَقَةٍ، وَتَيْسًا وَاحِدًا مِنَ الْمَعَزِ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ، وَلِذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ ثَوْرَانِ وَخَمْسَةَ كِبَاشٍ وَخَمْسَةُ تُيُوسٍ وَخَمْسَةُ خِرَافٍ حَوْلِيَّةٍ. هذَا قُرْبَانُ نَثَنَائِيلَ بْنِ صُوغَرَ. وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ رَئِيسُ بَنِي زَبُولُونَ أَلِيآبُ بْنُ حِيلُونَ. قُرْبَانُهُ طَبَقٌ وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَزْنُهُ مِئَةٌ وَثَلاَثُونَ شَاقِلاً وَمِنْضَحَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِضَّةٍ سَبْعُونَ شَاقِلاً عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، كِلْتَاهُمَا مَمْلُوءَتَانِ دَقِيقًا مَلْتُوتًا بِزَيْتٍ لِتَقْدِمَةٍ، وَصَحْنٌ وَاحِدٌ عَشَرَةُ شَوَاقِلَ

مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٌ بَخُورًا، وَثَوْرٌ وَاحِدٌ ابْنُ بَقَرٍ وَكَبْشٌ وَاحِدٌ وَخَرُوفٌ وَاحِدٌ حَوْلِيٌّ لِمُحْرَقَةٍ، وَتَيْسٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمَعْزِ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ، وَلِذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ ثَوْرَانِ وَخَمْسَةُ كِبَاشٍ وَخَمْسَةُ تُيُوسٍ وَخَمْسَةُ خِرَافٍ حَوْلِيَّةٍ. هَذَا قُرْبَانُ أَلِيآبَ بْنِ حِيلُونَ. وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ رَئِيسُ بَنِي رَأُوبَيْنَ أَلِيصُورُ بْنُ شَدَيْئُورَ. قُرْبَانُهُ طَبَقٌ وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَزْنُهُ مِئَةٌ وَثَلاَثُونَ شَاقِلاً، وَمِنْضَحَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِضَّةٍ سَبْعُونَ شَاقِلاً عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، كِلْتَاهُمَا مَمْلُوءَتَانِ دَقِيقًا مَلْتُوتًا بِزَيْتٍ لِتَقْدِمَةٍ، وَصَحْنٌ وَاحِدٌ عَشَرَةُ شَوَاقِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٌ بَخُورًا، وَثَوْرٌ وَاحِدٌ ابْنُ بَقَرٍ وَكَبْشٌ وَاحِدٌ وَخَرُوفٌ وَاحِدٌ حَوْلِيٌّ لِمُحْرَقَةٍ، وَتَيْسٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمَعْزِ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ، وَلِذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ ثَوْرَانِ وَخَمْسَةُ كِبَاشٍ وَخَمْسَةُ تُيُوسٍ وَخَمْسَةُ خِرَافٍ حَوْلِيَّةٍ. هَذَا قُرْبَانُ أَلِيصُورَ بْنِ شَدَيْئُورَ. وَفِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ رَئِيسُ بَنِي شِمْعُونَ شَلُومِيئِيلُ بْنُ صُورِيشَدَّاي. قُرْبَانُهُ طَبَقٌ وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَزْنُهُ مِئَةٌ وَثَلاَثُونَ شَاقِلاً، وَمِنْضَحَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِضَّةٍ سَبْعُونَ شَاقِلاً عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، كِلْتَاهُمَا مَمْلُوءَتَانِ دَقِيقًا مَلْتُوتًا بِزَيْتٍ لِتَقْدِمَةٍ، وَصَحْنٌ وَاحِدٌ عَشَرَةُ شَوَاقِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٌ بَخُورًا، وَثَوْرٌ وَاحِدٌ ابْنُ بَقَرٍ وَكَبْشٌ وَاحِدٌ وَخَرُوفٌ وَاحِدٌ حَوْلِيٌّ لِمُحْرَقَةٍ، وَتَيْسٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمَعْزِ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ، وَلِذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ ثَوْرَانِ وَخَمْسَةُ كِبَاشٍ وَخَمْسَةُ تُيُوسٍ وَخَمْسَةُ خِرَافٍ حَوْلِيَّةٍ. هَذَا قُرْبَانُ شَلُومِيئِيلَ بْنِ صُورِيشَدَّاي. وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسِ رَئِيسُ بَنِي جَادَ أَلِيَاسَافُ بْنُ دَعُوئِيلَ. قُرْبَانُهُ طَبَقٌ وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَزْنُهُ مِئَةٌ وَثَلاَثُونَ شَاقِلاً، وَمِنْضَحَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِضَّةٍ سَبْعُونَ شَاقِلاً عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، كِلْتَاهُمَا مَمْلُوءَتَانِ دَقِيقًا مَلْتُوتًا بِزَيْتٍ لِتَقْدِمَةٍ، وَصَحْنٌ وَاحِدٌ عَشَرَةُ شَوَاقِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٌ بَخُورًا، وَثَوْرٌ وَاحِدٌ ابْنُ بَقَرٍ وَكَبْشٌ وَاحِدٌ وَخَرُوفٌ وَاحِدٌ حَوْلِيٌّ لِمُحْرَقَةٍ، وَتَيْسٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمَعْزِ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ، وَلِذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ ثَوْرَانِ وَخَمْسَةُ كِبَاشٍ وَخَمْسَةُ تُيُوسٍ وَخَمْسَةُ خِرَافٍ حَوْلِيَّةٍ. هَذَا قُرْبَانُ أَلِيَاسَافَ بْنِ دَعُوئِيلَ. وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ رَئِيسُ بَنِي أَفْرَايِمَ أَلِيشَمَعُ بْنُ عَمِّيهُودَ.

قُرْبَانُهُ طَبَقٌ وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَزْنُهُ مِئَةٌ وَثَلاثُونَ شَاقِلًا، وَمِنْضَحَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِضَّةٍ سَبْعُونَ شَاقِلًا عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، كِلْتَاهُمَا مَمْلُوءَتَانِ دَقِيقًا مَلْتُوتًا بِزَيْتٍ لِتَقْدِمَةٍ، وَصَحْنٌ وَاحِدٌ عَشَرَةُ شَوَاقِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٌ بَخُورًا، وَثَوْرٌ وَاحِدٌ ابْنُ بَقَرٍ وَكَبْشٌ وَاحِدٌ وَخَرُوفٌ وَاحِدٌ حَوْلِيٌّ لِمُحْرَقَةٍ، وَتَيْسٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمَعْزِ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ، وَلِذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ ثَوْرَانِ وَخَمْسَةُ كِبَاشٍ وَخَمْسَةُ تُيُوسٍ وَخَمْسَةُ خِرَافٍ حَوْلِيَّةٍ. هذَا قُرْبَانُ أَلِيشَمَعَ بْنِ عَمِّيهُودَ. وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ رَئِيسُ بَنِي مَنَسَّى جَمْلِيئِيلُ بْنُ فَدَهْصُورَ. قُرْبَانُهُ طَبَقٌ وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَزْنُهُ مِئَةٌ وَثَلاثُونَ شَاقِلًا، وَمِنْضَحَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِضَّةٍ سَبْعُونَ شَاقِلًا عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، كِلْتَاهُمَا مَمْلُوءَتَانِ دَقِيقًا مَلْتُوتًا بِزَيْتٍ لِتَقْدِمَةٍ، وَصَحْنٌ وَاحِدٌ عَشَرَةُ شَوَاقِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٌ بَخُورًا، وَثَوْرٌ وَاحِدٌ ابْنُ بَقَرٍ وَكَبْشٌ وَاحِدٌ وَخَرُوفٌ وَاحِدٌ حَوْلِيٌّ لِمُحْرَقَةٍ، وَتَيْسٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمَعْزِ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ، وَلِذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ ثَوْرَانِ وَخَمْسَةُ كِبَاشٍ وَخَمْسَةُ تُيُوسٍ وَخَمْسَةُ خِرَافٍ حَوْلِيَّةٍ. هذَا قُرْبَانُ جَمْلِيئِيلَ بْنِ فَدَهْصُورَ. وَفِي الْيَوْمِ التَّاسِعِ رَئِيسُ بَنِي بَنْيَامِينَ أَبِيدَنُ بْنُ جِدْعُونِي. قُرْبَانُهُ طَبَقٌ وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَزْنُهُ مِئَةٌ وَثَلاثُونَ شَاقِلًا، وَمِنْضَحَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِضَّةٍ سَبْعُونَ شَاقِلًا عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، كِلْتَاهُمَا مَمْلُوءَتَانِ دَقِيقًا مَلْتُوتًا بِزَيْتٍ لِتَقْدِمَةٍ، وَصَحْنٌ وَاحِدٌ عَشَرَةُ شَوَاقِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٌ بَخُورًا، وَثَوْرٌ وَاحِدٌ ابْنُ بَقَرٍ وَكَبْشٌ وَاحِدٌ وَخَرُوفٌ وَاحِدٌ حَوْلِيٌّ لِمُحْرَقَةٍ، وَتَيْسٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمَعْزِ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ، وَلِذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ ثَوْرَانِ وَخَمْسَةُ كِبَاشٍ وَخَمْسَةُ تُيُوسٍ وَخَمْسَةُ خِرَافٍ حَوْلِيَّةٍ. هذَا قُرْبَانُ أَبِيدَنَ بْنِ جِدْعُونِي. وَفِي الْيَوْمِ الْعَاشِرِ رَئِيسُ بَنِي دَانَ أَخِيعَزَرُ بْنُ عَمِّيشَدَّاي. قُرْبَانُهُ طَبَقٌ وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَزْنُهُ مِئَةٌ وَثَلاثُونَ شَاقِلًا، وَمِنْضَحَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِضَّةٍ سَبْعُونَ شَاقِلًا عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، كِلْتَاهُمَا مَمْلُوءَتَانِ دَقِيقًا مَلْتُوتًا بِزَيْتٍ لِتَقْدِمَةٍ، وَصَحْنٌ وَاحِدٌ عَشَرَةُ شَوَاقِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٌ بَخُورًا، وَثَوْرٌ وَاحِدٌ ابْنُ بَقَرٍ وَكَبْشٌ وَاحِدٌ وَخَرُوفٌ وَاحِدٌ حَوْلِيٌّ لِمُحْرَقَةٍ، وَتَيْسٌ

وَاحِدٌ مِنَ الْمَعْزِ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ، وَلِذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ ثَوْرَانِ وَخَمْسَةُ كِبَاشٍ وَخَمْسَةُ تُيُوسٍ وَخَمْسَةُ خِرَافٍ حَوْلِيَّةٍ. هذَا قُرْبَانُ أَخِيعَزَرَ بْنِ عَمِّيشَدَّايَ. وَفِي الْيَوْمِ الْحَادِي عَشَرَ رَئِيسُ بَنِي أَشِيرَ فَجْعِيئِيلُ بْنُ عُكْرَنَ. قُرْبَانُهُ طَبَقٌ وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَزْنُهُ مِئَةٌ وَثَلاَثُونَ شَاقِلاً، وَمِنْضَحَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِضَّةٍ سَبْعُونَ شَاقِلاً عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، كِلْتَاهُمَا مَمْلُوءَتَانِ دَقِيقًا مَلْتُوتًا بِزَيْتٍ لِتَقْدِمَةٍ، وَصَحْنٌ وَاحِدٌ عَشَرَةُ شَوَاقِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٌ بَخُورًا، وَثَوْرٌ وَاحِدٌ ابْنُ بَقَرٍ وَكَبْشٌ وَاحِدٌ وَخَرُوفٌ وَاحِدٌ حَوْلِيٌّ لِمُحْرَقَةٍ، وَتَيْسٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمَعْزِ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ، وَلِذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ ثَوْرَانِ وَخَمْسَةُ كِبَاشٍ وَخَمْسَةُ تُيُوسٍ وَخَمْسَةُ خِرَافٍ حَوْلِيَّةٍ. هذَا قُرْبَانُ فَجْعِيئِيلَ بْنِ عُكْرَنَ. وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي عَشَرَ رَئِيسُ بَنِي نَفْتَالِي أَخِيرَعُ بْنُ عِينَنَ. قُرْبَانُهُ طَبَقٌ وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَزْنُهُ مِئَةٌ وَثَلاَثُونَ شَاقِلاً، وَمِنْضَحَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِضَّةٍ سَبْعُونَ شَاقِلاً عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، كِلْتَاهُمَا مَمْلُوءَتَانِ دَقِيقًا مَلْتُوتًا بِزَيْتٍ لِتَقْدِمَةٍ وَصَحْنٌ وَاحِدٌ عَشَرَةُ شَوَاقِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٌ بَخُورًا، وَثَوْرٌ وَاحِدٌ ابْنُ بَقَرٍ وَكَبْشٌ وَاحِدٌ وَخَرُوفٌ وَاحِدٌ حَوْلِيٌّ لِمُحْرَقَةٍ، وَتَيْسٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمَعْزِ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ. وَلِذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ ثَوْرَانِ وَخَمْسَةُ كِبَاشٍ وَخَمْسَةُ تُيُوسٍ وَخَمْسَةُ خِرَافٍ حَوْلِيَّةٍ. هذَا قُرْبَانُ أَخِيرَعَ بْنِ عِينَنَ. هذَا تَدْشِينُ الْمَذْبَحِ يَوْمَ مَسْحِهِ مِنْ رُؤَسَاءِ إِسْرَائِيلَ. أَطْبَاقُ فِضَّةٍ اثْنَا عَشَرَ، وَمَنَاضِحُ فِضَّةٍ اثْنَتَا عَشَرَةَ، وَصُحُونُ ذَهَبٍ اثْنَا عَشَرَ، كُلُّ طَبَقٍ مِئَةٌ وَثَلاَثُونَ شَاقِلَ فِضَّةٍ، وَكُلُّ مِنْضَحَةٍ سَبْعُونَ. جَمِيعُ فِضَّةِ الآنِيَةِ أَلْفَانِ وَأَرْبَعُ مِئَةٍ عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ. وَصُحُونُ الذَّهَبِ اثْنَا عَشَرَ مَمْلُوءَةٌ بَخُورًا، كُلُّ صَحْنٍ عَشَرَةٌ عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ. جَمِيعُ ذَهَبِ الصُّحُونِ مِئَةٌ وَعِشْرُونَ شَاقِلاً. كُلُّ الثِّيرَانِ لِلْمُحْرَقَةِ اثْنَا عَشَرَ ثَوْرًا، وَالْكِبَاشُ اثْنَا عَشَرَ، وَالْخِرَافُ الْحَوْلِيَّةُ اثْنَا عَشَرَ مَعَ تَقْدِمَتِهَا، وَتُيُوسُ الْمَعْزِ اثْنَا عَشَرَ لِذَبِيحَةِ الْخَطِيَّةِ. وَكُلُّ الثِّيرَانِ لِذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ ثَوْرًا، وَالْكِبَاشُ سِتُّونَ، وَالتُّيُوسُ سِتُّونَ، وَالْخِرَافُ الْحَوْلِيَّةُ سِتُّونَ. هذَا تَدْشِينُ الْمَذْبَحِ

بَعْدَ مَسْحِهِ. فَلَمَّا دَخَلَ مُوسَى إِلَى خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ لِيَتَكَلَّمَ مَعَهُ، كَانَ يَسْمَعُ الصَّوْتَ يُكَلِّمُهُ مِنْ عَلَى الْغِطَاءِ الَّذِي عَلَى تَابُوتِ الشَّهَادَةِ مِنْ بَيْنِ الْكَرُوبَيْنِ، فَكَلَّمَهُ»[1].

– «آدَمُ، شِيتُ، أَنُوشُ، قِينَانُ، مَهْلَلْئِيلُ، يَارِدُ، أَخْنُوخُ، مَتُوشَالَحُ، لاَمَكُ، نُوحُ، سَامُ، حَامُ، يَافَثُ. بَنُو يَافَثَ: جُومَرُ وَمَاجُوجُ وَمَادَايُ وَيَاوَانُ وَتُوبَالُ وَمَاشِكُ وَتِيرَاسُ. وَبَنُو جُومَرَ: أَشْكَنَازُ وَرِيفَاثُ وَتُوجَرْمَةُ. وَبَنُو يَاوَانَ: أَلِيشَةُ وَتَرْشِيشَةُ وَكِتِّيمُ وَدُودَانِيمُ. بَنُو حَامَ: كُوشُ وَمِصْرَايِمُ وَفُوطُ وَكَنْعَانُ. وَبَنُو كُوشَ: سَبَا وَحَوِيلَةُ وَسَبْتَا وَرَعَمَا وَسَبْتَكَا. وَبَنُو رَعَمَا: شَبَا وَدَدَانُ. وَكُوشُ وَلَدَ نِمْرُودَ الَّذِي ابْتَدَأَ يَكُونُ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ. وَمِصْرَايِمُ وَلَدَ: لُودِيمَ وَعَنَامِيمَ وَلَهَابِيمَ وَنَفْتُوحِيمَ وَفَتْرُوسِيمَ وَكَسْلُوحِيمَ، الَّذِينَ خَرَجَ مِنْهُمْ فِلِشْتِيمُ وَكَفْتُورِيمُ. وَكَنْعَانُ وَلَدَ: صِيدُونَ بِكْرَهُ، وَحِثًّا وَالْيَبُوسِيَّ وَالْأَمُورِيَّ وَالْجِرْجَاشِيَّ وَالْحِوِّيَّ وَالْعَرْقِيَّ وَالسِّينِيَّ وَالْأَرْوَادِيَّ وَالصَّمَّارِيَّ وَالْحَمَاثِيَّ. بَنُو سَامَ: عِيلاَمُ وَأَشُّورُ وَأَرْفَكْشَادُ وَلُودُ وَأَرَامُ وَعُوصُ وَحُولُ وَجَاثَرُ وَمَاشِكُ. وَأَرْفَكْشَادُ وَلَدَ شَالَحَ، وَشَالَحُ وَلَدَ عَابِرَ. وَلِعَابِرَ وُلِدَ ابْنَانِ اسْمُ الْوَاحِدِ فَالَجُ، لِأَنَّ فِي أَيَّامِهِ قُسِمَتِ الْأَرْضُ. وَاسْمُ أَخِيهِ يَقْطَانُ. وَيَقْطَانُ وَلَدَ: أَلْمُودَادَ وَشَالَفَ وَحَضْرَمَوْتَ وَيَارَحَ وَهَدُورَامَ وَأُوزَالَ وَدِقْلَةَ وَعِيبَالَ وَأَبِيمَايِلَ وَشَبَا وَأُوفِيرَ وَحَوِيلَةَ وَيُوبَابَ. كُلُّ هَؤُلاَءِ بَنُو يَقْطَانَ. سَامُ، أَرْفَكْشَادُ، شَالَحُ، عَابِرُ، فَالَجُ، رَعُو، سَرُوجُ، نَاحُورُ، تَارَحُ، أَبْرَامُ، وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ. ابْنَا إِبْرَاهِيمَ: إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ. هَذِهِ مَوَالِيدُهُمْ. بِكْرُ إِسْمَاعِيلَ: نَبَايُوتُ، وَقِيدَارُ وَأَدَبْئِيلُ وَمِبْسَامُ وَمِشْمَاعُ وَدُومَةُ وَمَسَّا وَحَدَدُ وَتَيْمَاءُ وَيَطُورُ وَنَافِيشُ وَقِدْمَةُ. هَؤُلاَءِ هُمْ بَنُو إِسْمَاعِيلَ. وَأَمَّا بَنُو قَطُورَةَ سُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّهَا وَلَدَتْ: زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ

---

(١) سفر العدد، الفصل ٧، الآيات ١-٨٩.

وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحَا. وَابْنَا يَقْشَانَ: شَبَا وَدَدَانُ. وَبَنُو مِدْيَانَ: عَيْفَةُ وَعِفْرُ وَحَنُوكُ وَأَبِيدَاعُ وَأَلْدَعَةُ. فَكُلُّ هَؤُلَاءِ بَنُو قَطُورَةَ. وَوَلَدَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ. وَابْنَا إِسْحَاقَ: عِيسُو وَإِسْرَائِيلُ. بَنُو عِيسُو: أَلِيفَازُ وَرَعُوئِيلُ وَيَعُوشُ وَيَعْلَامُ وَقُورَحُ. بَنُو أَلِيفَازَ: تَيْمَانُ وَأُومَارُ وَصَفِي وَجَعْثَامُ وَقِنَازُ وَتِمْنَاعُ وَعَمَالِيقُ. بَنُو رَعُوئِيلَ: نَحَثُ وَزَارَحُ وَشَمَّةُ وَمِزَّةُ. وَبَنُو سَعِيرَ: لُوطَانُ وَشُوبَالُ وَصِبْعُونُ وَعَنَى وَدِيشُونُ وَإِيصَرُ وَدِيشَانُ. وَابْنَا لُوطَانَ: حُورِي وَهُومَامُ. وَأُخْتُ لُوطَانَ تِمْنَاعُ. بَنُو شُوبَالَ: عَلْيَانُ وَمَنَاحَةُ وَعِيبَالُ وَشَفِي وَأُونَامُ. وَابْنَا صِبْعُونَ: أَيَّةُ وَعَنَى. ابْنُ عَنَى دِيشُونُ، وَبَنُو دِيشُونَ: حَمْرَانُ وَأَشْبَانُ وَيِثْرَانُ وَكَرَانُ. بَنُو إِيصَرَ: بِلْهَانُ وَزَعْوَانُ وَيَعْقَانُ. وَابْنَا دِيشَانَ: عُوصُ وَأَرَانُ. هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُلُوكُ الَّذِينَ مَلَكُوا فِي أَرْضِ أَدُومَ قَبْلَمَا مَلَكَ مَلِكٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: بَالِعُ بْنُ بَعُورَ. وَاسْمُ مَدِينَتِهِ دِنْهَابَةُ. وَمَاتَ بَالِعُ فَمَلَكَ مَكَانَهُ يُوبَابُ بْنُ زَارَحَ مِنْ بُصْرَةَ. وَمَاتَ يُوبَابُ فَمَلَكَ مَكَانَهُ حُوشَامُ مِنْ أَرْضِ التَّيْمَانِيِّ. وَمَاتَ حُوشَامُ فَمَلَكَ مَكَانَهُ هَدَدُ بْنُ بَدَدَ الَّذِي كَسَّرَ مِدْيَانَ فِي بِلَادِ مُوآبَ، وَاسْمُ مَدِينَتِهِ عَوِيتُ. وَمَاتَ هَدَدُ فَمَلَكَ مَكَانَهُ سِمْلَةُ مِنْ مَسْرِيقَةَ. وَمَاتَ سِمْلَةُ فَمَلَكَ مَكَانَهُ شَاوُلُ مِنْ رَحُوبُوتِ النَّهْرِ. وَمَاتَ شَاوُلُ فَمَلَكَ مَكَانَهُ بَعْلُ حَانَانَ بْنُ عَكْبُورَ. وَمَاتَ بَعْلُ حَانَانَ فَمَلَكَ مَكَانَهُ هَدَدُ، وَاسْمُ مَدِينَتِهِ فَاعِي، وَاسْمُ امْرَأَتِهِ مَهِيطَبْئِيلُ بِنْتُ مَطْرِدَ بِنْتِ مَاءِ ذَهَبٍ. وَمَاتَ هَدَدُ. فَكَانَتْ أُمَرَاءُ أَدُومَ: أَمِيرُ تِمْنَاعَ، أَمِيرُ عَلْوَةَ، أَمِيرُ يَتِيتَ، أَمِيرُ أُهُولِيبَامَةَ، أَمِيرُ أَيْلَةَ، أَمِيرُ فِينُونَ، أَمِيرُ قِنَازَ، أَمِيرُ تَيْمَانَ، أَمِيرُ مِبْصَارَ، أَمِيرُ مَجْدِيئِيلَ، أَمِيرُ عِيرَامَ. هَؤُلَاءِ أُمَرَاءُ أَدُومَ»(١).

– «هَؤُلَاءِ بَنُو إِسْرَائِيلَ: رَأُوبَيْنُ، شَمْعُونُ، لَاوِي وَيَهُوذَا، يَسَّاكَرُ وَزَبُولُونُ، دَانُ،

---

(١) سفر أخبار الأيّام الأوّل، الفصل ١، الآيات ١–٥٤.

يُوسُفُ وَبَنْيَامِينُ، نَفْتَالِي، جَادُ وَأَشِيرُ. بَنُو يَهُوذَا: عَيْرُ وَأُونَانُ وَشَيْلَةُ. وُلِدَ الثَّلَاثَةُ مِنْ بِنْتِ شُوعَ الْكَنْعَانِيَّةِ. وَكَانَ عَيْرُ بِكْرُ يَهُوذَا شِرِّيرًا فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ فَأَمَاتَهُ. وَثَامَارُ كَنَّتُهُ وَلَدَتْ لَهُ فَارَصَ وَزَارَحَ. كُلُّ بَنِي يَهُوذَا خَمْسَةٌ. ابْنَا فَارَصَ: حَصْرُونُ وَحَامُولُ. وَبَنُو زَارَحَ: زِمْرِي وَأَيْثَانُ وَهَيْمَانُ وَكَلْكُولُ وَدَارَعُ. الْجَمِيعُ خَمْسَةٌ. وَابْنُ كَرْمِي عَخَارُ مُكَدِّرُ إِسْرَائِيلَ الَّذِي خَانَ فِي الْحَرَامِ. وَابْنُ أَيْثَانَ: عَزَرْيَا. وَبَنُو حَصْرُونَ الَّذِينَ وُلِدُوا لَهُ: يَرْحَمْئِيلُ وَرَامُ وَكَلُوبَايُ. وَرَامُ وَلَدَ عَمِّينَادَابَ، وَعَمِّينَادَابُ وَلَدَ نَحْشُونَ رَئِيسَ بَنِي يَهُوذَا، وَنَحْشُونُ وَلَدَ سَلْمُوَ، وَسَلْمُو وَلَدَ بُوعَزَ، وَبُوعَزُ وَلَدَ عُوبِيدَ، وَعُوبِيدُ وَلَدَ يَسَّى، وَيَسَّى وَلَدَ: بِكْرَهُ أَلِيآبَ، وَأَبِينَادَابَ الثَّانِي، وَشِمْعَى الثَّالِثَ، وَنَثْنِئِيلَ الرَّابِعَ، وَرَدَّايَ الْخَامِسَ، وَأُوصَمَ السَّادِسَ، وَدَاوُدَ السَّابِعَ. وَأُخْتَاهُمْ صَرُويَةُ وَأَبِيجَايِلُ. وَبَنُو صَرُويَةَ: أَبْشَايُ وَيُوآبُ وَعَسَائِيلُ، ثَلَاثَةٌ. وَأَبِيجَايِلُ وَلَدَتْ عَمَاسَا، وَأَبُو عَمَاسَا يَثْرُ الْإِسْمَاعِيلِيُّ. وَكَالَبُ بْنُ حَصْرُونَ وَلَدَ مِنْ عَزُوبَةَ امْرَأَتِهِ وَمِنْ يَرِيعُوثَ. وَهَؤُلَاءِ بَنُوهَا: يَاشَرُ وَشُوبَابُ وَأَرْدُونُ. وَمَاتَتْ عَزُوبَةُ فَاتَّخَذَ كَالَبُ لِنَفْسِهِ أَفْرَاتَ فَوَلَدَتْ لَهُ حُورَ. وَحُورُ وَلَدَ أُورِيَ، وَأُورِي وَلَدَ بَصَلْئِيلَ. وَبَعْدُ دَخَلَ حَصْرُونُ عَلَى بِنْتِ مَاكِيرَ أَبِي جِلْعَادَ وَاتَّخَذَهَا وَهُوَ ابْنُ سِتِّينَ سَنَةً فَوَلَدَتْ لَهُ سَجُوبَ. وَسَجُوبُ وَلَدَ يَائِيرَ، وَكَانَ لَهُ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ مَدِينَةً فِي أَرْضِ جِلْعَادَ. وَأَخَذَ جَشُورَ وَأَرَامَ حَوُّوثَ يَائِيرَ مِنْهُمْ مَعَ قَنَاةَ وَقُرَاهَا، سِتِّينَ مَدِينَةً. كُلُّ هَؤُلَاءِ بَنُو مَاكِيرَ أَبِي جِلْعَادَ. وَبَعْدَ وَفَاةِ حَصْرُونَ فِي كَالَبِ أَفْرَاتَةَ، وَلَدَتْ لَهُ أَبِيَّاهُ امْرَأَةُ حَصْرُونَ أَشْحُورَ أَبَا تَقُوعَ. وَكَانَ بَنُو يَرْحَمْئِيلَ بِكْرِ حَصْرُونَ: الْبِكْرُ رَامَ، ثُمَّ بُونَةَ وَأُورَنَ وَأُوصَمَ وَأَخِيَّا. وَكَانَتِ امْرَأَةٌ أُخْرَى لِيَرْحَمْئِيلَ اسْمُهَا عَطَارَةُ. هِيَ أُمُّ أُونَامَ. وَكَانَ بَنُو رَامَ بِكْرِ يَرْحَمْئِيلَ: مَعَصُ وَيَمِينُ وَعَاقَرُ. وَكَانَ ابْنَا أُونَامَ: شَمَّايَ وَيَادَاعَ. وَابْنَا شَمَّايَ: نَادَابَ وَأَبِيشُورَ. وَاسْمُ امْرَأَةِ أَبِيشُورَ أَبِيحَايِلُ، وَوَلَدَتْ لَهُ أَحْبَانَ وَمُولِيدَ. وَابْنَا نَادَابَ: سَلَدُ وَأَفَّايِمُ.

وَمَاتَ سَلَدُ بِلَا بَنِينَ. وَابْنُ أَفَّايِمَ يَشْعِي، وَابْنُ يَشْعِي شِيشَانُ، وَابْنُ شِيشَانَ أَحْلَايُ. وَابْنَا يَادَاعَ أَخِي شَمَّايَ: يَثَرُ وَيُونَاثَانُ. وَمَاتَ يَثَرُ بِلَا بَنِينَ. وَابْنَا يُونَاثَانَ: فَالَتُ وَزَازَا. هَؤُلَاءِ هُمْ بَنُو يَرْحَمْئِيلَ. وَلَمْ يَكُنْ لِشِيشَانَ بَنُونَ بَلْ بَنَاتٌ. وَكَانَ لِشِيشَانَ عَبْدٌ مِصْرِيٌّ اسْمُهُ يَرْحَعُ، فَأَعْطَى شِيشَانُ ابْنَتَهُ لِيَرْحَعَ عَبْدِهِ امْرَأَةً، فَوَلَدَتْ لَهُ عَتَّايَ. وَعَتَّايُ وَلَدَ نَاثَانَ، وَنَاثَانُ وَلَدَ زَابَادَ، وَزَابَادُ وَلَدَ أَفْلَالَ، وَأَفْلَالُ وَلَدَ عُوبِيدَ، وَعُوبِيدُ وَلَدَ يَاهُوَ، وَيَاهُو وَلَدَ عَزَرْيَا، وَعَزَرْيَا وَلَدَ حَالَصَ، وَحَالَصُ وَلَدَ إِلْعَاسَةَ، وَإِلْعَاسَةُ وَلَدَ سِسَمَايَ، وَسِسَمَايُ وَلَدَ شَلُّومَ، وَشَلُّومُ وَلَدَ يَقَمْيَةَ، وَيَقَمْيَةُ وَلَدَ أَلِيشَمَعَ. وَبَنُو كَالَبَ أَخِي يَرْحَمْئِيلَ: مِيشَاعُ بِكْرُهُ. هُوَ أَبُو زِيفَ. وَبَنُو مَرِيشَةَ أَبِي حَبْرُونَ. وَبَنُو حَبْرُونَ: قُورَحُ وَتَفُّوحُ وَرَاقَمُ وَشَامَعُ. وَشَامَعُ وَلَدَ رَاقَمَ أَبَا يَرْقَعَامَ. وَرَاقَمُ وَلَدَ شَمَّايَ. وَابْنُ شَمَّايَ مَعُونُ، وَمَعُونُ أَبُو بَيْتِ صُورَ. وَعِيفَةُ سُرِّيَّةُ كَالَبَ وَلَدَتْ: حَارَانَ وَمُوصَا وَجَازِيزَ. وَحَارَانُ وَلَدَ جَازِيزَ. وَبَنُو يَهْدَايَ: رَجَمُ وَيُوثَامُ وَجِيشَانُ وَفَلَطُ وَعِيفَةُ وَشَاعَفُ. وَأَمَّا مَعْكَةُ سُرِّيَّةُ كَالَبَ فَوَلَدَتْ: شَبَرَ وَتَرْحَنَةَ. وَوَلَدَتْ شَاعَفُ أَبَا مَدْمَنَّةَ، وَشَوَا أَبَا مَكْبِينَا وَأَبَا جَبْعَا. وَبِنْتُ كَالَبَ عَكْسَةُ. هَؤُلَاءِ هُمْ بَنُو كَالَبَ بْنِ حُورَ بِكْرِ أَفْرَاتَةَ. شُوبَالُ أَبُو قَرْيَةِ يَعَارِيمَ وَسَلْمَا أَبُو بَيْتِ لَحْمٍ، وَحَارِيفُ أَبُو بَيْتِ جَادِيرَ. وَكَانَ لِشُوبَالَ أَبِي قَرْيَةِ يَعَارِيمَ بَنُونَ: هَرُوَاهُ وَحَصِي هَمَّنُوحُوتَ. وَعَشَائِرُ قَرْيَةِ يَعَارِيمَ: الْيَثْرِيُّ وَالْفُوتِيُّ وَالشَّمَاتِيُّ وَالْمَشْرَاعِيُّ. مِنْ هَؤُلَاءِ خَرَجَ الصَّرْعِيُّ وَالْأَشْتَأُولِيُّ. بَنُو سَلْمَا: بَيْتُ لَحْمٍ وَالنَّطُوفَاتِيُّ وَعَطْرُوتُ بَيْتِ يُوآبَ وَحَصِي الْمَنُوحِيّ الصَّرْعِيّ. وَعَشَائِرُ الْكَتَبَةِ سُكَّانِ يَعْبِيصَ: تَرْعَاتِيمُ وَشَمْعَاتِيمُ وَسُوكَاتِيمُ. هُمُ الْقِينِيُّونَ الْخَارِجُونَ مِنْ حَمَّةَ أَبِي بَيْتِ رَكَابَ»[1].

---

(١) سفر أخبار الأيّام الأوّل، الفصل ٢، الآيات ١-٥٥.

- «وَشَرَعَ سُلَيْمَانُ فِي بِنَاءِ بَيْتِ الرَّبِّ فِي أُورُشَلِيمَ، فِي جَبَلِ الْمُرِيَّا حَيْثُ تَرَاءَى لِدَاوُدَ أَبِيهِ، حَيْثُ هَيَّأَ دَاوُدُ مَكَانًا فِي بَيْدَرِ أُرْنَانَ الْيَبُوسِيِّ. وَشَرَعَ فِي الْبِنَاءِ فِي ثَانِي الشَّهْرِ الثَّانِي فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِمُلْكِهِ. وَهَذِهِ أَسَّسَهَا سُلَيْمَانُ لِبِنَاءِ بَيْتِ اللهِ: الطُّولُ بِالذِّرَاعِ عَلَى الْقِيَاسِ الْأَوَّلِ سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَالْعَرْضُ عِشْرُونَ ذِرَاعًا. وَالرِّوَاقُ الَّذِي قُدَّامَ الطُّولِ حَسَبَ عَرْضِ الْبَيْتِ عِشْرُونَ ذِرَاعًا، وَارْتِفَاعُهُ مِئَةٌ وَعِشْرُونَ، وَغَشَّاهُ مِنْ دَاخِلٍ بِذَهَبٍ خَالِصٍ. وَالْبَيْتُ الْعَظِيمُ غَشَّاهُ بِخَشَبِ سَرْوٍ، غَشَّاهُ بِذَهَبٍ خَالِصٍ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ نَخِيلًا وَسَلَاسِلَ. وَرَصَّعَ الْبَيْتَ بِحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ لِلْجَمَالِ. وَالذَّهَبُ ذَهَبُ فَرْوَايِمَ. وَغَشَّى الْبَيْتَ: أَخْشَابَهُ وَأَعْتَابَهُ وَحِيطَانَهُ وَمَصَارِيعَهُ بِذَهَبٍ، وَنَقَشَ كَرُوبِيمَ عَلَى الْحِيطَانِ. وَعَمِلَ بَيْتَ قُدْسِ الْأَقْدَاسِ، طُولُهُ حَسَبَ عَرْضِ الْبَيْتِ عِشْرُونَ ذِرَاعًا، وَعَرْضُهُ عِشْرُونَ ذِرَاعًا، وَغَشَّاهُ بِذَهَبٍ جَيِّدٍ سِتِّ مِئَةِ وَزْنَةٍ. وَكَانَ وَزْنُ الْمَسَامِيرِ خَمْسِينَ شَاقِلًا مِنْ ذَهَبٍ، وَغَشَّى الْعَلَالِيَّ بِذَهَبٍ. وَعَمِلَ فِي بَيْتِ قُدْسِ الْأَقْدَاسِ كَرُوبَيْنِ صَنَاعَةَ الصِّيَاغَةِ، وَغَشَّاهُمَا بِذَهَبٍ. وَأَجْنِحَةُ الْكَرُوبَيْنِ طُولُهَا عِشْرُونَ ذِرَاعًا، الْجَنَاحُ الْوَاحِدُ خَمْسُ أَذْرُعٍ يَمَسُّ حَائِطَ الْبَيْتِ، وَالْجَنَاحُ الْآخَرُ خَمْسُ أَذْرُعٍ يَمَسُّ جَنَاحَ الْكَرُوبِ الْآخَرِ. وَجَنَاحُ الْكَرُوبِ الْآخَرِ خَمْسُ أَذْرُعٍ يَمَسُّ حَائِطَ الْبَيْتِ، وَالْجَنَاحُ الْآخَرُ خَمْسُ أَذْرُعٍ يَتَّصِلُ بِجَنَاحِ الْكَرُوبِ الْآخَرِ. وَأَجْنِحَةُ هَذَيْنِ الْكَرُوبَيْنِ مُنْبَسِطَةٌ عِشْرُونَ ذِرَاعًا، وَهُمَا وَاقِفَانِ عَلَى أَرْجُلِهِمَا وَوَجْهُهُمَا إِلَى دَاخِلٍ. وَعَمِلَ الْحِجَابَ مِنْ أَسْمَانْجُونِيٍّ وَأُرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ وَكَتَّانٍ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ كَرُوبِيمَ. وَعَمِلَ أَمَامَ الْبَيْتِ عَمُودَيْنِ، طُولُهُمَا خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ ذِرَاعًا، وَالتَّاجَانِ اللَّذَانِ عَلَى رَأْسَيْهِمَا خَمْسُ أَذْرُعٍ. وَعَمِلَ سَلَاسِلَ كَمَا فِي الْمِحْرَابِ وَجَعَلَهَا عَلَى رَأْسَيِ الْعَمُودَيْنِ، وَعَمِلَ

مِئَةَ رُمَّانَةٍ وَجَعَلَهَا فِي السَّلَاسِلِ. وَأَوْقَفَ الْعَمُودَيْنِ أَمَامَ الْهَيْكَلِ، وَاحِدًا عَنِ الْيَمِينِ وَوَاحِدًا عَنِ الْيَسَارِ، وَدَعَا اسْمَ الْأَيْمَنِ: يَاكِينَ، وَاسْمَ الْأَيْسَرِ: بُوعَزَ»[1].

– «وَهَؤُلَاءِ هُمْ بَنُو الْكُورَةِ الصَّاعِدُونَ مِنْ سَبْيِ الْمَسْبِيِّينَ، الَّذِينَ سَبَاهُمْ نَبُوخَذْنَاصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ إِلَى بَابِلَ، وَرَجَعُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَهُوذَا، كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَدِينَتِهِ. الَّذِينَ جَاءُوا مَعَ زَرُبَّابِلَ، يَشُوعُ، نَحَمْيَا، سَرَايَا، رَعْلَايَا، مُرْدَخَايُ، بِلْشَانُ، مِسْفَارُ، بِغْوَايُ، رَحُومُ، بَعْنَةَ. عَدَدُ رِجَالِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ: بَنُو فَرْعُوشَ أَلْفَانِ وَمِئَةٌ وَاثْنَانِ وَسَبْعُونَ. بَنُو شَفَطْيَا ثَلَاثُ مِئَةٍ وَاثْنَانِ وَسَبْعُونَ. بَنُو آرَحَ سَبْعُ مِئَةٍ وَخَمْسَةٌ وَسَبْعُونَ. بَنُو فَحَثَ مُوآبَ مِنْ بَنِي يَشُوعَ وَيُوآبَ أَلْفَانِ وَثَمَانُ مِئَةٍ وَاثْنَا عَشَرَ. بَنُو عِيلَامَ أَلْفٌ وَمِئَتَانِ وَأَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ. بَنُو زَتُّو تِسْعُ مِئَةٍ وَخَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ. بَنُو زَكَّايَ سَبْعُ مِئَةٍ وَسِتُّونَ. بَنُو بَانِي سِتُّ مِئَةٍ وَاثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ. بَنُو بَابَايَ سِتُّ مِئَةٍ وَثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ. بَنُو عَزْجَدَ أَلْفٌ وَمِئَتَانِ وَاثْنَانِ وَعِشْرُونَ. بَنُو أَدُونِيقَامَ سِتُّ مِئَةٍ وَسِتَّةٌ وَسِتُّونَ. بَنُو بِغْوَايَ أَلْفَانِ وَسِتَّةٌ وَخَمْسُونَ. بَنُو عَادِينَ أَرْبَعُ مِئَةٍ وَأَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ. بَنُو آطِيرَ مِنْ يَحَزَقِيَّا ثَمَانِيَةٌ وَتِسْعُونَ. بَنُو بِيصَايَ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ. بَنُو يُورَةَ مِئَةٌ وَاثْنَا عَشَرَ. بَنُو حَشُومَ مِئَتَانِ وَثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ. بَنُو جِبَّارَ خَمْسَةٌ وَتِسْعُونَ. بَنُو بَيْتِ لَحْمٍ مِئَةٌ وَثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ. رِجَالُ نَطُوفَةَ سِتَّةٌ وَخَمْسُونَ. رِجَالُ عَنَاثُوثَ مِئَةٌ وَثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ. بَنُو عَزْمُوتَ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ. بَنُو قَرْيَةِ عَارِيمَ كَفِيرَةَ وَبَئِيرُوتَ سَبْعُ مِئَةٍ وَثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ. بَنُو الرَّامَةِ وَجَبَعَ سِتُّ مِئَةٍ وَوَاحِدٌ وَعِشْرُونَ. رِجَالُ مِخْمَاسَ مِئَةٌ وَاثْنَانِ وَعِشْرُونَ. رِجَالُ بَيْتِ إِيلَ وَعَايَ مِئَتَانِ وَثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ. بَنُو نَبُو اثْنَانِ وَخَمْسُونَ. بَنُو مَغْبِيشَ مِئَةٌ وَسِتَّةٌ وَخَمْسُونَ. بَنُو عِيلَامَ الْآخَرِ أَلْفٌ وَمِئَتَانِ وَأَرْبَعَةٌ

(١) سفر أخبار الأيّام الثاني، الفصل ٣، الآيات ١–١٧.

وَخَمْسُونَ. بَنُو حَارِيمَ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَعِشْرُونَ. بَنُو لُودَ بَنُو حَادِيدَ وَأُونُو سَبْعُ مِئَةٍ وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ. بَنُو أَرِيحَا ثَلَاثُ مِئَةٍ وَخَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ. بَنُو سَنَاءَةَ ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَسِتُّ مِئَةٍ وَثَلَاثُونَ. أَمَّا الْكَهَنَةُ: فَبَنُو يَدْعِيَا مِنْ بَيْتِ يَشُوعَ تِسْعُ مِئَةٍ وَثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ. بَنُو إِمِّيرَ أَلْفٌ وَاثْنَانِ وَخَمْسُونَ. بَنُو فَشْحُورَ أَلْفٌ وَمِئَتَانِ وَسَبْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ. بَنُو حَارِيمَ أَلْفٌ وَسَبْعَةَ عَشَرَ. أَمَّا اللَّاوِيُّونَ: فَبَنُو يَشُوعَ وَقَدْمِيئِيلَ مِنْ بَنِي هُودُوِيَا أَرْبَعَةٌ وَسَبْعُونَ. الْمُغَنُّونَ بَنُو آسَافَ مِئَةٌ وَثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ. بَنُو الْبَوَّابِينَ: بَنُو شَلُّومَ، بَنُو آطِيرَ، بَنُو طَلْمُونَ، بَنُو عَقُّوبَ، بَنُو حَطِيطَا، بَنُو شُوبَايَ، الْجَمِيعُ مِئَةٌ وَتِسْعَةٌ وَثَلَاثُونَ. النَّثِينِيمُ: بَنُو صِيحَا، بَنُو حَسُوفَا، بَنُو طَبَاعُوتَ، بَنُو قِيرُوسَ، بَنُو سِيعَهَا، بَنُو فَادُونَ، بَنُو لَبَانَةَ، بَنُو حَجَابَةَ، بَنُو عَقُّوبَ، بَنُو حَاجَابَ، بَنُو شَمْلَايَ، بَنُو حَانَانَ، بَنُو جَدِيلَ، بَنُو حَجَرَ، بَنُو رَآيَا، بَنُو رَصِينَ، بَنُو نَقُودَا، بَنُو جَزَّامَ، بَنُو عُزَّا، بَنُو فَاسِيحَ، بَنُو بِيسَايَ، بَنُو أَسْنَةَ، بَنُو مَعُونِيمَ، بَنُو نَفُوسِيمَ، بَنُو بَقْبُوقَ، بَنُو حَقُوفَا، بَنُو حَرْحُورَ، بَنُو بَصْلُوتَ، بَنُو مَحِيدَا، بَنُو حَرْشَا، بَنُو بَرْقُوسَ، بَنُو سِيسَرَا، بَنُو ثَامَحَ، بَنُو نَصِيحَ، بَنُو حَطِيفَا. بَنُو عَبِيدِ سُلَيْمَانَ: بَنُو سَوْطَايَ، بَنُو هَسُّوفَرَثَ، بَنُو فَرُودَا، بَنُو يَعْلَةَ، بَنُو دَرْقُونَ، بَنُو جَدِّيلَ، بَنُو شَفَطْيَا، بَنُو حَطِّيلَ، بَنُو فُوخَرَةِ الظِّبَاءِ، بَنُو آمِي. جَمِيعُ النَّثِينِيمِ وَبَنِي عَبِيدِ سُلَيْمَانَ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَاثْنَانِ وَتِسْعُونَ. وَهؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ صَعِدُوا مِنْ تَلِّ مِلْحٍ وَتَلِّ حَرْشَا، كَرُوبُ، أَدَّانُ، إِمِّيرُ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُبَيِّنُوا بُيُوتَ آبَائِهِمْ وَنَسْلَهُمْ هَلْ هُمْ مِنْ إِسْرَائِيلَ: بَنُو دَلَايَا، بَنُو طُوبِيَّا، بَنُو نَقُودَا، سِتُّ مِئَةٍ وَاثْنَانِ وَخَمْسُونَ. وَمِنْ بَنِي الْكَهَنَةِ: بَنُو حَبَايَا، بَنُو هَقُّوصَ، بَنُو بَرْزِلَّايَ الَّذِي أَخَذَ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ بَرْزِلَّايَ الْجِلْعَادِيِّ وَتَسَمَّى بِاسْمِهِمْ. هؤُلَاءِ فَتَّشُوا عَلَى كِتَابَةِ أَنْسَابِهِمْ فَلَمْ تُوجَدْ، فَرُذِلُوا مِنَ الْكَهَنُوتِ. وَقَالَ لَهُمُ التِّرْشَاثَا أَنْ لَا يَأْكُلُوا مِنْ قُدْسِ الْأَقْدَاسِ حَتَّى يَقُومَ كَاهِنٌ لِلْأُورِيمِ وَالتُّمِّيمِ.

كُلُّ الْجُمْهُورِ مَعًا اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا وَثَلَاثُ مِئَةٍ وَسِتُّونَ، فَضْلًا عَنْ عَبِيدِهِمْ وَإِمَائِهِمْ فَهَؤُلَاءِ كَانُوا سَبْعَةَ آلَافٍ وَثَلَاثَ مِئَةٍ وَسَبْعَةً وَثَلَاثِينَ، وَلَهُمْ مِنَ الْمُغَنِّينَ وَالْمُغَنِّيَاتِ مِئَتَانِ. خَيْلُهُمْ سَبْعُ مِئَةٍ وَسِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ. بِغَالُهُمْ مِئَتَانِ وَخَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ. جِمَالُهُمْ أَرْبَعُ مِئَةٍ وَخَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ. حَمِيرُهُمْ سِتَّةُ آلَافٍ وَسَبْعُ مِئَةٍ وَعِشْرُونَ. وَالْبَعْضُ مِنْ رُؤُوسِ الْآبَاءِ عِنْدَ مَجِيئِهِمْ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ تَبَرَّعُوا لِبَيْتِ الرَّبِّ لِإِقَامَتِهِ فِي مَكَانِهِ. أَعْطَوْا حَسَبَ طَاقَتِهِمْ لِخِزَانَةِ الْعَمَلِ وَاحِدًا وَسِتِّينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَخَمْسَةَ آلَافِ مَنًا مِنَ الْفِضَّةِ، وَمِئَةَ قَمِيصٍ لِلْكَهَنَةِ. فَأَقَامَ الْكَهَنَةُ وَاللَّاوِيُّونَ وَبَعْضُ الشَّعْبِ وَالْمُغَنُّونَ وَالْبَوَّابُونَ وَالنَّثِينِيمُ فِي مُدُنِهِمْ وَكُلُّ إِسْرَائِيلَ فِي مُدُنِهِمْ»[1].

فما علاقة (الوحي الإلهيّ المنزَّل)، بسلاسل النسب، وأسماء الأولاد، وأسماء الزوجات، وعدد الأفراد، وعدد العَجَلات، والثيران، والقرابين، وطول بيت (قدس الأقداس)، وعرضه، وأسماء العائدين من السبي، وأعداد عبيدهم، وإمائهم، ومغنّيهم، ومغنّياتهم، وخيلهم، وبغالهم، وجِمالهم، وحميرهم؟!!!

ومن هنا نُدرِك يقينًا أنّ ما يُسمّونه: (العهد القديم) ليس إلّا كشكولًا، اشترك في تأليفه الكثيرون، طَوال قرون؛ وقد اشتمل على (حقّ قليل)، منثور بين (أباطيل كثيرة)، من الأكاذيب، والأساطير، والخرافات، والتفاهات!!!

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2].

---

(١) سفر عزرا، الفصل ٢، الآيات ١-٧٠.

(٢) البقرة: ٧٩.

ولو تخيّلنا أنّ الناس - كلّ الناس - قد تحوّلوا إلى المسيحيّة، لما وجدنا فرقًا يُذكَر؛ لأنّ المنسوب إلى المسيحيّة يشارك المنسوب إلى اليهوديّة، في عقيدة شرعيّة العهد القديم؛ ولذلك فإنّه حين يطالع تلك التحريفات، لن يكون بمنجاة من آثارها، إن اعتقد بشرعيّتها.

قال القسّ منيس عبد النور: «أوحى الله بالتوراة والإنجيل، ووعد بحفظهما، من التحريف والتبديل، وهو دائمًا يصدق وعده. ويتّضح حفظه لوحيه من الاتّفاق التامّ، بين التوراة والإنجيل. فمع أنّهما يشتملان على ٦٦ كتابًا، أُوحي بها في ١٦ قرنًا، لستّة وثلاثين نبيًّا، إلّا أنّ كلّ هذه الأسفار، في غاية الاتّفاق، في إعلان فداء البشر، بواسطة فادٍ كريم، ينتشلهم من عبوديّة الخطيّة. وتشتمل أسفار التوراة أو (كتب العهد القديم) على ٣٩ كتابًا، وهي: التَّكْوِين، والخُرُوج، واللَّاوِيِّين، والعَدَد، والتَّثْنِية، ويَشُوع، والقُضاة، وراعُوث، وصَمُوئِيل الأوّل، والثاني، والمُلُوك الأوّل، والثاني، وأخبار الأيّام الأوّل، والثاني، وعَزْرا، ونَحَمْيا، وأَسْتِير، وأيُّوب، والمَزامِير، والأمثال، والجامِعة، ونَشِيد الأَنْشاد. ونُبُوَّات إِشَعْياء، وإِرْمِيا، ومَراثيه، ونُبُوَّات حِزْقِيال، ودانِيآل، وهُوشَع، ويُوئِيل، وعامُوس، وعُوبَدْيا، ويُونان، ومِيخا، وناحُوم، وحَبَقُّوق، وصَفَنْيا، وحَجَّي، وزَكَرِيّا، ومَلاخِي. فهذه كتب بني إسرائيل المقدَّسة، التي حافظوا عليها، بِغاية الحرص. أمّا كتب العهد الجديد، فعددها ٢٧، وهي: إنجيل متَّى، ومَرْقُس، ولُوقا، ويُوحَنّا. وأعمال الرُّسُل. ورسائل بُولُس الرسول إلى رُوما، ورسالتاه إلى كُورِنْثُوس، ورسالته إلى غَلَاطِيَّة، وأَفَسُس، وفِيلِبّي، وكُولُوسّي، ورسالتاه إلى تَسَالُونِيكِي، ورسالتاه إلى تِيمُوثَاوُس، ورسالته إلى تِيطُس، وفِلِيمُون، والعِبْرَانِيِّين،

ثمّ رسالة يعقوب، ورسالتا بطرس الأُولى، والثانية، ورسائل يُوحَنّا الثلاث، ورسالة يهوذا. ورؤيا يُوحَنّا. ويتمسّك بنو إسرائيل بالقسم الأوّل (التوراة)، وهو كتب موسى، والمزامير، والأنبياء. أمّا المسيحيّون، فيتمسّكون بالقسمين: (التوراة)، و(الإنجيل)، وهما مرجعهما في العقيدة؛ لأنّ مضمون التوراة والإنجيل واحد»[1].

ومن هنا، لم يجد القسّ منيس حرجًا، في تصحيح الاتّهامات، المنسوبة إلى الأنبياء، في العهد القديم، بل أخذ يؤكِّدها، ويستثمرها في تأكيد فكرة (الخطيئة البشريّة العامّة)، بمعنى أنّ البشر كلّهم خطّاؤون، حتّى أنبياء (العهد القديم)؛ ولذلك يحتاجون - بزعمه - إلى الفادي!!!

قال القسّ منيس: «قال المعترض: يقول (تكوين٤: ١٩): "واتّخذ لامك لنفسه امرأتين". فهل يُبيح الله الزواج، بأكثر من واحدة؟ وللردّ نقول: اختار الله للبشر الزواج، من واحدة، فخلق حوّاء واحدة، لآدم الواحد (تكوين١: ٢٧)، و(٢: ٢١-٢٥). واستمرَّ البشر يُطيعون ما اختار الله (تكوين٤: ١)، حتّى جاء لامك الخاطئ الذي قال لامرأتيه: إنّه قتل رجلًا، وفتى (تكوين٤: ٢٣). وهو الذي تزوَّج من السيّدتين: عادة، وصِلَّة. وأمر الله، في شريعة موسى: أنّ مَلِكَ بني إسرائيل لا يُكثِّر له نساءً؛ لئلّا يَزيغَ قلبُه (تثنية١٧: ١٧). وقد أخطأ الملِك سليمان، وتزوّج من كثيرات، رغم الأمر الإلهيّ، بخصوص عُبّاد الوثن، والذي يقول: "لا تدخلون إليهم، ولا يدخلون إليكم، لأنّهم يُميلون قلوبكم، وراء آلهتهم" (١ملوك١١: ٢). وقال المسيح: "الذي خلقهما من البدء خلقهما ذكرًا وأنثى" (مت١٩: ٤). وعلَّمنا الإنجيل أنّ العلاقة النموذجيّة - بين الزوج وزوجته - هي التي تكون على مثال علاقة

---

(١) شبهات وهميّة حول الكتاب المقدّس: ١٣.

المسيح بالكنيسة (أفسس٥: ٣١، و٣٢). والمسيح واحد، والكنيسة واحدة!.. ولم يأمر الله أبدًا بالزواج، من أكثر من واحدة، ولكن بسبب قساوة قلوب البشر، سمح لهم بذلك. بل إنّه منع الزواج، بأكثر من واحدة؛ لأنّ من يُكثر النساء، يَزيغ قلبُه، عن الربّ. وقد رأينا من التوراة أنّ كلّ من تعدَّدت زوجاته، تنغَّصت حياته، وحياتهنّ، ونشأ أولاده، في خصام، ونكد. وتُعلِّمنا الطبيعة أنّ الزواج من واحدة: هو الأمر المعقول، وذلك بسبب تساوي عدد النساء، مع الرجال»[١].

وقال القسّ أيضًا: «قال المعترض: جاء في (تكوين١٢: ١١-١٣): أنّ إبراهيم طلب من زوجته سارة أن تقول: إنّها أخته؛ "ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك". ألا يدفع ذِكرُ هذه الحادثة القارئَ، على تقليد إبراهيم، وارتكاب الكذب؟ وللردّ نقول: لو كان موسى (كاتب سفر التكوين) مدفوعًا بتفكيره الشخصيّ، لحذَفَ هذه القصّة، التي تُخجِل جدَّه الأكبر. ولكنّ ذِكرها دليل على أنّ روح الله هو الذي ساقه؛ ليسجِّلها. أمّا هدف الروح القدس، من تسجيلها، فهو أن يُرينا أنّ كلّ البشر خطّاؤون؛ لأنّه لا فرق، إذ الجميع أخطأوا.. متبرِّرين مجّانًا، بنعمته بالفداء، الذي بيسوع المسيح. وليس هناك إنسان كامل، إلّا الواحد، يسوع المسيح. وهذا يكشف لنا محبّة الله، التي تُرحِّب بالخاطئ، الراجع إلى الله، كما يشجِّعنا على التوبة. فلا توجد خطيّة - مهما عظُمت - تحرمنا من رحمة الله، عند التوبة عنها. ومن المؤسف أنّ خطيّة إبراهيم هذه تكرّرت، من ولده إسحاق، مع زوجته رفقة. كما كان يعقوب - حفيد إبراهيم - مخادعًا؛ حتّى توّبه الله إليه. وهذا يكشف لنا شناعة الخطيّة،

(١) شبهات وهميّة حول الكتاب المقدّس: ٥٦.

فإنّ الأبناء كثيرًا ما يقتدون بوالديهم. وقد حاول البعض أن يُدافعوا، عن خطيّة إبراهيم، بقولهم: إنّها كذبة بيضاء، فقد كانت سارة أختًا، غير شقيقة، لإبراهيم. وهذا صحيح. لكنّ الوحي المقدَّس يُدين الكذب كلّه: أبيضه، وأسوده، وقد سجَّل لنا هذه الكذبة البيضاء، على أنّها خطيّة، تستحقّ الإدانة»[١].

قال محمّد الغزاليّ: «بيد أنّ النصارى قبلوا هذه الأسفار على علّاتها، وجعلوها شطر الكتاب المقدّس! لماذا؟.. لأنّها تخدم قضيّتين تقوم عليهما النصرانيّة الشائعة. الأُولى: قضيّة تجسُّد الإله، وإمكان أن يتحوّل ربّ العالمين، إلى شخص يأكل ويصارع ويجهل ويندم... إلخ. الثانية: قضيّة أنّ البشر جميعًا أرباب خطايا، وأصحاب مفاسد، وأنّهم محتاجون لمن ينتحر من أجلهم؛ كي تُغفَر خطاياهم»[٢].

واشتمل (العهد الجديد)، على تحريفات زائدة، لا تقلّ ضررًا، عن تحريفات (العهد القديم)؛ فجاء المُحرِّفون، بعقائد شيطانيّة، مضادّة لدعوة عيسى عليه السلام، ولا سيّما (عقيدة الفداء)، و(عقيدة التجسُّد)، و(عقيدة التأليه)، و(عقيدة التثليث)، و(عقيدة البُنُوّة).

قال الأنبا يؤانس أسقف الغربيّة: «لمّا سقط الإنسان، في المعصية، وطُرد من الفردوس، محكومًا عليه بالموت، بدأ يُظهِر الندم، وعبّر عن ذلك بالاعتراف والصلوات وتقديم الذبائح. ومعنى الذبيحة التي قدّمها الإنسان أنّه أحسّ بحاجته

---

(١) شبهات وهميّة حول الكتاب المقدّس: ٦٣.

(٢) قذائف الحقّ: ٣٤.

إلى فادي[1]. هذا الفادي كان دوره هو دور الوسيط بينه وبين الله. لكنّه كان مستحيلًا أن يكون الحيوان وسيطًا بين الإنسان والله!! لأنّه يُفترَض في الوسيط أن يكون في مكانة أسمى وأرفع من الإنسان، وله دالّة عند الله. وهكذا أدرك آدم وذرّيّته أنّهم بحاجة إلى وسيط، لم يأتِ زمانه بعد. وما الذبائح التي كانت تُقدَّم باستمرار، إلّا مجرّد تذكرة للإنسان، بحاجته إلى هذا الوسيط بالذات، الذي أُعطي آدم عنه وعدًا أنّ نسل المرأة يسحق رأس الحيّة (تك٣: ١٥). ونسل المرأة هو المسيح الذي لم يأتِ بطريقة طبيعيّة، كسائر البشر، بزواج رجل بامرأة. وحتّى لا ينسى الإنسان حاجته إلى هذا الوسيط أمرت الشريعة بتقديم الذبائح. وفي ذلك يقول القدّيس بولس الرسول: "لأنّه لا يُمكن أنّ دم ثيران وتيوس يرفع الخطايا... لأنّ الناموس... لا يقدر أبدًا بنفس الذبائح كلّ سنة، التي يقدّمونها على الدوام: أن يكمّل الذين يتقدّمون" (عب١٠: ٤، ١). ورغم أنّ دم الثيران والتيوس لا يُمكن أن يرفع الخطايا، فقد استمرّوا يقدّمونها. وما ذلك إلّا للتذكرة الدائمة المتكرّرة أنّ الإنسان بحاجة لا إلى وسيط، بل إلى هذا الوسيط، الذي كانت تلك الذبائح الدمويّة ترمز إليه. كانت الذبائح التي أمرت بها شريعة العهد القديم في جملتها ترمز إلى ذبيحة المسيح، الذي أتى، وقدّم ذاته؛ "ليُبطل الخطيّة بذبيحة نفسه" (عب٩: ٢٦). وهكذا أتى المسيح من أجل فداء الإنسان. ومعنى الفداء أنّ هناك وسيطًا يُنقذ آخر. بهذا المعنى كان المسيح وسيطًا وفاديًا، كما يقول إشعياء النبيّ قديمًا، بروح النبوّة: "الربّ وضع عليه إثم جميعنا" (إش٥٣: ٦)؛ "لأنّ المسيح إذ كنّا بعد ضعفاء، مات في الوقت المعيَّن؛ لأجل الفُجّار... الله بيَّنَ محبّته لنا، لأنّه ونحن بعد خطاة، مات

---

(١) في المطبوع: (فادي)، والصواب: (فادٍ).

المسيح لأجلنا" (رو٥: ٦، ٨). ويقول يوحنّا حبيب الربّ: "ليس لأحد حبّ أعظم، من هذا، أن يضع أحد نفسه؛ لأجل أحبّائه" (يو١٥: ١٣). لكن يقول قائل: ألم يكن ممكنًا أنّ الله يرحم الإنسان، ويخلّصه ويفديه، بكلمة واحدة، من فيه، دون أن يلجأ إلى أن يأخذ جسدًا بشريًّا ويتألّم ويُصلَب ويموت؟! والردّ على هذا: أنّ فداء الإنسان، وأن يرحمه الله بكلمة واحدة: يتعارض مع احترامه لعدله، والحكم الذي نطق به للإنسان الأوّل: "موتًا تموت" (تك٢: ١٧). فالله يحترم كلمته، والحكم الذي صدر منه. "فالسماء والأرض تزولان أيسر من أن تسقط كلمة واحدة أو حرف واحد ممّا نطق به الله" (مت٢٤: ٣٥؛ مر١٣: ٣١؛ لو٢١: ٣٣). من هنا كان الحلّ الوحيد هو أن يأخذ الله صورة الإنسان، ويتّخذ شكله محتجبًا في جسد، ويقبل في هذا الجسد نفس الحكم الصادر على الإنسان. وفي هذا كلّ الرحمة وكلّ العدل. كلّ الرحمة؛ لأنّه ليس حبّ أعظم، ولا رحمة أوسع، من أن يقبل الله على ذاته القدّوسة أن يتّخذ له جسدًا ترابيًّا، ويقبل منه كلّ صنوف الضعف والهوان والمذلّة والألم والصلب والموت. وكلّ العدل لأن ليس أدلّ على هذه العدالة المطلقة من أن يقبل الله على نفسه تنفيذ الحكم، الذي أصدره هو بنفسه، على الإنسان. ولا شكّ في أنّ قبول الله ذلك معنى العدالة واحترام الحكم الصادر منه على الإنسان، حتّى أنّه لمّا لم يجد ما يصلح أن يكون بديلًا للإنسان المذنب، قام هو نفسه بتنفيذ هذا الحكم، في جسده، الذي اتّخذه... وخلاصة القول أنّ الفداء كان ضرورة. والخلاص بالصورة التي تمّ بها بالصليب كان ضرورة. ولو كان هناك طريق آخر، غير هذا، لَما كان هنا داعٍ لذلك، أو بحسب تعبير بولس الرسول: "فالمسيح إذن مات، بلا سبب" (غل٢: ٢١)، أي: بدون داعٍ!! هكذا نفهم كلمات القدّيس بولس الرسول، عن المسيح، كالوسيط

الوحيد؛ "لأنّه يُوجَد إله واحد، ووسيط واحد، بين الله والناس: الإنسان يسوع المسيح. الذي بذل نفسه فدية؛ لأجل الجميع" (١تي٢: ٢: ٥، ٦). ولعلّنا نلاحظ هنا أنّ الرسول يقول: "الإنسان يسوع المسيح". وهذا التعبير لتأكيد المفهوم أنّ المسيح – له المجد – اقتبل الآلام، في جسده، وأتمّ الفداء، حينما قبل – بإرادته – أن ينفّذ العقوبة، في جسده، أيضًا»[١].

وقال الأنبا يؤانس أيضًا: «هكذا جاء الله إلينا في المسيح يسوع، عندما حلَّ في أحشاء البتول العذراء الطاهرة مريم، وأخذ منها جسدًا، ووُلد مثل سائر البشر. في المسيح يسوع، حدث اتّحاد، بين كلّ ما لله (اللاهوت)، بكلّ ما للإنسان أي: الجسد والنفس. وعندما اتّخذ الله له جسدًا، جعل قوّة الحياة الإلهيّة تتّحد بهذا الجسد، اتّحادًا كاملًا: "الكلمة صار جسدًا، وحلّ بيننا، ورأينا مجده" (يو١: ١٤). لقد اتّحد الله بكلّ ما للطبيعة البشريّة، ما خلا الخطيّة، والخطيّة شيء دخيل على الإنسان. والخطيّة ليست من صنع الله، ولكنّها من صنع الإنسان. كان هذا الاتّحاد – اتّحاد اللاهوت، بالطبيعة الإنسانيّة – هو أهمّ إعلانات الله، عن محبّته للإنسان، محبّة فائقة المعرفة؛ لأنّه ارتضى أن يتّحد بالعنصر الإنسانيّ، بكلّ ما فيه من جسد ونفس. وعندما اتّحد اللاهوت، بطبيعتنا البشريّة، اكتسبت هذه الطبيعة خواصّ جديدة، "لكن وضعت ذاتك، وأخذت شكل العبد. وباركت طبيعتي، فيك، وأكملت ناموسك عنّي. أريتني القيام من سقطتي... أزلت لعنة الناموس. أبطلت الخطيّة بالجسد. أريتني قوّة سلطانك... أنهضت الطبيعة بالكلمة". ولمّا حدث هذا الاتّحاد، وصار جسد ابن الله حيًّا، وقهر الموت بالقيامة، أصبح كلّ من يُريد أن يحصل على

(١) عقيدة المسيحيّين في المسيح: ١٢-١٦.

حياة جديدة، عليه أن يتّحد به، في المعموديّة؛ لينال التجديد، والقيامة، ويتّحد به سرّيًّا، في الأفخارستيا: (التناول المُقدّس)، فيُعطى عناصر الحياة، وعدم الفساد، والقيامة من الموت. وبذا تتمّ كلمات القدّيس بطرس الرسول، عن الإنسان: أنّه يصير شريك الطبيعة الإلهيّة (٢بط١: ٤). أو كما تقول ثيئوطوكيّة يوم الجمعة، في التسبحة السنويّة المقدّسة: "هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له، نسبّحه ونمجّده ونزيده علوًّا". والمعنى أنّه أخذ الجسد، وأعطانا بركات الطبيعة الإلهيّة. يا أحبّائي، هذه هي الطريقة الوحيدة لعودة الإنسان، إلى الله بتجديد طبيعته. وهذه العودة ليست مثل عودة الإنسان، في الأزمنة السابقة، بالتوبة، وإطاعة الوصيّة، بل هي عودة، فيها اقتراب الله، من الإنسان، واتّحاده به؛ لعلاج الفساد، الذي أصاب الطبيعة الإنسانيّة...»[(١)].

وقال الأنبا أيضًا: «ويؤمن المسيحيّون: أنّه إلى جانب كون المسيح: "ابن الله الحيّ"، فهو الله الظاهر، في الجسد. هو الله الذي لم يكن منظورًا، في العهد القديم، وصار منظورًا، في العهد الجديد، في المسيح. بمعنى أنّه هو الله، غير المنظور، وقد صار منظورًا، في المسيح»[(٢)].

وقال الأنبا أيضًا: «جميع المسيحيّين أمس، واليوم، ومنذ بدء المسيحيّة: مُجمِعون على الاعتقاد بلاهوت المسيح. فعلى الرغم من الاختلافات العقائديّة، بين الكنائس، والمذاهب المختلفة، في نطاق المسيحيّة، فالمسيحيّون على اتّفاق تامّ، فيما يختصّ بلاهوت المسيح. لا فرق في ذلك، بين أرثوذكس، وكاثوليك، وبروتستانت. وأيّة طائفة تنتسب

---

(١) عقيدة المسيحيّين في المسيح: ٢٤-٢٦.

(٢) عقيدة المسيحيّين في المسيح: ٣٤.

إلى المسيحيّة، ولا تعترف بلاهوت المسيح، هي ليست مسيحيّة، على الإطلاق، ومن أمثلتهم من يُسمُّون أنفسهم: "شهود يهوه"...»[١].

وقال الأنبا أيضًا: «وجدير بالذكر أنّ إثبات لاهوت المسيح: لا يستند، إلى آية واحدة، في الإنجيل المقدّس، بحيث إذا أُسقطت هذه الآية، أو أُثيرت حولها الشكوك، زالت صفة الألوهة عن المسيح!! لكنّ حقيقة لاهوت المسيح ثابتة راسخة، في الكتاب المقدّس، كلّه، من أوّل سفر التكوين، إلى آخر سفر الرؤيا. ولاهوت المسيح ليست بدايته العهد الجديد، ولا مجيء المسيح، وتعليمه، بل إنّ الإشارة إليه تبدأ، مع بداية الكتاب المقدَّس، منذ آدم...»[٢].

وقال الأنبا أيضًا: «ليس هناك ثمّة[٣] تناقض، في الإيمان المسيحيّ، بين القول بالوحدانيّة، والقول بالثالوث القدّوس. فالله واحد، في جوهره، وذاته. ولكن يُوجَد - في هذا الجوهر الواحد - ثلاثة أقانيم»[٤].

وقال الأنبا أيضًا: «ومن ذلك يتبيّن أنّ الأقانيم هي صفات في ذات الله، لا يقوم كيانه، بدونها. وعلى ذلك، فالجوهر واحد، ولكنّ الصفات الذاتيّة ثلاثة، نسمّيها: الآب، والابن، والروح القدس»[٥].

وقال الأنبا أيضًا: «والله هو العقل الأعظم، والسيّد المسيح - من

---

(١) عقيدة المسيحيّين في المسيح: ٤٢.

(٢) عقيدة المسيحيّين في المسيح: ٤٤.

(٣) كذا في المطبوع، جمع المؤلّف بين (هناك)، و(ثمّة)، وهو خطأ شائع.

(٤) عقيدة المسيحيّين في المسيح: ١٧٢.

(٥) عقيدة المسيحيّين في المسيح: ١٧٤-١٧٥.

حيث لاهوته – هو عقل الله، الذي به خلق العالَمين (عب١: ٢)...»[١].

وقال الأنبا أيضًا: «فالآب والابن معًا، في الجوهر الإلهيّ الواحد، والذات الإلهيّة الواحدة، بغير افتراق منذ الأزل، وإلى الأبد»[٢].

وقال الأنبا أيضًا: «السيّد المسيح له المجد – من حيث لاهوته – هو ابن الله، بمعنى أنّه من طبيعة الله، ومن جوهره. فهو ليس شبيهًا به، وإنّما هو من طبيعة ذاته. فالآب والابن، في ذات إلهيّة واحدة، وليس ثمّة اختلاف بين الآب والابن، في الطبيعة والجوهر والذات»[٣].

وقال الأنبا أيضًا: «وثمّة ملاحظة يجب الإشارة إليها، وهي كون المسيح هو الأقنوم الثاني. ليس معنى ذلك أنّه أقلّ من الآب في الجوهر، ولا لأنّ الابن متأخِّر عن الآب، في الزمان، على نحو مفهومنا البشريّ، بأنّ الأب الجسديّ سابق على ابنه، في الزمان. لكنّ هذا الترتيب يرتبط بمعرفة البشر لله. فهم يعرفون الله بصفة كونه الآب، قبل أن يعرفوه بصفة كونه "الابن"، ذلك لأنّ التجسُّد جاء متأخِّرًا في الزمان. ونفس المفهوم حينما نقول، عن الروح القدس: إنّه الأقنوم الثالث، فليس ذلك مرتبط[٤] بترتيب الأسبقيّة، في الزمان؛ وذلك لأنّ الروح القدس أزليّ أبديّ، والله نفسه روح، كما قال المسيح للسامريّة (يو٤: ٢٤). إنّه الحيّ – الذي به، وعليه – يقوم الوجود. إنّه الحياة

---

(١) عقيدة المسيحيّين في المسيح: ١٧٨.

(٢) عقيدة المسيحيّين في المسيح: ١٧٩.

(٣) عقيدة المسيحيّين في المسيح: ١٧٩.

(٤) في المطبوع: (مرتبط)، والصواب: (مرتبطًا).

ذاتها، وأصل الحياة. إنّه الله ذاته...»[١].

هذه هي خلاصة (عقائد المسيحيّة الكبرى)، بقلم واحد من أبرز رجالها، وهي - بلا ريب - أسوأ من اليهوديّة، في التحريف، وفي البُعد عن الدين الحقّ.

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا. لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ

---

(١) عقيدة المسيحيّين في المسيح: ١٨٦-١٨٧.

(٢) النساء: ١٧١-١٧٢.

(٣) المائدة: ١٧.

كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢).

قال ابن القيّم: «ومن المعلوم أنّ هذه الأمّة ارتكبت محذورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقل، ولا معرفة: أحدهما الغُلُوّ في المخلوق، حتّى جعلوه شريك الخالق، وجزءًا منه، وإلهًا آخر معه، وأَنِفوا أن يكون عبدًا له. والثاني تنقُّص الخالق وسبّه ورميه بالعظائم، حيث زعموا أنّه - سبحانه وتعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا - نزل من العرش عن كرسيّ عظمته، ودخل في فرج امرأة، وأقام هناك تسعة أشهر، يتخبّط بين البول والدم والنجو، وقد علته أطباق المشيمة

---

(١) المائدة: ٧٢-٧٧.

(٢) المائدة: ١١٦-١١٨.

والرحم والبطن، ثمّ خرج من حيث دخل، رضيعًا صغيرًا، يمصّ الثدي، ولُفَّ في القُمُط، وأُودع السرير، يبكي ويجوع ويعطش ويبول ويتغوّط ويُحمَل على الأيدي والعواتق، ثمّ صار إلى أن لطمت اليهود خدّيه، وربطوا يديه، وبصقوا في وجهه، وصفعوا قفاه، وصلبوه جهرًا، بين لصبين[1]، وألبسوه إكليلًا من الشوك، وسمّروا يديه، ورجليه، وجرّعوه أعظم الآلام؛ هذا، وهو الإله الحقّ، الذي بيده، أُتقنت العوالِم، وهو المعبود، المسجود له. ولعمر الله، إنّ هذه مسبّة لله - سبحانه - ما سبّه بها أحد، من البشر، قبلهم، ولا بعدهم...»[2].

ثمّ قال ابن القيّم: «فنسبوا الإله الحقّ - سبحانه - إلى ما يأنف أسقط الناس وأقلّهم أن يفعله بمملوكه وعبده، وإلى ما يأنف عُبّاد الأصنام أن تُنسَب إليه أوثانهم، وكذّبوا الله سبحانه، في كونه تاب على آدم عليه السلام، وغفر له خطيئته، ونسبوه إلى أقبح الظلم، حيث زعموا أنّه سجن أنبياءه ورسله وأولياءه في الجحيم؛ بسبب خطيئة أبيهم، ونسبوه إلى غاية السفه، حيث خلّصهم من العذاب، بتمكينه أعداءه من نفسه، حتّى قتلوه وصلبوه وأراقوا دمه، ونسبوه إلى غاية العجز، حيث عجّزوه أن يخلّصهم بقدرته، من غير هذه الحيلة، ونسبوه إلى غاية النقص، حيث سلّط أعداءه، على نفسه، وابنه، ففعلوا به ما فعلوا. وبالجملة، فلا نعلم أمّة، من الأمم، سبّت ربّها، ومعبودها، وإلهها، بما سبّته به هذه الأمّة»[3].

---

(١) في المطبوع: (لِصْبَيْنِ)، والصواب: (لِصَّيْنِ)، انظر: العهد الجديد، إنجيل متّى، الفصل ٢٧، الآية ٣٨.

(٢) إغاثة اللهفان: ٢/١٠٥١-١٠٥٢.

(٣) إغاثة اللهفان: ٢/١٠٥٤.

فلا عجب من الطاعن المسيحيّ - وهو يقف اليوم - في صفوف أعداء الإسلام، مؤيّدًا الطاعن اليهوديّ، والطاعن اللادينيّ، في مطاعنهم، الموجّهة إلى الإسلام؛ حتّى لقد نسي - أو تناسى - مطاعن اليهوديّ، ومطاعن اللادينيّ، في المسيح عليه السلام، وفي أمّه الصدّيقة المطهّرة مريم عليها السلام؛ وكأنّه لا يعرف شيئًا عن منزلة المسيح، ومنزلة مريم، في الإسلام!!!

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ. ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ. إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(1).

فماذا نتوقّع ممّن يرون الإسلام أخطر عليهم، وعلى أبنائهم وبناتهم وأحفادهم وأهليهم، من الإلحاد؟! وماذا نتوقّع ممّن يرون الإسلام أخطر عليهم، من شياطين الحروب، والمخدِّرات، والخمور، والدعارة؟!!!

لا نتوقّع منهم قطعًا، إلّا معاداة الإسلام، ومحاولة النيل منه، ومن أتباعه؛ لأنّ في انتشار الإسلام ذهاب سلطانهم، والقضاء على أهوائهم، والكشف عن فضائحهم، وفضائح أسلافهم!!!

---

(1) آل عمران: ٤٢-٤٥.

فإن قيل: سَلَّمْنا ببطلان المناهج: اللادينيّة، واليهوديّة، والمسيحيّة، بعد الاطّلاع على سِيَرِها السقيمة، العقيمة؛ والنظر في فضائحها، وقبائحها، وفظائعها، وشنائعها؛ ولكنّنا لن نُسَلِّم بشرعيّة (الإسلام)، إلّا إذا اطّلعنا على الأدلّة القطعيّة، الدالّة على شرعيّة (نبوّة نبيّكم)، وبخلاف ذلك سيظلّ الطاعنون يرمون نبيَّكم بالكذب؟

قلتُ: إنّ الأدلّة القطعيّة على (شرعيّة النبوّة المُحمّديّة) أكثرُ من أن يُحصيَها المُحصون، وإن أنكرها أكثرُ الناس، قديمًا وحديثًا.

وإنّما يُنكِر المُنكِرون تلك الأدلّة؛ لواحد من ثلاثة أسباب، هي:

١- الجهل: حين يجهل المُنكِرُ تلك الأدلّة، أو يجهل قيمتها الإثباتيّة.

٢- الهوى: حين يعلم المُنكِرُ تلك الأدلّة، ويستيقن قطعيّتها، ولكنّه يُنكِر قيمتها الإثباتيّة؛ لأنّ هواه يخالف (أحكام الإسلام).

٣- الخوف: حين يعلم المُنكِرُ تلك الأدلّة، ويستيقن قطعيّتها، ولكنّه يُنكِر قيمتها الإثباتيّة؛ لأنّه يخاف بطش (أعداء الإسلام).

ويمكن تقسيم تلك الأدلّة، على قسمين:

الدليل الخاصّ: هو دليل الصحابة، الذين عاشوا مع النبيّ ﷺ، في مكان واحد، وزمان واحد، وشاهدوا من الأدلّة الحسّيّة ما يكفي؛ للاستيقان بنبوّته.

ثمّ جاء بعدهم التابعون، ومن جاء بعدهم، وهؤلاء اطّلعوا على تلك الأدلّة، من طريق الخبر المرويّ، وليس الخبر كالمُعايَنة.

الدليل العامّ: هو الدليل الذي يكون مرشدًا إلى النبوّة المحمّديّة، في كلّ زمان،

وفي كلّ مكان، وهو (القرآن الكريم)، الذي يُسمّى: (المُعجِزة الخالدة).

ووجوه (إعجاز القرآن) على أقسام، أبرزها:

١- الإعجاز البيانيّ: هو أن يُعجِزَ البيانُ القرآنيُّ العربَ عن الإتيان بمثله. وإذا عجز العرب - وقد عجزوا - فقد عجز غيرُ العرب، من باب أَولى.

ولا يُمكِن أن يُدرِك قيمةَ (الإعجاز البيانيّ)، إلّا العربيّ الفصيح، أو المُستعرِب الفصيح، الذي تعلّم العربيّة، حتّى صار كالعربيّ الفصيح، في إتقانها.

ولذلك لا يُعتَدُّ بإنكار غير العربيّ الفصيح، وغير المُستعرِب الفصيح، لهذا الوجه الإعجازيّ؛ لأنّ المُنكِر منهم، إمّا أن يكون قاصرًا عن تعلُّم العربيّة، أو مُقصِّرًا في تعلُّمها.

وإنّما يكون الاحتكام - في هذا المقام - إلى (فُصحاء العربيّة)، وقد أجمعوا على (الإعجاز البيانيّ)؛ فكان إجماعُهم حُجّةً على من سواهم.

ومَثَلُهُم في ذلك، كمَثَلِ (علماء الطبّ)، إذا أجمعوا على (حقيقة طبّيّة)، فإنّ إجماعهم يكون حُجّةً، على من سواهم.

وهذا يعني أنّ أكثر الناس لا يستطيعون إدراك (الإعجاز البيانيّ)؛ لأنّ الجهل بالعربيّة مُفضٍ إلى الجهل بهذا الوجه، من (الإعجاز)؛ ويستوي في هذا الجهل: العربيُّ العامّيُّ - ولا سيّما المعاصر - والأعجميُّ غيرُ المُستعرِب.

٢- الإعجاز التشريعيّ: هو أن تُعجِزَ التشريعاتُ القرآنيّةُ الناسَ كلَّهم، عن الإتيان بقوانين تُماثِلُها، في تحقيق السعادة الحقيقيّة للإنسان، في الدنيا، والآخرة.

وكما لا يُجيز (أهلُ القانونِ) تحكيمَ القَتَلة، واللصوص، والمُغتصِبين، في تقويم قوانين القتل، والسرقة، والاغتصاب؛ فكذلك لا يجوز تحكيمُ أهل الأهواء، في تقويم (التشريعات القرآنيّة).

فما الذي نتوقّعه، من القَتَلة، والمُرابين، واللصوص، والزناة، والزواني، والمُغتصِبين، ومُدمني المخدِّرات والخمور والشذوذ؟!!!

لا نتوقّع منهم إلّا الطعن في (التشريعات القرآنيّة)، ومعاداتها، ومعاداة كلّ من يدعو إليها، ويعمل بمقتضاها.

ولذلك لا يُدرِك قيمة (الإعجاز التشريعيّ) إلّا من كان عالِمًا صادقًا، بريئًا من الأهواء، حريصًا على تحقيق (السعادة الإنسانيّة الحقيقيّة)، مُحِبًّا للخير والحقّ والعدل، ساعيًا إلى تخليص المستضعَفين، من اضطهاد المستكبِرين.

٣- الإعجاز الغيبيّ: هو اشتمال القرآن على أنباء غيبيّة، يعجز البشر عن الإتيان بمثلها. وتشمل أنباء ما حدث، قبل نزول القرآن، وأنباء ما حدث، عند نزول القرآن، وأنباء ما حدث، ويحدث، وسيحدث، بعد نزول القرآن.

ولهذا الوجه الإعجازيّ أكثر من صورة، أبرزها صورتان:

أ- أن يكون الحدث الذي أنبأ عنه القرآن حدثًا خاصًّا؛ ولذلك لا يُدرِك قيمةَ هذا الإعجاز إلّا من كان على علم بذلك الحدث، كأن يُسِرَّ أحدُهم قولًا، أو أمرًا، في نفسه، ثمّ ينزل القرآن؛ للكشف عمّا في نفسه؛ فيُدرِك ذلك المُسِرُّ أنّ الوحي الإلهيّ هو مصدر القرآن، الذي نزل على محمّد ﷺ.

ب- أن يكون الحدث الذي أنبأ عنه القرآن حدثًا عامًّا، كما في الإنباء عن غلبة الروم - بعد أن غُلِبوا - في بضع سنين.

فالذين شهدوا نزولَ آيات هذا الإنباء، ثمّ شهدوا تحقُّقَ ما وعدَ اللهُ به، لا بدّ أنّهم أدركوا قيمةَ الإعجاز الغيبيّ، في هذا الأمر، سواء أكانوا من المؤمنين، أم كانوا من غير المؤمنين.

ولذلك يكون (الإعجاز الغيبيّ) من الوجوه النِّسبيّة، فمن لم يكن من

أهل الحدث الخاصّ، ولا من أهل الحدث العامّ، فإنّه لن يجد طريقًا إلى هذا الوجه، إلّا طريق الخبر المرويّ، وليس الخبر كالمعاينة.

ولا يعني هذا أنّ قيمة الإعجاز الغيبيّ قد انتفت، في العصر الحديث، فكثيرة هي (الأنباء الغيبيّة)، التي اشتمل القرآن على ذكرها، وسيكون الكشف عن صدقها، ودقّتها، من نصيب المُحدَثين، ومن سيأتي بعدهم.

٤- الإعجاز العلميّ: هو اشتمال القرآن، على إشارات دقيقة، إلى حقائق علميّة، لم يصل إليها العلماء، قبل العصر الحديث؛ فكان ذلك الاشتمال دليلًا على أنّ الوحي الإلهيّ هو المصدر الوحيد للقرآن، الذي نزل على محمّد ﷺ.

ولا ريب في أنّ هذا الوجه الإعجازيّ مخصوص بأهل العصر الحديث، والأجيال التي تليه؛ فلم يكن البشر في عصر النبوّة قادرين، على إدراك الحقائق العلميّة الحديثة، ولم يكن مطلوبًا منهم إثبات ذلك.

فكان هذا الوجه الإعجازيّ زادًا محفوظًا، طَوال أربعة عشر قرنًا، لأهل العصر الحديث، ولِمن سيأتي بعدهم، من الأجيال؛ ليكون بديلًا عن الإعجاز البيانيّ، الذي لا يُدرِك قيمتَه، في العصر الحديث، إلّا قلّة قليلة.

٥- الإعجاز العدديّ: هو اتّصاف القرآن، بأنظمة عدديّة عجيبة، في ألفاظه، ومعانيه، يعجز البشر عن الإتيان بمثلها؛ فتكون هذه الأنظمة العدديّة دالّةً على (الإتقان المُعجِز)، الذي يستحيل أن ينشأ، عن طريق المصادفة.

فمثلًا، حين تدخل قصرًا كبيرًا، وتجد أنّ أجزاء القصر موضوعة، على وفق أنظمة عدديّة، في الطول، والعرض، والارتفاع، والسُّمك، والحجم، والوزن، والكمّ؛ فإنّك تُدرِك يقينًا أنّ مُنشِئ القصر قاصدٌ، كلّ القصد، إلى تلك الأنظمة العدديّة، التي أدركتَها أنتَ، بالبحث والنظر.

ولا يُمكن أن يدّعي عاقلٌ أنّها جاءت منظَّمةً، كلّ هذا التنظيم، عن طريق المصادفة، إلّا إذا كان مُعانِدًا، يتّبع هواه؛ فلا يُعتَدُّ بخلافه، وادّعائه.

فالنظام – ولا سيّما العدديّ – لا يُمكن أن ينشأ عن طريق المصادفة، ولا سيّما حين تكون أمثلتُه كثيرةً، وعجيبةً، ومنوَّعةً.

وقد اكتشف (باحثون معاصرون) الكثيرَ، من أمثلة الأنظمة العدديّة، في القرآن الكريم، بعد الاستعانة بالأجهزة الإحصائيّة الحديثة (الحواسيب)، وبعد الاعتماد على القوانين الحسابيّة، الثابتة ثبوتًا قطعيًّا.

ولذلك تكون هذه الأنظمة العدديّة دليلًا قطعيًّا، على شرعيّة القرآن، بمعنى أنّ المصدر الوحيد للقرآن: هو الوحي الإلهيّ المنزَّل؛ فليس القرآن قول البشر، ولا اقتباسًا من الكتب القديمة، كما يزعم الطاعنون!!!

ويختصّ (الإعجاز العدديّ) بعدّة خصائص، أبرزها:

١- سهولة التعليم، وسهولة التعلُّم؛ فيستطيع المدافعُ عن القرآن أن يُثبِت (إعجاز القرآن)، بأمثلة معدودة، حتّى إذا كان المخاطَب صبيًّا، في العاشرة.

٢- سهولة الترجمة، وضمان سلامتها، من أخطاء الفهم، وأخطاء التعبير؛ لأنّ أمثلة (الإعجاز العدديّ) قائمةٌ على الأعداد، والقوانين الحسابيّة.

٣- سهولة التحقُّق، فيستطيع المبتدئُ في تعلُّم العربيّة – حتّى الأعجميّ – أن يتحقّق من الأنظمة العدديّة، بالإحصاء الشخصيّ، أو بالإحصاء الحاسوبيّ.

٤- ثبوت الحقائق الحسابيّة، المستمدّة من الأنظمة العدديّة القرآنيّة، ومن القوانين الحسابيّة القطعيّة؛ فهي بعيدة، كلّ البعد، عن التغيير والتغيُّر والنِّسبيّة.

لذلك ندعو الطاعنين، إلى تدبُّر أمثلة (الإعجاز العدديّ)، حقَّ التدبُّر؛ فإنّها أدلّة قطعيّة على (النبوّة المحمّديّة)، لا يُنكِرها إلّا الجاحدون، وأتباعُهم!!!

الخاتمة

ثمّة حروب كثيرة، شرقيّة وغربيّة، شماليّة وجنوبيّة، قديمة وحديثة، منها:

١- حرب مئة عام: (١٣٣٧-١٤٥٣م).

٢- حرب الوردتين: (١٤٥٥-١٤٨٥م).

٣- الحروب الدينيّة الأوربّيّة: (١٥١٧-١٦٤٨م).

٤- الحروب الأمريكيّة الهنديّة: (١٦٢٢-١٩٢٤م).

٥- الحرب الإنجليزيّة الأهليّة: (١٦٤٢-١٦٥١م).

٦- حرب السنوات السبع: (١٧٥٦-١٧٦٣م).

٧- الحروب النابليونيّة: (١٨٠٣-١٨١٥م).

٨- الحرب الأمريكيّة المكسيكيّة: (١٨٤٦-١٨٤٨م).

٩- الحرب الأمريكيّة الأهليّة: (١٨٦١-١٨٦٥م).

١٠- الحرب الفرنسيّة المكسيكيّة: (١٨٦١-١٨٦٧م).

١١- الحرب اليابانيّة الصينيّة: (١٨٩٤-١٨٩٥م)، (١٩٣٧-١٩٤٥م).

١٢- الحرب الإيطاليّة الإثيوبيّة: (١٨٩٥-١٨٩٦م)، (١٩٣٥-١٩٣٦م).

١٣- الحرب الأمريكيّة الأسبانيّة: (١٨٩٨م).

١٤- الحرب الأمريكيّة الفلبّينيّة: (١٨٩٩-١٩١٣م).

١٥- الحرب الروسيّة اليابانيّة: (١٩٠٤-١٩٠٥م).

١٦- الحرب العالَميّة الأُولى: (١٩١٤-١٩١٨م).

١٧- الحرب العالَميّة الثانية: (١٩٣٩-١٩٤٥م).

١٨- الحرب الكوريّة: (١٩٥٠-١٩٥٣م).

١٩- الحرب الفيتناميّة: (١٩٥٥-١٩٧٥م).

وأُريد الآن أن أوجِّه أسئلة مهمّة، إلى (الطاعنين الثلاثة)، في (الإسلام)، الذين يتّهمون (الإسلام)، بأنّه دين (الإرهاب)، حتّى صارت كلمة (الإسلام) - عندهم - مرادفة لكلمة (الإرهاب)، وصارت كلمة (الإرهاب) - عندهم - مرادفة لكلمة (الإسلام)!!!

١- هل تستطيعون أن تكشفوا لنا عن (الأديان)، التي يُنسَب إليها المجرمون المعتدون في تلك الحروب؟

٢- هل تستطيعون أن تكشفوا لنا عن (الدين)، الذي يُنسَب إليه مجرمو (محاكم التفتيش)؟

٣- هل تستطيعون أن تكشفوا لنا عن (الدين)، الذي يُنسَب إليه المجرمون، الذين أبادوا (الهنود الحمر)؟

٤- هل تستطيعون أن تكشفوا لنا عن (الدين)، الذي يُنسَب إليه المجرمون، الذين أمروا بإلقاء (قنبلتين ذرّيّتين)، على (مدينتين يابانيّتين)، فقتلتا عشرات الآلاف، من الأبرياء المستضعَفين؟

٥- هل تستطيعون أن تنسبوا (جرائم المعتدين)، في (تلك الحروب)، إلى (الأديان)، التي يُنسَبون إليها؟

٦- هل تستطيعون أن تزعموا أنّ (حروب الاحتلال): الأسبانيّ، والبرتغاليّ، والإنجليزيّ، والفرنسيّ، والهولنديّ، والبلجيكيّ، والألمانيّ، والإيطاليّ، والروسيّ، والأمريكيّ، واليابانيّ: كانت شديدة على الطغاة المستبِدّين؛ لكنّها كانت رحيمة بالأبرياء المستضعَفين؟

٧- هل تستطيعون أن تزعموا أنّ (المنسوبين) إلى (الإسلام) هم من أوقدوا نيران (تلك الحروب)؟

٨- هل تستطيعون أن تزعموا أنّ (اعتداء المجرمين) على الأبرياء المستضعَفين، في تلك الحروب: لا يُمكن أن يُعدّ (إرهابًا)، إلّا إذا صدر من أحد (المنسوبين)، إلى (الإسلام)؟

٩- ماذا تقولون في جرائم (هتلر)، وعصابته النازيّة؟

١٠- ماذا تقولون في جرائم (موسوليني)، وعصابته الفاشيّة؟

١١- ماذا تقولون في جرائم (لينين)، وعصابته الشيوعيّة؟

١٢- ماذا تقولون في جرائم (ستالين)، وعصابته الشيوعيّة؟

١٣- ماذا تقولون في جرائم (ماو تسي)، وعصابته الشيوعيّة؟

١٤- ماذا تقولون في جرائم (بول بوت)، وعصابته الشيوعيّة؟

١٥- ماذا تقولون في جرائم (تيتو)، وعصابته الشيوعيّة؟

١٦- ماذا تقولون في جرائم (رادوفان)، وعصابته الصربيّة؟

١٧- ماذا تقولون في جرائم العصابات الصليبيّة؟

١٨- ماذا تقولون في جرائم العصابات الصهيونيّة؟

١٩- ماذا تقولون في جرائم العصابات البوذيّة؟

٢٠- ماذا تقولون في جرائم العصابات العنصريّة؟

٢١- ماذا تقولون في جرائم (كورتيز)، ضدّ شعب (الأزتك) الهنديّ؟

٢٢- ماذا تقولون في جرائم (بيزارو)، ضدّ شعب (الإنكا) الهنديّ؟

٢٣- ماذا تقولون في جرائم المحتلّين الأوربّيين، ضدّ الشعوب الإفريقيّة؟

٢٤- ماذا تقولون في جرائم المحتلّين الأوربّيين، ضدّ الشعوب الآسيويّة؟

٢٥- ماذا تقولون في جرائم المحتلّين الأوربّيين، ضدّ الشعوب الأستراليّة؟

٢٦- ماذا تقولون في اغتصاب جنود الجيش الألمانيّ، للنساء الأوربّيات؟

٢٧- ماذا تقولون في اغتصاب جنود الجيش الإيطاليّ، للنساء الأوربّيّات؟

٢٨- ماذا تقولون في اغتصاب جنود الجيش الفرنسيّ، للنساء الأوربّيّات؟

٢٩- ماذا تقولون في اغتصاب جنود الجيش الروسيّ، للنساء الأوربّيّات؟

٣٠- ماذا تقولون في اغتصاب جنود الجيش الأمريكيّ، للنساء الأوربّيّات؟

٣١- ماذا تقولون في اغتصاب جنود الجيش البريطانيّ، للنساء الأوربّيّات؟

٣٢- ماذا تقولون في اغتصاب جنود الجيش اليابانيّ، للنساء الآسيويّات؟

٣٣- ماذا تقولون في اغتصاب جنود الجيوش الغربيّة، للنساء الآسيويّات؟

٣٤- ماذا تقولون في اغتصاب جنود الجيوش الغربيّة، للنساء الإفريقيّات؟

٣٥- ماذا تقولون في اغتصاب جنود الجيوش الغربيّة، للنساء العربيّات؟

٣٦- ماذا تقولون في التنصير الإجباريّ، للشعب الفلبّينيّ؟

٣٧- ماذا تقولون في التنصير الإجباريّ، للشعوب الإفريقيّة؟

٣٨- ماذا تقولون في إجبار الشعوب، على اعتناق الشيوعيّة؟

٣٩- ماذا تقولون في نهب خيرات الشعوب المستضعَفة؟

٤٠- ماذا تقولون في (الجرائم الأمريكيّة)، القديمة والحديثة؟

إنّنا لا نُنكر الحروب الكثيرة، القديمة والحديثة، التي قامت بين جماعات كثيرة، منسوبة إلى الإسلام، ولا نُنكر أنّ أكثر هذه الحروب كانت من أجل السلطة والمال والاستبداد؛ ولكنّنا نؤكّد أنّ المعتدين - في هذه الحروب - مجرمون، كلّ الإجرام، قد خالفوا أحكام الإسلام.

ولا نُنكر أيضًا أنّ بعض المنسوبين إلى (الإسلام) - قديمًا وحديثًا - قد اعتدوا على الكثير، من المخالفين، المسالِمين، المستضعَفين؛ فسفكوا دماءهم، واغتصبوا نساءهم، ونهبوا أموالهم، وأفسدوا في بلادهم.

لكنّ نسبة أولئك المجرمين المعتدين إلى (الإسلام) لا تعني شيئًا؛ لأنّ (الإسلام) دين الإيمان، والعمل الصالح؛ ولا (إسلام) إلّا باجتماعهما معًا، ولو على درجات متفاوتة؛ ولكنّها درجات رفيعة، لا يُمكن أن يكون صاحبها – في عقائده وأعماله وأخلاقه – مشابهًا، أو مقاربًا، لمن لا علاقة له بهذا الدين.

فالإسلام دين الاكتساب، لا دين الانتساب؛ والاكتساب يكون بالإيمان أوّلًا، والعمل الصالح ثانيًا؛ فمن انتسب إلى (الإسلام)، بلسانه، ولم يصدّق انتسابَه اكتسابُ الحسنات، وعمَلُ الصالحات، بل اكتسب السيّئات، وعمِلَ أعمال (أعداء الدين)؛ فالإسلام بريء منه، ومن انتسابه، كلّ البراءة!!!

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2].

فالعدوان، والاضطهاد، والظلم، والفساد، والسرقة، والنهب، والفجور، والاغتصاب: ليست من (الإسلام) في شيء؛ فإن صدرت من بعض المنسوبين إلى (الإسلام)؛ فإنّ (الإسلام) بريء منهم، كلّ البراءة.

---

(١) فصّلت: ٣٣-٣٤.

(٢) المائدة: ٢.

لقد أمر الله سبحانه وتعالى بأن نقاتل الذين يقاتلوننا؛ لأنّ الاستسلام لهم يعني تسلُّطهم، على أتباع هذا الدين، وإبادتهم لهم، وصدّهم الناس، عن الدخول فيه؛ ولكنّ الله سبحانه وتعالى نهانا - مع ذلك كلّه - عن الاعتداء.

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ. الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

وردُّ الاعتداء بمثله ليس اعتداء للظلم، بل إنّه اعتداء للردع والمَنَعة؛ فهو اعتداء العقوبة العادلة، والجزاء الرادع؛ والظالِم هو المعتدي، ابتداء؛ ولولا اعتداء الظالمين، لما رفع (الإسلام) سيفًا على أحد.

والإسلام بريء، كلّ البراءة، من افتراءات الطاعنين، الذين ينسبون إليه تهمة (إكراه المخالفين)، على (اعتناق الدين)؛ فإنّ الذي أدخل الصادقين في دين الله أفواجًا هو الحكمة، والموعظة الحسنة، والكلمة الطيّبة، والجدال الحسن.

قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

---

(١) البقرة: ١٩٠-١٩٤.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٢].

وأقوى دليل واقعيّ تاريخيّ قطعيّ، على بطلان تهمة (الإكراه): أنّك تجد المنسوبين إلى (اليهوديّة)، والمنسوبين إلى (المسيحيّة): قد عاشوا، وما زالوا يعيشون، في البلاد، التي حكمها المنسوبون إلى (الإسلام)، نحو أربعة عشر قرنًا؛ وتجد معابدهم، وكنائسهم: باقية، ومتجدّدة، مع أنّها مشتملة على مخالفات صريحة للوحي الإلهيّ المنزّل.

فهل كان المنسوبون إلى (الإسلام) قادرين على إكراه المخالفين، من الأمم الآسيويّة والأوربيّة والإفريقيّة؛ ولكنّهم كانوا عاجزين، عن إكراه المخالفين، في بلاد العراق والشام ومصر؟!!!

إنّ (الإسلام) يدعونا إلى (قتال المُعتدين)، حتّى لو كانوا من المنسوبين إلى (الإسلام)؛ وينهانا عن (قتال المُسالِمين)، حتّى لو كانوا من المخالفين.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٣].

---

(١) يونس: ٩٩.

(٢) النحل: ١٢٥.

(٣) الحجرات: ٩.

وقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٣).

فالتعايش مشروع في (الإسلام) بين أهل الملّة، وأهل الذمّة، ما داموا مسالِمين، خاضعين، غير معتدين، ولا خائنين؛ وحقوقهم التي أوجبها الإسلام يجب أن تُحفَظ لهم، ومن خانها، فقد خان الله ورسوله.

أمّا أولئك المعتدون، من المخالفين؛ فإنّ الإسلام قد أوجب الجهاد؛ لردّ اعتدائهم؛ لا لأنّهم مخالفون، في الدين، بل لأنّهم معتدون؛ ولكنّهم إذا ألقوا السَّلَم، وكفّوا أيديهم عن الاعتداء، فلا يحلّ قتالهم.

---

(١) الممتحنة: ٨-٩.

(٢) العنكبوت: ٤٦.

(٣) المائدة: ٥.

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا. سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾[1].

فالجهاد واجب في (الإسلام)؛ لردّ اعتداء المعتدين، ولا سيّما لاستنقاذ المستضعَفين، الذين لا حيلة لهم؛ لردّ الاعتداء عنهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾[2].

و(إرهاب المعتدين) هو (الإرهاب) الوحيد الذي أمر به (الإسلام)؛ لأنّه (إرهاب محمود)، يردع (المعتدين)، ويكسر شوكتهم؛ لكيلا يطمعوا في الاعتداء، على الأنفُس والأعراض والأموال.

بخلاف (أعداء الإسلام)؛ فإنّهم يُرهبون الأبرياء المستضعَفين، من الأمم والشعوب والقبائل والقرى؛ لاستعبادهم، واضطهادهم، واستلاب أموالهم.

---

(١) النساء: ٨٩-٩١.

(٢) النساء: ٧٥.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ. وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

ومن هنا، يتبيّن لكلّ عاقل متدبّر منصف (براءةُ الإسلام)، من كلّ تهمة، وجّهها إليه أعداؤه الطاعنون، ولا سيّما (تهمة الإرهاب الإجراميّ).

ولو أنّ الطاعنين وصفوا بعض المنسوبين إلى (الإسلام) بالإرهاب، لَما أنكرنا ذلك؛ فإنّ كثيرًا من (المنسوبين): هم في الحقيقة (إرهابيّون)، بلا ريب؛ ولكنّ إرهابهم لا يُحسَب على (الإسلام)، وإنّما يُحسَب على مَن أمرهم به، ودعاهم إليه، وسهّل لهم الأمور؛ حتّى ظلموا العباد، وأفسدوا في البلاد.

وأمريكا - وأذنابها من دول الغرب، المعادية للإسلام - هي التي جنّدت عملاءها، من الرؤساء، والوزراء، والسياسيّين، والقادة، والسادة، والجنود، والفنّانين، والكُتّاب، والصحفيّين، والإعلاميّين؛ وغيرهم، من الخادعين، والمخدوعين، والمغمورين، والمشهورين، والظاهرين، والمستترين؛ ليسوّغوا إلصاق تلك التهمة بدين (الإسلام).

ويكفي أن تُوازِن بين (السيرة الإسلاميّة) وبين (السيرة الإرهابيّة)؛ لتجد الفرق بينهما، كالفرق بين الحقّ والباطل، وكالفرق بين الخير والشرّ، وكالفرق بين العدل والظلم، وكالفرق بين الأمانة والخيانة، وكالفرق بين الإصلاح والإفساد.

فماذا ينقم الطاعنون من (الإسلام)؛ ليعادوه، ويعادوا أولياءه، ويطعنوا فيه، بكلّ وسائلهم القذرة؟!!!

---

(١) الأنفال: ٦٠-٦١.

إذا كانوا ينقمون منه الدعوة إلى الإيمان بالأصول الغيبيّة؛ فلماذا يقتصرون على الطعن في (الغيبيّات الإسلاميّة)، ولا ينقمون من سائر الناس إيمانهم بالغيبيّات والأباطيل والأساطير والخرافات؟!!!

وإذا كانوا ينقمون منه الدعوة إلى العمل بالأحكام الشرعيّة، الكفيلة بتطهير الفرد والمجتمع والأرض، من كلّ الجرائم؛ فلماذا يعادون أسباب الإصلاح، ويتّكئون على القوانين البشريّة، البديلة، الناقصة، القاصرة، التي عجزت عن القضاء على الجرائم؟!!!

وإذا كانوا ينقمون منه الأمر بالفضائل، والنهي عن الرذائل؛ فإنّهم بذلك يُريدون أن يجرّدوا الإنسان من إنسانيّته الحقَّة؛ ليحوّلوه إلى الحيوانيّة، أو الآليّة؛ فليس له - بعد تجريده من الأخلاق - أدنى نصيب من (الإنسانيّة)!!!

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(2).

قال سيّد قطب: «إنّ أهل الكتاب لم يكونوا ينقمون على المسلمين في عهد الرسول ﷺ، وهم لا ينقمون اليوم على طلائع البعث الإسلاميّ، إلّا أنّ هؤلاء المسلمين يؤمنون بالله، وما أنزله الله إليهم من قرآن، وما صدّق عليه قرآنهم، ممّا أنزله الله، من قبل، من كتب أهل الكتاب.. إنّهم يعادون المسلمين

(1) الأنعام: ١٢٥.

(2) الفرقان: ٤٤.

لأنّهم مسلمون! لأنّهم ليسوا يهودًا، ولا نصارى. ولأنّ أهل الكتاب فاسقون منحرفون عمّا أنزله الله إليهم؛ وآية فسقهم وانحرافهم أنّهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة، وهي مصدِّقة لِما بين أيديهم - لا ما ابتدعوه وحرّفوه - ولا يؤمنون بالرسول الأخير، وهو مصدِّق لِما بين يديه، معظِّم لرسل الله أجمعين. إنّهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء، التي لم تضع أوزارها قطّ، ولم يخبُ أوارها طوال ألف وأربع مئة عام، منذ أن قام للمسلمين كيان، في المدينة، وتميّزت لهم شخصيّة، وأصبح لهم وجود مستقلّ، ناشئ من دينهم المستقلّ، وتصوّرهم المستقلّ، ونظامهم المستقلّ، في ظلّ منهج الله الفريد. إنّهم يشنّون على المسلمين هذه الحرب المشبوبة؛ لأنّهم - قبل كلّ شيء - مسلمون، ولا يُمكن أن يُطفئوا هذه الحرب المشبوبة، إلّا أن يردّوا المسلمين عن دينهم، فيصبحوا غير مسلمين.. ذلك أنّ أهل الكتاب أكثرهم فاسقون؛ ومن ثَمّ لا يُحبّون المستقيمين الملتزمين، من المسلمين!»(١).

ولذلك تقود (أمريكا) اليومَ (أعداءَ الإسلام)، من الأُصلاء، والعُملاء؛ لمحاربة (الإسلام)، بكلّ الوسائل القذرة؛ لكي تُرسِّخ في (الإعلام)، وفي (الأذهان): أنّ (الشريعة الإسلاميّة) هي وحدها (شريعة الإرهاب العالَميّ)، وأنّ (أمريكا) هي وحدها (راعية السلام العالَميّ)!!!

ويؤيّد كثيرٌ من المنسوبين إلى (الإسلام) اليومَ (الإعلامَ الأمريكيّ)، فيواطئونه، على هذا (الزعم الباطل)، ويدافعون عنه؛ غافلين، أو متغافلين، عن تلك (السيرة الأمريكيّة الإرهابيّة الخبيثة).

ويكفي لمعرفة تلك (السيرة الإرهابيّة الخبيثة): أن يراجع هؤلاء المؤيّدون

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٢٤.

ما كُتِب عن (التدخُّلات الأمريكيّة)، ولا سيّما (التدخُّلات العسكريّة)، في هذه الدول: المكسيك، جواتيمالا، هندوراس، السلفادور، نيكاراجوا، كوستاريكا، بنما، كوبا، هايتي، الدومينيكان، بورتوريكو، جرينادا، كولومبيا، الإكوادور، بيرو، بوليفيا، تشيلي، أورجواي، اليابان، كوريا، الصين، الفلبّين، فيتنام، كمبوديا، لاوس، يوغوسلافيا، اليونان، تركيا، إيران، أفغانستان، لبنان، ليبيا، السودان، الصومال، العراق.

إنّ العاقل المنصِف يُدرِك بوضوح أنّ (أمريكا) هي الدولة الوحيدة، التي فاقت كلّ دول العالَم، في الفوز بهذه (الألقاب الخبيثة المذمومة):

١- (راعية الإرهاب العالَميّ).

٢- (راعية الإجرام العالَميّ).

٣- (راعية الاضطهاد العالَميّ).

٤- (راعية الإفساد العالَميّ).

٥- (راعية التدمير العالَميّ).

٦- (راعية الاحتكار العالَميّ).

٧- (راعية الربا العالَميّ).

٨- (راعية الاستغلال العالَميّ).

٩- (راعية التجويع العالَميّ).

١٠- (راعية النهب العالَميّ).

١١- (راعية التحكُّم العالَميّ).

١٢- (راعية التدخُّل العالَميّ).

١٣- (راعية التجسُّس العالَميّ).

١٤- (راعية الانحياز العالَميّ).

١٥- (راعية التحريض العالَميّ).

١٦- (راعية التزييف العالَميّ).

١٧- (راعية النفاق العالَميّ).

١٨- (راعية الغدر العالَميّ).

١٩- (راعية الإلحاد العالَميّ).

إنّ تدمير (أمريكا) ليس بالوهم المستحيل، بل هو اليقين القريب؛ لأنّها أمّة قائمة على كلّ أسس التدمير، من كفر وظلم وفسق وفجور واستكبار.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[(١)].

قال سيّد قطب: «والحال في أمريكا لا تقلّ عن هذه الحال. ونُذُر السوء تتوالى. والأمّة الأمريكيّة في عنفوانها، لا تتلفّت للنُّذُر. ولكنّ عوامل التدمير تعمل في كيانها، على الرغم، من هذا الرواء الظاهريّ، وتعمل بسرعة، ممّا يشي بسرعة الدمار الداخليّ، على الرغم من كلّ الظواهر الخارجيّة...»[(٢)].

وأختم الخاتمة بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[(٣)].

وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالَمين.

---

(١) الإسراء: ١٦.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/٦٣٦، وانظر: شبهات حول الإسلام: ٣٠.

(٣) البقرة: ١٢٠.

المصادروالمراجع

* الإباضيّة بين الفرق الإسلاميّة، عليّ يحيى معمر، ت١٩٨٠م، مكتبة الضامريّ، سلطنة عمان، ١٩٨٧م.

* الإتقان في علوم القرآن، السيوطيّ، ت٩١١هـ، مجمع الملك فهد، المدينة المنوّرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

* الاجتهاد في الشريعة الإسلاميّة، القرضاويّ، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

* الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم الأندلسيّ، ت٤٥٦هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

* إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزاليّ، ت٥٠٥هـ، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

* إرشاد الفحول، الشوكانيّ، ت١٢٥٠هـ، دار الفضيلة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

* أسباب إباحة الأعمال الجرميّة، مصطفى الزلميّ، ت٢٠١٦م، دار نشر إحسان، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

* أسباب نزول القرآن، الواحديّ، ت٤٦٨هـ، دار الميمان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

* الإشراف على مذاهب العلماء، ابن المنذر، ت٣١٩هـ، مكتبة مكّة الثقافيّة، رأس الخيمة، الإمارات، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

* أصول الفقه في نسيجه الجديد، مصطفى الزلميّ، ت٢٠١٦م، دار نشر إحسان، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

* أضواء البيان، الشنقيطيّ، ت١٩٧٣م، دار عالم الفوائد، مكّة المكرّمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
* الأعلام، الزركليّ، ت١٩٧٦م، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.
* إعلام الموقّعين، ابن القيّم، ت٧٥١هـ، دار ابن الجوزيّ، الدمّام، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
* إغاثة اللهفان، ابن القيّم، ت٧٥١هـ، دار عالم الفوائد، مكّة المكرّمة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.
* إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، ت٥٤٤هـ، دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
* الأمراض الجنسيّة، أسبابها وعلاجها، محمّد عليّ البار، دار المنارة، جدّة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
* الانتصار للقرآن، أبو بكر الباقلانيّ، ت٤٠٣هـ، دار الفتح - عَمّان، دار ابن حزم - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
* البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشيّ، ت٧٩٤هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
* بدائع الفوائد، ابن القيّم، ت٧٥١هـ، دار عالم الفوائد، مكّة المكرّمة.
* البرهان في علوم القرآن، الزركشيّ، ت٧٩٤هـ، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
* البواكير، عليّ الطنطاويّ، ت١٩٩٩م، دار المنارة، جدّة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

* تاريخ الرسل والملوك، الطبريّ، ت٣١٠هـ، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
* التبصير في الدين، أبو المظفّر الأسفراييني، ت٤٧١هـ، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
* التبيان لرفع غموض النسخ في القرآن، مصطفى الزلميّ، ت٢٠١٦م، دار نشر إحسان، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
* التشريع الجنائيّ الإسلاميّ مقارناً بالقانون الوضعيّ، عبد القادر عودة، ت١٩٥٤م، دار الكاتب العربيّ، بيروت.
* تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسيّ، ت٧٤٥هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
* تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ت١٩٧٣م، الدار التونسيّة، تونس، ١٩٨٤م.
* تفسير القرآن الحكيم، محمّد رشيد رضا، ت١٩٣٥م، دار المنار، القاهرة، الطبعة الثانية.
* التفسير الكبير، الفخر الرازيّ، ت٦٠٦هـ، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
* تلبيس إبليس، ابن الجوزيّ، ت٥٩٧هـ، دار القلم، بيروت، ١٤٠٣هـ.
* تلخيص كتاب الاستغاثة (الردّ على البكريّ)، ابن تيميّة، ت٧٢٨هـ، مكتبة الغرباء الأثريّة، المدينة المنوّرة.
* جامع البيان، الطبريّ، ت٣١٠هـ، دار هجر، الجيزة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

* الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبيّ، ت٦٧١هـ، مؤسّسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

* الحاوي الكبير، الماورديّ، ت٤٥٠هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

* دليل المحاكمة العادلة، منظّمة العفو الدوليّة، لندن، الطبعة الثانية، الترجمة العربيّة، ٢٠١٤م.

* ركائز الإيمان، محمّد قطب، ت٢٠١٤م، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

* الروح، ابن القيّم، ت٧٥١هـ، دار عالم الفوائد، مكّة المكرّمة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.

* زاد المسير، ابن الجوزيّ، ت٥٩٧هـ، المكتب الإسلاميّ، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

* سير أعلام النبلاء، الذهبيّ، ت٧٤٨هـ، مؤسّسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى.

* شبهات حول الإسلام، محمّد قطب، ت٢٠١٤م، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الحادية والعشرون، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

* شبهات وهميّة حول الكتاب المقدَّس، القسّ منيس عبد النور، كنيسة قصر الدوبارة الإنجيليّة، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨م.

* شرح صحيح البخاريّ، ابن بطّال، ت٤٤٩هـ، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

* شرح المنظومة البيقونيّة، ابن عثيمين، ت٢٠٠١م، دار الثريّا، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
* شرح النيل وشفاء العليل، محمّد بن يوسف الوهبيّ، ت١٩١٤م، دار الفتح، بيروت - دار التراث العربيّ، ليبيا - مكتبة الإرشاد، جدّة، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م - ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
* طبقات الفقهاء الشافعيّة، ابن الصلاح، ت٦٤٣هـ، دار البشائر الإسلاميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
* العصرانيّون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، محمّد حامد الناصر، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
* عقيدة المسلم، محمّد الغزاليّ، ت١٩٩٦م، نهضة مصر، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥م.
* عقيدة المسيحيّين في المسيح، الأنبا يؤانس، مطرانيّة الأقباط الأرثوذكس، بالغربيّة، ١٩٨٥م.
* عمدة القاري، بدر الدين العينيّ، ت٨٥٥هـ، بيروت، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
* فتح الباري، ابن حجر العسقلانيّ، ت٨٥٢هـ، دار المعرفة، بيروت.
* الفَرْق بين الفِرَق، أبو منصور البغداديّ، ت٤٢٩هـ، المكتبة العصريّة، صيدا - بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
* الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسيّ، ت٤٥٦هـ، مكتبة الخانجيّ، القاهرة.

* الفوائد، ابن القيّم، ت٧٥١هـ، دار عالم الفوائد، مكّة المكرّمة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.
* في ظلال القرآن، سيّد قطب، ت١٩٦٦م، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثانية والثلاثون، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
* القانون الجنائيّ الدستوريّ، أحمد فتحيّ سرور، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢م.
* قذائف الحقّ، محمّد الغزاليّ، ت١٩٩٦م، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
* القرآن ونقض مطاعن الرهبان، صلاح الخالديّ، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
* القرآنيّون العرب وموقفهم من التفسير دراسة نقديّة، جمال بن محمّد بن أحمد هاجر، دار التفسير، جدّة، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
* قصّة الإيمان، نديم الجسر، ت١٩٨٠م، المكتب الإسلاميّ، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
* قواعد التحديث، جمال الدين القاسميّ، ت١٩١٤م، مؤسّسة الرسالة ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
* الكتاب المقدَّس، ترجمة فان دايك.
* الكتاب المقدَّس، الترجمة الكاثوليكيّة.
* الكتاب المقدَّس، الترجمة المشتركة.
* الكشّاف، الزمخشريّ، ت٥٣٨هـ، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

* كيف نتعامل مع القرآن، محمّد الغزاليّ، ت١٩٩٦م، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة السابعة، ٢٠٠٥م.
* كيف نفهم الإسلام، محمّد الغزاليّ، ت١٩٩٦م، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.
* مباحث في علوم القرآن، صبحيّ الصالح، ت١٩٨٦م، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٧٧م.
* مبادئ المحاكمات الجزائيّة، عليّ محمّد جعفر، المؤسّسة الجامعيّة، بيروت، ١٩٩٤م.
* المبسوط، شمس الأئمّة السرخسيّ، ت٤٨٣هـ، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
* مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمّد بن صالح العثيمين، ت٢٠٠١م، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأخيرة، ١٤١٣هـ.
* مجموع فتاوى ومقالات متنوّعة، ابن باز، ت١٩٩٩م، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى.
* مجموعة الأبحاث القرآنيّة، مصطفى الزلميّ، ت٢٠١٦م، دار نشر إحسان، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
* مجموعة الفتاوى، ابن تيميّة، ت٧٢٨هـ، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
* المحرّر الوجيز، ابن عطيّة الأندلسيّ، ت٥٤٢هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

* المحلّى بالآثار، ابن حزم الأندلسيّ، ت٤٥٦هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
* المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميّة، في نمط جديد، مصطفى الزلميّ، ت٢٠١٦م، دار نشر إحسان، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
* مراتب الإجماع، ابن حزم الأندلسيّ، ت٤٥٦هـ، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
* المرشد الوجيز، أبو شامة المقدسيّ، ت٦٦٥هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
* المصفّى بأكفّ أهل الرسوخ، ابن الجوزيّ، ت٥٩٧هـ، مؤسّسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
* معرفة أنواع علوم الحديث، ابن الصلاح، ت٦٤٣هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
* المغني، ابن قدامة المقدسيّ، ت٦٢٠هـ، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
* مقالات الإسلاميّين، الأشعريّ، ت٣٢٤هـ، المكتبة العصريّة، صيدا – بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
* الملل والنحل، الشهرستانيّ، ت٥٤٨هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
* مناهج الأدلّة، ابن رشد، ت٥٩٥هـ، مكتبة الأنجلو مصريّة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م.

* المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزاليّ، ت٥٠٥هـ، دار الأندلس، الطبعة السابعة، بيروت، ١٩٦٧م.
* منهاج السنّة النبويّة، ابن تيميّة، ت٧٢٨هـ، جامعة محمّد بن سعود، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
* الموافقات، الشاطبيّ، ت٧٩٠هـ، دار ابن عفّان، الخُبَر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
* موسوعة بيان الإسلام، لجنة، دار نهضة مصر.
* الموسوعة الفقهيّة، وزارة الأوقاف، الكويت.
* الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مانع الجهنيّ، دار الندوة العالميّة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ.
* الموضوعات، ابن الجوزيّ، ت٥٩٧هـ، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
* ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبيّ، ت٧٤٨هـ، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.
* نزهة النظر، ابن حجر العسقلانيّ، ت٨٥٢هـ، مطبعة سفير، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
* النشر في القراءات العشر، ابن الجزريّ، ت٨٣٣هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت.
* النكت والعيون، الماورديّ، ت٤٥٠هـ، دار الكتب العلميّة، مؤسّسة الكتب الثقافيّة، بيروت.

* الهداية إلى بلوغ النهاية، مكّيّ بن أبي طالب، ت٤٣٧هـ، مجموعة بحوث الكتاب والسنّة، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

* هداية الحيارى، ابن القيّم، ت٧٥١هـ، دار عالم الفوائد، مكّة المكرّمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

* هل نحن مسلمون، محمّد قطب، ت٢٠١٤م، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

* هميان الزاد، محمّد بن يوسف الوهبيّ، ت١٩١٤م، وزارة التراث القوميّ، سلطنة عمان، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

المحتويات

المقدّمة	٥
المبدأ الأوّل: حقّ الدفاع	١٩
المبدأ الثاني: أهليّة القاضي	٢٢
المبدأ الثالث: افتراض البراءة	٢٨
المبدأ الرابع: قطعيّة الأدلّة	٣٠
المبدأ الخامس: التجريم التوافقيّ	٣٣
المبدأ السادس: شخصيّة الجريمة	٣٦
الصورة التنزيليّة	٣٧
الصورة التأليفيّة	٤٦
الموازنة بين الصورة التنزيليّة والصور التأليفيّة	٥٢
الفروق بين الحقائق الإسلاميّة والمباحث التأليفيّة	٥٩
الدليل العمليّ على تلك الفروق	١١٨
براءة الصورة التنزيليّة من أخطاء المؤلّفين	١٢٧
الصورة التطبيقيّة	١٢٨
المبدأ السابع: تراتب التُّهَم	١٤٠
المبدأ الثامن: تساقط التُّهَم	١٤٧
المبدأ التاسع: التسويغ المقاميّ	١٥٥
الجهاد	١٥٥

الجزية	١٥٩
الرقيق	١٦٢
ميراث الأنثى	١٦٨
تعدُّد الزوجات	١٧٠
العقوبات	١٧٦
عقوبة القصاص في جريمة القتل	١٧٧
عقوبة الجلد في جريمة الزنى	١٧٨
عقوبة الرجم في جريمة الزنى	١٨٠
عقوبة الجلد في جريمة القذف	١٩٢
عقوبة قطع اليد في جريمة السرقة	١٩٣
المبدأ العاشر: الموازنة العادلة	١٩٨
سيرة الإسلام	٢٠١
سيرة اللادينيّة	٢٠٨
سيرة اليهوديّة	٢٣٠
سيرة المسيحيّة	٢٩٦
دلائل النبوّة	٣١٠
الخاتمة	٣١٥
المصادر والمراجع	٣٢٩